الميلودي شغموم

الأعمال الكاملة

الجزء الثاني

2 الروايات

منشورات



وزارة الثقافة

الميلودي شغموم : الأعمال الكاملة
الجزء الثاني : الروايات
الإيداع القانوني : 2004/1524
ردمـــك : 6-73 822-9981
منشورات وزارة الثقافة - 2005
سحـــب : مطبعة دار المناهل

الميلودي شغموم

الأعمال الكاملة

الروايات

الجزء الثاني

شجـــر الخلاطـــة

هــل تــعــرف اسمك !؟

-اسمك !؟... قل لي: هل لك اسم؟ ...لاتستغرب: أناس كثيرون لهم أسماء في الحالة المدنية ولا اسم لهم في الواقع... أو لهم ما أسماء أخرى يعرفون بها... أنا أعرف واحدا لم يكن على علم بالاسم الذي يحمله في بطاقته الوطنية !... وأنت، هل لك اسم... هل تعرف اسمك !؟.

- الجيلالي !

- الجيلالي، من ! ؟ ... أي جيلالي منهم ! ؟

- الجيلالي، قلت لك !؟

- عندك المنفاخ !؟

- عندي الكير !؟

- النافخ... عندك النافخ أو...ما تابع والو !؟

- تابع... استح !

- ها اسم آخر بلا أصل...بلا معنى! ؟ اسمح لي...ومن أين أتيت !؟

- أيعلم الواحد منا حقا من أين أتى...هل سبق لك أن سألت نفسك !؟ وأمـــ...استح !

- اسمح لي...أقصد: من أية مدينة أو قرية أتيت؟

- من ابن احمد !

- وكنيتك...اسمك العائلي؟

- الخلطي !

- آه...آه... من ابن احمد... و كنيتك الخلطي ! ؟ ... يا لطيف !

- لا شك أنك سمعت عنهم وشاية أخرى من تلك الوشايات الكثيرة التي شوه بواسطتها تاريخ الشاوية وتاريخ تامسنا كاملة... هل انتحلوا الحديث الشريف، هذه المرة...أم دونوا إنجيلهم أو توراتهم...أم يكونون أصدروا ظهيرا برغواطيا !؟

– لا، أبدا... إنما المدينة يكثر فيها الحمقى والمجاذيب... واليهود وكان فيها مستشفيان لأمراض الرئة... هل ما زال اليهود يزورون المنطقة بكثرة !؟

– لست أدري... لهم مقابر ومزارات...وولي من أشهر أولياء المغرب !

–الحاجة الحمداوية... من عندكم ! ؟

–بالاسم و...العيطة...ربما !

– والناس... الآباء... ما زالوا يسمون أولادهم بتلك الأسماء البلدية العتيقة: قدور... الجيلالى... الميلودي... المكي... المعطي... لكبير... صالح... ولد... !؟

–عندنا الآن كل أنواع الأسماء كما هي الحال في كل أنحاء الوطن!

– لكن أغلب هذه الأسماء تحتوي على تحريف ما: الجيلالي و لكبير والمعطي، مثلا !

–أتريد أن تستخرج منها هي أيضا أكذوبة أخرى !؟ ...هذه الأسماء موجودة في جل أنحاء المغرب، أحيانا بتحريفات أخرى...إذا سمحت لي بأن أستعير منك لفظ "التحريف" !

– ما علينا... ابن احمد جزء من عمالة سطات ! ؟

– كان من الممكن أن تكون سطات جزءا من عمالة ابن احمد أو برشيد ! ... ما العيب في ذلك !؟

– لا...لا...لاعيب !...أستغفر الله... إنما...

–إنما...ماذا !؟... اللسان ما فيه عظم غير...تكلم !

– أعرف أسماء كثيرة من هذه المنطقة... أسماء "حقيقية " !

– مثل من !؟

–محمد ميلود الدمشقي و... سليمان البغدادي وإبراهيم الكر داني !

–فقط !؟هذا كل ما تعرف من الأسماء التي تسميها"حقيقية" !؟

– آه !؟... ماذا قلت !؟ ... أسماء أخرى !؟ طبعا، أعرف... قلت إني أعرف أسماء كثيرة...

–مثل !؟

– اعرف... قشبل و زروال و... فاطمة الزحافة... هذي كانت صاحبة الوالدة... !

– والشيخات!؟ هل تعرف شيخات المنطقة !؟

–لا... يبدو لي أن المنطقة معروفة "بالثنائيات " أكثر منها بالشيخات رغم... بالمناسبة: قرزز ومحراش، أين هما الآن !؟

– والله لا علم لي... ربما في الدار البيضاء أو في سيدي محمد البهلول !

– عجيب !... سيدي...محمد...البهلول !...إسم غريب لولي صالح !

– وما الغريب فيه: ظاهرة المجاذيب أو البهاليل الأولياء معروفة في كل الدنيا !؟

– ربما... لكن الأسماء في الشاوية تبدو مليئة بالتهكم، بالضحك، بالسخرية، بالتناقضات والمفارقات !

–وما المضحك فيها من فضلك !؟

–هذا الخليط من الأمزجة والمشاعر والأزمنة !

–وهذه أيضا ظاهرة في كل المغرب، بل في كل الدنيا !

–أنا أهتم بها فقط في الشاوية !

–ولا ضير من أن تكون كذلك خارج الشاوية !

–مرحى !...أضف إلى ذلك أن الشاوية أوسع من سطات ومن مدينتكم

ابن احمد أو...من برشيد !

-وأكثر من ذلك أن في الشاوية مدينة واحدة... هي المدينة... أي الدار البيضاء !

- ليكن، أنا مفتون بالأسماء... وحدها... لنرجع إلى الأسماء !

لنرجع إذن إلى الأسماء !

- تأمل معي اسمك الكامل: الجيلالي... الخلطي أو القشابل...

والزراول... بل تأمل معي أسماء "حقيقية"، في البداية !

- مثلا !؟

-محمد... ميلود... الدمشقي... و...سليمان... البغدادي و... إبراهيم... الكراني!

- إنها أسماء كبقية الأسماء المغربية أم تراك تريد التقرب من أحدهم !؟

-لاحظ مكونات هذه الأسماء وعلاقتها بالأزمنة والأمكنة الثقافية والسياسية والدينية والتاريخية...

- هناك بالفعل أكثر من علاقة !

أريدك أن تلاحظ تضارب العلاقات داخل الاسم الواحد ثم... فيما بين الأسماء كلها !

- إن الباحث يمكن أن يكتب تاريخا بأكمله، تاريخا شاملا فقط بتحليل مكونات هذه الأسماء وبتحليل الإحالات الكثيرة والمعاني المرافقة...في هذه الأسماء يكمن مجمل تاريخ العرب !

-من موقعها الراهن !؟

-لا، القضية لا علاقة لها بالموقع الذي يحتله كل واحد منهم في الوضع السياسي أو الإقتصادي الحالي...لا...لا...لا...

-لا أظن أني أفهمك جيدا !

-خذ مثلا واحدا: الأول... محمد... ميلود... دمشقي... والثاني... سليمان... بغدادي...، الثالث...إبراهيم... سوسي... !

آه فهمت !

-وهكذا... بهذا النوع من التحليل والمقارنة يمكنك أن تقف على الموزايك "الثقافي" و"العرقي" في الشاوية !...أضف إلى ذلك أن الاسم الشخصي لكل واحد منهم من حيث الأصل إسم نبي أو مؤسس !

- كأني بك تحاول أن تفند أطروحة "العروبية "، بالمعنى القدحي، عن الشاوية !

-لا...لا... الأحكام المسبقة بين الجهات والدعايات والوشايات شيء آخر !... الجهل والحروب الداخلية والسياسية والاقتصاد تخلق مثل هذه الأمور في العالم كله !

- أنت قلت إنك لاتهتم إلا بالشاوية !

-تماما... ولنتأمل الآن نوعا آخر من الأسماء !

-كم من الأنواع عندك !؟

-أنواع كثيرة.. تأمل معي أسماء مثل: قشبل..زروال... قرزز... محراش... هل ترى ما أرى في هذه الأسماء !

-لا اعتقد... قد أكون تعودت عليها كل التعود !

- على كل حال... جميع الأسماء الأولى، كما يمكنك أن تلاحظ، لها علاقة ما بحوادث أو جهات أو أعلام تاريخية ذات طابع مأساوي واضح... كلها تتجاذبها فترات أو لمحات من القوة والضعف... من القداسة والدونية... وما زالت إلى الآن محملة بهذه الصفات بهذا الشكل أو ذاك... بهذا القدر أو ذاك... وبدون كبير التباس... بينما أسماء النوع الثاني جميعها ذات وقع

اجتماعي نفسي... إذن طابع المأساة في هذا النوع الأخير من الأسماء ينبع من الذات والمجتمع... من الحاضر أكثر مما يأتي من التاريخ في الوقت الذي يصدر فيه الطابع المأساوي في النوع الأول من الماضي ولو أن الحاضر بدوره يعمقه... وإذا شئت مزيدا من الدقة يمكن أن أقول: إن النوع الثاني من الأسماء يعبر عن مأساة وجودية...أو تطولوجية، بينما النوع الأول يعكس مأساة زمنية... في الثاني تتصادم الذات مع الحاضر وفي الأول يتصارع الحاضر مع الزمن، مع التاريخ، أي مع الماضي... وبينما تتطلب المأساة الأولى المجد والقوة لتفك التناحر فإن المأساة الثانية تتطلب التهكم للتنفيس عن ذاتها... في الأولى يمكنك أن تلاحظ وجود سخرية سوداء، كتلك التي نسميها سخرية القدر... وفي الثانية تجد السخرية التي تحط من قيمة الشيء، لا لتضحك منه، لكن ليظل قائما أمام العين الوضع المتردي للشيء... في الحالة الأولى يسود جد مبالغ فيه وفي الحالة الثانية عبث مبالغ فيه... وفي الحالتين معا لا يمكن للعين الفاحصة أن تخطئ طابع المأساة !

-يبدو لي أنك تحاول إن تقوم بتحليل طبقي بواسطة الأسماء !

-مخطئ... ولو كان نوع من هذه الأسماء يغلب على فئة أو طبقة معينة بينما يغلب نوع آخر على فئة أو طبقة أخرى... إن الأسماء تتبادل المواقع... ولا تخلو فئة من وجود نوعي الأسماء المذكورة معا... بل إن كل فئة تطلق أسماءها الخاصة على الفئة الأخرى بحيث يصير لأفراد كل فئة نوعان، أي النوعان معا من الأسماء !... والنكت والنوادر شاهد على ذلك !

-ومع ذلك فإن في الشاوية، كما في غيرها، أسماء من طبيعة مخالفة !

لاشك في ذلك... وأنا سبق أن قلت لك إن هناك أنواعا مختلفة من الأسماء يحتاج كل منها إلى تحليل خاص... إن هناك، الأسماء المختلفة

الأنواع التي تسربت إلينا من الأفلام، خاصة المصرية، وهناك أسماء من عصر الجاهلية، بل هناك أسماء غريبة تماما...

-و أنت لم تذكر لي بعد اسمك... ما اسمك !؟

-شيش كباب !

-شيش كباب !؟

-مصطفى شيش كباب !

-أتصور أنه من فضائح بدايات الحالة المدنية في المغرب !

-وبالضبط بدايات الاستقلال !

-وهناك كوارث حصلت في الأسماء أثناء عهد الحماية!

-اسمي نموذج لنوع آخر من الأسماء، تلك التي يمكن أن نطلق عليها عبارة "الأسماء اللعينة" !

-كيف ذلك !؟

-ذهب عمي ووالدي يطلب كل واحد منهما دفترا لحالة المدنية... والدي أكبر من عمي... لذلك كان أول من توجه للموظف بالكلام بعد أن قدم جميع الوثائق وشرح المطلب واستفزه الموظف، قال والدي:"نحن معروفون عند الجميع ومنذ قرون بأولادي الدلائي... الاسم العائلي الذي نريد: الدلائي!"... ضحك الموظف وهو يقول: " شيش كباب !" ...ثم كتب في السجل أمام الاسم العائلي: شيش كباب!... والتفت نحو عمي متصنعا الجد والسلطة: "وأنت أبو قرن !؟" ...احتج عمي بصوت خفيض: "بوقران !؟" ... فكتب الموظف في هدوء وسادية أمام الاسم العائلي: بوقرن !... وهكذا تشتتت العائلة في الحالة المدنية والمجتمع: واحدة باسم "شيش كباب" والأخرى باسم "بوقرن"... واحدة تنتسب إلى الخلاعة وخفة العقل والأخرى إلى الحيوان والبلادة... ولقد حلمت أكثر من مرة بهذا الموظف أحلاما

كابوسية... إلى الآن ما زلت أتخيله في شكل مارد مكلف بمهمة المسخ في الدنيا... يمسخ الأفراد والعائلات والقبائل والمجتمعات حسب هواه ... والأمر من هذا كله أن أفرادا قد ارتقوا إلى مناصب هامة أو أصبحوا مشهورين... هل يرضيك أن تخاطب وزيرا بـــ:"معالي الوزير بوقرن"! ؟... أو عالمابـــ: "فضيلة الشيخ شيش كباب" !؟... لقد تخرجت إحدى بنات عمي طبيبة من روسيا وبباب عيادتها الآن لوحة تحمل عبارة:"الدكتورة حادة بوقرن اختصاصية في الطب العام"... الاسم وحده يطرد الزبناء ... لو أنها -على الأقل- مختصة في أمراض النساء والولادة !

-قد أقترح عليك أن تطلق على هذا النوع من الأسماء "أسماء الإعاقة" أو...

-أو "أسماء المسخ"... منذ فترة ظهر في حياتنا حيوان أسطوري يمارس المسخ... وماذاك الموظف العظيم الذي أعطاني إسما ممسوخا...

-موظف ماسخ أو... ممسوخ !؟

- ما هذا الماسخ الممسوخ إلا واحد من ذرية هذا الحيوان العجيب !

-إنه حيوان يحب السخرية...على ما يظهر !

- إنها سخرية كالأنين الصاخب من ألم سري كالغص بكاء أو قهقهة !...إنه أفضع أنواع البؤس الروحي... حيوان يجلد وهو يبكي أو...يضحك... يسلخ أسماءنا وهو يتلوى ألما أو قهقهة... وباللغتين: العربية واللاتينية !

- هو أيضا واحد من مزدوجي اللغة المزيفين !؟

-مزدوج اللغة ظاهريا... كالكثيرين... أما في الواقع فلا يتقن أية لغة... بالرغم من أنه لا يحب أن يتكلم بغير اللغة الأجنبية !

إذن اللغة الأجنبية ما رست بدورها بعض التشويه !؟

-الكثير من التشويه... وفي حالات لاتحصى...

و هذا الموظف الأداة لم يكتف باختيار اسم ممسوخ بالعربية لعائلتي... لقد أضاف مسخا آخر لنفس الاسم العربي بواسطة الحروف اللاتينية إذا كتب أمام الاسم العربي ما يمكن نطقة بصورتين: احشيش كباب" أو" اهشيش كباب" !

-في هذا النوع من الأسماء فئة يمكن تسميها "الأسماء المستلبة"... لغويا، طبعا !

- لغويا و حضوريا... تاريخيا و نفسيا... فهذا الحيوان الخرافي قد مسخنا بأشكال عديدة و على مستويات متباينة: مسخ والدي أمام نفسه وأفراد أسرته و تاريخ العائلة كله... مسخ كل واحد منا أمام نفسه و أقاربه... مسخنا أمام أهل البلد... في الوطن كله... ثم مسخنا مسخا عالميا... أمام العالم بأكمله !

- وهذا هو ما يسمى بالاستلاب... أحد أنواع الاستلاب !

-أحيانا كثيرة أتعجب من أفعال صغيرة كهذه، كاختيار اسم...أفعال تدوم رمشة عين وتكون لها عشرات النتائج على وجودنا البسيط !

- أنا أتخيل هذا الموظف كائنا بلا مقومات بشرية... مجرد آلة... ضحية مسخ بدوره !

- لذلك قلت لك إن هذا المسخ يكاد يكون سحريا... خفيا... بمعنى أنك لن تستطيع أن تقف على كل تجلياته وعلى سلسلة مسبباته... الكثيرون لا يرونه بوضوح... لايتبينونه بشكل كاف... يحملونه كقرف باطني... كجرح دفين... لا يعبرون عنه سوى بالسخرية، تلك التي تشبه البكاء! والفروق في الأشكال والمستويات ليست مهمة جدا، انطلاقا من هذه الصورة... إن هذه السخرية قد تعاش كاستبطان فردي أو جماعي... أي

كمأساة داخلية... أو تعاش كظاهرة اجتماعية-ثقافية... بينما هي، في العمق، وجهان لشيء واحد... لتراجيديا تتصارع فيها الذات، الفردية أو الجماعية، كائنات عديدة بلا وجوه واضحة... سوى وجه الضحك أو البكاء !

- مرحى !... ها أنت بدأتَ تدخل مي عالم"اعبيدات الرمى" !

- هذا عنف...هناك عنف رهيب في هذه الأسماء !

لهذا... لهذا الاسم... خاصة الكنية أو الاسم العائلي... تاريخ مأساة... فاجعة، في جميع الحالات، فردية و جماعية... وأنت عندما تجمع سجل الأسماء المتباينة في الشاوية، وربما في أية منطقة أخرى أو البلد كله، تظهر لك المأساة ضاحكة أو باكية... فلا تغتر ببكاء أو ضحك... و قد تجد، إذا شئت، التاريخ الخاص بكل منطقة، في سجل أسمائها !

- لكن الأطفال يطلقون بدورهم أسماء- ضاحكة أو باكية – إنما عنيفة على بعضهم البعض !

- لا... لا... هذا شيء آخر... يجب أن يكبر الطفل ليتأمل اسمه الشخصي واسمه العائلي...يجب أن يجرب الاسم ليجد أنه قدر، كما في المأساة اليونانية... أن هناك مصيرا عبثيا في اسمه، أن ظلما ما يسكن هذا الاسم ويتسرب منه إلى كل حياته، من خلال الاسم وحده... أنا خبرت كل هذه الكيمياء السحرية العابثة... و سيكتشف الطفل الذي يكبر بالرغم من اسمه ليظل لعينا، سيكتشف، بسبب كل ذلك أن الاسم يفرض عليه دائما، ولو من حين لآخر، وضعا اعتباريا من جميع النواحي...

- يظهر أنك تبالغ أحيانا فلا أستطيع أن أجاريك !

- قد أبالغ من أجل التوضيح والتبسيط، وهما شبيهان، كما قد أعمم لكي لا أتوقف كثيرا عند التفاصيل أو الجزئيات... ولكن خذ اسمي، على سبيل المثال:مصطفى شيش كباب... المصطفى من أسماء النبي... وشيش

كياب !؟ هل يمكنك أن تدلني على طريقة، غير العبث، ألصق بواسطتها، هذا بذاك !؟ بل... ها يمكنك أن تجد وسيلة أفضل من هذه لضرب هذا بذاك... للجمع بين مرجعيتين متضاربتين أصلا !؟... في أية ملهاة أو مأساة... بل في أي حفل تنكري يمكنك أن تربط بين الاسم و الكنية !؟... هل يتبين لك الآن مدى المسخ الذي تسبب فيه ذلك الكائن الممسوخ !؟... تعودت وأنا طفل على الفاجعة التي يختزنها اسمي لأن الأطفال جميعا كانوا يحملون أسماء مضحكة أو مبكية لأن الأطفال يحبون التنابز بالألقاب و يبرعون في صنعها والتركيب بينها... لأن الأطفال مبرمجون على اللعب ليكبروا ويقاوموا... بينما بمجرد ما دخلت طور المراهقة اكتشفت المأساة التي في اسمي الكامل وأخذت أعاني، كالآخرين، من عقدة الاسم !

– أنت مثقف، مثقف عظيم بالنسبة لرجل يسوق عربة نقل !

– وأنت كذلك بالنسبة لرجل آت من ابن احمد !

– عدنا إلى الأحكام الجاهزة !

– تماما... ماذا يعني اليوم "الفارسي" أو "المراكشي" أو"البيضاوي" أو"السطاتي"أو لمزابي" أو" الريفي" أو... !؟ وماذا يعني "الكتاني" أو "الخراز" أو "الوزاني" أو... !؟... لا شيء تقريبا... على وجه الدقة !

–ربما لذلك لم يعد الناس يتسمون بمثل هذه الأسماء... لذلك و لأسباب أخرى كثيرة قد يكون أهمها انفتاح الجهات على بعضها البعض واندماجها في نمط متشابه من الحياة والرؤية وانزلاق الوضعين القبلي والحر في إلى أدنى بحيث لا تظهر لهما قيمة فعلية إلا في الانتخابات !...

لا شك أن هناك بالفعل أسبابا كثيرة...

والمهم أن هناك نوعا آخر من الأسماء قد نسميه، باعتبار الصفة الغالبة أو الظاهرة، " الأسماء اليتيمة "

-أخشى أن تجد فئة من الأسماء تسميها "الأسماء اللقيطة " !

-و هي موجودة بالفعل... نعم هناك نوع من " الأسماء اللقيطة "

-لم لا تفتح ملجأ خيريا لهؤلاء اليتامى أواللقطاء ؟...افتح خيرية وأصبح مديرا لها و قم بما ينبغي من دعاية لتصير مشهورا بدل هذا الوضع البئيس في هذه الهوندا !؟

-يظهر أنك تعبت... سآتيك بقهوة... نتوقف قليلا أمام هذه المقهى !

-وسيجارة من فضلك !

-تعال... أنت...نعم...أنت...هات قهوتين وسيجارة !

أيها المعــوق... !

-أنت لا تدخن !؟

-أتجنب كل ما يمكن أن أتعود عليه!

-إلا الكلام !

- لو تعلم فوائد الكلام! ... إن المرء لا يموت بسرعة إلا بحرمانه من الهواء أو الماء أو الكلام! ... فلنعد إلى الأسماء!

- لم تتعب منها بعد!

-لا... لم أكمل القول فيها... لم يعد الاسم اليتيم ولا الاسم اللقيط الذي يحيل على الجهة أو الحرفة يدل على شيء بالضبط.. أسماؤنا تدل على وضعين اعتباريين: وضع فردي ووضع عام... بحسب تأملنا:من زاوية تاريخية-حضارية أو من زاوية نفسية - اجتماعية... ومع ذلك، وعلى جميع الحالات، وحتى بالنسبة لأسماء "القوة" أو "المجد"، فإن الاسم يختزن دائما مأساة و يعبر عنها...

-أنا عندما أفكر في اسمي، من حيث تركيبه ودلالاته ومن حيث علاقاته بوضعي الاجتماعي والثقافي أدرك أن الاسم قد يكون سيناريو... أي تصميم حياة بأكملها !

-الاسم لعنة... جريمة... سلب تام أو... إيجاب كامل... الاسم وعد... ميعاد نصادفه أو نخطئه... كالحظ... كالقوة والضعف... كالحياة والموت... كالنجاح أو الإخفاق... كالحسن والقبيح !...

-الاسم لا يصير كذلك إلا بشروط... بقدر عدم الوعي به... بقدر الاستسلام لمنطقه... بقدر ما نجهل عمله فينا... بقدر ما تسمح له الظروف بتحقيق نفسه في غفلة من دواتنا !...

-ومع ذلك فالاسم ضريبة تدفعها أو تقبضها...

-ضريبة اجتماعية، نفسية، تاريخية، حضارية...

-والإ فإنك لن تفهم أن هناك شرفاء وعوام... ولماذا تولد أسماء بملاعق من ذهب وتولد الأخرى مشلولة... لماذا هناك أسماء صغيرة وأخرى كبيرة... أسماء ضاحكة وأخرى باكية...أسماء... دافعة ومحفزة... وأخرى انتقاصية... محبطة وجالبة لسوء الحظ... فأسماء الجن غير أسماء الإنس... غير أسماء الحيوان... غير أسماء الملائكة أو الشياطين... غير أسماء الفضاء أو الأرض... الأسماء طريقة لترتيب العالم وتقسيمه... لتوزيعه وامتلاكه... للدخول في العالم أو الخروج منه... للوجود في قلبه أوعلى هامشه...الاسم، يا سيدي، فعل...باسم... بمجرد اسم قد تملك العالم أو تخسره... تفتحه أوتغلقه... كما في "افتح يا سمسم !"... فلا غرابة أن يتنافس الناس حاليا في إطلاق أقوى الأسماء وأجملها على أولادهم و بناتهم... تلك الأسماء التي تدعمها أسطورة... يسندها حلم... أو تاريخ أو رمز أو فأل حسن... أي شيء... ليضمنوا لأولادهم أفضل الحظوظ... ليتقوا شر القوى السحرية التي تسكن الأسماء و الأقدار الغريبة التي تكمن فيها...

-أعجب من أنك لم تذكر أنواعا أخرى بتفصيل... أنواعا مثل ما يمكن تسميته " أسماء الخسران أو الهزيمة "أو "أسماء التشويه أو التقبيح" و"أسماء الحسن والجمال "و...

-لا أستطيع أن أذكر كل الأنواع... وعلى العموم،فإن الاسم الضعيف كالاسم القبيح إعاقة ... إعاقة يصعب علاجها في هذا الزمان !...

-ما رأيت رجلا معقدا من اسمه قبلك !

-وما عرفت أحدا جاهلا بالمأساة التي تسكن اسمه مثلك !

-بدأنا نتشاجر إذن... هذا دليل على أنني لم أعد أطيق مزيدا من الكلام عن الفاجعة التي تختفي في الأسماء... لم لا نتحدث في شيء آخر !؟

-أحذرك من أن كل الكلام بين شخصين مثلينا لن يؤدي إلا إلى .

الحديث عن مأساة أو فاجعة... ولو بالتنكيت وحده !

-هل يمكن أن أعرف مستواك الثقافي فأنت تبدو لي ظاهرة !

-أنا حاصل على الدكتوراه في الأنتروبولوجيا من غرناطة... أنا الدكتور مصطفى شيش كباب !... وأنت... أنت أيضا تبدو مثقفا !؟

-أنا معي دكتوراه في الفلسفة من السوربون... أنا الدكتور الجيلالي الخلطي !

-افهم إذن لماذا أنت مشلول... من اسمك وحده أستطيع أن أفهم !

-ومع ذلك فهذه قصة أخرى... قصة شللي شيء آخر... على كل حال... ربما هي في منطق أسمى...ربما هي الوجه الآخر للشلل المعنوي الذي تقصد... ومع ذلك...

-ضروري أن يعرف المرء منطق اسمه كما هو ضروري أن يعرف تركيبته النفسية وما فيها من منطق أو... قدر... ما هو مكتوب في لوح نفسه ولوحه البيولوجي أو الاجتماعي... لكن الأهم، بعد ذلك، هو المقاومة... هو مصارعة القدر بمعرفته والسعي إلى تحويل مجراه بشكل إيجابي... و لا يهم بعد هذا أن يغلبنا القدر أو أن تغلبه... المهم أن نحقق شرطنا الإنساني بالمقاومة... بدون هذه المقاومة لاتتحقق إنسانية الإنسانية... لا يخرج عن شرط الحيوان أو...الآلة...

-دعنا من العبارات الغليظة !... لقد قتلت أجيالا كثيرة وضللت أناسا لاحصر لهم !...

تذكر، ولاشك، عبارة ابن رشد حول الشرق بالماء... لا ينبغي أن نمنع الماء ولا يمكن أن نستغني عنه فقط لأن أناسا غصوا به فماتوا !...

-ابن رشد كان يدافع عن الفلسفة !

-وأنا أدافع عن العبارات الإيجابية... تلك الموحية بالقوة والقدرة على

المقاومة... تلك التي تسندنا، ولو بالوهم، ضد عوامل التخريب، تلك التي تنير طريقتنا في وجه الظلمة الكالحة... تقوينا، ولو لحظة، ضد اليأس والتشاؤم... ضد العجز... ضد الموت... تلك التي تجعلنا نحلم ونأمل... نأمل في أي شيء و نعمل على نشر الأمل وجعله واقعا... لأنني في الوقت الذي أكف فيه عن الأمل أفقد الحياة... المقاومة...أي شرطي كإنسان !

-اليأس أيضا... مثل التشاؤم... خصيصة إنسانية... إذ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي ييأس و يتشاءم !

-بقدر ما يكون اليأس... التشاؤم... عامل إغناء... أداة لتوسيع أفق النظر والإحساس... أما حين يصبح مرضا... شللا... حجابا... فهو موت... أي استسلام... هتك للشرط الإنساني !... وأنا عندما يطول يأسي أو أفرط في التشاؤم أعرف أن الماء "هزني" !... إحك لي قصة شللك لنرى !

-منذ فترة لم أعد أستطيع المشي... هدا كل مافي الأمر !

-ماذا وقع لك: حادثة ... ميكروب... تسمم ... !

-لا أعرف !

-كيف ؟... لم تزر طبيبا !؟

-الأطباء عادة لا يفهمون الكثير في مثل هذه الأشياء !

-على العكس، بعضهم يفهم جيدا !

-تنقصهم بنيات العلاج أو يغلبهم ترتيب الأسبقيات !

-هناك أطباء في القطاع الخاص !

-ونحن في العائلة لا نملك المصاريف المتداولة في القطاع !

-يبدو لي أنك ترفض العلاج !

-لا أظن !

-إنك قد اخترت المرض حلا !

-وهل نختار المرض حقا !

-نحن نختار كل المواقف !

-يا لطيف: عدت إلى العبارات "الغليضة"... والذي يواجه قوة لا طاقة له بها... يختار الهزيمة؟ !

-بإمكانه ألا يستسلم ... فلا ينهزم !

-حتى وهو يواجه الحصار المطلق؟ !

-حتى وهو يواجه حبل المشنقة !

-أنت تريد تحويل كل الناس إلى سوبرمانات !

-بل أريد أن يكون الناس ناسا حقا... بالمقاومة... بعدم الاستسلام... على الأقل بالتحمل... بالصبر !

-وأين تجد أمثال هؤلاء المناضلين الأشداء في هذا الزمان ؟

-هم الأغلبية في كل مكان وزمان !

-بل، أقلية الأقليات !

-هم آباؤنا...أمهاتنا... هم الذين يذهبون كل صباح إلى عملهم...الذين يبحثون عن عمل ويطالبون بحقهم فيه ...هم الذين يحبون..يدرسون ويتعلمون ليل نهار... هم كل أولئك الذين لم يتسرب بعد اليأس إلى قلوبهم أو عقولهم أو سواعدهم... رغم التعب والإحباط... هم الذين يحلمون... يسمعون قصيدة، أغنية... يرشفون كأس شاي أو ماء و يقولون: الله !

-كل هؤلاء مغفلون... سذج أو مستلبون !

-بل المغفل... الساذج ... المستلب... العفو.. !

-لمن... ولماذا... وإلى أين... ما جدوى...!؟ ... لو كانوا يطرحون أسئلة كهذه على أنفسهم... لو رأوا جيدا ما حولهم لكفوا عن الحب والعمل والرجاء !

-تلك أسئلة كانت تطرح ليبحث من خلالها عن معنى... عن قيمة... عن كيفية لجعل حياتنا إيجابية... وأنت تطرحها لتجعل الحياة سوداء... لتبرر شللك !

-وها أنت تسبني...هل الشلل سبة؟ !

-آسف... احك لي إذن... إحك فإن الحكي يسمو بالإنسان !

-أنت خطيب مفوه نحرير... كان أولى بك أن تكون داعية !

-دعك مني واحك... إحك فإن فضاء المقال بدأ يضيق بنا وقد نتحول إلى عدوين قبل أن نشبع كلاما... احك!

-ماذا تريد أن أحكي !؟

-إحك لي قصة شللك فإن الرواية أبلغ من كل الخطابات الأخرى !

-ليست هناك قصة كي أحكيها لك !

-قل إذن كيف أصبت بهذا الشلل !

-لا أدري... منذ فترة لم أعد أستطيع المشي !

-وماذا وقع لك !؟

-لا أعلم على وجه الدقة !

-وكيف أصبحت على هذه الصورة !؟

-لزمت غرفة بسطح بيتنا مدة شهور عديدة وحين أردت الخروج منها وجدتني مقعدا !

-غريب... ولماذا لزمت تلك الغرفة ؟

-في البداية: لأنني لم أجد ما أفعله غير القراءة !

-ثم !؟

-ثم !؟ لم أعد أشعر بالحاجة إلى الخارج... شعرت بالخارج تافها... بلا جدوى... عدوانيا أو لا مباليا... كلما خرجت أعود منهكا...

مريضا ! ... ثم تعودت ... ثم شللت !

–و لماذا قررت الخروج من تلك الغرفة !؟

–لأني توصلت من إحدى الكليات بخطاب يخبرني بأنهم قبلوني كأستاذ مساعد في شعبة الدراسات الإسلامية !

–آه !؟ ...ماذا قلت !؟

–ما سمعت !

–يأتيك خبر سعيد كهذا فتصاب بالشلل !؟

–قد لا تكون المسألة في مثل هذه البساطة !...

كما تتصور !

–تستسلم للموت، للهزيمة، للقهر، للعجز... بعد ماذا! ؟ ... بعد أن كافحت نصف حياتك أو أكثر... وتختار... تتختار الشلل بعد أن أتاك الفرج... كيف لا تكون المسألة كما أتصور !؟ وتقولون إننا في حاجة للفلسفة !؟... هذه فلسفة... هذه !؟... أية فلسفة هذه التي تقود إلىالعجز... وأي وعي... أي فكر هذا الذي يؤدي إلى الشلل!؟... واسقرطاه... وا..

–يا لطيف... يا لطيف... ها قد انطلقت في خطبة عصماء أخرى !

–وتسميها خطبة يا ... فيلسوف !؟... لاحول ولا قوة إلا بالله !

–قد يحتاج الأمر إلى تحليل أعمق وأعقد مما...

–أقوياء في المصطلحات !... قل إنها إشكالية مشكلة إشكالها أشكل على التشكيل والمشاكلة !...

–قد لا تكون كذلك ... لكنها ليست بالبساطة التي تفترض !

–ذكرتني بالذين يقرأون علم النفس ليصبحوا مرضى !

–أكرر لك أن الأمر يحتاج إلى تحليل أطول...

–أعرف... نراعي فيه كل الشروط ومستوياتها وأشكالها وأحجامها

والعلاقات فيما بينها...

-تماما...ولو طارت معزة !

-لقد حولتم الفكر إلى كلام... إلى حبس !

-ومع ذلك نتشبث بحقنا في صياغة كلام أدق...

مهما أو غلبنا في شكل الكلام !

-لنجرب هذا التحليل العميق الطويل: لاشك أنك لم تعد تؤمن بجدوى الثقافة والتعليم !

-نعم... و لا !

-كيف: نعم ولا... هذا جواب... هذا !؟

-لا... إذا كنا نخرج العاطلين وأشباه المتعلمين !

-ونعم !؟

-نعم... إذا صغنا مشروعا جديدا للمجتمع وحققنا حوله إجماعا !... حدا كافيا من الوفاق !

-حديث نقابي مكرور... أتصور أنه نفذ إلى نفسك !

-يجب أن نتعلم اتباع الكلام الصائب من أية جهة جاء !

-ولا شك أنك ترى الأزمة خانقة في كل شيء !

-نعم ... لا !

-والظاهر أنك استبطنت تلك الأزمة وتركتها تلتهمك !... وقد تخلصت من تأنيب الضمير يأن حولتها إلى شلل فزيولوجي بعد أن عقدتك في شكلها السيكولوجي ! ... وها كل شيء على خير ما يرام: الأزمة على أشدها وشللك لا يرجى له شفاء... و بذلك تكتمل الدائرة: لا شيء ينبغي أن يرجى من نفسك !...

وسلام على الذين يتشدقون بالأمل والرجاء !... أولئك باعة عواطف

وأفكار، باعوا الحاضر للمستقبل أو الماضي ونسوا أن الأزمة في الماء ... في الهواء... في الكتب... والأسرة... والمراحيض !...

-مؤسف حقا أنك أخطأت الطريق... إن مكانك في التلفزيون !

-ولا شك أنك عندما فكرت في الراتب الذي ستتقاضاه كأستاذ مساعد... وبعد أن خصمت منه الكراء ومساعدة الأهل و شراء الكتب والدوريات... قلت لنفسك: تعال أيها الشلل العضوي... أنقذني من نفسي !

-إنك بصدد تشويه الحالة... حالتك وحالتي بالهروب إلى الأمام !

-وهو لعلمك أفضل بكثير من الهروب إلى الوراء...على كل حال...أنا أقول لك الحقيقة: هل تظن أننا نعمل لنكسب مالا كافيا أو ننتج إنتاجا حقيقيا !؟

-ولم لا...لم لا !؟

-نحن نعمل... ولكل مقام مقال... نخرج في الصباح الباكر من بيوتنا ونعود إليها في الليل متأخرين... منهمكين... لكي لا نصاب بالشلل أو العمى... أما الباقي فكله لطف من الله تعالى !

-قلت لك إن مشكلتي ليست على هذه الصورة ...

ليست تماما على هذه الصورة !

-وأقول لك: لقد قبلت العمل بهذه العربة الحديثة التي اشتريتها بعد أن بعت كل احتياطي الذهب عند نساء العائلة...أعمل لأظل وسط الناس...

-لكنك دكتور في الأنتروبولوجية... تساهم الآن في تخريب آمال جيل بأكمله !

-أنا أعمل... ومستعد للقيام بأي عمل... في أنتظار الأفضل ... لكي لا أهرب إلى الوراء ... لكي لا ألتجئ إلى ركن من أركان الحي أو زاوية من زوايا البيت... لكي لا أدخل سوق راسي فلا أخرج منه !

-إنك تتخلى عن حقك في أن يكون لك العمل الذي يلائم مؤهلاتك... وبتخليك هذا تضرب حق الآخرين في نفس الشيء !

-إني حين أكون مع هؤلاء أتصرف كما يتصرفون، متضامن معهم في كل المواقف... وفي نفس الوقت أرفض أن أرى نفسي تتفتت أو تضمر... أعمل وأطالب... أقاوم لأنه لا أحد بقادر على أن يهديني رغيفا أو لحما أو لباسا... كلنا في العائلة نولد عراة جائعين... والحق أني أعمل منذ أن فتحت عيني... منذ أن تعلمت التحكم في لجام الحصان الذي كان يجر الكارو... منذ أن اسستطاعت يداي أن تحملا شيئا... أي شيء... مكنسة... سطل... قفة... مواد بناء... أي شيء في آخره ريال أو كسرة خبز أو قلم... أي شيء !

-لكنك مخطئ حين تعمم حالتك أو تحكم علي أو على غيري من هذه الزاوية !

-قد يكون... إنما مجرد وجودك عاملا وسط أناس عاملين ... طول النهار يعطيك قوة... طاقة... مناعة... و يساهم في مد الآخرين بنوع غريب من الطاقة... من القدرة على المقاومة والتحدي... يتسرب إليك نوع عجيب من الحياة... شيء شبيه بالعدوى المحفزة... بالحماس الجماعي الباطني... يصير لك أعداء وأصدقاء...رفاق و خصوم... تصبح حيا وناشرا للحياة... تغضب وتفرح... تتخاصم وتتصالح... تتبادل إذن شيئا ما مع الناس: نكتة، طرفة، وشاية، دعابة، سرا، سلفة، أزمة، ثقلا، سيجارة، أملا، حلما، كلاما عميقا أ، طحيا، أي شيء يفتح لك قلبا أو يدا أو يغلقهما، يفتح أمامك بابا أو يوصد ، وجهك... فيخف الشعور بالقهر الذي يكون قد تسرب ليلا... والهم ا مض الذي يختلط صباحا بقهوتك أو شايك... والقرف الذي يصطاد ساعات الإرهاق أو الأرق أو الإخفاق ليحاول أن يلف حول عنقك أنشوطة

العبث واليأس... الناس لا تلعب هذا الدور العظيم إلا في العمل أو الحب !

-وتؤمن بالحب... وبجدوى العمل !؟... دلني على عمل واحد مازال يستحق اسم العمل... على شخصين... شخصين فقط... قادرين على الحب !

-وأنا حين أفتح باب هذه الشويحنة كل صباح وأجلس في مواجهة المقود والمرآة وأقول:" يا فتاح، يا رزاق، يا معين، ياحفيظ... امنحني اليوم أيضا أوفر نصيب من متاعب الدنيا !..."أشعر أني لن أموت أو أمرض بإرادة خارجية، رغم أن كل شيء بيد الله، وإنما بإرادتي... بإرادتي الخاصة... لا غير !

-يا سلام !... الموت في كل شيء... الموت هو الحقيقة الوحيدة... تأمل في هذا الكون اللامتناهي... ماذا تساوي حياتك !؟ وأي معنى لك سواء مررت به وأنت حي أو أنت ميت !؟

-بل الحياة هي الحقيقة الوحيدة: أولا، لأنني لا أعرف أنني موجود في هذا الكون الحي إلا إذا كنت حيا... ثانيا، لأن كم الحياة، وكذلك نوعها، أقوى من كم الموت ونوعه... وحتى إذا تساويا فإنني لا يمكن أن أختار الموت لأن عمري قصير جدا ويستحيل أن يكون له معنى بدون أكبر قدر من الحياة !

-أنا أحدثك عن موت اجتماعي... موت سيكولوجي... وأنت تمارس السفسطة عن طريق ما يشبه الأونطولوجية !

-إنك كمن يطلب من القنديل أو... فقط من شرارة... ألا تضيء لأن حجم الظلمة من حولها كثيف !...

إهذ لكي أسمك !

-إني لا أجد كيف أبسط لك المسألة...

وأنت لا تترك لي الفرصة لأنك لا تكف عن الخطابة... خذ... خذ، مثلا فقط... نظريتك في الأسماء !

-مالها نظريتي في الأسماء !؟ إني بنيتها على تأمل مختلف الأسماء التي أصادفها في عملي ومن تأمل أوضاعهم الإجتماعية والنفسية، من الإستماع، من ملاحظة سلوك الناس والحديث معهم... وهي في كل يوم تتعدل وتغتني بحيث آمل أن تصبح مفتاح الدخول إلى قلوبهم، إلى عوالمهم... وهي على كل حال على وشك أن تصبح أداة لولوج جوانب هامة من واقعنا الراهن ... مالها نظريتي في الأسماء !؟

-أحاول أن أفهمك ... ماذا !؟ نعم أحاول أن أفهمك... مثلا... أن الخلطي لا يحيل على عرق أو جهة...إنما على حالة سيكولوجية متوارثة... حالة في العائلة منذ قديم الزمان... الخلطي مخلوط... بالمعنى النفسي والعقلي... ضعيف التمييز كما يقال في العربية: خلط المريض، أي أكل ما يضره...أو خلط في الكلام، أي هذى... والخلط والخليط هو من خولط في عقله، أي اضطراب عقله واختل، فهو أحمق، به خلل ما أو فساد أو اعوجاج أو اعتكار أو زيادة هي في نفس الوقت نقصان، كما في "جمل مختلط"، أي سمن حتى اختلط الشحم باللحم أو في ولد الزنى بأنه"خلط ملط"، أي مختلط النسب، أو في الأوباش بأنهم"أخلاط القوم"، أو في الكثير الاختلاط بالناس

والتملق إليهم عندما نقول إنه "خلط"... وباختصار إن"الخلطي" بدين، معتل العقل والنفس، ترثار، كثير الهذيان، ميال إلى الناس، شديد التملق والمجاملة، سريع الاختلاط بهم، أي التشابك معهم، مساجل ومخاصم لأن مزاجه مختلط، متعكر باستمرار... مصدر قوته هو بالذات مصدر ضعفه: الإقبال على الناس والنفور منهم، الحماس الذي يخفي الفتور، التفاؤل الذي هو الوجه الآخر للتشاؤم، الثرثرة التي هي وعي...

–وأراهن على أنك لست على علاقة بأية امرأة... وقد تكون فعلت كل شيء... وجدت كل المبررات، كأن تعتبر كل النساء ملتهمات... خانقات... من أجل عدم الارتباط بامرأة، بأية امرأة ليكتمل شلللك المقدس، لترتاح تماما من نداءات الخارج والذات وتستسلم لنداء العدم، نداء الهلاك...

–عجيب... عجـــ... أنت تهذي... أنت خلطي مكتمل الخلاطة وتعتقد أنك تتحاور ... أنت إنما تحارب... تطارد شبحا مخيفا بالكلام، بأكثر ما يمكن من الكلام... أيكون هذا الشبح وضعك البئيس!؟ أتكون حولته إلي... أسقطته علي لتراه مجسدا،لتستطيع أن تبصره !؟ أنا لست كما تتوهم...

–أما أنا فأحب سعيدة ...وسعيدة تحبني...وقد اخترت هذه المرأة لأن اسمها سعيدة، من السعادة، ولأنها تحفظ مئات الأبيات الشعرية الجميلة، تعرف كيف تروي النكتة وكيف تسمعها، تستطيع أن تحول كل شيء، كل ما يقع لنا إلى حكاية رفيعة مليئة بالحياة والقوة، تتمسك بالبسمة والكلمة الطيبة كما يتمسك الليل بالنهار والنهار بالضوء والضوء بالحياة و الحياة بالأمل والأمل بالمقاومة والمقاومة بالصبر والتحمل...

–يا رب ... متى ينتهي من هذا الهذيان... يتوقف عن جلدي !؟ اسمع... اسمع !

–سعيدة تشرف على محل لبيع الدجاج... ومعها إجازة في الأدب

العربي... فتاة مقاومة... إيجابية... بالنهار تحارب الفقر... وبالليل تقرأ... تقرأ... تقرأ كأنها تنتقم من الجهل... تهيء الدراسات العليا وتستمتع بالأدب الرفيع... وكل اثنين تغلق الدكان... تكون لنا الشويحنة والمدينة... يكون لنا الفرح والأمل في أن نتزوج ونسعد...

–اسمع !...كفى ! ...اسمع !...هل تسمعني !؟

–أسمعك...ماذا تريدا ؟

–لقد خدعتني يا محتال !؟ أنا...خدعتك !؟...أنا...محتال؟...كيف يا...مغفل !؟

–لقد ذهبت بي إلى سيدي عثمان عن طريق الحي الحسني !

–الطريق مقطوعة من كراج علال إلى سيدي عثمان !

–الطريق مقطوعة أم...لسانك طويل لاتسعه طريق !؟

–ولم تحتج !؟...هل طلبت منك زيارة !؟ اتفقناعلى خمسين درهما !...أليس كذلك !؟

–ولم نتفق على الوقت...على الثمن النفسي...على أجرة الاستماع إلى هذياناتك !

–على كل حال...ها قد وصلنا...هذه السينما العثمانية...إلى أين أنت ذاهب بالضبط؟

–الزنقة15

–معك رقم البراكة؟

–24

كم !؟...24! ؟

–24 !

–هذه براكة الشيخ المعطي الكمنجة !...أليس كذلك !؟

-تعرفه !؟

-تهزأ !؟

-ليتني أقدر !

-من لا يعرفه !؟... من لا يعرف الفنان... المقاوم... الشيخ المعطي الكمنجة...ابن الحاجة رقية لمزابية...المقاومة... صاحبة أشهر حريرة في الدار البيضاء... تلك التي يقال عنها:"اشرب حريرة الحاجة رقية ومت إذا شئت لأنك بشربها تستمتع بألذ شيء في الدنيا"!... رجل نظيف ابن امرأة شريفة !

-هما شهيران إلى هذه الدرجة !؟

-تماما كبوشعيب البيضاوي وامك الهرنونية أو أكثر !

-دعنا من المزاح !

-والله لا أمزح إتستطيع أن تسأل أي شخص هنا...انطلاقا من السينما العثمانية إلى آخر الحي...لتتأكد ...أي شخص بإمكانه أن يقودك إلى براكتهما بمجرد ما تسأله عن الأم أو الإبن !

-و أنت متأكد من أنك تعرف البراكة !؟

-كما أنا متأكد من أنني أحمل فيلسوفا إلى بيت فنان شعبي... حدث لم يعرفه التاريخ من قبل !... إنما قل لي: أنت... لماذا أنت ذاهب إليه !؟ ...أستبعد أن تكون بينكما قرابة بسبب ما يظهر من عدم معرفتك بالأم وابنها !

-ومع ذلك يبدو أن هناك قرابة بيننا !...

-يبدو ! ؟...يقال إنه مقطوع من شجرة !

-يقال كذلك ...في ابن احمد...أنه من أقاربنا...والله أعلم !

-يقال أيضا أنه مريض...مريض...مريض .بما يشبه مرضك...

مرض العائلة !

-تقصد الخلاطة !

-شيء من هذا القبيل !

-لست أدري !...أنا قيل لي في بيتنا: ستذهب إلى الدار البيضاء لأن المعطي يحتضر...وهو في حاجة إليك !...وتساءلت: من يكون المعطي هذا ! ؟...

قيل لي: هوالذي طلبك ويرفض أن يدفنه غيرك !...

قلت: لكني لا أعرفه !...

قيل: هو يعرفك...يعرفك جيدا !...

تساءلت: هل تسخرون مني !؟

قيل: إنه على علم بكل خطواتك منذ أن دخلت إلى المدرسة...هو الذي كان يبعث إليك بالكتب والدفاتر والملابس وهو الذي كان وراء حصولك على جواز السفر والمنحة إلى الخارج !...

قلت: إني لم أره من قبل، لا أذكر أني رأيته مرة واحدة في حياتي !؟...

قيل: ولا هو رآك من قبل، لكنه الرجل الذي تنبأ بمستقبلك... لأنه رأى أمك تلدك في مكان ووقت معينين... ورأى أباك يسميك "الجيلالي"... رأى كل ذلك في منامه... ثم رآك... دائما في المنام... تقطع البحر ... تلعب مع الروميات... تغطس في الماء ... وتصعد محملا بالكتب... ثم تطير في اتجاه الشمس... بينما وحش مائي يتبعك... إلى أن انقض على رجليك وعاد بهما إلى الماء... وأنت تصعد... تصعد... وتختفي وسط السحاب... ودمك يتقاطر كحبيبات الرذاذ... وقد بعث إلينا يخبرنا بما رأى قائلا: سأساعده على الطيران، لكني لا أستطيع حمايته من الوحش... عليكم

أنتم أن تحموه من الوحش ...اعتبرنا الأمر شطحة، فالمعطي ورقية معروفان بشطحاتهما الكثيرة... لكن نبوءته قد صدقت !... وأمعنت النظر في هذه العبارة، "تبوءته قد صدقت "، فوجدتها حمالة أوجه... قبلت أن أتحمل متاعب السفر... أن أخرج من غرفتي لأعرف معاني تلك العبارة !

-النبوءة واضحة...مع ذلك !

-كل شيء واضح بالنسبة إليك لأنك تستسهل الأمور... تغرقها في الخطابة أو الهذيان... فيصير لها معنى... ليس هو معناها !

- آسف ! ...كنت أمزح !

-لا تمزح !

-حاضر!... تمنعنا من الضحك !... فلنبك !... الفلاسفة لا يضحكون... أنا أعرف فيلسوفا شهيرا يلقب بالفيلسوف الباكي... لكني لا أعرف فيلسوفا واحدا مشهورا بالضحك... ولو من بين أولئك الذين كتبوا عن فوائد الضحك واعتبروا الإنسان "حيوانا ضاحكا "... أنتم الفلاسفة لا تكتئبون لأنفسكم... للبشرية، على ما يظهر... لكل البشرية... لذلك تقرضكم الحيوانات المائية !

-ها... ها... ها !... قل لي: ما الواضح في ما يلي: حملوني في كروسة إلى المحطة... ثم وضعوني في حافلة قادمة من بني ملال... أوصوا السائق بي خيرا بعد أن شرحوا له حالي وأعطوه عشرة دراهم مقابل أن ينزلني من الحافلة وأن يطلب لي عربة...وها أنت تحملني في" شويحنتك"، كما تقول ... وستضعني، إذا لم يتعكر مزاجك، بباب البراكة ... وتذهب إلى حال سبيلك !

ما هو الواضح في كل هذا ! ؟... وما يضحك في كل هذا !؟

-زاوية النظر !

-زاوية النظر !؟

-نعم... زاوية النظر !...وضعك يثير الشفقة أو الضحك بحسب زاوية النظر !

-أرفض الشفقة و...الضحك... حتى الضحك أرفضه !

-ومن أعطاك هذا الحق !؟ ...إنك لا تستطيع أن تمنع الناس من أن يرواكما يمكنهم أن يروا !

-أستطيع أن أحتج على الأقل... أنا أحتج الآن على توقفك اللامبرر بالقرب من سبورة الإعلان عن الأفلام !

-دعني إذن أبرر لك الأمر... خذ... هذه السيجارة... وكن متسامحا... متفهما... عافاك الله !

-مدرب على الرشوة وشراء الضمائر !

-سامحك الله !... هذا جزء ضروري من متطلبات المهنة !... وعلى العموم... فإنك لن تجد واحدا من البشر لم يشتر... أو يحاول شراء ضمير... بصورة ما !

-هذا هو مبرر وقوفك !؟

-لا... طبعا... اسمعني... أنظر إلى ذاك الملصق... ذاك المليء بالأخضر... الكبير... هل تراه؟

-إنه أبرز إعلان !

-أنا لم أدخل إلى السينما منذ سنوات عديدة...منذ أن اكتشفت أن الأفلام تتشابه... القليل منها يغنيك عن الكثير... إن الأفلام العظيمة نادرة جدا... ومنذ أن أصبح ثمن التذكرة يساوي سندويتشا...

-شكرا... بل، هنيئا... هذه اعترافات رائعة... رائدة !

-صبرك !... أنا لم أقل المهم بعد...

-تفضل ...خذ وقتك...كامل وقتك !

-شكرا ... منذ أن اكتشفت ذلك بدأت أستغل الفرصة إذا مررت بالقرب من سينما... وإذا كان معي زبون متقف مثلك... أقف أمام سبورة الإعلانات وأختار الملصق الجميل... وأحكي للزبون عن الفيلم...

-بدون أن تشاهده !؟

-المتعة في ألا تشاهده... في أن تتخيله !

-وإذا كان الزبون قد شاهد الفيلم من قبل !؟

-حدث لي مرارا ...أعتذر للزبون وأواصل الطريق صامتا !

-إذن اعتذر لي: أنا رأيت الأفلام الثلاثة المعروضة... وواصل طريقك فورا... صامتا !

-أعتذر لك... أما الصمت فلا... إنني أصمت إذ أشعر بالإحباط ... بالخيبة... أنت لم تشاهد الأفلام الثلاثة ... أنا على يقين ... أنفي يؤكد لي ذلك ...وهذه الملصقات البئيسة ليس فيها واحد يثير مخيلتي...إنها عادية جدا، بل هابطة !

-لم نتوقف إذن كل هذا الوقت !؟

-لأنني لم أحدثك بعد عن الشيخ المعطي ...وأنت في حاجة إلى معرفة شيء عنه قبل الإلتقاء به !

-اشكرك...صحيح ...أشكرك !

-لا شكر على واجب...إنما لي شرط !

-لقد أخذت أتعود على ابتزازك... قل شرطك !

-أعود مرة أخرى إلى نظريتي حول الأسماء !

-أما تشبع منها !؟

-كيف أشبع منها وفيها، كلما عدت إليها أكتشف شيئا جديدا !؟

-لك ما تريد... بإيجاز... طبعا... إنني في حاجة إلى مفتاح ما للدخول إلى عالم المعطي !

-من هذه الناحية، لا تشغل بالك... إنه يملك كل المفاتيح... لا تستعصي عليه نفس بشرية... ويملك سحر إعطاء مفاتيح ذاته بتلقائية محببة...

-إذن لن يفيدني ما قد تقوله، سيكون ثرثرة أخرى !؟

-لا أظن ... أنت في حاجة إلى معرفة الوضع الاعتباري للمعطي !

-و بعبارة أخرى: لا مناص لي من الاستماع إلى مزيد من " نظرية الأسماء" !؟ ... تفضل... لا تشعر بأي إحراج !

-لنتذكر إسمه الكامل: الشيخ !...المعطي!...الكمنجة... !

-ذكرناه بالخير والصلاح !

-هذا النوع من الأسماء أسميه: "أسماء المقاومة السرية " !

-يا حفييظ !... تعرف !؟ أنت تستحق لقب "رائد المقاومة المستمرة»!

-شكرا... هذا اللقب يملأني فخرا واعتزازا !

-العفو ... أنت أولى به وأحق من... !

-رجل في هذا الزمن الذي تغيرت فيه تراتبية القيم متمسك بقيم أصبحت في أسفل هذه التراتبية بعد أن كانت في أعلاها !...

-وما العيب في ذلك...عفاك الله !؟

-ليس هناك عيب، بل هذا أول مظهر من المقاومة !...

-المقاومة !؟ دفعة واحدة !؟

-سأفسر لك: رجل من هذا الوقت يناديه الناس بـ " الشيخ " ويصر هو على أن يطلق عليه هذا النعت ... أليس هذا الرجل "بطلا من زماننا" !؟

-وأية بطولة في ذلك يا سيدنا الدكتور !؟

-الشيخ كان ضمير الجماعة ...صوتها ...قلبها...رمز وحدتها وقوتها... ممثلها... حكيمها... ماذا صارت الكلمة تعني الآن !؟

-معروف ما تعنيه: أحد أعوان السلطة... أو شبه فنان شعبي... منحل أو... متخلف... صورة كاريكاتورية لماض تولى... أفرغ من محتواه !

-ومع ذلك ما زالت الكلمة تطلق على رجلٍ مثل المعطي ... يفخر الناس... ويفخر هو بأنه شيخ... شيخ بمعنى الكلمة... أية دلالة لهذا التمسك بهذا اللقب !؟

-هناك أناس كثيرون يفخرون بحماقاتهم... بشذوذهم مثلا !

-ليست هذه حال المعطي... المعطي يتمسك بوضع اعتباري متميز كانت تعبر عنه كلمة الشيخ... خاصة عندما تطلق على فنان شعبي... الشيخ كان محط احترام وتقدير... يحترم فنه ويحترمه الناس ... لهذا السبب ... يشعر بالمسؤولية تجاههم ويشعرون بالتقدير له... هذا ما يفخر به المعطي... ما يعتز به. هذا هو مايتمسك به عندما يتمسك بعبارة الشيخ !

-لكن فيها... كذلك... الكثير من التهكم... بل السخرية !

-أفضل التهكم... أنت درست الفلسفة ... من هم رواد التهكم !؟

-سقراط وأتباعه من الكلبيين !

-كان سقراط متهكما في كل شيء... في لباسه، في تفكيره، في حياته الخاصة، في السياسة... لا أحتاج لشرح ذلك إلى دارس فلسفة مثلك !

-أشكرك... لكن تهكم سقراط مرتبط بالقلق... بالسؤال... بالاستفزاز !

-تماما... وهذا ما بالغ فيه الكلبيون إلى حد السخرية السوداء !

-هذا أيضا استفزاز... و... رفض... تنديد... رجل يبحث عن الحقيقة بمصباح في وضح النهار... رجل ينام في برميل... ويفخر... يعتز

بذلك وأكنه اكتشف دوران الأرض حول الشمس أو الجاذبية أو النسبية !

لم أكن أتصور أنك تستطيع أن تفكر من كثرة ما هذيت !

-لنعد إلى هذا الإسم: الكلبيون !... ذروة التهكم أن يسمى الفلاسفة... وهم جادون غاية الجد كما تعلم...كلبيون !

-العرب كانت تسمي أولادها كليبا وجروا...

-لأسباب أخرى ... إنما تخيل... أن تسمي الآن... في هذا الوقت... ابنك كليبا أو جروا... أن توصف أنت الفيلسوف بالكلبي !

-قد تأخذنا هذه الترابطات إلى مجالات أخرى ... لنعد إلى الشيخ !...

-أنا أجد فيه الكثير من السخرية وربما القليل... جدا... من التهكم !

-هذا هو الأمر العجيب لدى أغلب الناس الذين ينتمي إليهم الشيخ المعطي... ألم تلاحظ ذلك في أغلب الأغاني !؟

-ماذا !؟ ألاحظ ماذا !؟

-هذا التهكم أو ... السخرية... إذا شئت ...الذي يسند أوضاعا مثيرة للسخرية... أوضاعا بالغة الهشاشة ... شديدة المفارقات ... وكأنه السم الدواء ... كأنه الضحك البكاء !... الم تتبين لك بعد صورة المقاومة السرية !؟

اسخــر منـــي لنضجك معـا !

-أجد بعض الصعوبة في فهمك ربما لأنك تصر على أن يطابق اسم يعجبك واقعا معينا... وبالضرورة !

-إذن سأعطيك صورة: رجل يبكي وهو يضحك... يبكي بالفعل... بكاء مرا... لكنه يتشبث بالضحك... يصر على ألا يخونه الضحك في وقت هو أحوج ما يكون إليه... هذا الشخص يبدو لي كمن تخترق جسده عشرات الرصاصات... لكنه يصر على إطلاق النار إلى أن... يموت !

-الباكي الضاحك... نصادفه عند الأطفال أحيانا !

-وهو أمر لا علاقة له بالمرض... إنه عنوان الصحة !

-وهو في النكت وفي كثير من مظاهر الكلام والحياة... والمعطي ! ؟

-لاحظ... اسم لم يعد له معناه... قيمته... مازال يطلق... بفخر واعتزاز... على شخص... وكأن الهدف منه السخرية مما مضى ومن راهن الحال... في نفس الوقت !

-الكمنجة... الكمنجة نعت أكثر سخرية !

-بالفعل... وبصورة أخرى، صورة أقوى... الفنان الشعبي كان محط تقدير وسخرية من طرف الجميع... من طرف نفسه... كما هو الشأن بالنسبة لكل الممارسات التي اختصت بها أقلية... ولو تعلق الأمر بأحمق أو عالم... بعبقري أو مجذوب... هكذا الأمر دائما... لكن اليوم... لم تبق إلا صورة الاحتقار والاستخفاف... لم تبق إلا قيمة المال والسلطة والجنس !

-المال فقط... أما السلطة والجنس فهما تابعان... وسيلتان فقط !

-ما علينا... وعندما يستمر المعطي في التعامل بكل هذا الجد مع فنه الذي ترمز إليه آلته فإنه يحدث نوع من التماهي بين الرجل والآلة: الجد الذي يعامل به نفسه هو ذاته الذي يعامل به آلته... إن المعطي هو الكمنجة والكمنجة هي المعطي !

-لكن في نعت الكمنجة نوعا من التصغير... من التحقير !

-أي من السخرية... لأن الرجل حين يعطي كل هذه القيمة لفنه يضيق عالمه، بصورة، وإن كان يتسع، بصورة أخرى، و يصبح محصورا في هذا الفن، أي في الآلة !

-يحدث نفس الأمر بصور أخرى كما في أسماء من نوع: المارشال قبو...زهرة تشيكيطو... الحاجة الرويضة... بوغطاط...

-الرويضة حـــاجة!؟... لا يهم... هذه الصورة الاعتيادية... شيء متعال... ليس في مقدور الجميع... يجب تكسيره... تقريبه بنعت ساخر !

-وهي ليست حال المعطي !؟

-تصدق عليه كصورة عامة بقدرما... إلا أنه علامة شيء آخر !

-إن المعطي إذن وحسبما فهمت منك يجسد هذه الصورة في سلوكه... و حتى في اسمه !

-لست أدري إن كنت فكرت في شخصية بوشعيب البيضاوي: فنان... رجل... دعك من الأحكام الجاهزة مثل الشذوذ... وعدم الإقبال على الغناء من طرف النساء... ذكر يغني بلباس النساء وصوتهن !... هل كانت... إلخ... !... هل كانت المغنيات منعدمات آنذاك !؟ إن عددهن كثير... وهل كانت الظاهرة طارئة... وفي الدارالبيضاء وحدها !؟

-الفن... وصورة الفنان... دائما... رغم سموه... مرتبط بنوع من

الهجانة... بالمظهر المزدوج... والشعور المزدوج... والحاجة المزدوجة !

-قد يكون هذا جوهر الفن، أي فنٍّ حقيقي...وهذا ما تعكسه أسماء من نوع "المارشال قبو" أو"الشيخة الرويضة"...وحتى "قشبل وزروال" أو "قرزاز ومحراش"... كما تعكسه صورة الفنان وسلوكه، خاصة أثناء الأداء... غير أن حالة المعطي الكمنجة تعبر عن شيء إضافي بدأ يظهر ويتطور منذ أخذت الحياة الحديثة تتسرب إلينا... إن نموذج الشيخ... المعطي... الكمنجة... يعبر عن تحول عميق... تحول جذري مس حياتنا العادية بالتدريج، خاصة على المستوى النوعي... كما يعكس نوعا من المقاومة لهذا التحول!

-إنه إذن اختصار لمأساة... كما تقول !

-هاأنت بدأت تفهمني... بكل تأكيد، إنه وجه آخر للفاجعة التي تسكن فوضى الأسماء، الفوضى الظاهرية، الفوضى الخادعة...

-ولا خيار لنا في كل مرة إلا العودة إلى نظريتك العظيمة حول الأسماء !... إنك تعيش تثبيتا... هوسا!

-تأكد... تأكد... من أنك... مهما فعلت لن تفلت من مواجهة المأساة...إلا إذا كنت نعامة !

-الفاجعة !... المأساة !... إن نظرتك إلى الحياة مأساوية... إنك تسقط رؤيتك الذاتية... حالتك المأساوية على الخارج... لماذا تصر على إيجاد الفاجعة في كل شيء؟... أتدري لماذا !؟... إنك لا تعرف !... سأقول لك:أنت تفعل ذلك لتخرج المأساة من داخلك... لتتجرد من مسؤوليتك تجاهها... من عنفها الذي يسحقك... لتقول لنفسك الضعيفة:ها أنا القوي... السليم... المعافى... المقاوم... لا تستطيع أن تسكنني الفاجعة... أن تحطمني... لأنها هناك وأنا هنا... أنظري يا نفسي الخائفة الضعيفة... هذه

الفاجعة هناك... هذا عدوي بالخارج... موضوعي وواقعي كأي خطر واقعي ... مادي... تستطيع العين أن تراه... تستطيع اليد أن تصل إليه... أن تمسك بأحد ذيوله وأن تطير الهوندا بأقصى سرعة جارة إياه خلفها... معفرة وجهة بالتراب و نفايات السيارات... ولكن حذار أن تضعفي... أن تتوقفي... أن تصلك رائحته... أن يمسك بزغبه... أن تلتقي عيناه بعينيك... لو حدث ذلك... لو حدث أي شيء من هذا فإنه سيلتهمك... ثم يلفظك أعرج أو أعمى... بلا عقل... أو قلب... أو صدر... مشوها... شبه حي أو... شبه ميت لذلك لا تتوقف عن الكلام... عن الهذيان حول المأساة... لا تكف عن الصراخ بقدرتك على المقاومة... كمن يجري في الشوارع... الغنية والفقيرة وهو يتوعد: حذار أيها الأشرار... حذار أن يمسني أحد إني قوي... بعد أن انتشلوا... في غفلة منه... نقوده... وأوراقه... وثيابه... حتى ثيابه الداخلية ! ... هكذا أنت، في الواقع... تظن أنك تقاوم وأنت تستسلم... تظن أنك تهدد وأنت تستنجد... تعتقد أنك تضحك وأنت تبكي!...

– استمر... استمر !... لماذا لا تقارن بيني وبينك؟ أنا سأقول لك الفرق بيني وبينك!؟: أنا أسقط على الخارج... بقدر ما أستطيع وبقدر ما يمكن للخارج أن يتحمل... بل أسقط عليه لأنه يتقبل... لأن الأزمة هي هي... في مظهرين وأنت ! ؟ أنت تستبطن... توجه الخارج إلى نفسك التي لا يمكن أن تتحمل الكثير لأنها... لأنها خليطة!... هذا مستوى أول... هناك مستوى أفضع من زاوية النتيجة... النتيجة !؟ تريد الفرق على مستوى النتيجة !؟... أنت أصبت بالشلل!... وأنا أجري... لا أتوقف عن الجري... أنا في ماراطون أبدي!... ولنتحدث الآن عن الفرق على مستوى النية أو القصد... ألا تريده!؟ سأذكره لك مع ذلك... هاهو: أنت تبحث عن الإستقالة، عن الموت الهادىء في مكان معلوم هو غرفتك... وأنا أبحث عن الحرب

المستمرة، عن الموت الصاخب في مكان مجهول!... أنت تريد الموت في الداخل وأنا... أنا أريد الموت في الخارج !

-الخارج أضيق من الداخل !

-والقبر واحد... شبر !

-دعنا من هذا... لقد نسينا الرجل الذي يحتضر !

-اتركه قليلا... إذا رآك... بمجرد أن يراك... لو رأى أي يائس مثلك... تزهق روحه فورا !

-أتفعل مثل هذا مع جميع الركاب !؟

-ماذا تعني !؟

-إنك إرهابي... سادي !

-أنت الذي بدأ العدوان على كل حال... معذرة... بكل روح رياضية... معذرة !

-روح رياضية !؟... أنت، بكل تأكيد، نصير متعصب للوداد !

-لا للوداد ولا للرجاء ولا للأولمبيك... للطاس سابقا... وللرشاد البرنوصي حاليا... رحمهما الله معا... وأدام عز الوداد والرجاء... وأنت... أين "اتحادكم" و "نصركم" ! ؟... تعجبونا في الأسماء !

-عدت إلى الأسماء مرة أخرى !؟

-لم نكمل الحديث بعد عن المعطي!...

-قلت إنك ستقربني منه... لكنك أبعدتني عنه!

-أنتم في الفلسفة مولعون بالتعميم... أحيانا الخاص أهم... تفصيل واحد من التفاصيل... جزيء صغير... أمر ثانوي... أغنى من مئة ألف نظرية !

-والدليل نظريتك في الأسماء، طبعا!... أما ترفق بي !؟

-لقد حاولت أن أقربك منه عن طريق اسمه...اسمه مفتاح من مفاتيح أخرى عديدة... لكنك لا تعرف كيف تدير هذا المفتاح!... تأمل كلمة المعطي... كان ينبغي أن يسمى عبد المعطي... حسب الشرع والعادة... لكنه سمي المعطي... ما معنى أن يسمى شخص كهذا المعطي!؟

-كفى !... شكرا !... من فضلك !... رجاء !... أتوسل إليك !... أنزلني ! ... في أي مكان... ارمني !

-حالا !... إنما... لا تغضب !... لا تترك نفسك تصدم مني بهذا الشكل وكأنك عرفتني حقا...اكتشفت أمري ولم يعد يخفى عليك سر من أسراري... حذار ! ... حذار!... من سوء التفاهم !

-أنزلني، قلت لك !

-أرجوك... اتركني أرفع سوء التفاهم !

-إنك تجلدني... ألم تسمع بالرفق بالمعوقين !؟

هل تعرف الرحمة !؟

-أطلب لك قهوة... عصيرا... وسيجارة؟... لا أريد أن نفترق عدوين !

-أعدك بنسيان كل شيء !

-وأنا لا أريدك أن تنساني... ولا أن تكرهني... إنك رجل طيب ! وأنت مثقف... أنا كذبت عليك !

-لا تعرف المعطي !؟

-بلى !

-وفيم كذبت ! ؟

-أنا لست دكتورا... معي إجازة حقيرة في الأدب العربي المحتقر... وسعيدة معها باكلوريا... فقط... في العلوم التجريبية... واسمها الحقيقي

ليس سعيدة... اسمها شامة... واسم أمها شامة... واسم جدتها...

-شامة !

-وأنا أتطير من هذه الشامات لأنها سبع في العائلة... سبع شامات !... أناديها بسعيدة تيمنا... أملا في السعادة !... وأنا، في الواقع... وكما ترى الآن، لست على كل هذه الثقة في النفس... هذه الثقة التي تستفزك... ولا أملك كل هذه الإرادة الظاهرة... كل هذا العزم... أنا كثيرا ما رغبت... في... وقد قررت مرة أن... أضع حدا لحياتي بواسطة هذه الهوندا !... لولا أني حملت زبونا مثلك... عالما في الأنتروبولوجيا !

-يا حبيبي ومهجة عيني و... أنا لست... كما ترى من حال رجلي... مساعدا اجتماعيا أو نفسيا !

-لا ... أرجوك... انتظر صبرك يا... أخي... دقيقة !

-طييب... أطلب قهوة وسيجارة !... أمري لله!

-في الكلام لا ينبغي أن نلعب دائما نفس اللعبة، في اللعبة الواحدة نفس الدور... مفيد كذلك أن نلعب أدوارا مختلفة وأن نتبادلها... اسمعني !

-إنك تلعب وحدك !

-تفرج أنت... إذن !

-لا أستطيع !

-يا أخي... دقيقة... دقيقة واحدة !... القهوة آتية !

-أنت متأكد من أنك تكسب رزقك من هذه العربة... وكيف تؤدي الأقساط والتأمين... !؟

-أتظن أننا في هذه المهنة نلتقي كل لحظة بأناس مثلك ؟... إننا غالبا ما نحمل أشخاصا نتمنى لو أن الهوندا تطوي الأرض طيا... لو أنها تطير... لو أننا ماجئنا إلى الدنيا !

-أرجوك أن تختصر !

-حاضر... أنا كنت ألعب معك لعبة الحلم... حلم اليقظة... الدور الذي كنت أريد أن أتقمصه... أنا الذي كنت أريد أن أكونه... الذي قد أكونه ذات يوم... ولم لا !؟... لم لا أحلم مثل هذا الحلم! ؟ ألا يقولون إن الحياة حلم وإرادة !؟ألا تعرف أن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى !؟...

-ولم معي أنا بالضبط !؟

-قلت لك... لأنك مثقف... تبدو طيبا... وديعا... !

-ولم لا تقول طفلا !؟

-حاشى... ولو أني لا أرى عيبا في ذلك !... مع زبون آخر كنت سألعب لعبة أخرى... النكتة مثلا... أخبار الكوارث... أو... الصمت... الصمت وحده... أو التعالي... الترفع والكبر... أنا صاحب العرْبة... وهو الزبون... أملك حاجته... وهو محتاج... لعبة المخبر... لعبة المتلصص... فما أكثر الفضائح... والنساء... والمتسترين... والمنافقين وذوي العاهات... أية لعبة أخرى... فنحن نلعب في الحياة لعبا كثيرة... لعب لا تختلف إلا باختلاف الشركاء والاستعدادات !

-ولم تصر على لعب هذه الأدوار ! ؟ألم لا تكتفي بلعب دورك كصاحب عربة وتريح وترتاح !؟

-حلمك يا... صديقي... نحن نلعب لنتعلم، لنجعل من الحياة شيئا يطاق... شيئا أرقى... أجمل... أخف... أغني مما هي عليه في الواقع... وربما...

-وربما !؟... ماذا !؟... أكمل !

-طمعا في أن نتواصل... أي نتفاهم... وهم ! ؟ ... لا... ربما... لنتقرب من بعضنا البعض... لا... لا... لنتجاذب...لا... لا... ليس لنتبادل

أدوارا محددة سلفا... محكومة بالنفاق والمجاملة... ولا طلبا للاحترام والتقدير... ولا للتعاطف... ربما للتعاطف... ربما... وربما لنتكلم فقط... لنتكلم من غير أن نقول شيئا... أو نريد قول شيء مضبوط... نتكلم لأن شيئا مجهولا... غامضا يدفعنا إلى الكلام... لأننا نريد أن نضع شيئا مبهما في كلام... شيئا أكبر... أعقد من كل كلام... لكنه يخرج مع الكلام... يستغل الكلام أو يعلق... يعلق فقط بالكلام ... لذلك قد يكون هذا الشيء أكثر أو أقل من كل ما نقول... يكون تائها... متشتتا في الكلام أو يكون خانقا للكلام... و الحوار مفتاح... تعاون على هذا الشيء الغريب !

-لكنك تختار شريكا أضعف منك...معوقا مثلي !

-أبدا !... ربما !... لا، بكل تأكيد... الإعاقة ليست ضعفا... الإعاقة استعداد من نوع آخر... مقدرة من نوع خفي... قدرة أعظم من السواء... مما يسمى السواء... في أحيان كثيرة... والمعوق الذي يملك الإرادة والذكاء أقدر من العديد من الأسوياء !

-تقول ذلك لأنك لست معوقا !

-أنت واهم... ليس فينا سليم تام... كلنا معوقون بشكل من الأشكال... بقدر ما... وأنا إعاقتي خفية، مألوفة... فلا تثير انتباهي ولا انتباه غيري إلا نادرا جدا... هذا هو الفرق... أو قل إن إعاقتي لم تتجسد بعد فزيولوجيا !

-إنما الإعاقة عندما تصير عضوية تصبح مزدوجة... أخبث !

-خطأ... تصير أسهل... أخف لأنها تصير عينية... واضحة !... آنئذ تكثر حظوظ مواجهتها إلا إذا...

-إلا إذا... ماذا !؟

-ظلت حاجبة للباطن... للإعاقة الخفية... للإعاقة الحقيقية !

-إنك تسخر... أظنك تسخر مني أو تواسيني بشكل مجاني

و...أرعن !

-حرام عليك... كم نسبت إلي من النوايا الخبيثة!... لكنك منحتني الفرصة لأذهب أبعد... الإعاقة قد تكون مساواة... نعم مساواة في حالات كثيرة... وإلا... لم نجد في العباقرة إعاقات تقربهم منا... تجعلهم آدميين مثلنا !؟... ويفعل الناس نفس الشيء مع آلهتهم... خذ آلهة اليونان... زيوس مثلا !

-نحن نتحدث عن الناس العاديين، أناس مثلنا... متعلمين أو غير متعلمين... لاهم عباقرة أو آلهة ولا هم يحزنون !

-في هذه الحالة قد تكون الإعاقة امتيازا !

-اللهم إن هذا منكرا!... الإعاقة امتياز ! ؟

-صبرك ياصديقي... صبرك !... سأعطيك أمثلة بسيطة !

-من خارج نظرية الأسماء !

-لا أستطيع... هذا مشروعي للدكتوراه... يشغلني ولا يترك لي مجالا للتفكير بغيره !

-أمري لله يا دكتور !

-الأسماء... تلك التي كنا نتحدث عن الفاجعة أو المأساة فيها!؟...

-نعم ؟... ماذا وجدت فيها هذه المرة !؟

-المعطي... الشيخ... الكمنجة... مثلا... هذه كلها إعاقات... تصور الواحد منا يقف في محراب مسجد ليقول للناس المصلين: اسمحوا لي أن أقدم لكم نفسي: أنا المعطي!... أو يدخل إلى فصل في مدرسة ليقول للأطفال: أنا الكمنجة !... أو تلقى عليه القبض دورية شرطة وليس معه بطاقة هوية فيقول لهم: أنا الشيخ !... قل له سجل اسمك كاملا في بطاقة التعريف الوطنية: الشيخ المعطي الكمنجة تضحك !؟... الحمد لله !

-لا... لا... ليس كلامك ما يضحكني... أضحك لسبب آخر !... خفي !سري جدا !... تابع !

-الواحد منا... إذا كان يحمل اسما من هذا النوع... من أسماء الإعاقة... يكتشف ذلك بالصدفة... في مناسبة ما... ثم... ثم تتكرر المناسبات... تتعدد... فيدرك أنه يحمل قصورا معينا... وضعا تراجيديا... وضعا مشتتا أو مشلا... لكنه لا يلبث أن تفتح بصيرته... في مناسبات أخرى مخالفة أو مشابهة... فيدرك أن ذات الاسم قوة... حرية... تحرر من شيء ما من أشياء لم يكن يعلمها أو يقدرها من قبل... أن الاسم الذي يحرمك من أشياء يوفر لك أشياء أخرى...لا يمنع عنك كل الأشياء... يبيح لك العديد مما لا يبيحه اسم آخر... من باب التعويض أو العدل أو الإنتقام أو... القدر، ولم لا !؟... خذ الخلطي مثلا، إذا أدرك وقبل من زاوية الخلاطة، فإنه يسمح لك بقدر معين من الحمق بدونه لا يمكن أن تكون إنسانا، حرا، حيا... عاديا كسائر البشر، مقبولا من طرفهم ...ذلك الحمق الذي يجعلك تتصرف وتقبل بتعاطف وتفهم... وخذ اسمي: شيش كباب... هذا الاسم يعطيني امتيازا كبيرا على كل من ليس له مثله: أن أسخر كما أشاء... أن أمارس ما أريد من العبث... فأنا فقط شيش كباب، أي اسم ساخر وعابث مع خفة روح... !

-ليت خفيف الروح يخفف عني!... أي !

-اضحك أيها الخلطي... اضحك كما تشاء !... هذا الاسم في نفس. الوقت لا يكف عن الصراخ بداخلي... بأقصى عنف ممكن... يقول لي: اسمع يا خفيف، عليك أن تثبت للجميع، للقوي وللضعيف، للمعوق والسليم، للعابث والجاد، للقريب والبعيد، لكل الدنيا... أنني اسم جدير بالاحترام والتقدير... وهكذا ...إذا فكرت جيدا تجد الإعاقة والعبودية في نواح عديدة كما تجد القوة والحرية في نواح أخرى كثيرة من اسمك... من أي اسم!

-وإذا تكالبت عليك لعنة الأسماء من كل جهة كأن يكون اسمك الجيلالي الخلطي وتأتي لتقبض روح قريب لا تعرفه اسمه الشيخ المعطي الكمنجة !؟

-هنا تظهر لك أهمية... حتمية التهكم... أو فقط... السخرية !... ... التهكم ... ضروري قدر منه في الحالات المسماة سوية.. لكنه حتمي... لا يمكن أن يفارق ما يسمى بالإعاقة! ... مازلت تضحك !

-إني أمارس تهكما سريا لا تستطيع تصوره... يا خفيف !

-ثم إنه لا أحسن من أن يكون لك اسم لا تاريخ له... اسم ضاع تاريخه أو شوه... اسم لا ماضي له بالنسبة إليك... اسم تصنعه بنفسك وتتحمل مسؤوليته وحدك... بلا رقيب ولا وصي !... أنا لو ظل اسمي الدلائي لحملت تاريخا فظيعا لا طاقة لي به... فيه الأخطاء... من الهزائم أكثر مما فيه من النجاح... اسم تاريخه ثقيل كما ونوعا !... أما اسمي الخفيف شيش كباب !... سأنصح أولادي، بمجرد ما يبلغون سن الرشد، بأن يختار كل واحد منهم اسمه العائلي الخاص !

-وأنا سأنصح أولادي بحمل سراويل احتياطية إذا ركبوا شويحنة مثقف !

-لكي لا يتحملوا تاريخي الخاص...

-لو تدري أني وضعت تاريخا قدرا... في سروالي !

-الآن سأنزلك... فورا ... لأنك أصبحت أهلا لأن تقابل الشيخ المعطي الكمنجة... قادرا على أن تفهمه... أن تتحمله... لقد بدأت تفهم لغة أقاربك... اضحك... اسخر... تهكم... وأنت جاد... في منتهى الجد... وأنت في عنق المأساة... ملطخ بالبول و... وإلا فإنك ستغلب... ستمرض أو... تنحرف... تصاب بالعمى أو الشلل !

-آمين... آمين... يالعين !

-إنه ليوم عظيم: لأول مرة في تاريخ البشرية يقوم فيلسوف بفعل شيء في سرواله، يعبر بجسده..." الجسد في فلسفة"...

-أنزلني يا لقيط !

-حالا يا قذر... تعال ! ... لا انتظر... !

-أنزلني وإلا...

-هل... هل... هل لاحظت أننا بدأنا نتفاهم... نتقارب ! ؟

-أفهمني... رجاء... أنزلني... اقترب مني وانزلني !

-حاضر... تعال... هات يدك ودعني أحملك !

-شكرا... لا تدع الرائحة تتسرب إلى أنفك!

-هناك من هم أقذر منك... الوسخ أنواع...

هناك...

عيــــن المعيــش

-الدكتور "مصطفى شيش كباب " عندنا، أهلا وسهلا ومرحبا، أين اختفى صاحب الفضيلة !؟

-في مصيبة حتى استويت، طبخت على الفحم ثم رميت !

-إني لأرى في الهواء كذبة أو ابتزازا أو مناورة وقد...

-" الهوندا" يرحمها الله !

-كل مناوراتك تبدأ بهذه " الهوندا " اللعينة، تعودنا... الباقي !

-يا أخي... الباقي الله، والله !

-تبكي!؟ ونظريتك في المقاومة... ونظرية الأسماء، اسمك ليس في منطقه البكاء !

-ذهبت " الهوندا " بمدخرات العائلة كلها !

-هربت !؟... مع "هوند" !؟

-لا !

-سرقت !؟سرقها ياباني "تقطع به الحبل " !؟

-لا !

-أقترح عليك أن تجلس ها هنا مكان "الشيخ المعطي" وأن تحكي لي الواقعة، إذا كانت هناك واقعة، طبعا... وقبل ذلك، آمرك بأن تمسح هذه الدمعة اليتيمة التي تتمسك بجلدك اليابس مخافة أن يلتهمها ويحرم الأرض منها !... إحك، يا سيدي، ماذا وقع للقيطة "الهوندا " !؟

-أوقفتها في "غراج علال "وبقيت بداخلها أنتظر زبونا، طول الصباح... لأحد... نزلت وأخذت أصيح مع الصائحين: "هوندا... هوندا... بلاصة لسيدي عثمان... بلاصة لبرشيد... بلاصة للصين... للهند... لليابان... هوندا... بلاصة لوجه الله !... بلاصة بالمجان !... بلاصة... ! "

فجأة سمعت صدى ارتطام يشبه الزلزال، التفت إلى شويحنتي، رأيتها معلقة على حائط كصورة سوريالية، كأن " دالي" رسمها بنفسه هناك !

-اللعين، عاد من العالم الآخر لأنه نسي أن يرسم "بالهوندا "قبل أن يموت، فعلها المجنون وعاد إلى قبره، بطبيعة الحال !

-في غفلة مني تراجع سائق بحافلته إلى الخلف، حيث كانت "الهوندا" واقفة تسترزق الله، ألصقها بالحائط، علقها هناك كما يعلق ملصق !

-حافلة !؟ حافلة تفعل كل هذا... ماذا وقع للحافلة ؟

-لا شيء، لا شيء بالمرة !

-مع أن إطارات حافلات هذا الوقت مثل إطارات السيارات الجديدة !

-هناك حافلات من مخلفات الحرب العالمية الثانية نسيها عندنا الألمان أو الأمريكان !

-والحائط، تهدم الحائط !؟

-ولا شقة صغيرة، بقي في مكانه تاما وكأنه صمم لتعلق به "الهوندا" !

-ومع أن هناك حيطانا يمكن أن تسقطها الريح، عاصفة صغيرة !؟

-هذه حيطان اليوم، " المسوس" !

-سبحان الله، "الهوندا " مصابة كذلك، و يقولون إن لليابان معجزات !

-اليابان بدورها وصلها الغش، ونحن لا نرى منها سوى صورة القوة !

-أنا كنت أظن، حتى وقوع هذه الواقعة، أن كل شيء يشبه صاحبه

،ألا يقولون "الحاجة اللي ما تشبه مولاها حرام "؟

-صحيح، الأديب مصاب في هذا الزمان !

-والفيلسوف كذلك، منذ قديم الزمان !

-والباحث والفنان والعامل ...

-والمومس ومرضي الوالدين... كلنا مصابون ! كمل ،كمل... "أهوندا !؟

-لم أجد سوى العويل و الشتم، فقدت عقلي، اجتمع حولي"غراج علال" كله، توقفت حركة السير، لو رأيتني أنتف شعر رأسي، أعض الأرض، أرتد من الاصطدام بحافلة أو شاحنة للاصطدام بسيارة أو جدار... قيامة !

-أتصور ذلك، أعرف انك "عيساوي " !

-ثم جاءت الشرطة وأخذتنا إلى " المقاطعة"، أنا والسائق ومساعديه...

-فقط !؟

-وبعض الشهود من المنتفعين بالحركة في "غراج علال "... حرروا لي محضرا بتهمة الاعتداء على الغير وعرقلة السير والإخلال بالأمن العام والوقوف في مكان ممنوع على "الهوندات" !

-أنت خطر دائم على الأمن العام، فعلت كل ذلك هل تتكر !؟

-أقول الحق: لا أذكر ما فعلت منذ رأيت "الهوندا " معلقة على الجدار، خلف الحافلة " الحربية "، كملصق، كإعلان عن أحد أفلام الرعب !

-وماذا حدث بعد ذلك عند الشرطة، اعتقلوك كل هذه المدة ؟

-بقيت عندهم يومين أنا وأحد مساعدي السائق، شاب في العشرين من عمره قالوا إنه مدمن على الحشيس، لا يتوفر على رخصة سياقة، إنه هو الذي حرك الحافلة إلى الوراء متسببا بذلك في خراب عائلتي !

-الشرطة هي التي قالت ذلك !؟

-لا، مالك الحافلة وسائقها وجماعة "المنتفعين"، الشهود أعني !

-وأنتما الوحيدان المتابعان في القضية؟

-أجل؟ ثم أحالونا على قاضي التحقيق الذي أحالنا بدوره على مستشفى الأمراض العقلية لما عاين حالتي النفسية والحالة العصبية للمتهم الآخر، ثم عدنا إلى قاضي التحقيق...

-إذن أنت الآن "أحمق" بشهادة مستشفى الأمراض العقلية أم تراك استطعت أن تضحك على الأطباء كذلك !؟

-في تقرير الطبيب الذي فحصني شيء من هذا: "جنون عابر، لكنه يمكنه أن يعاود في مواجهة أية صدمة جديدة إذا كانت من القوة..."

-وأتخيل أن الحالة عامة في العائلة المحترمة !

-من حين لآخر ينفجر أحدنا بهذا الشكل، ينهار... مهدئات وبعض العناية الزائدة ثم يعود إلى حاله ماعدا أمي التي لا تعود إلى حالها إلا بعد زيارة "سيدي عبد الرحمان " !

-والطبيب اعتبر الأمر عاديا، شيء وراثي، عاد إذن !؟

-لا، على العكس "إنه يمكنه أن يعاود..." !

-ثم ماذا حصل بعد ذلك !؟

-ماذا أقول لك!؟ تحقيقات وقضاة ومحامون ورجال شرطة وخبراء و معاينات ومشاجرات واستعطافات و... كل شيء... قيامة... عالم، عالم آخر!

-وأهلك، عائلتك كيف تلقوا الكارثة؟

-بعضهم في المستشفى وبعضهم في السجن أو عند الشرطة وبعضهم طريح الفراش والباقي ينتظر!

-ينتظر !؟... ينتظر ماذا !؟

-ماذا !؟ الله أعلم ما ننتظر حقا... لكنا جميعا ننتظر جلسة المحكمة، ننتظر الفرج !

-ربك كبير، أمسكين، لا تيأس !وسترى ستكون هذه الواقعة بداية الفرج !

-أصبحت عرافة !؟... ولم لا تكون بداية الطامة الكبرى !؟

-الله أكبر !

- تعرف ما" الهوندا "، هذه " الهوندا" بالنسبة لنا جميعا في العائلة !؟

-مصدر رزق حلال، بداية مشروع "عصري "، أمل... صندوق توفيركم وشركة استثماراتكم!

-هي الآن خرابي ونهاية حلم عائلة !

-ستنصفك المحكمة، ستعطيك حقك كاملا !

-وأنا لا أشك في العدالة، لكنها لن تستطيع أن ترد إلي "الهوندا "، تلك "الهوندا"... أنت لا يمكن أن تفهم !

-ستشتري أخرى، جديدة... تشتري شاحنة أو حافلة، لم لا !؟

-أنت تحلم !

-وأنت... انتهيت، كففت عن الحلم، أليست... !؟

-أنا لست شيئا، أنا كففت عن الوهم، عن أن أقاوم وحدي، أن أصارع بأي شيء... بشرف، أنا كان علي أن أحترف الجريمة، أن أتاجر... هل تعرف كم يكسب تجار المخدرات، مثلا؟

-أعود بالله !

-إن ذلك الكائن الغريب الذي يشوه أسماءنا هو نفسه الذي يشتت أرزاقنا !

-إسمع، أسوأ شيء أن تبدأ طريقا وأن تنهزم في بدايته أو وسطه !

-هذه فلسفة... هذه، ألخلطي !؟ لو قبلت التدريس لنزلت بالفكر إلى أحط درجاته، إلى أدنى مما هو عليه الآن... أنا كان علي أن أهاجر !

-يا سلام... هاجروا جميعا، اسمحوا في حقكم في بلدكم، سيأتي وقت لن تجدوا من يشتري منكم هذا الحق بريال !

-أنت قوي... في الوعظ والإرشاد... ثم... ثم إنك تمشي... شفيت من الشلل أم كنت "تمثل" علي !؟

-أخيرا تخرج من ذاكرتك وتنتبه إلي !... لو لم تفعلها لأغلقت باب الرحمة في وجهك !

-أجبني، إنك لم ترد على سؤالي: لم تكن مشلولا، كنت تضحك علي، العالم كله يضحك علي، أليس كذلك !؟

. -إذا سمحت لي أود أن أود أن أرفع إلى كريم علمك ثلاثة أخبار طريفة: أولا، أنا كنت مشلولا حقا وقد شفيت. ثانيا، إن لي مشروعا قد يساعدك على شراء "هوندا" جديدة. ثالثا، إن "الشيخ المعطي الكمنجة" شخصية لا وجود لها في الواقع !

-السلام عليكم !... أرجو أن تسمح لي بالإنصراف، فأنا لا أحب لا "سيدنا قدور" ولا "بابا نويل"... أما جحا فقد استفاق من نومه واكتشف أن الكنز تساقط في الطريق من الثقب الذي تعرف في الكيس الذي تعرف !... السلام عليكم !

-لا انتظر، إجلس... القصة ليس فيها لا "جحا ولا "هدهد" ولا " افتح ياسمسم !"... أهيء شايا ثم أحكي لك، ليس مطلوبا منك أكثر من لحظة استماع !

-إني طول عمري وأنا أستمع، ماذا استفدت!؟

-تستمع أو تتكلم !؟ إن "المستمع " الجيد يشعر بهدوء كبير، بنوع من الصمت الإيجابي بداخله، هل شعرت بشيء من مثل هذا في يوم من الأيام ؟

-قصتك، واضح، إما سياسية وإما نفسية وإما ميتافيزيقية!

-لا هذا ولا ذاك وهي كل ذلك !

-إذن خرافة... خرافة فقط !

-عيب، أنت رجل أدب، تعرف بأن في القصص "خرافات" والعالم مليء "بالخرافات"؛ كل شيء فيه يمر إلينا عن طريق " الخرافة" !؟

-أنا خارج من... بل داخل في كابوس، كارثة... في زلزال... تريدني أن أعتبره خرافة، العالم خرافة، ما يحدث لي خرافة !؟

-لا هذا ولا ذاك... لا تخلط كل الأوراق... دع الخلط لي، للخلطي !... ثم تذكر كم صبرت عليك وأنت تشرح لي نظريتك "العظيمة" في الأسماء... اعطني فرصة، من فضلك، لأشرح لك هذه "الخرافات" الثلاث !

-أمري لله !... إشرح لي، إذن أيها المخرف، كيف يكون "المعطي"، "الشيخ المعطي الكمنجة" الذي يعرفه كل الناس، كما يعرفون أمه، الذي كان يعاشرهم يوميا، يعمل، يأكل، يغني، يمشي، يتكلم... كيف يكون رجل كهذا مجرد... مجرد... "خرافة" !أنت كمن يقول إن "الهوندا" خرافة... الحادث خرافة... كل ما أعيشه خرافة !

-تعجبني عندما تبدأ "تفكر"، تكون هكذا... هادئا... تتخلى عن صخبك من حين لآخر و... تستمع... تستمع إلى خارجك وداخلك !

-نحن لا نستمع، نحاول أن نغلق الآذان لكي لا تتسرب إلينا لا أنفسنا ولا الخارج... تعرف لماذا !؟... نتكلم لنملأ آذاننا، لكي لا ننفجر... هذا الصخب مدمر سواء جاء من الداخل أو الخارج، نحتمي منه بالكلام...

بالثرثرة !

-أكيد، لكنا نستمع مع ذلك، نستمع ولا نصغي... وأنت بالذات مستمع جيد، حين تريد، مصغ ممتاز... اصغ !

-حاضر يا أستاذ، حاضر بامتياز... ها أنا أصغي: إحك لي إذن كيف فقدت عقلك بدورك وابدأ لي من فضلك "بالمعطي": " المعطي " خرافة !؟

-لا يوجد، في الواقع، ولم يوجد، حقا، في أي يوم من الأيام، شخص اسمه" المعطي الكمنجة" !

-يا سلام !... أسيدي الخلطي، أنتم في العائلة هكذا... كلكم... ليس فيكم واحد "سوي" أم أنت فريد بفضل تأثير "الفلسفة"... تعرف قصة الرجل الذي أول نظرية "المثل" عند أفلاطون معتبرا أن عالم "الأشباح" أو "الظلال" غير موجود بالمرة... تريد أن تعرف ما حدث له في زحمة الدار البيضاء !؟

-أعني بالوجود وجودك ووجودي: الوجود المادي، العيني، الموضوعي، إذا شئت، عندما تقول أو أقول، بعيدا عن كل التعقيدات الفكرية والنفسية، إن "الجيلالي الخلطي" موجود أو"مصطفى شيش كباب" موجود، أي أنه ولد ذات يوم وأن له حضورا بيننا وأنه سيموت ذات يوم، يختفي من بيننا؟

-وهذه الأوصاف لا تنطبق على "المعطي"، أليس كذلك؟

-واحدة فقط من هذه الصفات لا تنطبق عليه: إنه لم يولد، بالمعنى المذكور، أي لم يوجد، بنفس المعنى !

-و"الحضور"، "الموت"... هل تجرب أن تعلن على الملأ: " أيها الناس، يا من تعرفون المعطي جيدا، إن المعطي لم يوجد في يوم من الأيام بينكم لأنه حضر، حضر ثم مات" !؟

-لست "أحمق" لكي أقوم بعمل مثل هذا !

-وماذا تستطيع أن تقول لهم !؟

-لا شيء... إني أقول لك أنت: إن "المعطي" رغم "حضوره" ورغم "موته" لم يوجد لأنه لم يولد، مثل بقية الناس، لكي يوجد !

-والحالة المدنية، ماذا تفعل بالحالة المدنية... تحرقها !؟

-لقد وجد، بالفعل، في الحالة المدنية وله بطاقة هوية كما كان له "حضور" بين الناس !

-ومع ذلك لم يوجد، كيف !؟ أكاد أقتنع بأنك واحد من هؤلاء "التلاميذ" الذين يمارسون البله، أي استعمال العقل في ما لا ينبغي وكما لا ينبغي، لاستخراج تفاهات فلسفية وأدبية وعلمية من أعم النظريات !

-كيف !؟ "المعطي"، بمعنى ما، ولد، ولدته أمه...

-هذا تسمونه تناقض أم ماذا... ولد أم لم يولد، بالمعنى العيني !

-ولد بالمعنى الرمزي ولم يولد بالمعنى العيني!

-أمهاتنا أصبحن إذن يلدن بالمعنى الرمزي... يلدن الفلاسفة مثلك !

-كل أم تلد بالمعنيين: المادي والرمزي !

-ما علينا، بأي معنى ولدت "رقية" ؟

-القليل من الأمهات يلدن بمعنى واحد فقط، إما ولادة مادية وإما ولادة رمزية !

-كما في الحمل: إما " مادي " وإما "رمزي، أي "كاذب" بينما القاعدة أن يكون الحمل "ماديا" و "رمزيا" في نفس الوقت !

-تقريبا، " رقية "ولدت "المعطي" ولادة رمزية فقط !كذلك كان "حملها" به وكذلك كانت " تربيتها " له، كان كل "حضوره" !

-والناس الذين رأوه وعاشروه !؟

-الناس الذين "رأوه" و"عاشروه" لم يكونوا يرون ويعاشرون سوى

"رقية" !

-تقصد إن "المعطي" هو "رقية" و"رقية" هي... !؟

-إذا شئت... إذن "رقية " كانت مرة "رقية " ومرة "المعطي"... هذا ما كان يراه الناس !

-شيء لا يصدق ! حرارتك عادية، ليس عندك حمى !؟

-شيء ينبغي أن يصدق لأنه "واقعي"، "حقيقي" بالرغم من أن الناس لم تكن " ترى" منه "الأشباح" ولا "الظلال"، أي " الأقنعة"... هذه الأقنعة هي الواقع، الحقيقة لأنها موجودة ولأن وراءها حقيقة أعظم، حقيقة "رقية"... هي التي تفسرها أو... تبررها !

-تعيش "امرأة" بيننا "بشخصين" "بقناعين" ولا أحد ينتبه إلى ذلك !؟

-لا تتسرع في الحكم: كل الناس يعيشون بأقنعة أو شخصيات متناقضة أو مختلفة فقط، أي متكاملة، ولا يعرفون... ولا نعرف... في الغالب !

-وكيف عرفت أنت، من أطلعك على هذا "السر" !؟

-تذكر يوم رميتني بباب هذه البراكة؟

-أذكر، آسف !

-طرقت الباب طرقا قويا وانصرفت...

-وأنا أتمنى لك حظا سعيدا مع... مع من !؟

-فتحت لي عجوز اسمها "رحمة"، سألتني: "أنت الجيلالي !؟" أجبت: "أنا الجيلالي !". قالت:"أنا رحمة صاحبة رقية.ادخل إنها مازالت في انتظارك !". لم ألاحظ لا "رقية " ولا "مازالت" في كلام"رحمة". قلت: "لا أستطيع أن أدخل... هل تعرفني؟" جرتني من يدي الإثنتين وأدخلتني: "لا أقدر على حملك، صحتي كما ترى !"، امرأة نحيفة متخشبة. في الداخل

وجدت "رجلا " يحتضر. لم يكن لدي شك في أنه "المعطي". سلمت: "كيف حال عمي المعطي؟". قال: "تأخرت علي ،كيف حال أمك !؟. قلت "بخير"، تسلم عليك سلاما حارا !."قال":"تعال، اقترب مني !". جررت جسمي "قربه". "أمسك" يدي اليمنى داخل "يده" اليسرى. وجدت "يده" باردة، ثلج. "قال": "رحمة، هيئي لنا أكلا !". ثم "نام". جاءت العجوز بخبز وشاي. سألتها: "نوقظه" ؟. "لا داعي، إنها قد تموت الليلة أو غدا !". مرة أخرى لم ألاحظ صيغة التأنيث. نزل الظلام، أشعلت «رحمة" قنديلا. قال "المعطي": "افرشي له جنبي!". هيأت العجوز فراشا من الصوف. وضعتني مكوما في الفراش. أطفأت النور وانصرفت. قالت وهي تغلق الباب:"إذا احتجت إلي ناد... إني أضع رأسي قرب رأسها ! ".لم أحتج إلى وقت طويل كي أغط في نوم عميق... قلت نمت !؟ أدري، في الواقع ! لقد غفوت قبيل العشاء. من هذه اللحظة إلى الفجر لم أعلم إن كنت نمت حقا أو بقيت صاحيا. كنت في عالم تتساوى أو تختلط فيه اليقظة بالنوم...

-كنت تحلم ولا شك !

-لا أعتقد !

-لعلك مت ثم حييت مرة أخرى !

-اسمح... لي "الرجل" الذي كان نائما جنبي، الذي كان يحتضر، وثب من فراشه، أمسك بكمنجة كانت تتدلى من سقف الكوخ، تأكد من أن أوثارها مضبوطة وأخذ يعزف ويغني، ثم مليء الكوخ بعدد هائل من الأشباح كان فيهم الأعرج والمشلول والأعمى والمشوه الظهر أو الوجه أو اليدين... أشباح "معوقة" ترقص، تغني... وأنا جنب "المعطي"، كما لو كنت لازمته كل عمري،" أضرب" على "التعريجة" أو على "البندير "، تصدق ! ؟

-طبعا، أصدق... لم لا أصدق ؟

-بعد نهاية كل "هيت" ينسحب شبح أو مجموعة من الأشباح، يكونون قد شفوا تماما !

-وأنت، كيف" شفيت"؟

-بقينا على تلك الحال إلى مطلع الفجر. آنئذ علق "المعطي " الكمنجة في مكانها، هناك حيث تراها الآن وقال لي: "نصلي الفجر وننام قليلا قبل الضحى !". وقفت" أفك فتحة سروالي في مايشبه المرحاض فذهلت إذا أكتشفت أنني كنت واقفا على رجلي، طول الليلة !

-كرامة من كرامات الشيخ المعطي الكمنجة، أليس كذلك ؟

-كنت ستصدق لو "رأيت بأم عينيك، لو استطعت أن أتذكر كل ما جرى في دهني، في جسدي تلك الليلة !

-ربما جرى شيء عجيب حقا في دهنك، كما تقول!

-وماذا تقول في أني حفظت في تلك الليلة العشرات من الأغاني التي لم أسمعها من قبل، سمعتها لأول مرة، تلك الليلة !

-لا أقول شيئا... قد يكون جرى في عقلك شيء، كما تقول !

-إصبر علي لحظة أخرى لترى أكثر... جاءت "رحمة" وأيقظتني قبيل الضحى. كان بيدها كأس ماء وقطعة صغيرة من الصوف. أخذت تغطس الصوف في كوب وتعصرها في فم "المعطي" وهي تقرأ، في كل الوقت، الشهادة. كان "المعطي" في مكانه ممتدا، جامدا كأنه لم يفارقه تلك الليلة. دهشت. وقفت. كنت واقفا على رجلي ! مشيت. كنت أمشي على رجلي !قالت العجوز: "خذ الكأس !". ارتعش جسد "المعطي " ارتعاشة خفيفة ثم قلت باستغراب كبير: "مات" !؟. "قالت": "الدايم الله "أشعلت العجوز البوطاغاز. وضعت عليها إناء كبيرا مليئا بالماء. خرجت ثم عادت، قالت: "يجب أن تساعدني على غسلها، لا حياء في دين!". بدأت أعري جسد

"المعطي". ذهلت: "إنه امرأة... جسد امرأة !"

-كرامة أخرى من كرامات المعطي، أليس كذلك !؟

-سألت رحمة: "المعطي امرأة " !؟. قالت:" هذي خالتك رقية! "ازداد ذهولي:"رقية رجل !؟. رفعت بصرها نحوي مستغربة: "اذكروا موتاكم بخير يا ولدي !". ونظرت إليها مهددا: "هذه مؤامرة، جريمة، قولي الحق !". كانت الدموع تنهر من "عيني" الجسد النحيف المتخشب. لأول مرة أحس بأن رحمة حية، تحس! بقيت أتساءل: إني لا أفهم: المعطي موجود أم غير موجود ورقية... ألم تمت منذ سنوات، ما هذا !؟ من الحي ومن الميت"... لم أساعد العجوز بشيء يذكر على الغسل. انتهت من الغسل. طلبت مني أن أعينها على وضع الجثة في الكفن. قلت لها: "قولي لي أولا: هل مات المعطي قبل رقية ومات السر في المعطي قبل رقية وما السر في تنكر رقية في لباس رجل ...!؟" قالت: "العقر و أولاد الحرام ودوران الفلك، سلم تسلم،يا ولدي !".لجأت إلى التهديد: "هذه جريمة لا يمكن التستر عليها، أنا سأرفع الأمر إلى السلطات المعنية !". جلست العجوز ممسكة رأسها بين يديها،" لن ينفعك تفكير، أنا ذاهب !". قالت:"اصبر، تستر عورة المرأة المسكينة ثم أحكي لك !". وضعنا رقية في الكفن. هيأت العجوز شايا ثم قصت علي الحكاية كما يبدو أنها عاشتها مع "أختها"، رقية، "اخترعت" رقية شخصية ابنها المعطي، اكترت"رضيعا" لتسجله في الحالة المدنية، اختفى "الزوج". "كبر الإبن" صارت "رقية"، طيلة خمسين عاما تخرج على الناس في إحدى شخصيتين": شخصية "المعطي الكمنجة " وشخصية "رقية الحرارة" !

-وصدقت أنت هذا التدليس!؟ هراء... الناس تعرف "المعطي" وتعرف "رقية"... هما أشهر من أن يرقى إليهما شك في وجودهما الفعلي !

-تريد الصراحة؟ أنا لم أشك لحظة واحدة، طول تلك الليلة، في جنس الجسد الذي كان ممدودا في الكوخ أو في هيئته وصوته، صوته بالخصوص، قبل تعريته: لقد كان رجلا !

-وتحول إلى امرأة، في لحظة من ليلة واحدة، كما تحولت أنت، في لحظة من ليلة واحدة إلى سليم الرجلين !

-تريد أن تقول أني لست قادرا على المشي... هاه... أنظر !؟

-هذا شيء يمكن أن يفهم، لكن أن تعيش امرأة بشخصيتين وفي وقت واحد !...

-في وقت واحد، من قال ذلك !؟

-الناس يعرفونهما، كانوا يرونها !

-ربما تكون المشكلة هنا بالضبط: هل بإمكان أحد من هؤلاء الذين "رأوا" أن يؤكد أنهما شوهدا في مكان واحد وفي نفس الوقت !؟

-طبعا، لقد رأوهما معا !

-أنت، أنت الذي تعرفهما جيدا، كما تدعي، هل سبق لك أن رأيتهما معا في نفس المكان وفي نفس الوقت ؟

-لا، لا أذكر... لكن يخيل إلي... !

-يخيل إليك أم رأيت بالفعل ؟

-رأيتهما أكثر من مرة، لكن... ليس معا !

-إن رحمة واثقة من هذا الأمر... كذلك هنية، صديقة أخرى لرقية !

-واثقة من ماذا !؟

-من أن رقية والمعطي شخص واحد... من أن لا أحد من هؤلاء الذين "رأوا" رأوهما" معا... ثم إنهما يعرفان كل دقائق الكيفية التي كانت "رقية " تتنكر بواسطتها في شخصية "المعطي" !

–و"المرأة " التي "دفنت " باسم " رقية" منذ سنوات، من تكون !؟

–تعرف إن عالم النساء البسيطات في هذه الدنيا، مليء بالألغاز والحكايات التي لا تتصور، بالتكافل الذي نسميه"التواطؤ" !

–دعنا من الأحكام العامة، أنا سألتك سؤالا محددا: من تكون تلك "المرأة "التي " دفنت " باسم "رقية"، هل يدفنون عندكم الرجال باسم النساء والنساء باسم الرجال !؟

–بالفعل "دفنت " امرأة اسمها "رقية"، أعطي لها اسم "رقية"، شقيقة لرحمة، جاءت من "الرحامنة" هاربة من زوجها بعد أن أصيبت بسرطان الرئة، "تقيأت صدرها"، كما تقول رحمة، وماتت مجهولة الهوية "فتبرعت" "رقية"، "الحقيقية"، بهويتها خوفا من الفضيحة ومضاعفاتها، "الله يرحمها، تقول رحمة، أعطتها اسمها بعد أن كانت بلا اسم ! " سترتها، تضيف هنية، الله يسترها ويجعلها من حوريات الجنة !"... تستطيع أن تفهم شيئا أنت من هذا، أيها الأديب العظيم !؟

–على فرض أن هذا ممكن، لم احتاجت "رقية"إلى "خلق " المعطي !؟

–جواب رحمة واضح:" العقر وأولاد الحرام ودوران الفلك ! ". أما جواب هنية فأوضح:" الإنسان الذي يكثر من الشك والسؤال يدخل في الشرك بالله ، طلب الستر وحسن العاقبة واجب !"... فهمت أم تفضل أن أؤلف لك نظرية في الموضوع !؟

–ودين أمي ما فهمت شيئا من هذه " المتافزيقا" !

–هذا الذي تسميه "متافزيقيا" يحتاج إلى ملكة خاصة ليفهم في دقيقة ": عين المعيش "، أنت تملك" لسان المعيش " وحده، محروم من تلك النعمة !

–"عين المعيش " !؟ لا... لا... لن تصطادني بعبارة فارغة: قل لي فقط لماذا "ماتت" رقية، لماذا "قتلت" نفسها قبل "المعطي" ؟

-لو كان بإمكانك أن تفهم معنى "عين المعيش"وأن تنظر بواسطتها إلى بعض الأشياء لفسرت لك، لكني سأغامر عن طريق أخرى أبسط": من المفروض، يا سيدي الأديب، أن تموت الأم قبل الإبن، في الأحوال العادية، طبعا، وأن تعير امرأة اسم امرأة، إذا كانت في حاجة إلى هذا الاسم، لا أن تعير امرأة اسم رجل...

-طيب، طيب... الظاهر أن شللك أصبح "عقليا"، ولكن...

-ولكن، ماذا ؟

-"رقية" الحرارة " هي "رقية الكمنجة" عفوا "المعطي الكمنجة" !... أنا شربت حريرتها... لذة فريدة !

-وكذلك عزفها وغناؤها... طرب فريد !

-قلت لي إنك، في تلك الليلة، حفظت عشرات الأغاني دفعة واحدة ؟

-تريد أن تمتحنني؟

-لا... وضربت الإيقاع على " التعريجة " و البندير ؟

-ماذا يجري في عقلك الخبيث ؟

-" الهوندا " رحمها الله... لم لا نمارس " الحلقة"، أنت تغني وتعزف وأنا أجمع النقود من المتفـــرجين !؟

-أنا، بالفعل، يجب أن أجد طريقة بواسطتها أحافظ على تلك الأغاني... لكني... وهذا هو الخبر الطريف الثالث... سأنشئ مكتبة في هذا الكوخ وقد فكرت في أن أجعلك شريكي !

-مكتبة، لمن وبماذا؟

-تركت لي رقية إرثا متواضعا نوظفه في إنشاء مكتبة !

-أنت جننت... مكتبة لمن !؟

-مكتبة من الكتب المستعملة، أنت تعرف عيون الأدب وأنا أعرف

أمهات الكتب الفلسفية...

-يا رجل... قل على الأقل مكتبة للكاسيت الشعبي !

-تعرف لماذا يسقط الكثيرون من أبناء الفقراء في أول الطريق أو في وسطها؟

-لأنهم لا يعرفون "قانون السير"، يمشون كيفما اتفق !

-لا...

-لأنهم بلا أحذية ويعانون من سوء التغذية...

-لا...

-لأنهم بلا "وسائط " قوية !

-قلت لك: لا... لم لا تسمع !؟

-لأنك تريد أن تمارس علي شعبوية مغشوشة... قل لي: ماذا تريد بالضبط ؟

-أريد أن أنشيء مكتبة باسم "مكتبة رقية لمزابية الحرارة " !

-وأنا لا أمانع... إلا...

-إلا، كمل ؟

-إلا في الاسم !

-ماذا تقترح؟

-"مكتبة رقية والمعطي... أقول لك لماذا ؟

-قل !

-يجب أن يظلا شخصيتين " مستقلتين"و"متلازمتين" في نفس الوقت ! ... ثم إن"لمزابية" و"الحرارة "...يعني !

-أخيرا تفيدنا... نظرية الأسماء أعني... في شيء !

-شكرا !... شكرا جزيلا ! يا... العفو... تستطيع أن تتحمل المشي

طويلا؟

-طبعا، لماذا ؟

-أدعوك إلى الذهاب معي لمعاينة "الهوندا" وهي في بداية طور "الترميم" !

-أنت متأكد من أن الطرق، هذه المرة، تؤدي مباشرة إلى "الهوندا " ؟

-متأكد... هناك منعرج واحد فقط !

-أي منعرج؟

-تجمع للجامعيين العاطلين!

-نأخذه !

-نأخذه إذن !

خميل المضاجع

1

ماذا تفعل حين تصاب « بأرق » « مفاجئ »؟

أنت تعرف أن هناك "مشكلة" حلت بشكل سيء، أي في حاجة إلى وقت "إضافي" تسرقه من النوم، تعرف أنك "تهمل" مشاكلك، أنك ستصغرها أو تضخمها، حسب الحالات، فلا تفاجأ بالأرق، لم تفاجأ إذا كنت تقول، مضخما أو مصغرا: "والله ليس لنا سوى مشكلتين، لا غير: الخبز والحب!"؟

ماذا تفعل في هذه الحالة إذن؟

أمي تكثر من الصلاة والصوم، والدي يدمن القراءة وعدم الكلام، أختي الصغرى تجري، تحول البيت إلى حلبة للجري، أختي الكبرى تبرع في تناول المهدئات الطبيعية، أخي المتوسط يشرب الخمر، معه دائما، في محفظته، زجاجة من النوع القوي... أما أنا فأستمع إلى الإذاعة! لذلك يعتبرني الجميع، في البيت طبعا، "سبب" أرقهم، أحيانا كثيرة!

في الإذاعة يمكنك أن تغرق مشاكلك في مشاكل الآخرين، فهؤلاء "المستمعون" أو "الضيوف" عائمون في "المشاكل" ولا يعرضون شيئا آخر غير "المشاكل" حتى وهم

"يفرحون" أو "يقدمون" التحيات والمتمنيات أو "يعرضون" رأيا علميا أو مجرد وجهة نظر عادية في "مشاكل" بعضهم البعض أو "مشاكلنا" العامة، وهذه البرامج، خاصة الليلية، "المسلية" منها و"الجادة"، تطرح من "المشاكل"، على من يريد أن يعرف كيف يقرؤها، ما لا يعد ولا يحصى، سواء منها

"الذاتي" أو "الموضوعي"، "العام" أو "الخاص"، كنز لا يوجد في أي كتاب، ولا في التلفزيون!

أصواتنا في الليل بالخصوص، رهيبة! ربما لأننا تعودنا على أن نطفئ الضوء قبل أن نتعرى! مع الصورة يزعجنا الضوء، يرانا الآخرون، أولئك المتلصصون مثلنا! في الظلمة نصبح نكرات فنسترجع هواياتنا الصغيرة... وهات يا نذالة، يا جرأة، يا حقارة، يا بؤس في الفكر والجسد والروح، يا أنياب ويا عيون ثاقبة النظر!... حين تدمن هذا العالم الليلي تصبح تبحث عن أي مشكلة تطيل الظلمة وتكثفها، كمن يدمن الملاهي والمخدرات!

غير أن هذا العالم وافر التسلية كذلك: يجب أن يكون المرء خفيف العقل ليساهم فيه وأن يتوفر على قدر لا بأس به من التهكم أو اللامبالاة أو... التواطؤ... التسامح!...

في تلك الليلة الباردة الحالكة، منذ منتصف الليل، كنت في انتظار برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك!". أحب هذا العنوان وأجده رائعا وإن كنت أعرف، وربما لهذا السبب أحبه، أنه عنوان كتاب لأحد علماء النفس المعروفين: أغلبنا يسرق للنهب أو التملك أو الادعاء؟ أنا أجد هذا العنوان ذكيا، مفيدا: إنه، من جهة، يوحي لنا بأن الحياة لا معنى لها ولا طعم بدون نصيب يومي من المشاكل، كما تدل على ذلك عبارة "غذاؤك"، نبسطها أمام أنفسنا وأمام الآخرين لتصبح خفيفة، مستحملة، قابلة للحل، كما هو بين من عبارة "لا تخف": حتى "الأب" فرويد لا يمكنه أن يجد عنوانا كهذا لبرنامج إذاعي ليلي! لهذا السبب يكون بعض متوسطي المعرفة والذكاء أفيد، في بعض الأحيان، من عباقرة عصرهم وأكثر حظوة وشهرة!...

تعد هذا البرنامج و"تقدمه"، من إحدى إذاعاتنا الجهوية المعروفة، امرأة ناعمة الصوت، عذبة النبرات، حنون، مأساوية، وإن كانت تشبه، في

طريقتها هذه، طريقة إحدى المذيعات التي انقرضت من القسم العربي لإذاعة أجنبية: قد تكون تتلمذت عليها، في صغرها، لكن المهم أنها تتكلم ليلا بينما "معلمتها" لم تكن تتكلم إلا نهارا، فرق شاسع إذن بين المرأتين، واحدة كانت مأساوية في تقديم "أخبار العالم" والأخرى ماساوية في تقديم "أخبار الناس"! ثم إن هذه السيدة المغربية، وحسب ما يقال، آية في الجمال بينما زميلتها تلك لم تكن تملك من جمال الجسد سوى ذلك الصوت المأساوي. ينبغي أن تجتمع صفتا الجمال، الصوت والجسد، في الليل!

وينبغي أن تكون لهذه المرأة صفات أخرى جميلة: شيء من الشجاعة، شيء من المحبة وشيء من الصبر، أي شيء من الإنسانية لإدارة برنامج حساس يستمر ساعة ونصفا. ذلك أن مثيلاتها من الجميلات "يخترن"، عادة، برامج سهلة وجذابة من نوع "رغبات المستمعين" أو برامج مخربة للذوق، ولكن فطنة، من نوع "يوم مع الأطفال".

لقد اكتملت، إذن، لدى هذه المرأة كل صفات المنشطة الناجحة، حتى صفة امتلاك المعرفة الضرورية عوضتها بقدرة كبيرة على إدارة الحوار من غير أن تتورط فيه كطرف له رأي علمي دقيق، كانت كل مهارتها، على هذا المستوى، تتجلى في قدرتها على الاستماع إلى الآخرين والتدخل، في الوقت المناسب، الذي أصبحت تراه على وجه من تستضيفه وتدركه من نبرات صوت المتكلم من خارج الأستوديو، التدخل، في هذا الوقت بالذات، باختصار شديد، لخلق تصادم بين الأصوات التي كم كانت تحتد، من حين لآخر، من غير أن تفقد سيطرتها عليها.

كانت إذن بالصفات التي ذكرنا، تملك صفة أخرى نادرة: سرعة البديهة أو الذكاء المهني الذي اكتسبته من السنوات الطويلة التي قضتها في الإذاعة.

لذلك، بعد المقطع الثاني من "أنشودة السعادة"، كنت تعرف أن بيتهوفن يستعد، شخصيا، لاستقبال أكمل مذيعة في العالم، عندما يبدأ صوتها "سيداتي، سادتي، مستمعينا الكرام!". كنت تظن أنه استمرار طبيعي لتلك الموسيقى وقد لا تدرك أن تلك الموسيقى قد انتهت بالفعل إلا عندما يتكلم مستمع يحاول "تقليدها" (ألو... الأخت جميلة، معك على الخط، من مدينة... مباشرة على الهواء، الأخ الوفي، المخلص للبرنامج!) أو أحد الضيوف "يتمعلم" (قبل التطرق إلى هذا الموضوع برؤية علمية، ومن جميع زواياه وأحب، في البداية، في الواقع، أن أشكرك، شخصيا، الأخت...). لو ننظر إلى أنفسنا، نستمع إليها، ونحن "تخطب"!...

ثم إن المرء ليحار حقا: كيف استطاعت امرأة بكل هذه الصفات أن تفلت من حبائل الزمان، ومن حبائل الرجال على الخصوص، لتستمر، كل هذا الوقت، مذيعة ناجحة متواصلة الحضور والإنتاج! متواصلة الحضور والارتياح! في مجتمعاتنا لذات من هذا النوع تكاد تكون معجزات!

2

كانت حلقة تلك الليلة من برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك" مخصصة لموضوع "تشغيل الجامعيين العاطلين في العالم". أعطيت الكلمة، في البداية إلى الشباب، فتكلموا كثيرا أو قليلا، البعض بجرأة والبعض بجبن، البعض بحماس والبعض بيأس، البعض باستعطاف والبعض بعدوانية، بتهديد، بصوت عال أو خفيض، بنبرات ومستويات مختلفة، بكل التناقضات الموضوعية، الذاتية، فشرحت حالات كثيرة وفسرت أسباب عديدة، ثم اقترحت حلول، حلول قليلة، سهلة أو مستحيلة، سمعت كم من آه وكم من أف، وذرفت دموع من طرف بعض أولئك الشباب، بنات وأولاد في أصعب منعطف من حياتهم! وتدخل بعض الآباء لبسط مآسيهم مع أولئك الشباب التعساء! بعد ذلك أعطيت الكلمة لأحد الأخصائيين، واحد من أولئك البسطاء من المتعلمين، ولكن المتملقين، الذين سمحت لهم قدراتهم السرية، والتحولات المتسارعة، بأن يصبحوا "خبراء" في مشاكلنا الراهنة. الأزمات، كالحروب، تخلق تجارها، يبيعون ويشترون في العواطف وتصعد أسهمهم في بورصة اليأس : تجار الكلام!...

بسط الرجل أزمة المجتمع، أي أفقه المسدود، بتلذذ مصاصي الدماء، كأنه يصف أزمة تجري في أبعد كوكب، وأفاض في أزمة التعليم، التي ردها إلى ضعف التكوين وعدم الاهتمام بسوق الشغل، باستعلاء من يرثي جيفة قبل، قبل أن يشرع في تحليل أزمة الخيال العربي، في تجاوز ذاته، والدور

الذي لعبه الأدباء والفنانون في الحد من أفقه وانعكاسات كل ذلك على التعليم والشغل، ثم انبرى إلى العقل العربي يشرحه ويفكك آلياته ليخلص إلى أن المسؤولية تقع على عاتق المثقفين الذين ظلوا مشغولين بتحليل الأفكار بينما الواقع ينتظر منهم الحلول، فما قدموا حلولا ولا حتى أنصاف حلول... (مثل هذا الدكتور لا يمكن أن يكون مثقفا، المثقف يختلف مع المثقف، لكنه لا يمكن أن يختلف مع جميع المثقفين، وبإطلاق، ولا أن يدينهم ويجعل منهم مشجبا، كبش فداء، يستعدي عليهم، كلهم دفعة واحدة، الأمة بأكملها، ولا يمكن أن يكون قد أتم قراءة كتاب واحد من كتبهم، أما قراءة عمل أدبي فالعياذ بالله... زمن، زمن أبدي يذهب ويجيء، قصيرا أو طويلا، أرق من الشعرة وأحد من السيف، زمن كجحر الضب، زمن يتسلل إلى كل وقت صعب، فارغ، لاهث، اللهم إنا نسألك اللطف يا لطيف ونعوذ بك مما يفرح ويخيف في هذا الزمن السخيف!) تقول أختي الصغرى وهي تعود من الحمام إلى السرير بينما الرجل يقترب من أقصى درجات النشوة، وهو يبسط تلك الخرذة من..."الأفكار"؟... التي قد يكون جمعها من "جرائد" مختلفة أو من... لا... عفوا... إنه يشمت، ينتقم فقط، يثأر لنفسه، لفشله من هؤلاء الذين يسميهم "مثقفين"، "أدباء" و"فنانين"، وما أكثر أمثاله حتى في أزمنة الانبساط، فلنتركه وشأنه... وها الهاتف يرن من جديد، إنه وقت "أسئلة السادة المستمعين"!

قالت منشطة البرنامج:

– برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك"، صباح الخير!

سألها الرجل:

– سيدة جميلة؟

الكل يناديها هكذا "سيدة جميلة"، لا أحد يضيف إلى "سيدة" "ال" التعريف، كأن الذي يكلمها كذلك يصف أو يتغزل، يتأكد، جميلة، جميلة،

والله، بكل معاني الكلمة!

ترد "سيدة جميلة" بحنان:

- نعم جميلة!

وهي لا تذكر أبدا "سيدة"، تكتفي ب "جميلة" وكأنها تؤكد أو تستجيب كأنها متواطئة أو فقط... راضية!

يضيف الصوت المرتبك:

- صباح الخير!

فلا يعجبها هذا الاقتضاب، "خجول آخر"، تقول في قرارة نفسها، لا غاضبة ولا خائفة وإنما بحنان كبير: هذه فرصة أخرى لإظهار تفوقها: "إنطاق الأبكم!"، وهي فرصة لا تضاهيها إلا الفرصة التي لا يتيحها لها إلا الثرثار: "إلجام اللسان!"، بين الانطلاق والإلجام تربض! قررت أن تطلق هذا اللسان المرتبك المقتضب:

- الاسم الكريم؟

نطقتها جافة، متوعدة، فاستقام لسان الرجل:

- علي الرماني!

عادت إلى حنانها ولطفها:

- مرحبا بك أمولاي علي معنا في هذا البرنامج!

- شكرا!

لم يسمع "شكرا" غيرها، عاد إذن إلى ارتباكه، وندمت على ترك تقنية "الإنطاق" بتلك السرعة فرجعت إليها:

- ما هي مؤهلاتك العلمية؟

- الشهادة الابتدائية!

- متى حصلت عليها؟

- 1936!
- وهل أنت عاطل منذ هذا التاريخ؟
- لا، أنا متقاعد!
- إذن أنت تبحث عن شغل بعد المعاش؟
- لا، لقد اشتغلت ما يكفي أو أكثر: حوالي ست وأربعين سنة عملا!
- كم كان عمرك آنذاك؟
- عندما حصلت على التقاعد؟
- لا، على... على الابتدائية!
- 14 سنة!
- وعلى، على، التقاعد في أية سنة؟
- سنة 1982!
- منذ هذا التاريخ وأنت بلا عمل؟
- كيف بلا عمل؟ أنا متقاعد!
- أقصد أن هذه الحلقة من البرنامج مخصصة لموضوع "تشغيل الجامعيين العاطلين"...
- أنا عاطل كذلك!
- تبحث عن شغل إذن؟
- لا!
- تبحث عن شغل لأبنائك؟
- لا، أبدا!
- وماذا تريد؟

سكت الرجل، كانت قد رفعت وتيرة الأسئلة لتنطقه وها هي تسكته: في الواقع، كانت قد قررت في البداية، أن تنطقه وها هي تتمنى لو تسكته، لكنها

لا تعرف كيف، لقد سكت لكنه مازال ناطقا، لكنه مازال ممسكا بالسماعة!

- ألو السيد علي، رجاء، لطفا: ماذا تريد؟

خرج الرجل من صمته وقد عاد إليه ارتباكه:

- أن أطرح مشكاتي، أنا عندي مشكلة!

بدأ الضحك يرن في جنبات الاستوديو، لكن صوتها الجميل دائما استمر صارما، عاتيا:

- وما هي مشكلتك من فضلك، بسرعة، أرجوك، فوقت البرنامج قد ضاق!

تقصد طبعا أن صدرها قد ضاق.

غاب صوت الرجل من جديد في خشخشات الخط.

- ألو... ألو... السيد علي، ألو!

- ...

3

أتم الإخطائي كلامه بالدعاء لهذه الأمة أن يحفظها في شبابها الجامعي المتنور المنير فرن الهاتف من جديد:

- ألو برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك"، الاسم الكريم من فضلك!

عاد الصوت مترددا، خائفا:

- علي... علي... الرماني!

تظاهرت بالفرح:

- أخيرا نستعيد صوتك!

علق شاب:

- كارثة هذا الرجل!

وعادت إلى الحنان والرقة:

- نحن على استعداد تام لسماع مشكلتك!

لم يتكلم، ظننت أن الخط انقطع:

- السيد علي مازلت على الخط؟

خيب أملها الدفين:

- نعم مازلت على الخط!

لجأت إلى ما يشبه التهديد:

يجب أن تتكلم أسيدي علي وإلا... الوقت، الوقت، لا يرحم، تكلم!

وظهر صوته من جديد، قادما من ظلمات حالكة لخرق برودة تلك الليلة في تحد أو لامبالاة:

– مشكلتي أن لا أحد، في البيت، يحبني!

كان الصوت، مع ذلك، باكيا، يائسا، ولو أن حدته احتلت الاستوديو كله، فجأة لبرهة كانت أطول من دهر... وبينما أحس هو بالندم، بالعار من نشر غسيل العائلة في الهواء على خط الهاتف خيم على الاستوديو صمت غريب لم يعرف مثله أبدا من قبل... فجأة أخذ الجميع، الخبراء والشباب، وربما كل من كان يستمع إلى البرنامج تلك الليلة، أخذوا يضحكون وكأنهم سمعوا أطرف نكتة في حياتهم إلى درجة أنني توقعت أن ينتهي البرنامج عند هذا الحد من المأساة، أي من سوء التفاهم الفظيع، وأن توقفه المنشطة باقتراح الاستماع إلى أغنية أخرى من تلك الأغاني التافهة التي كانت تقدمها، من حين لآخر، على سبيل الاستراحة! غير أنها فطنت، أو تنبهت، إلى أن إنهاء البرنامج بتلك الطريقة قد يكون إفشالا رهيبا له وربما أفظع غلطة مهنية في تجربتها الإذاعية الطويلة. لقد أفشل الرجل الحلقة، ما في ذلك شك. ولا ريب في أنه يعاني من حيرة وندم لأنه من جهة أولى، نشر غسيل بيته، ولأول مرة في حياته، على العموم، ولأنه، من جهة ثانية، خائف من رد فعل أولاده الذين سيعتبرون الأمر عارا، ناهيك عن رد فعل الجيران والأهل والأصدقاء، ولأنه من جهة ثالثة، أضاع على هؤلاء الشباب فرصة ثمينة لشرح أوضاعهم وآمالهم، ولأنه من جهة رابعة لم يدر بخلده قط أنه سيرفع السماعة ويترك لسانه يفلت منه بهذه الطريقة ليفضحه ويفضح أهل بيته على طول التراب الوطني، بل إنه فضحه وفضحهم في بلدان أخرى كثيرة حيث تلتقط برامج هذه الإذاعة... ماذا أصابه وهو في هذه السن المتقدمة؟

لقد حمل هذا الأمل زمننا طويلا لم يشرك معه فيه غير بعض

الأصدقاء وها هو يعلنه، وهو في آخر العمر، على أمواج إذاعة جهوية ليجعل منه فضيحة: من يصدق أن رجلا في هذه السن، موظف ناجح ورب أسرة هادئة، يمكن أن يكون في مثل هذا الوضع العاطفي؟ لا، لا، في الأمر سرا، أيكون قد جن، أيكون قد خرف في هذه السن؟ الأباء العقلاء والموظفون المحترمون لا يفعلون مثل هذا ضد أنفسهم وضد أولادهم وإنما ينبغي أن يكونوا سعداء وان يحمدوا الله على كل الحمد: نجحوا في وظيفتهم وفي تربية أولادهم! هل هناك أصعب بالنسبة لموظف مثله من أن يقود هذه السفينة إلى بر الأمان: الخروج من الوظيفة مرفوع الرأس وتشغيل الأولاد في الوقت المناسب، الاطمئنان على معاشه وعلى مستقبل أولاده؟ مثله يموت عادة كما يموت أولياء الله، أولئك الذين عمروا الدنيا بالعمل الصالح والنسل الطيب: لم يفعل ما يفعله جمل الحكاية الشعبية الذي يدك كل ما يحرثه؟ لم يهدُ كل ما بناه، وأمام الملإ، ينشر العار على نفسه وعلى كل أهله؟ آباء مثله، فعلوا ذلك في السر فقط، فأودعوا الحبس أو حجر عليهم ومنهم من اغتيل أو شرد من طرف أولاده... أجل من طرف أولاده، فماذا يستحق هو الذي يفعل ذلك في العلن وعلى طول أمواج الإذاعة أمام من يعرفه ومن لا يعرفه؟

لقد فات أوان هذه الأسئلة، كان يعرف بعضها وكان يتوقع بعضها وكان مستعدا لتحمل ما لم يتوقعه منها. لذلك لم تحدث لديه كل هذه الانفعالات، وبهذه الحدة، التي نتحدث عنها: تصبب عرقا في أقل من ثانية إذ عبرت جسمه كل هذه الانفعالات واستعاد عافيته، من هذه الناحية، وأحس بأن ما مر به أسهل مما كان يتوقع!

وعلى العكس من ذلك فإن «سيدة جميلة» قد قضت وقتا أطول لتسترد أنفاسها وحين فعلت ذلك كان اللغط قد علا في الاستوديو. لملمت كل خبرتها الإذاعية وسألت الرجل من جديد:

-السي علي، مازلت على الخط؟

ورد الرجل الذي كان تجاوزاالهاوية بهدوء:

- نعم مازلت على الخط!

تصورته خفاشا أو وطواطا معلقا على سلك الهواء فطردت الصورة بسرعة من ذهنها:

- طيب، قلت لي إن عمرك 74 سنة؟

أكد الرجل ذلك بنفس الهدوء:

- 74 سنة!

فكرت في أن تلومه، أن تسبه "ولا تستحي يا رجل، مما تقوله في هذه السن؟" فيرد هو "أبدا!" فتسد الخط في وجهه غاضبة معتذرة للمستمعين عن سوء أدب بعض الكهول الذين ذهبت الدنيا بعقولهم وقلوبهم، لكنها تسلحت بشيء من الخبث وهي تتهيأ للقضاء عليه:

- ولم لا تتزوج من جديد، عذراء جميلة... سطاشية؟

قاطعها بهدوئه الذي أصبح مستفزا:

- قلت لك إن مشكلتي الحب وليس الزواج!

تخيلتها تبتسم ورأيتهم جميعا يبتسمون في الهواء، جالسين على الخط يبتسمون في استهزاء، كلهم، المنشطة والشباب والخبراء وكأنهم جالسين من حولي في شرفة البيت على حبال الغسيل وكانت هي تقاوم لكي لا تخونها الابتسامة وتفضح خبثها:

- وكم عدد أولادك؟

اضطرب صوت الرجل قليلا ثم سمت:

- ستة: ثلاثة أولاد وثلاث بنات!

وتابعت المرأة محاولة أن تتستر على دناءتها ببعض الحياد:

- هل بينهم عاطلون؟

استقام صوت الرجل وكأنه امتلأ افتخارا:

- لا، كلهم يشتغلون: أستاذ جامعي، طبيبة عيون، ضابط في الجيش، قاضية، خبير حسابات، موظفة، إطار في بنك، كلهم الحمد لله!

ازدادت المرأة نذالة:

- يا سلام! زوجتك، مازالت على قيد الحياة؟

خفت صوته قليلا هذه المرة:

- طبعا، هي ربة البيت!

تدخل أحد الشباب مستنكرا:

- سكران، الشيبة العاصية سكران!

التقطت المرأة ذلك الاستنكار كمساعدة من ذلك الشاب لتسأل الرجل:

- هل، هل... سبق لك أن تعاطيت لنوع معين من المخدرات؟

تعالى الرجل على محاولة الإساءة:

- جيلنا لم يكن يلجأ إلى هذه السموم!

أصرت المرأة لكي لا يفلت منها:

- والخمر، كم شربت هذه الليلة؟

ورد في ترفع من جديد:

- هذه الليلة لم أشرب!

أمسكت بالعصا غير مصدقة أنه بدأ يقع:

- إذن أنت تشرب كل ليلة ماعدا هذه؟

لم يتخل عن ترفعه:

- تقريبا، كمية صغيرة مع الأصدقاء!

وأرادت أن توجه له الضربة القاضية إلا أن شابا آخر احتج:

- إنه أحمق، الرجل مجنون، أقسم ب...

فأجلت الضربة:

- هل سبق لك أن أدخلت إلى مستشفى المجانين؟

بدا لي أنه يبتسم وأنه لما فتح فاه مبتسما ظهر أنه فقد كل أسنانه:

- لا، لم أعان قط مما يدعو إلى ذلك!

وأسقط في يدها، يجب أن تستمر في السؤال:

- قل لي أسيدي علي، هل تصلي؟

وتضامنت معها فتاة:

- اسأليه إن كان يفكر في الله، في لقاء ربه!

فتجاهل الرجل الفتاة وأجاب المرأة باقتضاب:

- بانتظام!

فأيقنت أن الضربة بدأت تفلت منها:

- السي علي مازلت على الخط؟

بدأت تخون ذاتها إذن: "مازلت على الخط؟" معناه، بكل تأكيد "أما تعبت بعد؟" أو "ألا تريحنا من فضلك؟" بينما هو ممسك بالخط:

- نعم، ما زلت على الخط!

لا شك أن الشباب والسادة الخبراء، إضافة إلى "سيدة جميلة" يتمنون أن يأكلوه، لذلك كثرت احتجاجاتهم ومقاطعتهم للمنشطة:

- الشيباني عدو الله، نال نصيبه وافرا من الدنيا ومازال طامعا في أن يستولي على نصيبنا منها!

- قالك يصلي بانتظام، العجوز لا يعرف الله!

- يسكر ويصلي ولد اللذين!

- السيبة في... الدنيا!
- أسيدي الرجل استمتع بالحياة وقام بالواجب وزرع أولاده في كل مكان، قسموا البلاد فيما بينهم وبقينا عرايا!
- هذا ما بقي لو غير القبر أو الحبس، خطر هذا على الأمة!
- وفين أولادو وزوجتو؟ لازم يعرضوه على طبيب!

علا صوت المنشطة:

- ألو، السي علي... مازلت على الخط؟

ويرد السي علي مترددا بعض الشيء:

- أجل... مازلت في الخط!

هل أدرك أن نبرة صوتها قد تغيرت، أنها قد مسها اليأس أو الحنو من جديد؟ هل انتبه إلى أنه لم يعد "على الخط" وإنما أصبح "في الخط"؟

- مصيبة هذا الشيباني!
- قطعي عليه الخط!
- ألو، السي علي، مازلت على الخط؟
- نعم، مازلت في الخط!

4

كيف أصبح هذا الخط مشكلة: يدخل فيه الرجل، كما تدخل الفئران إلى خطوطنا، ويستقر فيه هادئا، مستفزا، مشوشا، لا يغادره؟ وأين ذهب التقني المكلف بالاستوديو تلك الليلة؟...

قد يكون أغمي عليه أو نام نومة من سئم الاستماع كل ليلة لكل هذا العدد من المشاكل المختلفة "مشاكل الزواج والطلاق"، "مشاكل الآباء والبنين"، "مشاكل المراهقة"، "مشاكل سن اليأس ومنتصف العمر"، "مشكلات الشيخوخة"، مشكلات النساء في العمل"، "مشاكل السكن"، "مشاكل النقل"، "مشاكل لا تنتهي"، "مشكلات لا تحل"، "مشاكل تتجدد"، مشاكل تتوالد"...

– أنت لا تعرفين الحديث عن أشياء أخرى، أليس في هذه الدنيا شيء جميل؟ قال لها التقني محتجا ذات مرة.

– لا، على ما يبدو من حديث الناس، ومع ذلك فأنا أشعر بالسعادة حين أنجح في طرح مشكل، ردت وهي تبتسم ابتسامة أم.

– كثير، كل أسبوع غسيل، مشاكل، مشاكل، مشاكل وكأن الناس لم تعد تجد الفرح في شيء!

وطلب أن ينقل إلى برنامج "أفراح الناس" فما لبث أن سئمه ورجع إلى "المشاكل":

– الفرح مجرد واجهة، يطلي الناس به وجوههم كما لو كانوا يطلونها بمساحيق التجميل، قال ليشرح لها سبب عودته إلى برنامجها،

يتكلفونه للإذاعة!

- ولو، لو كان مجرد مسحوق، مجرد قناع، تظاهر لا علاقة له بالباطن، ذلك سبب كاف لتعاطيه وتشجيع الناس عليه، ولو... أكدت من غير أن تفارقها ابتسامة الأم الحاضن، الحنون، المربية.

كان يكفي أن يقطع الخط على الرجل وهو يغمز للمرأة لكي تنهي الأمر قائلة:

- مع الأسف، مع الأسف الشديد، انقطع الخط، بيننا وبين السي علي الرماني، نعتذر له، لمستمعينا الكرام، نعده ونعدهم أننا سنخصص قريبا جدا إحدى حلقات هذا البرنامج لموضوع "مشاكل الحب عند المتقدمين في السن" ونعلن من الآن أننا على استعداد لاستقبال السي علي الرماني ضيفا علينا في الاستوديو للمساهمة في الموضوع، نعود الآن إلى الأخصائي فلان، رجاء حضرة الأخصائي الاختصار، لم يبق من عمر البرنامج سوى خمس دقائق، تفضل!

لكن التقني العجوز لم يفعل شيئا من ذلك، وشاهد "سيدة جميلة" تعيش أصعب محنة في حياتها المهنية، تابع ضجر الشباب والأخصائيين وكان قد صرخ أكثر من مرة من وراء قمطره: "عيب، اتركوا الرجل يتكلم!". على غير عادته، ماذا حدث له؟ يبدو أنه استمع لأول مرة، في هذا البرنامج، إلى مشكل يخصه بشكل مباشر: زوجته سافرت، منذ عامين، لزيارة ابنتها الوحيدة، ذهبت إلى هولندا ولم تعد بعد، ولا مراسلة، ولا مكالمة، ولا صديق، هو والكلب، فقط، عاد إلى الخمر وانقطع عن الصلاة، علم الكلب الشرب معه والجلوس، كآدمي، على كرسي، حول المائدة في مواجهته، اسمه "بوقلب" وصار زملاؤه يسمونه "بوكلب"، أحمد بوكلب! للتشابه في التجربة منطق غريب، في الألم خاصة! كان بإمكانها أن تقطع الخط بنفسها؟ أكيد!

لم لم تفعل هذا؟ عجيب، عجيب، عجيب جدا! الاستوديو ملئ باللغط، الخبراء يشتاطون غضبا، الشباب يحتجون، التقني العجوز يتفرج، المرأة تبدو وكأنها فقدت دهاءها الإعلامي، "الهاتفي"، والرجل، العجوز الكارثة، مازال في الخط!

- ألو السي علي...
- مازلت في الخط!

ماذا حدث بالضبط؟

لنحاول ترتيب المسألة كما لو أننا نكتشفها لأول مرة: برنامج ناجح بجميع المقاييس، المنشطة تدير الكلام بمهارة عالية، الأخصائيون يتحدثون بحماس كبير، الشباب يبسطون مشاكلهم بعناية، الأغاني مختارة بشكل يلطف من جو الموضوع، المستمعون آباء ومهتمين وفضوليين، يتدخلون من حين لأخر، عبر الهاتف، وفجأة يتسلل هذا العجوز المصيبة ليحول مجرى النقاش ويحتل خط التلفون فيضيع الجميع، كل شيء! ليس أصعب على الناس من أن نقطع عليهم الكلام وهم في قمة الانفعال أو الحماس أو الاستدلال! ومفهوم أيضا، ومقبول جدا، أن يحتج أولئك الشباب فإنهم قد جاءوا إلى البرنامج من أجل إسماع صوتهم من جديد لعلهم يجدون أذنا صاغية أو دليلا إضافيا يقنع من بيدهم الشغل، أن يغضب الخبراء لأن وقت الخبير دائما وقت ثمين ولو كان لا يجد مل يفعله بالوقت، لأن أمثال هؤلاء حين يستعملون وسائل الإعلام إنما يقومون بذلك لهدف الدعاية أو الشهرة أو طلب الترقية أو مجرد البحث عن الإعتراف. كل هذا مفهوم، معقول جدا، حتى حال "بوكلب" حال مقبولة جدا، من الزاوية الإنسانية المحض، أما "سيدة جميلة" فشغلها أن تضبط الوقت وتدير الكلام وما يلزم لتهيُّء جو الحوار مع السهر التام على احترام الخطوط الحمراء والتصدي السليم لكل المشاغبين والمشوشين

والثرثارين وفضولي منتصف الليل عبر الهاتف. وعلى كل، فهذه ليست أول مرة يتدخل فيها شخص خارج الموضوع، فقد يتدخل من يطلب يدها، من يريد أن يتلو عليها غزلا، فيها طبعا، من يتهمها ب "قلة الشغل" أو "إفساد الذوق" أو "تحريف الشباب" أو "المتاجرة في متاعب الناس" إلى غير ذلك من التصرفات الشاذة التي كانت تتغلب عليها بسرعة فائقة، فما أصابها تلك الليلة؟

- ألو، السي علي...؟
- نعم، مازلت في الخط!

العمر؟ هي لا زوج ولا أبناء، فلم تحس، الآن فقط، مثل بوكلب بأن المشكلة تخصها بشكل مباشر؟ لقد اختارت "الوحدانية"، عن "وعي"، منذ ثلاثين سنة وإذا كانت من هذه

المشكلة فإنها لا تعاني منها بصورة "بوكلب" أو صورة "الرماني"، نحن دائما نبقى وحدنا، نجدنا في "الوحدانية" كيفما كانت أسباب وأشكال اختيارنا لها، هناك دائما شيء من "بالرغم"، لكن مشكلة "الرماني" و"بوكلب" ليست مشكلتها، بالتأكيد!

فهل مرد ذلك إلى الفشل، فشل حلقة من برنامج، إلى شعورها بأن الأمور، لأول مرة، تتجاوزها وتشحنها بالإحساس بالعجز؟ لم لا؟ ليس هناك رجل، أو امرأة، في مهنة ما، لا يجد نفسه "مضطرا" إلى ارتكاب غلطة ما قد تكون غلطة العمر بعد سنوات طويلة من المهارة والإخلاص، كذلك الأمر في كل شؤون الحياة الصغيرة والكبيرة: ذات يوم أو ليلة وبدون سابق إنذار، وبالرغم مني، بما يشبه الجنون، وأحيانا الشلل، أرتكب حماقة ما وأترك نفسي تستسلم لشيطانها! لكن مثل هذا لا يحدث دون دوافع ومناسبة، لا يحدث وكأننا غرباء عنه، كأنه عبث، كأننا لسنا مسؤولين عنه!

- ألو...؟

- نعم؟

سكن الرجل في الخط ونامت هي إلى جواره!

5

سيقول كل زملائها بإجماع من يدين، كما سيقول كل رؤسائها بشعور الشامت أو الخائب أو شعور الخائف، إن تلك الحلقة كانت فاشلة بكل المقاييس الإعلامية، ولا يستبعد، إذن بكل تأكيد، أن تتلقى توبيخا صارما من كبار المسؤولين أو أن يستنفر ضدها كل "مستصحفي" الإعلام في بعض الجرائد، وسيقول، ولا شك ذلك الذي اختص في تصيد "أخطائها": "المشكلة عندنا أن لا أحد في مكانه الحقيقي، الشخص الملائم للمكان الملائم!" وكأنه هو في مكانه الملائم!

لكنها فضيحة، من منظور، أو مهزلة، من منظور آخر، ولا أحد كان ينتظر مثل هذه السقطة، بهذه السهولة وكأن حياتنا مليئة بغير هذه السقطات الصغيرة، اللامتوقعة، كأن "الكبار" و"المشاهير" لا يسقطون إلا السقطات "الكبيرة"، "المدوية": احصوا سقطاتنا، سقطاتنا، سقطاتنا، وسقطاتكم، أيها القراء الأعزاء، وستجدون أنه لا تحصدنا إلا الأخطاء الصغيرة، التافهة، تلك التي لم نحسب لها أي حساب، وإن كان كل واحد يسقط بقدر حجمه فإن الأخطاء "الكبيرة" نادرا ما تكون السبب، وكم من واحد شل ماديا أو معنويا، أو مات ماديا أو معنويا، بسبب خطإ صغير، تافه، ماديا أو معنويا، كان بإمكانه أن يتجنبه بمجهود بسيط لو قدر له أن يقدره حق قدره، لكن هيهات، هيهات!

لا أحد يرحم أحدا من بين أهل المهنة الواحدة: "أخوك في الحرفة

عدوك!"، ينتقم لنفسه، لأخطائه، لمخاوفه من نفسك ولا يراعي حتى زمالة ثلاثين سنة، أنك كنت سلم ارتقائه، خصما صديقا، لا، يستمر في الركوب على ظهرك، في إبراء قلمه على جلدك ثم يغتالك به في أضعف فترات عمرك، يوم تكون في حاجة إلى الاعتراف والتعاطف، يتحالف مع الدنيا، مع جسدك ضدك، فيا ليت "النصال" التي "تتكسر على النصال" تنفعك! الإنسان مفترس، لكنه يفضل الجيفة!...

رنت الهواتف في عدة بيوت واستنفرت أسر بكاملها، قبل أن ينتهي البرنامج:

- افتح الإذاعة الجهوية، افتح سأتصل بك من جديد فيما بعد!
- نائمة، الدنيا مقلوبة وأنت نائمة، مهزلة، بهدلت "ست الحسن" في برنامجها، افتحي...!
- الصحافي "الكبير"، ماذا تفعل؟ صاحبتك تحتضر!
- ألو، السيد المدير، ما هذا الذي يجري عندكم في الإذاعة؟
- فاطمة، ينبغي أن نلحق "خبزنا" في الإذاعة، "سيدة جميلة" جملتها وكملتها، اتبعيني!
- ماذا يجري؟

ماذا يجري؟ بالضبط؟ لا أحد يدري حقا سوى:

- ألو، السي علي، مازلت في الخط؟
- نعم، مازلت في الخط!

و"بوكلب" يتفرج، هواتف ترن والسيارات تتحرك في اتجاه مقر الإذاعة والمنشطة... "سيدة جميلة" ممسكة بالسماعة الوحيدة في الاستوديو، كمن تحجرت يده على المسدس الذي اغتال به نفسه منذ لحظات، ينتظر أن يسلم الروح إلى باريها نهائيا، أن يأتي "رجال الأمن" ليعرفوا أنه قاتل نفسه ولا

مجال لاتهام غيره بقتله:

- ألوه، سيدي علي...؟

- نعم، لالة جميلة!

وها هو مقدم نشرة أخبار الثانية صباحا دائخا فتزداد دوخته، يسأل "بوكلب":

- ماذا يجري، ماذا وقع؟

- رجل يحتل الهاتف و"سيدة جميلة" تتفاوض معه من أجل إطلاق الرهائن وإخلاء المكان بدون عنف!

- إرهابي عندنا؟

- خطير!

- طارت نشرة الأخبار، الهاتف!

- قلت لك إنه محتل!

- أخبرتم السلطات؟

- السلطات على علم!

- الحمد لله!

وجلس يراجع قصاصات الأخبار التي كانت في يده غير مبال بما يجري من حوله: عالم الأخبار!

لماذا نصاب بمثل هذه البلادة في لحظات كهذه؟ مذيع يقال له إن رجلا يحتل الهاتف فيتصور أن الأمر يتعلق بإرهابي وباحتلال لمقر الإذاعة، وهل الهاتف مهم في حياتنا إلى درجة اعتبار "احتلال" الخط احتلالا لبيوتنا أو مقرات عملنا؟ وهل هو سيقدم النشرة من الهاتف؟ ولماذا لم يعط، هؤلاء المسؤولون الذين يجرون نحو مقر الإذاعة لتدارك الفضيحة، أمرا بالهاتف، مجرد أمر من بيوتهم إلى مصلحة البريد بالمدينة لتعطيل الخط الذي تسبب

في كل هذه الفوضى؟ سأل رجل رجلا آخر:

- كيف تكون أوداج ضارب الطبل؟

أجاب الآخر بلا تردد:

- منتفخة طبعا!

علق الأول:

- سبحان الله، أنا أيضا أجبت بنفس الطريقة قبل أن ينبهني السائل إلى أن ضارب الطبل ليس هو "ضارب الغيطة أو المزمار"!

- أوه، سيدي علي، مازلت...؟

- نعم، لالة جميلة، مازلت في الخط!

الهرج والمرج في كل مكان، بعض المستمعين تصور أن في الأمر سرا ما، بناء على شيء ما في الذاكرة (انقلاب مثلا) وهي مازالت تسأل الرجل، في حنان، وكانها تطمئن عليه:

- ألوه، سيدي علي، مازلت في الخط؟

وهو يرد وكأنه يتكلم من أعماق الظلمة، تجمد على الخط من شدة البرودة خارج الأستوديو:

- نعم لالة جميلة، مازلت في الخط!

إنه خارج بيته، خارج مقر الإذاعة، خارج في العراء، في الهواء وبرد ليالي يناير ينهشه، إذا سقط من الخط يهلك، ليس له سوى هذا الخط يدفئه!

6

أغلب الوقت منذ البداية، أي قبل أن تتطور الأمور إلى هذه الدرجة، كانت تسأله:

- السي علي، مازلت على الخط؟

وكان هو يرد:

- نعم، مازلت في الخط!

هي تسأله إن كان مازال "على الخط" وهو يرد أنه مازال "في الخط"!

من المحتمل أن تكون المسألة مجرد خطإ لغوي بسيط من تلك الأخطاء الكثيرة التي نرتكبها في استعمالنا لمثل هذه الحروف، على وفي، وصعوبة أن نضبط متى ينبغي استبدالها بعضها ببعض وإحلال أحدهما مكان الآخر، أمر من أصعب ما في النحو العربي! لكن الحروف، كما لكل الكلمات ولكل الجمل، قواعد متنوعة منها القواعد الاجتماعية في مختلف البروتوكولات الاجتماعية، مثلا، ومنها القواعد "النفسية" و"المهنية": لقد تعودت "سيدة جميلة" أن تضع الناس "على الخط"، بمعاني متعددة. من هذه المعاني نشر غسيلهم على الخط، فخط الهاتف "حبل"، كبقية الحبال الأخرى، ينشر عليه "الغسيل" الذي يتم في برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك" ولا يمكن أن يستعمل هذا الحبل، في هذا البرنامج، إلا بهذه الصيغة، "على الخط"، حيث يعلق الناس مشدودين إلى "الحبل"بمشاكلهم، "على الخط"، تسمح "بالغسيل"، أما "في الخط" فلا تسمح "بالنشر"، فهل نقدر على تصور "غسيل"، من هذا

النوع، بلا "نشر"؟ إذا سمحت "في الخط" بغسيل ما فإن هذا الغسيل لن يجف، سيتعفن!...

لهذا يصبح من المستبعد جدا أن يتعلق الأمر بمجرد خطإ لغوي في استعمال "على" و"في" و لا حتى بتشويه مهني كما سنرى.

لقد كانت المرأة "على" وأصبحت "في" وكان الرجل "في" وبقي "في" هي "نزلت" وهو "ظل" في مكانه: هذه مسألة لغوية، هذه؟ لقد تخلى صوتها ذاته عن نبرة الاستعلاء والتفوق وخلا تماما من تلك "الثقة المهنية" في النفس، اختفت منه كل الصفات "المهنية" (الحنان وحضور البديهة والصبر وحسن الاستماع...) لتملأه، في أول الأمر، بضيق الصدر، ثم وبالتدريج الرهيب، الذي عايناه بالحيرة، ثم النذالة، ثم التعاطف وانفلات زمام الوضع من يدها، ثم الحسرة، ثم ضياع كل شيء!

أنزلت الرجل من "على" إلى "في" أو أنزلها هو ببؤسه وإصراره، ثم وجدت نفسها تخاطبه ب "سيدي علي" وهو يخاطبها ب "لالة جميلة". حدث التعاطف، ثم الألفة، رفع بروتوكول المهنة، انتهى البرنامج! أي برنامج؟

ذلك الذي كان يتكلم عن "مشاكل تشغيل الجامعيين العاطلين"؟

لا، ليس فقط هذا، أيضا ذلك الذي بنته، في السر بداخلها ورعته منذ ثلاثين سنة، ذلك الذي بدأته بنفسها مع نفسها قائلة ذات صباح من صباحات باريز الصيفية: " قمة الوحدانية أن تكف عن العطاء؛ الذين يعطون بسخاء يطلبون، هم الذين يمدون أيديهم طالبين بكل سخاء. أما الذين يأخذون فلا ينتظرون شيئا؛ ماذا ينتظر منك الذين يطلبون ذاتك، عقلك، حياتك؟ أن يأخذوها فقط بلا مقابل، بلا شيء آخر إلا ما يمكنهم أن يستزيدوك من بذل، على عكسك، أنت الذي تعطي: أن تجد ما تعطي، أن تمنح شيئا في المقابل!

مسألة مزاج، حاجة، عادة ثم شره من الطرفين. إن الذي يعطي يريد أن يمتلك والذي يأخذ قد امتلك ويريد أن ينهب، أن يفرغك من كل شيء لديك، ماديا أو معنويا، لذلك يلجأ الذين تعودوا على النهب إلى المساومة، إلى التخويف، إلى العزل، إلى القتل أحيانا، الناهب قد أخذك وأنت الذي تعطي تريد أن تشتريه، شيئا منه أو كله، ولاشيء من الناس يشترى أو يباع! هو غاصب قد نجح وأنت مغتصب لم تفلح. هو لن يشبع وأنت لن تأكل ولو التهمت بعضه أو كله. لكل واحد منكما حاجة في الآخر، حاجتان مختلفتان، لكنهما رابط، قيد. لذلك إذا كف أحدكما عن اللعب، رفض فقط إحدى قواعد هذا اللعب، فإنه ينبغي أن يتوقع أبشع أنواع الانتقام، إضافة إلى مآسي الفطام، كيفما كانت النتيجة النهائية، في هذه الحالة، فإن الوحدانية في انتظارك بأنيابها القذرة، وهي ليست في جوهرها غير الانفصال في العلاقات بين الرجل والمرأة، بين الأولاد والآباء، بين كل أنواع المحبة والألفة، ليست سوى انفصال بين السادي والمازوخي: تجد نفسك قد أوقفت لعبة العطاء، أو ما تعتقد أنه كذلك من طرفك، فتجمع حقائبك وتضع نفسك بداخلها: كثير هذا الحمل! وتضع نفسك مكانه فتضيق بك حقائبك!".

واضح أنها وضعت حدا لعلاقة حب، وضعت نفسها في حقيبة ثم حزمتها ودخلت إلى البلد. بنت مدينة الحاجب الجميلة الذكية التي ذهبت إلى باريز بعشرات الأوهام، وبصفة خاصة دراسة الطب، لم تعد إلى بلدها سوى بخيبة أمل كبيرة: الرجل ليس مشروع حب، انتهى! بنت المقاوم المتواضع، وحيدة أبويها، باعت البيت الصغير بعد أن التحقت أمها بأبيها في الدار الآخرة، وقالت لحبيبها، سعيد البيضاوي: نذهب إلى باريز للدراسة! قال البيضاوي: تذهب إلى باريز للدراسة! وتاه البيضاوي بين الحانات والبنات وظلت هي تعيله، تشتغل في أي شيء، مدة سبع سنوات بعد نفاذ ثمن الدار

مع نهاية السنة الأولى في باريز، لعل الحبيب يفهم فيتعاون فيعودا معا إلى كلية الطب. غير أنه بالإضافة إلى كل حماقاته تلك، لم يعد يأوي إلى البيت، في السنتين الأخيرتين، إلا لينهب مدخراتها الصغيرة من العمل، يهدد، يضرب، يغتصب ثم يغيب أسابيع أو شهورا. تلك الليلة، التي ستقرر خلالها الرجوع إلى البلد بصفة نهائية، جاءها مخمورا، ميتا من الخمر، استولى على الألفي فرنك التي كانت معها، أدخلها إلى المرحاض وبال عليها ثم انصرف!

استدانت ثمن تذكرة العودة من جارتها وقصدت مطار أورلي. جلست إلى جانب رجل أنيق وسيم، في حوالي الخمسين، ذي نعمة. ابتدأ الرجل الحديث بلطف إلى أن اطمأنت إليه:

- ليس معي سوى السنة الأولى طب ولا أريد أن أرجع إلى فرنسا مرة أخرى، ماذا يمكنني أن أعمل في البلد؟

- أنت جميلة ونبيهة، قد أساعدك على العمل في التلفزيون!

- في التلفزيون دفعة واحدة؟

سترين كيف سيرحبون بك ثم إن لي علاقات قوية هناك، سترين!

نظرت إلى المسألة من جميع الوجوه، درست الثمن الذي سيطلبه الرجل، قررت أن تتأكد، متظاهرة بالغباوة، وفي نفس الوقت أن تعرف إن كان سيطلب ثمنا واحدا أم ثمنا مضاعفا:

- أنا ليس معي فرنك واحد أدفعه إليك!

مر بيده على شعر رأسها الطويل محاولا أن يطيل نظرة اشتهائية في عينيها:

- وأنا لا أطلب منك مالا، أكره الرشوة!

تمنت لو تصبغ وجنتيها بأحمر فاقع، تجد قناعا سميكا تضعه على وجهها وهي تدخل معه إلى فندق "حاجز الثلج" بالدار البيضاء. طلب الرجل

رقما، ثم اسما، ثم تكلم عنها، بلغة شبيهة بالبرتغالية، مع الاسم، ثم أخرج من جيبه كارطا بيضاء عليها اسمه فقط وسألها:

- ما اسمك الكامل؟
- فريدة بيطيط!

ولما انتهى من ملء الورقة قال لها:

- من الأحسن تغيير "بيطيط"، غدا، على الساعة الحادية عشرة صباحا، تذهبين إلى مقر الإذاعة والتلفزة، تطلبين هذا الاسم، سيعينك إن شاء الله!

كانت، وهي تتهيأ لإشباع نزوة هذا الرجل، تبحث عن قناع، تتصور أنها ستموت بعد أن يشبع منها، لكنها كانت فرحة وهي تتعشى معه، تحاول أن ترضيه... لا، أن تشكره بكل جسدها، وإلا ماذا يمكنها أن تعطيه كمقابل؟

حين استيقظت كان قد انصرف، ترك ظرفا صغيرا فيه خمسمائة درهم وورقة صغيرة: شكرا!

- ابن كلب، لولا هذه الشُكرًا، ابن كلب مؤدب!

استقبلها الرجل السمين الذميم ذو النظارات السميكة من غير أن يرفع بصره إليها، "أحسن!" قالت في نفسها، ناولها خمس ورقات:

- وقعي... هنا... هنا... هنا... هنا... هنا...!

ثم أخرج ورقة أخرى من نفس الملف:

- هذا تعيينك، غدا تلتحقين بعملك!

- شكرا، قالت وخرجت تبحث عن مقهى لتفطر وتتأمل الورقة الثمينة التي وضعتها في حقيبة يدها من غير أن تقرأها!

....

....

....

....

تعين السيدة فريدة بيطيط كموظفة متدربة في الدرجة الأولى من السلم السابع بالإذاعة الجهوية المشار إليها أعلاه..............................

....

– تلفزيون، إذاعة، مركزية، جهوية، حبس، كوميسارية، بلدية... ربي يخليك لي، يا كلب، يا مؤذب، يا ذكي، يا .....

حادث سعيد، مفرح، لكن محبط كذلك: "ابن الكلب، المؤدب الذكي، ولد العائلة، حسب كل شيء... الحمد لله، منذ البداية... حسابه واضح!"

منذ ذلك الوقت أصبحت "بيطيط" "سيدة جميلة"، تلك المرأة التي حولت حبها الفاشل مع البيضاوي، والحب المستحيل مع رجل من نوع "ابن الكلب المؤذب" إلى حب للناس كلهم، محبة لكل الذين يعيشون مشكلة، أية مشكلة، "فالمشاكل"، الصغيرة والكبيرة، في حاجة إلى من يحملها معنا، يساعدنا، على الأقل، على "حملها"!، هذه هي السيدة التي تحجرت يدها على سماعة الهاتف تلك الليلة:

– ألو...؟

– نعم...!

ليتنا نعرف كل ما في هاتين الكلمتين الصغيرتين من معاني!

7

امتلأت الإذاعة الصغيرة عن آخرها بالمسؤولين والموظفين والفضوليين: ليلة الحشر في هذا المقر الذي قد ينفجر!

توجه حضرة ممثل السيد العامل بالكلام إلى السيد مدير الإذاعة:

- تأخذ منها السماعة وإن تطلب الأمر قطع يدها!

وخاطب مدير الأمن الجهوي آمرا وعاتبا في نفس الوقت:

- تأخذ أقوال الشهود وتحرر لها محضرا ثم... تسلمها إلى السيد قاضي التحقيق، السيد العامل، وكذلك الوالي، يريد تقريرا مفصلا قبل الوصول إلى مكتبه صباحا... أخلوا المكان، بسرعة!

وكان "بوكلب" قد وثب من مكانه ووقف بينها وبين المدير:

- احتراماتي، إذا سمحتم أنا آخذ منها السماعة!

نظر السيد المدير إلى حضرة ممثل السيد العامل طالبا الإذن بالإذن فأومأ إليه أن يفعل:

- أنت لي معك كلام آخر، خذ السماعة!

"بوكلب" لم يعد يخاف من أحد، منذ سنتين يتظاهر فقط بالخوف والطاعة:

- أمرك سيدي!

وقال للمرأة التي كانت تطلب من علي الرماني أن يتكلم: "السي علي تكلم، اشرح مشكلتك للسادة المستمعين، تكلم!"

- "سيده جميلة" انتهى وقت البرنامج، هذا وقت الأخبار!

كان قد قطع الخط وهو أمام قمطره بمجرد وصول المسؤولين إلى عين الكلام:

- انظري إلى مقدم النشرة، الأخبار بدأت!

بالفعل بدأ المذيع في تلاوة نشرة الأخبار عندما سمع "بوكلب" يقول: "هذا وقت الأخبار!". وكان جميع الحاضرين قد بدأوا، في صمت رهيب، يستمعون إلى النشرة بينما هي تحتج:

- لكن السي علي مازال في الخط!

فصاح المدير في "بوكلب":

- خذ السماعة!

أخرج "بوكلب"، من جيب معظمه الفضفاض، المقص الكبير الذي يقطع به، عادة الأشرطة القديمة، فصاح المدير:

- لا، لا تقطع يدها!

قطع "بوكلب" الخيط فسقط على الأرض كما تسقط جثة، قطعه بدقة إذ لم يبق منه شيء في السماعة!

قال "الممثل" الرسمي آمرا مسؤول الأمن:

- خوذوها والشهود ولا تتركوا فرضية أو شبه فرضية بدون تمحيص و... اخلوا المكان فورا!

خلا المكان من الجميع ماعدا من "بوكلب" الذي عاد إلى قمطره ومن مذيع النشرة الذي أصبح مذيع ربط بين الأغاني ومدير الإذاعة الذي كان في مكتبه يطلب كل أقاربه ومعارفه بواسطة هاتفه المتنقل!

ستشكل هذه الحادثة مادة خصبة لكل الصحف، التي تحولت بشكل عجيب، خاصة تلك التي كانت تشن حملة شعواء على "صحف الرصيف"،

إلى صحافة فضائح. واستغلت القضية من جميع الوجوه، لمدة شهور، إلا من وجه واحد سنعود إليه، بعد قليل.

والغريب في الأمر حقا أن هذه الحلقة الفاشلة التي أصابت "الإخصائيين"، تلك الليلة، بخيبة أمل كبيرة قد شكلت مناسبة فريدة لشهرتهم والاعتراف بهم. لقد استضافتهم بشكل جماعي أو فردي كل محطات الإذاعة والتلفزيون، وأجرت معهم الجرائد، جميع الجرائد اليومية منها والأسبوعية، حوارات كما حرروا بأنفسهم المقالات الطويلة والقصيرة المختلفة حول الواقعة: ضربة حظ لم يحلموا بها!

أما الشباب الجامعي العاطل، الذي كان حاضرا تلك الليلة، فلم يتدخل منه في هذا النقاش الواسع سوى إحدى الفتيات التي لم يسمع صوتها تلك الليلة، كتبت هذه الفتاة مقالا في إحدى الجرائد اليومية وقعته ب "ع. م": نهاية أسطورة! وبعد ذكر تفاصيل كثيرة سبق أن أشرنا غليها، من حياة "فريدة بيطيط" التي أصبحت الأسطورة "سيدي جميلة"، روت بعض تفاصيل الحدث التي لم يشر إليها أي أحد من أولئك الذين كتبوا عنه بموضوعية اغتيالية أو نيات مبيتة عديدة. ولقد أثار انتباهي بشكل خاص ما يلي:

"لحد الساعة لم يتم التعرف على الرجل الذي كان سببا في سقوط هذه المرأة الأسطورة ولا حتى عن المكان الذي قد يكون تكلم منه في الهاتف. الغالب أنه طاكسيفون في مكان ما من مدينة الرباط. أقول هذا لأني على يقين من أن هذا الرجل قد أساء إلى تلك المرأة مرتين: مرة حين خاطبها بذلك الشكل في الهاتف، ومرة حين لم يظهر له أثر، لقد عاينت حال هذه المرأة وهي تسقط أمام عيني ومن أعين المستمعين والمسؤولين وزملائها، تلك التي ساعدتنا، طيلة ثلاثين سنة من عمرها، لم يتقدم نحوها أحد تلك الليلة ولو بكلمة طيبة، لقد سمعت تلك الليلة الرهيبة، الكثير من الشتائم والإهانات

الموجهة إليها من طرف فئات مختلفة من الناس ثم شاهدت الفرحة والغبطة على وجوه وأقلام من سعدوا بسقوطها: الشهرة، لا المجد وحده، لعنة تقتل صاحبها عاجلا أم آجلا! وحين كانت المرأة مقتادة إلى سيارة الشرطة كانت لا تزال ممسكة بالسماعة وهي تحتج:

- الرجل مازال في الخط، يا عباد الله!

لم يثر هذا المشهد، تلك الليلة اللعينة، سوى الاستهزاء والاستنكار: امرأة في التاسعة والخمسين من عمرها، لم تسعد ولو مرة في حياتها، بلحظة أنانية، خصصت كل قلبها وعقلها للآخرين بسخاء نادر، كما خصص والدها حياته لوطنه في نكران تام للذات، امرأة عاشت في الوحدانية، تعود تلك الليلة الفظيعة إلى حيث بدأت، قبل ثلاثين سنة: إلى الوحدانية اليائسة بعد أن أضاءت شمعة في قلب آلاف المستمعين، بعد الوحدانية المتفائلة، لا أحد يمكن أن يطمئن حقا، بعد تلك الليلة الباردة الحاكمة، إلى أن العطاء حل، ينبغي أن نعطي وأن نبقي لأنفسنا شيئا!

تلك الليلة جرت المرأة في الوحل والبرد، تركت أكثر من نصف ساعة تحت الوابل، وسط الزمهرير، قرب سيارة الأمن، قبل أن تدفع بلا رحمة ولا تقدير، كأنها لم تكن قط "سيدة جميلة"، إلى الداخل:

- هيا اصعدي!

تلك الليلة رأيت نجما يقع في بركة، شاهدت سقوط أسطورة، إلهة من آلهة اليونان أو بابل أو مصر القديمة أو الأطلس تفقد جناحيها، تتخبط في الوحل، تلك الليلة عرفت أنه لا أفظع من سقوط أسطورة!"

هذه التفاصيل جعلتني أكتشف شيئا مهما، بالنسبة إلي في هذه الحكاية : لم يكن المتكلم في الهاتف سوى والدي! عرفته، بعد قراءة مقالة "ع. م"، من نبرة صوته، تذكرت صوته بعد أن شغلتني الوقائع عن الإجابة عن السؤال:

"هذا الصوت أعرفه، لمن يكون من معارفي؟". وقد كان ترديد كلمة "الأسطورة"، من طرف "ع. م". حاسما في الإجابة عن هذا السؤال: نشر والدي سنة 1976، أي منذ عشرين سنة خلت، كتابه الوحيد ووقعه باسم مستعار: "علي الرماني"، كان الكتاب عبارة عن قصة طويلة تحمل عنوانا غريبا "وهمية" وتجري في بلاد اليونان القديمة. وقد قدم له "المؤلف" في نصف صفحة ذاكرا بأنه ترجمة، عن الفرنسية، لباب "عبث الآلهة بالأولاد" من كتاب "أساطير اليونان الأولين" للمؤرخ الإغريقي "المعروف": ألزيدوسون! "نشر علي الرماني" هذا الكتاب بمساعدة كاتب كبير كان يعرفه كلاعب في نادي الكرة الحديدية "سطاد ماروكان". أما النسخة التي قرأت من "وهمية" فقد عثرت عليها آنذاك في الحمام بصدفة إذ لا أحد منا كان يعرف أن والدي قد ألف أو كان يقدر أو حتى يفكر في تأليف كتاب، وكانت هذه النسخة مهداة إلى كاتب آخر أنه صديق الكاتب صديق أبي: ("حضرة الكاتب اللبيب والمفكر الأديب، أرجو أن تسمحوا لأحد المعجبين ببيانكم المبين الحامدين الله الكريم على ما خصكم به من خير عميم نسأله العون والصون لنا ولكم ولسائر المسلمين أن يتقدم إليكم مطأطأ الجبين بهدية هي نسخة من "وهمية" آملا التوفيق للمهدي والمهدى إليه ذاكرا أني "ترجمتها" باسم مستعار خوفا على المنصب وأهل الدار. خديمكم ع.م").

كيف فاتني أن "ع.م" علال مختار، والدي الذي وقع "وهمية" باسم "علي الرماني" وكان يتكلم بنفس الاسم في برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك"؟ أيكون هو الفتاة "ع.م" التي كتبت مقال "نهاية أسطورة"؟ لن أستغرب منه شيئا بعد الآن!

بعد ذلك بسنة، أعني سنة 1977، كما يدل على هذا تاريخ النشر صدر لسيدة غير معروفة كتاب يحمل عنوان "غاية وأبناؤها". وكان هذا الكتاب

بدوره "ترجمة" لباب "مغامرات الأرباب" من كتاب "أساطير اليونان الأولين" للمؤرخ الإغريقي "ألزيدوسون". مستحيل أن يكون والدي هو الذي ألفه باسم مستعار آخر: "فاطمة الطيبي"! المؤلف (ة) لم تثبت هذا الاسم كاملا سوى في الصفحة الأولى من الغلاف بينما وقعت تقديمها القصير جدا، خمسة أسطر ب "ف.ط": لم لا يكون الاسم الحقيقي للمؤلفة "فريدة بيطيط"؟ ذلك ما سأتأكد منه بالعودة إلى النصين وبالنظر إلى ما وقع في تلك الحلقة من البرنامج على ضوء بعض عبارات "وهمية" و"غاية وأبناؤها". فلنترك الآن "سيده جميله"، "فريدة بيطيط"، تستريح في عيادة الطب النفسي التي أحالتها عليها المحكمة بعد أن تأكد القضاة أن الأمر يتعلق بحالة من الجنون تسمى "الحمق الطارئ"!.

8

ملخص غاية وابناؤها

بقلم ف . ط

لم يكن في البدء عند هؤلاء الأقوام سوى "غاية"، لكن "غاية" أصبحت تتألم من "الوحدانية" وطول الليل، إذ لم تكن الأيام ولا النهار ولا الليل قد خلقا بعد. ومع طول "الوقت" لم يكن هناك وقت بالفعل، صارت "غاية" موزعة بين مزايا "الوحدانية" وبين مزايا "الشريك"، تعاني من كثرة الكوابيس ومشاعر الإحباط والكآبة إلى أن اقتنعت بأن هذا "الكون" في حاجة إلى "ذكر"؟ كيف توجده؟ مماذا؟ من أين؟ على أية صورة؟ لأية "غايات" وأهداف؟ أجابت الربة عن جميع تلك الأسئلة ما عدا سؤال الغايات، "أخلقه بغاية الأنس والرفقة ثم أرى ماذا يمكن أن أجد له، أو يجد بنفسه من غايات أخرى!"...

هكذا خلقت "غاية" الرب "نور"، ما بين "الظهر" و"العصر"، جمعت قبضة نار وقبضة صلصال وقبضة من كل المعادن الثمينة والرخيصة وقبضة من جميع أنواع الرياح، فلما انصهرت كل هذه القبضات فيما بينها أضافت إليها الكثير من الماء، ثم عجنت الكل لتحصل على بيضة، ثم بلعت البيضة ونامت. عاد إليها النوم الهادئ العميق وهي تتأمل البيضة في رحمها تتحول إلى جنين، ثم وهي تستعد للخروج، ثم وهي تنمو لتبلغ سن الرشد، "ذكرا" كامل الطفولة أصبحت. غير أن الأم لم تفطن إلى أن عليها منذ خروج "الابن" من الرحم، أن عليها أن تقطع حبل السرة ولا أن عليها منذ الطفولة

الأولى أن تفطمه. لذلك بقي "نور" ملتصقا ب "غاية" يعوقها عن حركات كثيرة، ويجثم على صدرها، كل جسدها حين تنام.

وفي هذه الثقافات الوثنية تظهر باكرا علامات البلوغ على الذكور، لكن الأمهات لا يعرن اهتماما لذلك، تظل الأم ملتصقة بالابن غير مهتمة ببلوغ ابنها ولا بما ينتج عن هذا الالتصاق من معاناة أو حماقات، كثيرا ما تتعرى الأم، لتستحم أو تستبدل ثيابها أمام ابنها البالغ، وكثيرا ما تتزين وتتطيب قبل أن تضم ابنها إلى صدرها وتنام. هذا ما وقع بين "غاية" و"نور" فحدث الحمل، حملت "غاية" من "نور" ب"قرونه" ! ومن غير المستبعد أن تكون "غاية" قد "أرادت" ذلك و "دفعته" إليه دفعا، فما كان هذا على الربة بعسير!

وجاء "قرونه" إلى الدنيا وأخذ ينمو مثل "أبيه"، ذكرا تام الذكورة، هذه المرة أدركت الأم أنها لا تستطيع أن تظل ملتصقة بذكرين وبهذه الصورة التي صارت تمنعها من القيام بكل ما تريد، انفصلت الأنثى عن الذكرين وانفصل "الابن" عن "أبيه" ومع هذا الانفصال بدأت العداوة بين "الذكرين"، عداوة شرسة غذتها "غاية" نفسها بأن "انحازت" في البداية إلى جانب "نور"، ثم فيما بعد لما بلغ "قرونه" سن الرشد إلى صف ابنها "الأصغر"، ثم إنها لم تفكر في أن تفطم "قرونه"!

هذا ما جعل "نور" يعتقد أن أنها لم تعد تحبه، وربما لم تحبه من قبل، أنه كان مجرد وسيلة في يدها تحقق بها بعضا من غاياتها، وها هي تستغني عنه بعد أن أصبح في إمكانها أن تفعل ذلك بواسطة "قرونه"، "الابن" و"الأخ الشقيق"! لقد اشتعلت الغيرة في قلب "نور"، لهذا السبب، وقد زادها اشتعالا شعور الذكر الأكبر باللاجدوى في هذا الوضع الغريب! لم تنجح أية محاولة من محاولات "الابن" الكثيرة في إبعاد "أبيه"، فقد كانت تحميه "أمه"، ولا نجحت أية محاولة من محاولات زائدة، "الابن" الكثيرة في إبعاد "أبيه"، فقد

كانت "غاية" تتهاه عن ذلك وتصده، فكان الابن يردد: "تور يريد كل شيء وحده، نصيبه ونصيبي، لما يشبع بعد من غاية!"

وكان الأب يردد: "لا أحد في هذا البيت يحبني، يريدني، غاية مشغولة بقرونه والولد مشغول بأمه، لا أحد في هذا البيت يحبني"!

كان من المستحيل أن يستمر الثلاثة في وضع كهذا وكان جليا أنه قد وقعت أخطاء ما في هذه "الخليقة": "غاية" لم تحدد بوضوح ودقة غاياتها من خلق "نور"، و"تور" و"غاية" معا، لم يحددا بوضوح ودقة ليس فقط الغايات من خلق "قرونه"، وإنما الرغبة والإرادة من وراء ذلك! هذا هو أصل الشر في "البشرية"، في "الكون" الذي ملأته الأرباب الإغريقية قبل ظهور الإنسان!...

وهكذا وقع ما لابد منه: كانت "غاية" منشغلة بخلق أحد الجبال، ذلك الذي يسمى الأولمب، فتحين الذكران الفرصة ودخلا في مبارزة خرج منها "الأب"مهزوما بعد أن بتر "الابن" يدي ورجلي "أبيه". في آخر لحظة أبى "الابن" أن يضع حدا لحياة "الرب"، أي لم يقو على قتله! تركه حيا مقابل أن يهاجر. إلى أين؟ إلى فوق، إلى "العدم"، "المكان" الوحيد الذي كان لا يزال "فارغا" آنذاك. وهكذا يحكي "آلزيدوسون"، انفصلت حقا "غاية" عن "تور" فنشأت السماء. عاد "الولد" إلى "أمه" التي كانت قد علمت بكل شيء، وحاول مرارا أن يعترف لها "بجريمته" لكنها في كل مرة كانت تصده لتتركه يحمل وحده وزر طرد "أبيه".

ويصف لنا "آليزودوسون" الصعود المأساوي ل "تور" الذي لم يكف عن الأنين: "لا أحد في البيت يحبني!". وهي العبارة التي تلخص حال "تور" المضطربة، إنه يحس بالغيرة والانتقام وفي نفس الوقت بالراحةو الاستسلام، فلا غرابة أن يشعر بالغضب مرة، وبالفرح مرة. عندما يغضب من هناك

يرسل وابلا ورعدا وبرقا وزمهريرا، وعندما يفرح يبعث شمسا ونجوما وهواء عليلا...

هكذا حدث أول "زواج" في هذا "الكون" وحصل أول "طلاق"، حددت طبيعة "الزواج" وطبيعة "الطلاق" وعن هذا الأصل نشأت كل "الحروب" الأسرية...

كانت "غاية" في البدء ولدت ولدين فحصل "التباعد"، وبسبب التباعد انفصل "نور" عن الأرض فنشأت السماء بين "الأرض" و"السماء"، بسبب "قرونه" وحدوث ذلك الانفصال، مشاعر متناقضة: محبة وعداوة، حرب وسلام، يستحيل أن يلتقيا، أن يدوم بينهما لقاء، كل حالة عندهما تمهد للأخرى، المحبة للكراهية والكراهية للمحبة!...

تلك كانت الجولة الأولى في هذه الحرب. ثم جاءت جولات أخرى من هذه الجولات تلك التي بدأت بملاحظة "نور" أن "غاية" لا تلد سوى "الذكور". حينئذ قرر أن يلد "الإناث" من نفسه وأن يكون من طبعهن الميل إلى "الذكور"، أولاد "غاية"، وكانت أولى "بناته" تلك "غاره" التي مالت إلى "قرونه" الذي هام بها بدوره من غير أن يكف عن التعلق بأمه "غاية". وكانت مناسبة وأداة ل "نور" كي يزيد في عذاب "ابنه" و "أمه". سلطت "غاية" أولادها على بنات "نور" وسلط "نور" بناته على أولاد "غاية" فظهرت البراكين والزلازل والجفاف وكثرت العواصف والعواطف وتصارعت. ظل "نور" يشتكي: "لا أحد في البيت يحبني!" وأخذت "غاية" بدورها تشتكي: "يلعن أبو اليوم الذي فكرت فيه في الذكر!". وضاق صدر "قرونه" بهذه الحال فسعى إلى الصلح بين "أمه" و"أبيه" بدون جدوى، فلما أعياه الأمر سلط عليهما الوقت: "سيهلككما الدهر!".

في هذه الأسطورة بقية وتفاصيل كثيرة وتطورات ستقرؤها أيها القارئ

الكريم، في ثنايا هذه الترجمة، لكن عبرة من عبارتها الكثيرة واضحة: للتخلص من ثقل السماء التي كانت جاثمة عليها استغلت الأرض ثاني أبنائها، الزمان، سلط عليهما الوقت وتركه يأكلهما. هكذا أخذ الأب يشتكي: "لا أحد في البيت يحبني!" والأم تشتكي: "يلعن أبو اليوم الذي فيه فيك!" والابن يشتكي: "الآباء أنانيون، مجرمون!". اقرأ كل هذا في هذا الكتاب الذي ترجمناه عن أكبر مؤرخي الإغريق على الإطلاق!

ف . ط.

9
ملخص وهمية
بقلم علي الرماني

كانت "الحيراء" زوجة الأمير "ألفيليوس" أحد قادة جيش الإغريق. لذلك كان الرجل لا يعود من حرب إلا ليأخذ أخرى في تلك السنوات المضطربة من حياة اليونان. فلما بلغ هذا القائد العظيم سن الخمسين ضعف بصره وأقيل من منصبه، في هذه الفترة تعلق قلبه ب "وهمية"، امرأة، "عذراء جميلة"، من جزيرة العمالقة، ظهرت له في البداية في شكل امرأته، ثم في أشكال نساء مختلفات، ثم استقرت بخاطره، ثم صارت تأوي إلى فراشه.

من علاقته مع هذه المرأة رزق "ألفيليوس" ب "طاوسوس". كان "طاوسو" على صورة العمالقة في جزيرة أمه، ينمو بسرعة فائقة وبقوة عجيبة بحيث أصبح في ظرف سنة واحدة، أطول وأقوى أكبر إخوته من أبيه.

لم تطق "الحيراء"، ولا هي لاحظت في البدء ذلك، أن يهيم الزوج ب "وهميه". وجاء "طاوسو" إلى الدنيا فأحست الزوجة أنها تلقت طعنة غادرة حقا، لهذا ومن اجل معاقبة الزوج الخائن، اتخذت لها بدورها عشيقا من جزيرة العمالقة، استبضعته فولدت "سفسلطون"...

أمر هؤلاء الآلهة اليونان عجيب وغريب : لقد كانت "الحيراء" من بنات "زيوس" وقد جاءت مثلها مثل أختها "الثيناء" من إحدى علاقات زيوس" الكثيرة خارج فراش زوجته "هيره". وكانت على عكس أبيها، شديدة الغيرة

كثيرة الاحتضان لأبنائها وكأنها بنت "هيره" وليس "زيوس"، فلما وهن العظم من "ألفيليوس"، بعد أن ضعف منه البصر، لم "تجد" الوقت الكافي، بسبب انشغالها الكبير بشؤون أولادها الكثيرة، من أجل العناية بزوجها المريض، وليس مستبعدا، كما تقول بعض المصادر المتناقضة، أنها أصبحت تنتظر موته من حين لآخر قبل الستين من عمره، لان حاله قد ساءت جدا، وظهر كذلك أن هناك جراحا قديمة في جسد الرجل لم تكن قد التأمت بشكل جيد: "رجل في هذا السن، في هذه الحال من المرض ينبغي أن يترك مكانه لأولاده!".

لكننا، في مثل هذه السن، نحتاج أكثر إلى رفيق الحياة وإلى حب الأولاد. هكذا خاب أمل "ألفيليوس" في "الحيراء" وأخذ يفكر في "وهميه" التي سبق له أن رآها في الواقع، ولأول مرة في بيت احد أصدقائه من كبار العمالقة: "عذراء جميلة"، ذكية، "خفيفة الظل كالإوزة" تربت في بيت عملاق، على المحبة والصبر والإخلاص!

والحقيقة أن "وهميه" كانت من بنات "اللفروديت"، سباحة ماهرة في الماء والهواء، قادرة على اتخاذ أشكال الطير والسمك، ناهيك عن اشكال النساء. فلما قرر "الفيليوس" معاقبة زوجته على عدم العناية به، وهو يدخل أرذل العمر، تجلت له "وهميه" في صورة الخادمة التي فرغتها "الحيراء" لخدمة زوجها المريض، وهو الأمر الذي سهل عليها أن تأتيه متى يشاء ومتى تشاء هي بدون أن تفطن بها بنت "زيوس": ما أغرب هذه الحرب بين بنات الآلهة! لا يوجد أغرب منها سوى في الحرب بين هؤلاء البنات وأولاد البشر!

يشير بعض المؤرخين إلى أن "الحيراء" حين قررت معاقبة "ألفيليوس"، فإنما فعلت ذلك لأنه هو البشري، لقد تجرأ على معاقبة إحدى بنات الآلهة!

هذا رأينا كذلك، فـ "الفيليوس"، وهو مجرد قائد من قواد الجيوش، قائد كبير، ولاشك، لكنه مجرد قائد في جميع الأحوال، لم يفهم أن بنت "زيوس" رب الأرباب لا تعاقب وإذا ما عوقبت فإنها لا تقبل العقاب من "مجرد قائد" هي التي "صنعت" منه "أكبر قائد"، وهي التي أعطته تسع بنات، هن فخر اليونان كلها، وعشرة ذكور لم يعط مثلهم قائد جيش لا من قبله ولا من بعده، هي التي لم تفكر في خيانته، ولو من باب التفكير لا غير، بالرغم من أنه كان يغيب عن البيت سنوات بأكملها! أما أن يجرؤ على معاقبتها بهذا الشكل المهين، لأنها تولي كل عنايتها لبناتها وأبنائها، لأنها تصورت أن هذا الرجل المريض الأعمي لم يعد في حاجة إلى أكثر من اللباس النظيف والأكل الجيد والفراش المريح وصحبة "أورفيوس" ففرغت له إحدى أحسن خادماتها من غير أن تغفل عينها عن مراقبتها! (هذا تطاول، نكران للجميل، خيانة لا تغتفر من "مجرد قائد"، من آدمي عاد!)...

إذن إذا جاءه ولد عملاق من خيانتها فليكن لها ولد عملاق من خيانته!

عبر هذين العملاقين ستتواجه ربتان وسيختفي الرجل بشكل ملفت للنظر، سيلقى به لفترة طويلة في الظل، إذ أن "وهميه" بنت "الفروديته"، أو "أفروديت"، حسب النطق الشائع، ربة الحب والزواج، ربة التوافق والانسجام، قد أحست بدورها بإهانة مزدوجة: أولا، كيف تجرؤ "الحيراء" على ولادة عملاق، على أمر من اختصاص بنات جزيرتها، ثانيا، كيف تسيء بنت الآلهة فهم المسعى النبيل لبنت الآلهة؟

تعني "وهميه"، بخصوص هذه النقطة الأخيرة، أنها من خلال هذه العلاقة مع "الفيليوس"، لم يكن هدفها غير إعادة الأمن والسكينة إلى قلب الرجل المريض! وهكذا فإن "الحيراء"، بدل أن تستفيد من الأمر وتعمل على المحافظة على توازن بيتها، وبدل أن تشكرها على هذا الجميل العظيم تعلن

الحرب عليها وتدفع إلى الميدان بأثقل عتاد: إنجاب عملاق!

لقد حاولت "الحيراء"، قبل هذا، أن تستغل أساليب كثيرة في هذه الحرب: ابتلعت الولد، وهو لا يزال في المهد، فاضطرت بعد ساعات قليلة إلى أن تتقيأه! أسقطته في قدر الطعام، والقدر تغلي على نار شديدة، فإذا بالولد يثب من وسط اللحم والخضر ويجري خارج المطبخ كالسهم!

وكم سعت إلى تسميمه بدون جدوى، كما خرجت به ليلا ورمت به من رأس "الأولمب" فلما رجعت إلى البيت وجدته قد سبقها إليه ونام بجوار خادمة أبيه! جربت أن تلقي به في الجب، في عمق البحر، أن تتركه للوحوش، للأسد الجائعة في الميدان!اكترت من يخطفه، حرضت عليه إخوته، جربت كل الوسائل المعتادة في مثل هذه الحرب بدون فائدة!

في كل مرة كان هذا العملاق الصغير، الوسيم، المزهو بنفسه، المحب للهو واللامبالي إلى درجة البلاهة بما يجري حوله يستسلم لها من غير مقاومة وينجو منها بأعجوبة وكأن "زيوس"، شخصيا، لا بنت "الفروديته"، يسهر على سلامته!

لا يقدر أحد على وصف ما بلغ إليه شقاء "الحيراء": هذا المسخ سيقتل كل أولادي، ستأتي نهاية أبيه على يديه... يتزوجني؟ ويتزوج أخواته الواحدة بعد الأخرى؟ رحماك يا أبتاه!".

قصدت "دلفي"، قالت العرافة: "لا تخافي من حفيد أفروديت، خافي من العمالقة فقط!"

لم تفهم الزوجة الشقية هذه العرافة الغامضة: "كيف لا أخاف من حفيد أفروديت، وهو عملاق إذا كان علي أن أخاف العمالقة وحدهم!؟".

لهذه العرافة تاريخ يفسرها: عندما طرد "قرونه" "تور" وانفصلت الأم "غاية" عن الأب ظلت السماء، مع بداية كل خريف، ترسل "بذورها" إلى

الأرض لتخصبها، فحتى في ذروة الانفصال بين هؤلاء الآلهة لا تحدث القطيعة، وكانت بعض هذه البذور تسقط على اليابسة وبعضها تسقط على البحر. من البذور الأولى خرجت كل قوى "الدم والانتقام"، قوى الشر، وعلى رأسها العمالقة. ومن الثانية ولدت "الفروديته" ربة الحب والزواج والتوافق والانسجام في كل شيء. "وهميه" بنت "آفروديت" ليس فيها نقطة دم واحدة من دم العمالقة. لهذا لم تدخل الحرب بأية وسيلة من وسائل "الشر" واشترطت على "الفيليوس" أن يتحكم في جانب الدم "العملاقي"، الذي جاءه من جهة أبيه، وألا يتدخل فيه بغير الحب والصبر. لهذا كانت كلما اشتدت الأزمة عليه، تسأله مذكرة :

- الفيليوس، مازلت في الخط؟

وكان عليه أن يجيب كل مرة:

- نعم، مازلت في الخط!

أما "الحيراء" ففيها نقطة دم "عملاقي" من جهة أمها التي ورثتها عن جدها.

إذن الابن العملاق الذي ينبغي أن يخاف منه، لأنه خال من دم "أفروديت"، هو ابن "الحيراء" نفسها، العملاق سفساطون، وليس ابن "وهميه"!

هذا هو المعنى "التاريخي" لتلك العرافة، لكن معناها "القدري"، عند هؤلاء القوم غير ذلك: إن "الحيراء" التي تعرف التاريخ جيدا وتحفظ عن ظهر قلب كل أنساب أهلها، لم يكن بإمكانها، كسائر الخلق أن تخاف من فلذة كبدها، فالمرء عموما، ولو كان إلها من هؤلاء الآلهة الإغريق، حين يخاف على أحد لا يستطيع أن يخاف منه! ثم إن "العدو" ظاهر، جلي في صورة "وهميه" وابنها، فلم البحث عنه في الداخل، في غيره؟

آلهتنا، نحن اليونان، يقول "الزيدوسون"، تحب اللهو واللعب بالأقدار لحكمة لا نعلمها نحن البشر!

كانت "وهميه" قد اختارت أن تحارب بسلاح أمها الرهيب: التفاني في الحب واستمرار الانسجام متجددا قويا ولا تكف عن إعادة تربية "الفيليوس":

- "الفيليوس"، مازلت في الخط؟

فلا يتردد العجوز المريض في الرد:

- نعم، مازلت في الخط!

أما "الحيراء" فقد أسلمت روحها للغيرة والغضب ونداء الدم: "لن يعرفوا السعادة، ثلاثتهم، إلا على جثتي!"

أثمرت عناية "وهميه" فاسترد "الفيليوس" بصره وعادت إليه عافيته وأثمر غضب "الحيراء" فابتعد عنها الأولاد والزوج وأصبحت حبيسة شراك الانتقام. لكن عودة العافية إلى الأب، وهيامه ب "وهميه"، قد وحد من جديد، عبر نداء الدم وحده، بين الأم والأولاد: كانوا يستعجلون موته لتحل القضية وها هو يسترجع القوة ليزداد الأمر تعقيدا! قرروا، قتله، قتل الأب المجرم، هذه المرة "الحيراء" وأولادها وتقربوا من "طاوسو" لفصله عن عصبة أبيه، فما خالفهم إلا "سفساطون" الذي أبدي عدم اكتراثه!

في ذلك الوقت المتأخر، من تلك الليلة المشؤومة، جاءوا كلهم متسللين إلى مرقد أبيهم لقتله مدججين بالسلاح، وكأنهم سيواجهون جيش "طروادة"، مستعدين لتلقي أمر الإجهاز عليه من طرف القائدة "الحيراء"، فما كادوا يحيطون بمرقده حتى خرج عليهم "سفساطون"، ضرب رؤوسهم دفعة واحدة قبل أن يدنو من أمه ويشق جسدها شطرين، من أعلى إلى أسفل.

كان "الفيليوس" قد هب من فراشه وأمسك بسيفه مذعورا وهو يراقب ما يفعله "سفساطون"!. وبباب الغرفة كان "طاوسو" ينتحب أو يستنجد، ما فهم "الفيليوس" شيئا مما فعله "سفساطون". غير أن "سفساطون"، وسط هذا الدم وهذه الرؤوس المترنحة، استدار نحو القائد، ألقى بسيفه على جثة أمه ودنا من "الفيليوس" راكعا يجر ركبتيه: "أبتاه! أبتاه!".

لم يسمع الرجل شيئا من هذا الهذيان، هوى عليه بالسيف وفصل رأسه عن جسده، استقرت الرأسي بين قدمي "طاوسوس"، الذي كان لا يزال ينتحب، أو يستنجد، تقدم الأب من ابنه مادا نحوه ذراعيه يريد أن يحتضنه ويهدئ من روعه. استقر الابن في حضن أبيه وهو يمد يده، خلسة إلى سيف الرجل ليخرجه من غمده، أدخل الولد السيف في بطن أبيه وأخذ يدفعه إلى أن خرج لامعا من الظهر!

عندئذ ظهرت "وهميه":

- "الفيليوس"، ما زلت في الخط؟

فقال وهو يسلم الروح إلى صاحبها:

- نعم، ما زلت في الخط!

لم يتزوج "طاوسو" من أمه "وهميه"، على عكس ما هو شائع في أساطير يونانية مماثلة، فقد عاد ليعيش بين أهله في جزيرة العمالقة محاطا بمحبة أمه وعنايتها...

عند هذا الحد تتوقف أخبار "وهميه" ولا يرد لها ذكر بعد ذلك. بعض المصادر تتشكك أصلا في وجود بنت ل "آفروديت" اسمها "وهميه"، يقولون إنها قد تكون فعلا بنت "الفروديت" التي هي غير "أفروديت". أغلبية المؤرخين يرون أنها من حبائل "هيره"، وهي كما يدل على ذلك الأصل الاشتقاقي لاسمها، وهم، وهم ألقته "هيره"، زوجة كبيرة الأرباب، في بال

"الفيليوس"، ثم في بال زوجته "الحيراء"، ومازالت تلقيه في بال الكثيرين، لتشتت شمل بنات "زيوس" غير الشرعيات وأبنائه.

وكيفما كان الأمر فإن "وهميه" هذه توجد في أساطير أخرى كثيرة، قديمة جدا، وهي في غالب هذه الأساطير، تتسلل خلسة إلى خاطر الرجل أو المرأة لتمنح الحب وتعيد التوافق والانسجام فلا ينتج عن ذلك إلا الخراب!

وهذا ما يمكنك أن تعرفه كاملا، أيها القارئ الكريم بشرائك لنشخة من هذا الكتاب الذي يتحدث عن الوقائع الغريبة ل "وهميه"!

ع.م.

10

واضح أن "غاية" التي "خلقت" السماء والزمان وأن "وهميه" التي تغدق المحبة والوئام هي، بمعنى ما، "سيده جميله" التي تشرح قلوب الناس، المستمعين وتمدهم بالطمأنينة والأمل، كما أن "نور"، الذي ولد وربى "الفيليوس" الذي حارب إلى أن فقد بصره فأصبح يعاني من "الوحدانية" وتعلق ب "وهميه"، هو علي الرماني أو على الأصح هو علال مختار الذي أصبح يعاني من "الوحدانية". كذلك فإن "سيده جميله" ليست هي فريدة بيطيط وإن كانت شخصية واحدة فـ "سيدة جميلة" امرأة مندمجة، سعيدة بسعادة مستمعيها، أبنائها المستمعين، لكن فريدة بيطيط امرأة تعاني من الوحدانية تماما ك "غاية" بعد أن كثر أولادها وكثرت مشاكلهم، ك "غاية" عندما تأوي إلى مرقدها وحيدة. وبالمثل فإن علال مختار، من زاوية اجتماعية، رجل سعيد أو على الأقل ناجح في عمله، لكنه حين يأتي إلى مضجعه يحس بالوحدانية.

فالذي يجمع بين هذه المرأة وهذا الرجل بين: الوحدانية! وقد قرأت "وهميه" فأدرت ذلك، وقرأ "غاية وأبناؤها" فأحس بذلك، منذ اللحظة الأولى، من غير أن يعيد القراءة!

وقد كتب عليها بعد أن عرف اسمها الحقيقي، يخبرها بهذا الأمر فلم ترد عليه بالرغم من أنها حاولت ذلك أكثر من مرة: لن نستطيع أن نفهم شيئا ذا بال من سلوكنا ما لم ندرك ما فيه من "ميتولوجية"، من كائنات عتيقة

نتماهى معها وعلامات، جمل أو كلمات مثلا، ناظمة للكثير من مظاهر "العفوية" أو "الانقباض" فينا، مظاهر "ليلية" أو "نهارية"، "قناعية" أو "عارية"!

كان الرجل في أسطورة "الوحدانية"، الأسطورة التي وجدت فيها فريدة بيطيط تجسيدا لوحدانيتها الخفية، ساكنا يردد: "لا أحد، في البيت يحبني!". لكن "سيدة جميلة" كانت مستغرقة في مشاكل أولئك الشباب، تلك الليلة كانت "غاية" العاملة أي امرأة مندمجة وسعيدة فلم تستطع أن تعود بسرعة وسهولة إلى تلك التي تتساها في برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك": فريدة بيطيط!

وكان على الرجل أن يصر، أن يصبر ويتحمل لكي يجرها إلى "أسطورة الوحدانية" لديه، فلما تم له ما أراد، بعد جهد كبير، وأصبحت تقول له "السي علي مازلت في الخط؟"، كان كل شيء قد اختلط، لم نعدْ ولا أحد عاد، "على الخط": لقد رحل الرجل والمرأة إلى "اليونان"، يعني إلى عالمهما الخاص، العالم السري، السحري... لم تعد "سيده جميله" هي "سيده جميله" ولا كان علي الرماني" هو "علي الرماني"، فقد صارا "فريدة بيطيط" و"علال مختار"،خرجا من البرنامج الإذاعي فكان لابد أن يفشل هذا البرنامج الناجح: "غاية" في مرقدها!

لقد أدركت المرأة أنها "وحدانية" حقا من خلال "غنى" وحدانية "علال" رغم ادعائها العكس، وأن هذا الخلق الذي يملأ برنامجها الإذاعي، يرغم كل ما تستمده منه من فرح، لا يمدها سوى بالضجيج فانهارت!

هكذا انتهت أسطورة "سيده جميله" إذ هجمت عليها أسطورتان أقوى: أسطورة علال مختار وأسطورة فريدة بيطيط! وألفاظ الحوار خير دليل على ذلك. ها قد وصلت بيطيط!

فكيف وصل علال مختار إلى علي الرماني، إلى هذا الحد من "نور"

و"الفيليوس"؟

لماذا رفع السماعة تلك الليلة ليدخل في الخط من جديد؟ لماذا أصر على أن يدخل في وحدانية تلك المرأة عبر الهاتف؟

11

العمارة "العامرة"، شارع القبيبات، ساحة المدرسة المجاورة فارغة، صمت، كأن لا أحد في هذه المدرسة اليوم، الشارع خال، حركة خفيفة بباب مخبزة "القمح"، بعض النسوة مسنات، مختلفات، جلابيب فضفاضة أو ضيقة، نحيفات جدا أو سمينات زيادة، نساء شخن بطرق مختلفة، بزيادة أو نقص في الشحم، طفلات ناقصات نوم وجمال أو حظ، خادمات محدودة السعد حول باب المخبزة أو في اتجاه السوق، على يمين المخبزة أشباح الصباح، كما تستيقظ الرباط تنام، العاصمة، الضجة أول الصباح وأول الليل، باكرا جدا، ثم تتكمش العاصمة على نفسها في البيت، في العمل، يخلو الفضاء للأشباح، بين الساعة والساعة تدفع المدارس بباقات ورد أو موجات هواء إلى الشارع، ثم تهدأ الحركة في انتظار الثانية عشرة، في انتظار الرابعة عشرة، في انتظار السابعة مساء، السابعة صباحا، لا شيء لا أحد حقا بعد الثامنة، إلا الأشباح وبعض الغرباء، الضباب كذلك، الرطوبة تستمر جاثمة إلى ما أبعد الثامنة، تدير الرباط ظهرها إلى البحر نهارا، من السابعة إلى السابعة، تعود إليه ليلا من الثامنة إلى الثامنة؛ هذا هو بحر العاصمة: المد نهارا والجزر ليلا، والذين لا يحترمون هذه الحركة إما أشباح وإما أناس كفوا عن الانتماء إلى العاصمة، الإدارة ليست العواصم المراكز فقط، هذه ملتقيات طرقها العامة. العواصم هي الأحياء المحيطة بالمركز، لكل حاضرة أكثر من مركز حديث، معيار أساسي لتمييز المدن للحواضر عن المدن القرى، أكثر المدن مازالت قرى، وهذه الحواضر القليلة جدا محاصرة بالقرى من كل جانب: أكدال، حسان، المحيط، القبيبات، الخ... هنا الرباط!

أما "الشارع" فمعبر فقط للغرباء لتغيير الاتجاه! وقد عانت الرباط كثيرا قبل أن تصير لها عدة مراكز حديثة، قبل أن تصبح حاضرة يدفعها المد من السابعة إلى السابعة، ويجرها الجزر من الثامنة إلى الثامنة، تدير ظهرها نهارا للبحر مفتوحة العينين وتأوي إليه ليلا مغمضتهما، يملأ ليلها ونهارها على السواء، غرباء، أشباح، عابرون، متخلفون عن المد والجزر، من كل نواحيها، من مختلف الأعمار، أناس ينتظرون حافلة نهاية العمر أو بدايته، حافلة لتغيير الاتجاه، للخروج من العاصمة أو الدخول إلى أحد مراكزها...

في صباح أحد تلك الأيام المعبرة عن هذا الجو العام الذي يطبع العاصمة، استيقظ السيد علي الرماني، كما يستيقظ كل صباحات تلك الأيام، بصعوبة بالغة، حوالي التاسعة إلا ربعا، وكأنه يعود من القبر، لا أحد في البيت في مثل هذه الساعة، لا أحد في شارع "القبيبات" غير الأشباح، لا شيء في النفس إلا التعب، لقد ذهب الأولاد والبنات إلى أعمالهم قبل الثامنة، مع المد، ثم خرجت زوجته مع الأشباح، بعد الثامنة في اتجاه السوق، لن تعود إلى البيت قبل العاشرة، شبح نحيف في جلباب فضفاض، ستلتقي بأشباح أخرى، يثرثرن حول الوقت، يتبادلن النصائح والوصفات، يفترقن بتبادل التحيات والدعوات، ثم تعود إلى البيت حيث ستنهمك في إعداد الطعام لأولادها وبناتها الذين سيرجعون من العمل حوالي الثانية عشرة والنصف، سينصرفون على الثانية والنصف جميعهم؛ ستغسل الأواني، ستنام قليلا، أو تتظاهر بالنوم والعياء، ستكمل ترتيب شؤون البيت، ستخرج إلى السوق من جديد، ستعود من السوق قبيل السابعة والنصف، سيعود الأولاد والبنات، سيشربون "القهوة" معا، ستهيئ طعام العشاء، سيتعشون ويسهرون معا، سينامون قبل منتصف الليل، دائما بعد نشرة الأخبار الأخيرة بالتلفزيون، ثم...

12

البارحة، هذا الصباح، يعني، عاد إلى البيت في الواحدة حيث وجد الجميع يغط في النوم، أغلق نادي "سطاد ماروكان" قبيل الحادية عشرة. كان آخر المغادرين مع شلته: "شطبنا الحارس العجوز الماكر!". سيارة المهدي خذلته مرة أخرى: "القلب، هذه عاشر عملية لها على القلب في الهواء الطلق، أنا متأكد من أنها صنعت قبل ميلاد علال بعشر سنوات على الأقل، هي ومولاة الدار كيف كيف!". كانوا ثلاثة فقط تلك الليلة: المهدي والفكاك وهو. أما محمود ومصطفى فقد سافرا إلى مكناس لإصلاح ذات البين بين ابن مصطفى وزوجته: "ساف الولد انتفخ زاب لو راسو اصبح رزل، وحق السيخ الكامل ما ابقاوا لولاد يكبروا آسيدي مصطفى، راكم مزربين كلكم!"

توقف الفكاك غير بعيد من الباب المركزية لكلية الآداب وأخذ يبول، أحس الآخران فورا بالرغبة في التبول. قال علال: "عدنا إلى السبعينات!" قال المهدي: "وحدك أسيدي مولاي، أحنا في عار الله، ياك ألفكاك؟ رد الفكاك محاولا تقليد مصطفى: "انتما اللي مزربين وسايفين لحلاوي!". قال المهدي: "هذه هي الرباط، تارة تمشي فيها وكأنك الوالي، وتارة تخاف فيها من خيالك!". علق الفكاك: "لالة مولاة السر قللت من خروجها فالليل، غير أولاد أصحاب الوقت اللي كثروا واتلف عليهم الديركسيون: المقود!".

وقطعوا باب الرواح ثم انخرطوا في شارع مولاي يوسف، وهناك أقسم المهدي أن يشربوا بيرة في "بلير": "تشليلة وحدة والسلام عليكم!". قال

الفكاك لعلال الذي كان يمانع: "يشوف الزين باش يبات مع مولاة الدار، دير الأجر أصحبي مالك؟".

بعد نصف ساعة كانوا في الخارج أما محطة القطار، قال االمهدي: "تعملوا عكاز الطريق في "جور إي انوي"؟، احتج علال: "لا، نعملوه فالحبس، فالكوميسارية علاش الا؟"، قال الفكاك: "المهدي غدا يصبح في مراكش ولا طنجة، باينة القضية!" مشيرا بذلك إلى عادة المهدي، كلما بالغ في الشرب، في أن يترك سيارته في أقرب باركينك وأن يقصد محطة الحافلات ليستقل أول حافلة متوجهة إلى طنجة أو مراكش؛ "والله أسيدي ما نبات غير في الدار ومع مولاة الدار، ياله هذ الشي اللي ابغيتوا؟:" يتظاهر الفكاك باستعطاف علال: "حرام عليك أعلال، الراجل مسكين باغي يبات في الحلال، باغي يرجع لطريق الله، العن الشيطان وخلينا نديروا اعكيكيز الطريق!"، يتظاهر علال بالغضب: "انتما دراري، والله أسيدي ما أشرف فيكم شي واحد ولا دار لعقل، ادراري وأنا ما ممصحرش معاكم!". وينصرف مسرعا وكأنه هارب.

يقطع شارع محمد الخامس: ("شوية ديال البيصرة في "النقابه"؟) لا، ابلاش، تنفخني ثاني ونبات ابلا نعاس!.

باب الأحد، وتذكر اللعبة، واحدة من عشرات اللعب اللتي يلعبونها مع بعضهم البعض ليطيلوا ساعات الأنس: "ينام مع مولاة الدار؟ يديرها الجن إلا، مسكين، باش؟". لعبه سهلة: يبادر أحدهم فيتقمص دور الضحية أو السكران فيتبعه الجميع إلى أن تفرغ جيوبهم أو نفوسهم، نفسه غارقة الآن في شارع تمارة؛ لماذا لم يختصر الطريق إلى بيته في شارع القبيبات؟

"كنت أريد أن أشرب قهوة في مقهى موريطانيا، لكني نسيت أن الطبيب قد منع علي شرب أكثر من فنجانين وأنا قد شربت أربعة هذا

اليوم!"، لكن هذه الطريق طويلة وخطرة أحيانا؟، "كي تطير السكرة بسرعة ويهدأ صداع الرأي، الأفكار اللعينة التي تنخرني!"، أو ليس هذا مدخل العمارة حيث بيتك؟" سأقطع قليلا، سأقطع الشارع إلى نهايته، هناك عرس في نادي ضباط الصف و... ليتني مازلت قادرا على السباحة، البحر قريب!".

ثم عاد يقطع الشارع إلى أسفله، كان الإمام الخطيب عائدا من ديور الجامع: "صباح الخير الفقيه، شي زرده من دوك الزرود المعلومة؟"، قال الفقيه: "صديق عزيز توفاه الله، صدقه وصافي"، أحس بالخجل: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فلجأ الفقيه إلى مداعباته المعروفة: "وأنت أسيدي علال، أسبوع هذا ما شفتك فالجامع، ياك ماشي سكره ديال سيمانه؟"، قال علال باسما: "ياريت الفقيه ما ابقينا نسكروا بالشراب ابحال الماجنين، ولا بكلام الله، ابحال أهل الله، لعنة ربما!"، استغل الفقيه الفرصة لحسن التخلص: "الله يرد بنا جميعا، غير وياك تنسى الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، تصبح على خير أسي علال!"، فقال علال مضطربا: "تصبح على خير انعم آس!. وفتح الفقيه باب العمارة بينما علال يتوجه إلى الباب المقابل لها.

13

خلع ملابسه، لبس بذلة رياضية واسعة، أدخل رجليه في البلغة الصفراء العتيقة، ذهب إلى المرحاض، بال وضرط، ضرط أكثر مما بال، لعن الضراط الذي يفضحه مرات، دخل إلى المطبخ، نظيف يلمع، يعبق برائحة الخزامى:

"تعجبونا في تضبيبع الما واغسيل اللواني، فالاخر كوكوت، ادفع، عمر، خلط، خلط وادفع، لابنة لا وجه زين، وعلاه منين جايه هذا الغازات اللي فاضحاني مع راسي ومع الناس، من الماكله اللي كناكل بره؟ كل شي غير زواق، من بره، الداخل خانز، تا فالبيت! إخ، اتفوا!". غسل يديه، فتح الثلاجة:

"ناري ثاني عامره غير بالنعناع والخبز يابس، ها العدس، يمكن عندو شي عام هنا، إخ... وكل يوم السوق، صباح وعشيه، آش كتجيب من السوق، كل صباح وكل عشيه، النعناع والخبز يابس، عندك تكون كتسعى الخبز فالسوق، وياكمه مصاحبه مع شي مول النعناع؟ علاش اللا، ياك امراة محمود حصلوها مع مول اللواني، اتفوا... محمود مسكين كيعيط ليها غير الحاجة: الحاجة رزقي، الحاجة حظي، الحاجة لاله... حصلوها غير أولادها في بيت الصابون في السطح... انا اولادي غير مساكين، إيه عميان، ما يشوفوا غير اللي تبغي هي، اللي ما باغيش أنا... ما اللي محمود قرر يطلق اكتشف باللي النسا في هاذيك العماره كلهم عندهم الصحاب: الجزار،

الخضار، مول الذهب، الممرض، المقدم... امصاحبات غير على الخاوي! واش يطلق سبعة ديال لولاد ومانده ديال الفار؟ ابقينا نصبروا فيه تاولى اسكايري، ما يشبعش من الشراب! ابحالوا ابحال هذاك الزوغبي اللي اقتل مرتو وبنتو! اتفو... نتزوجوا في الضيق، ونعيشوا في الضيق، ونموتوا في الضيق، إخ... كاين شي قهره اكبر من هاذي؟"

شرب كوب ماء بارد، شرب كوبا ثانيا، ثالثا، رابعا:

"احسن اعشا هو الما بالنسبة للسكايري البايت بلا عشا، اشرب واتبنن، واغسل اسنانك، مضمض وابلع، تغسل المعدة والمصارن، تغرق لالكول في الما واتبول مزيان، تصبح اخفيف وانقي ووجهك ماعمرو يلعب عليه لون الشراب! اتفوا... "أشعل سيجاره:

"خاص من يديني للحبس على هذا الدخان، أنا راه وخى ما عجبنيش راسي وما عاجباني تاشي حاجه... ماباغيش انموت على الخاوي، ياك أعلال، اعترف، عاجبك الدنيا وباغي تعيش قرن وزياده؟ الحلوف... والليل... باركه عليك من السبان، نوض، نوض، تتعس أراس الثور... نوض أبو كرن،...

كان ينظر إلى شعيرات رأسه في مرآة صغيرة بالمطبخ، رمى بعقب السجارة في الحنفيه، أبصر التفاحة في صحن مقعر تحت المرآة:

"وها التفاح، ها التفاح ولد النفاح اللي شاف السفاح كيقطع المراح وماكال آح، أح يالتفاح يا ولد النفاح يالساكن في السطاح ياللي ما وصلتوا ولا هو طاح، طاحوا الركابي على الزين وسالوا ريوكي اخوات الموكحله ومات لي السلوكي... نوض تتعس أعلال، أنوض... التفاح! ...نوض، نوض... اتفرش الما واتغطى بالشراب، نوض... لعقل ذاب!".

انتهى من قضم التفاحة:

"لمرا مولاة الدار ما اللي تخرج لك كل ليله تفاحه ولا مزاحه اعرف باللي ما ابقات طالبه منك غير الراحه! وكل ليله تفاحه؟".

عاد إلى الحمام، غسل رجليه: "الحاجه الوحيدة اللي باقي فيك منفوخه هي هاذ الرجلين، كل شيء اتفش الله يستر، ابحال إلا غرقتي وابقالوا رجليك الفوق، فوق الما وراسك تحت!".

ذهب إلى غرفته، هيأ فراشه، تمدد بداخله وأخذ يفكر في وحدانيته، كما يفعل دائما قبل النوم وبعد الاستيقاظ، كل صباح:

"الإنسان اللي ماجددش افراشو مع طول الزمان يقهرو فراشو، يولي ابحال لقبر اللي مدفون فيه مولاه وهو مازال حي... غير الأفكار، كثرة الأفكار، ذيك الأفكار اللعينة الكثيره وهي غير فكره وحده: الوحدانية!".

لذلك يريد أن يطيل مكوثه في النادي، تسكعه في شارع القبيبات، دخوله إلى الحمام والمطبخ:

"قد أموت في هذه الغرفة، أختنق أو أصاب بسكة قلبية، من غير أن يدري بي أحد! يسكت القلب؟ تختنق الرئتان؟ لم لا فلا هواء ولا إحساس في هذه الغريفة؟".

لقد حرم دخولها على زوجته وأولاده، منذ سنوات، وصار يسميها "قصر النملة"!

14

وهاهو يستيقظ صباح هذا اليوم المعلوم، مثقلا أيضا بمشاعر الوحدانية والقرف والندم على الاستمرار في شرب الخمر كل ليلة، أي على الاستمرار في "الحياة"، في نمط معين من الحياة، لم يعد يشرب كما كان، صحيح يشرب الآن نصف قنينة روج أو ثلاث بيرات ولا يتعدى هذا القدر إلا نادرا جدا، في حالة استطابة واحدة من تلك اللعب التي يمارسونها معا، وهو لا يقبل على الشرب إلا بعد الصلاة، يدخل إلى أقرب مسجد صحبة مصطفى والفكاك، في العادة، يصلي العشاء ويلتحق بالنادي: "الحسنة تغلب السيئة، ولابد أن يأتي يوم نستبدل فيه هذا الهم بالطمأنينة والأمن!"، يفعل ذلك مع مصطفى والفكاك، غير مبال بتهكم المهدي ولا بيأس محمود، لكن تلك "المشاعر اللعينة" لا تفارقه، صارت منذ سنوات عديدة، سما يأكل عقله بالتدريج، ينخر جسده النحيل.

كل صباح، حوالي التاسعة، وكل ليلة، حوالي الثامنة يلوم نفسه يشتمها على الاستمرار في السهر وتناول الخمر، على إدمان التدخين، على تحمل هذه الوحدانية التي تشبه الغفلة أو المصيدة، ثم يعدها بأنه سيخلصها من هذه العذابات، العذابات؟ أية عذابات؟ واحد، فقط لا غير، هو الأساس: الوحدانية!

ثم يأتي المساء فيجد نفسه في المقهى مع الجماعة، ثم يأتي الليل فيجد نفسه مع الجماعة في النادي، ثم يعود إلى البيت ليلوم نفسه ويشتمها فيعدها بالفرج القريب، ثم يأتي الصباح فيلعن ذاته ويبشرها بأن هذا اليوم آخر أيام

الوحدانية، آخر أيام الجحيم: "الجحيم أن تجد نفسك، كل يوم، ولسنوات عديدة، تكرر ما لا تحب، ما لا ترضاه، فقط ليس غير!".

يفعل ذلك مرتين في اليوم، نفس الشيء، منذ أربع عشرة سنة، منذ حصوله على المعاش، منذ ثلاثين سنة، منذ بلغ الخمسين من عمره، منذ أن بلغ الأربعين، منذ أربع وأربعين سنة، منذ... منذ متى على وجه التحديد؟ منذ أن أحس بأن شيئا ما قد هرب منه، بأنه قد أخطأ شيئا ما، بأنه وقع في الفخ، بأنه ضحية نوع من الغفلة، بأن أمرا ما قد أصيب بكسر بليغ بداخله، وبأن هذا الكسر من الصعب أن يلتئم لأنه كسر سري، عتيق، لا وجه له سوى هذا الضجر، هذا الألم الخفي، هذا القرف، هذه العزلة، هذه الألفة الضالة... بأن شيطانا يتصيد أخطاءه وأخطاء زوجته، وربما الصواب في حياتهما، لينسج من الكل، وبهدوء وأناة، شباكا تشبه شباك العنكبوت القاتل:

"هذا العنكبوت الخبيث يخيط أكفاننا في السر ونحن في غفلة تامة من أمره، لا تتبهنا إليه إلا الحكايات، أساطير الأولين، خاصة، وتبرع في وصفه القصص الدينية: القدر، فقط لا غير، يرينا الطعم فلا نرى الصنارة!".

ويقول له الفكاك: "صل يا علال، أكثر من الصلاة، فإن الله يحب العبد الملحاح ورحمته واسعة لا بد أن تشملنا ذات يوم!". ويتوجع محمود: "لا حيلة مع الله، لا مكر، يا مغفلون، ستصلون كل حياتكم من غير أن تقبل منكم صلاة، الذنب عظيم!"، محمود يائس، لم يسامح زوجته رغم إكثاره من التظاهر بأنه قد نسي كل شيء، بأنه مسؤول إلى درجة كبيرة عما ارتكبته زوجته، بأن الحرارة قد عادت أقوى مما كانت عليه بين جسديهما، لكن: هذا الهم؟ هذا الحزن؟ هذا الملل؟ هذه الشيخوخة التي غزته منذ الحادثة المشؤومة؟ هل هو يائس لأنه لم يسامح أم لأن زوجته لم تغفر له الفضيحة؟ لقد أصبحت نصيحته الوحيدة لكل من يشتكي له من شيء في البيت: "أحسنوا

إلى زوجاتكم وتجنبوا الإساءة، خاصة الإهانة إليهن، إن المرأة لا تنسى الإهانة الصغيرة، فبالأحرى الإهانة الكبرى، في الرجل شيء من طبع الحمار وفي المرأة شيء من طبع الجمل: تنتقم في الوقت المناسب! ما الوقت المناسب؟ حين تنهي واجباتها: يكبر الأولاد ويهرم الرجل، آنئذ تنشط ذاكرتها السيئة وتشرع في رد الإهانة! ابعثوا بزوجاتكم إلى الحج، قبل أن تهرموا، أو طلقوهن بمجرد أن يستأذن الأولاد، إذا كنتم متأكدين من أنكم ارتكبتم جريمة الإهانة في حقهن، نعم، نعم... ولكن من من الرجال يملك ذاكرة قوية تجعله يذكر، وفي الوقت المناسب، عدد الإهانات التي قتل بواسطتها قلب زوجته؟ الرجال حمير، حلاليف...".

هذا هو "الذنب العظيم" الذي يعاني منه محمود؟ وما ذنب الفكاك؟ من منظور محمود؟ من منظوره هو؟ من منظور العنكبوت؟ لا فرق يذكر، على ما يبدو: لم تصرخ، "كانت تموت من الضحك والجارات، كل جاراتنا بالعمارة، يضحكن!": "بصحتك، بصحة سيدي الفكاك، سعدي براجلي ولى راجل!" وانخرطت مع النسوة في الزغاريد، زغاريد حادة وسامة! تسلل إلى الخارج، شارع الزرقطوني يضج بالعائدين من العمل، مازال تلاميذ كثيرون بثانوية المالقي، جنود، مدنيون، عمال، تلاميذ، طلبة، نساء، رجال، أطفال، شباب، شيوخ، كان عاريا أمام هذا الخلق كله بالرغم من أن زوجته ساعدته على ارتداء كامل ملابسه، كانوا يزغردون، لم تنقذه إلا زنقة الهند، الجامع، ارتمى في زاوية وأخذ يبكي.

لم يدرك كم من الوقت قضاه كذلك، وقف على رأسه الإمام الخطيب : "إرفع رأسك... السي الفكاك؟ إنك تطيل السجود أكثر مما ينبغي، لكن الله يقبل الصلاة في كل الأوضاع! سنغلق إن شاء الله!". كانت في انتظاره، صحبة الأولاد، بباب المسجد، أحاطوا به من كل جانب ودخلوا إلى بيتهم.

فطومة الخدامة مازالت في المطبخ تغسل الأواني، اقتادته زوجته إلى الفراش، ألبسته بيجامة، خلعت ملابسها كاملة واحتضنته ونامت.

لم تعد إلى الحادثة، لم تطرد الخدامة، لم تغير شيئا من سلوكها تجاهه. من حين لآخر كانت تفلت منها ابتسامة لطيفة، وكانت هذه بداية وحدانيته، البداية الكبرى: "غريب كيف تحكم النساء الطوق حول عنقنا، هن والزمن شيء واحد! فهل هذا هو "الذنب العظيم"؟ هؤلاء الرجال صفوة، أشخاص أصحاب خلق عظيم، ليسوا لا مرتشين ولا وصوليين ولا منافقين، رجال استقاموا وكدوا ليصلوا إلى أعلى درجات الإدارة في مناصبهم، عن جدارة واستحقاق، رجال من طينة "الأقوياء الأبرياء" الذين أسسوا الدولة في المغرب، فهل يعقل أن تكون هذه الذنوب "الصغيرة" هي "الذنوب العظمى" لديهم؟

من الأكيد أنمهم ليسوا نادمين على استقامتهم إلا بالقدر الذي يطفو من حين لآخر على لسان النفس اللوامة لدى أشرف الشرفاء في مواجهة ضائقة أو عند التشكي من "الفوضى" أو بمناسبة الحديث عن أوضاعهم ومقارنتها بأوضاع المرتشين، وهذا نفسه ليس أكثر من اعتداد بالنفس، في أحسن الأحوال، ولا أكثر من الاستنكار في أسوئها! فهل يمكن للعقل أو للوجدان والحالة هذه أن يقبل أن "ذنوبهم العظيمة" من هذا النوع، أن ذنب محمود "مول اللواني" وذنب الفكاك "الخدامة" وذنب المهدي "الذكر الذي لن يحمل اسمه" وذنب مصطفى "المرأة التي تزوج من البار؟" أتكون الذنوب عند "الأقوياء"، الذنوب الصغيرة، كبيرة إلى هذا الحد؟ أيستطيعون أن يتحملوا كل هذا القدر من الجد والكد ويعجزون عن تحمل هذه الصغائر التي يتحملها أغلب الناس كما تحمل ذمل ناتجة عن أكل سيء أو خدوش أصلها حركة عفوية صغيرة؟ لا تهلكنا إلا الصغائر!

15

"الذنب العظيم" عند علال مختار؟ ليس في الرجال عادة، واحد يستطيع أن يلاحظ "الكارثة" قبل أن تجرفه! الزمن مكار "كيد الزمن، لا كيد النساء" يقرر المهدي "والعين حولاء، والقلب ضرير، والعقل صغير، ضرير، أحول"، حول الحمام إلى دوش وغرفة صغيرة، عمل رجل وحيد يريد أن يسيج وحدته: جل أعمالنا تكون هكذا، عادية تلقائية، حتمية "وماذا أفعل غير هذا، هل تركوا لي فرصة أخرى، هل أقدر على عمل آخر لم أعمله؟)! .

"تسألني أيها الصديق العزيز، عن رأيي فيما حدث لوالدك، لا رأي لي فيما لا يمكن أن أعرف، كل إنسان مجرة ليس بمقدور أحد غيره أن يكتشفها بالنيابة عنه، لذلك نكتفي بمساعدة الناس على أن يقوموا بهذه الرحلة بأنفسهم، غير أنه قد أثار فضولي ترديد والدك لبعض العبارات منذ زمان، وقيامه بأفعال "ستفاجئه" نتائجها، قد يظل الواحد منا يردد كلمات أو جملا لا يدرك فورا، معناها ولا خطورتها ولا نتائجها الكبيرة على حياته وعلى غيره، في البيت والعمل والشارع، كلمات وجمل قصيرة في الغالب، لا دلالة لها في الظاهر تلهو بها، نتنفس، بواسطتها أو نختنق: جزء من طرفة أو نكتة، مقطع من أغنية، بيت شعري، مثل سائر، وحدة صوتية، الخ... من هذه "الترنيمات" ما يخدعنا، ما يظلنا، طول حياتنا لأن ما "نترنم" به ليس هو ما في "الترنيمة"، ليس هو ما نريد قوله حقا ولا نفعله بالفعل، فينا! كيد الكلام!... والمرء حين يدعي هراءا وتكرارا، كأنه يغني، أنه "وحداني" أو "لا أحد يحبه"

أو أنه قد "استغنى" عن غيره، وغلق الأبواب والنوافذ من حوله، سواء في مجال العاطفة أو مجال تبادل المصالح الاجتماعية والمادية، لا يعني دائما ما يقوله، قد لا يدري ما يقوله أصلا!...

إن حياتنا يا صديقي العزيز كخيوط العنكبوت، تماما، ذلك البيت العجيب لأنه واه جميل، لكنه آسر، قاتل، من مثل هذه الخيوط تتكون خيوط حياتنا، خيوط عديدة، متداخلة، فيها الواهي والصلب، الظاهر والخفي، الطويل والقصير، السميك والرفيع، المتقطع والمنتظم، فيها العتيق، ذلك الذي في دم العنكبوت وعروقه، النموذج أو الصورة المتوارثة عن فصيلة العناكيب، وفيها الآني والقادم، ذلك الذي يبنيه العنكبوت بنفسه، في وقت معين ومكان محدد وشروط معلومة: في راس كل واحد منا عنكبوت: تفهم إذن، يا صديقي أنه ليس صدفة أن تعتبر الكثير من الثقافات العنكبوت رمزا للجنون!

لهذه "الوحدانية"! أسباب موضوعية، ولاشك اجتماعية واقتصادية، وربما سياسية أيضا، كما لها أسبابا ذاتية متنوعة من زاوية علوم العصر، لكن لها أسبابا بكل تأكيد، عتيقة، متخلفة، منسية، دفينة، سرية، أسباب من الماضي البعيد جدا، وأسباب من المستقبل القريب جدا، لا نفكر فيها إلا نادرا، أو بما لا يكفي، أو كما يجب، لأن اللحظة، الراهن، المركز، يعمينا، حجاب، ستارة!...

حين نسدل ستائر غرفة النوم، حين يظلم من حولنا أي مكان، حين تمتد ظلال المضاجع من حولنا، حين نأوي إلى ذواتنا ونشعل بداخلنا ذلك الضوء الباطني الخافت، يهجم علينا العنكبوت في رطوبة المكان، ذلك الذي نضع خيوطه بأيدينا أو نحملها في أرجلنا، عتيقة في الماضي أو في المستقبل، في رؤوسنا الصغيرة!

آسف لأني لا أستطيع أن أكون أوضح من هذا وآمل أن أراك قريبا، هنا في مراكش، حيث درجة الرطوبة أقل منها في الرباط!".

أصبح يملك بيته الخاص داخل البيت، اعتزلنا: غرفة ضيقة، متران على مترين ونصف، وضع فيها سريرا من الخشب الأحمر، لا يتسع لأكثر من شخص، مكان خزانة الحمام، متران طولا ومتر عرضا ونصف متر عمقا، ركب دوشه الخاص وحنفيته الخاصة في المسافة الممتدة من السرير من الجهة التي يمدد فيها رجليه إلى الجدار، تبث مرحاضه بين الدوش والمرحاض أقام مكتبته: كرسي صغير وطاولة مربعة لا تتعدى مساحتها المتر المربع، تحت الدوش كان يخفي البوطاغاز، الكامبنغاز، والقهوة وأوانيها للضرورة، الضرورة؟ الإضراب عن الخروج من "بيته الخصوصي"! في الركن الآخر بين المدخل والدوش، الرفوف التي تحمل الكتب وشرائط الأغاني. لقد حيرنا هذا "البيت الخصوصي" داخل البيت: هل يحتاج إليه حقا، ما حاجته إليه؟ ثم لماذا لم يكلف نفسه عناء إزالة الأنابيب، كل هذه الأنابيب التي تعبر الجدران والسقف وأرضية الحمام السابق؟ إن في هذه الغرفة الغريبة من الأنابيب أكثر مما فيها من التجهيزات الأخرى التي أدخلها إليها!

"بوكم بعض المرات ما يخمم ما يحشم، أحمق الله يستر... رجل عايش مع الجنون! جدو الله يستر كان أحمق وسحار، سحار كبير، كان عايش في آخر أيامو غيراف واحد الخلوة وسط الضربان ولقطوط والظلمه... كانوا الناس، غير اللي لاباس عليهم عيالات ورجال، يهود ونصارى ومسلمين، من جميع الجهات، يدخل زباله اديال لفلوس، يخسرها كلها على لقطوط، الفيران كان كيربيهم بيديه، كافلة ديال الفيران، كل واحد كد المش، باش يوكل لقطوط ويشري لكتوب اديال السحر... الله يستر، سمعت لحصيرة وحصرت،

احنا في عار الله والنبي، بوكم إلا دارها قبل ما تخدموا على راسكم نقتلوا، والله غير الا اديتلو عمرو بشي مقده ولا شاقور، هاوه، يخليني وحدي مع فرقه اديال لفراخ!".

وصرنا نسمع الجن تلعب في الأنابيب، تضحك، تغني، ترقص، تصرخ، تتحدث مع السي علي الرماني، تتخاصم فيما بينها أو معه، تناقشه في أمور الدنيا والدين، وكانت أمي تقول من حين لآخر قبل أن يصير الأمر عندها عادة: "هاهي خرجت، سمعوا آش كيكولها واش كتكولو... نصرانية بنت لحرام! أنا شطين مع راسهم، أويلي... آش كيعملوا؟ ياك كلتها ليكم، اتزوج ولد السحار، اتزوج بها ذيك الجنيه الصغيره... وهو منين جالبوه لعقل السحار اللي ولدو؟".

16

"بيت الجن" لم يكن كذلك منذ الأول، في بداية الأمر كانت الزوجة، أمي تتسلل إلى هذه الغرفة، مرتين في الأسبوع على الأقل، بعد أن ينام الأولاد. كان يعود إلى البيت باكرا، يتعشى معنا، يشاهد نشرة الأخبار، أخبار الثامنة والنصف، ويدخل إلى "بيته الخصوصي"، يقرأ في الغالب، ويستمع إلى الأغاني القديمة، شرائط العيطة تتناوب مع شرائط عبد الوهاب وشرائط شارل اتريني، كتب الفلسفة والرواية مختلطة بكتب الرياضيات والمحاسبة، الأعمال الكاملة لأنشتين وبرترانداسل وأساطير اليونان والشرق القديم وثلاث لوحات، نسخ جيدة، معلقة الواحدة إلى جنب الأخرى على الجدار الذي يمد نحوه قدميه: "بورتريه امرأتي وهي تنظر إلى جسدها يتحول إلى معبد"، دالي، "ساترون يلتهم أحد أبنائه"، غويا، و"المرأة السرية"، كاديو وهو آخر مقتنياته: عالم مخيف، رهيب، سحري، مغلق، كابوسي حتى قبل أن تسكنه الجن معه"!

كان الدخان يتسرب من الباب المغلقة ليملأ البيت كله، نضطر إلى تهوئة البيت كله، كل ساعة، وهو هناك صامت، يقرأ ويدخن ويستمع إلى أغانيه القديمة، ينتظر أن تلتحق به!

معنا، أمام شاشة التلفزيون أو حول المائدة، لم يكن يتكلم، وإذا سألناه عن شيء يفكر طويلا قبل أن يجيب: إجابة مقتضبة لا تحتمل التأويل ولا المناقشة يطلقها وسط دخان سجارته التي تبدو وكأنها ولدت معه، لاصقة

بشفته السفلى، وسط هذه الشفة! كان يتابع أخبارنا بطبيعة الحال، يحل المشاكل المستعصية علينا أو يساهم في حلها من خلال الوالدة، قبل أن تسوء أحوالهما، كانت أذنه ولسانه يفكر فينا بواسطتها وتفكر فينا بواسطته، وكانت تأتي في الغالب "جاهزة" ومستعجلة، ترفع قميص النوم وتخلع سروال البيجامه، هي تستعجل وهو يستمهل، فيفعلان "ذلك الشيء" وكأنهما "يسرقانه"، يقومان بشيء لاحق لهما فيه: "اتركيه دائما في حالة وسطى، لا هو جائع ولا هو شبعان، الأولاد حجة لكل شيء، ضد ومع!"، تنصح تقريبا إحدى الجارات"المجربات"، بثقة مشكوك فيها؛ لو يستمع الرجال، حين تجتمع النساء في خلوتهن الجماعية، ما تقوله نساؤهم عنهم من كلام غريب، ما تحكيه عنهم من طرائف ونوادر، من نكت، ما يصدر عنهن من سخرية وتهكم وشتيمة وتوعد، ما يحاك من دسائس، برغبة أو حقد أو مجاراة ونفاقا وادعاءا، لو تستمع النساء إلى أحاديث الرجال عنهن، ترى هل يبقى الزواج زواج واحد فقط، ممكنا من غير أن يكون المرء أحمق أو ضليعا في التهكم؟ يبدو أني بدأت أطرح مشكلتي الخاصة في ثنايا حكاية علال مختار!...

الأولاد يكبرون فيتوسعون في البيت، ينتهون إلى احتلاله كاملا وإلى الهيمنة على كل ما فيه، من فيه، أي الوالدين، انطلاقا من الأم، دائما تصبح الام مجرد خادمة، يصبح الأب زائدا، يدفع به تدريجيا إلى الهامش، إلى الخارج، وإلا لأي شيء يصلح الأب في مثل هذه الأسر؟" والو أسّي علال، دفه للباب واعصا للكلاب، كالوها اللولين، غير يسالي السربيس ويولي زايد كيف الكلب، ما يديها فيه حد، كل شيء يكول لو: واتٍ اسكت، وات اخرج، مالك غير كتنبح، مالك ديما حاضينا ومحرر علينا العيشه، نوض سير للجامع، نوض!"، يشتكي مصطفى وينصح! "قال احد الكتاب، روائي مغربي، واحد السيد لا بأس به، قال: الأب مجرد رمز، رمز يمكن أن

يعوض بأي رمز أخر يقوم مقامه، والأدهى من ذلك أن الكثير من الأمهات يعوضن هذا الرمز، تصير الأم أما وأبا في وقت واحد، الحالة معروفة عندنا، رغم قلتها، وهي الآن في تزايد مهم!"، يتعالم علال مختار على أصدقائه عندما يكون في حالة بؤس! هل يعرف أنني أنا، أنا ابنه، صاحب هذا الكلام؟ هو لا يقرأ إلا للكتاب المغاربة بالفرنسية: لن يفاجئني ذلك، لا شيء يظهر منه يمكن أن يفاجئني بعد قصة الهاتف وترجمة "وهميه"!

يتدخل مصطفى ليعزي نفسه: "إوى أسيادنا دابا لفلوس والكسوة والدار وصداع الراس هاذ الشيكلو غير رمزي نعم أس؟ الله يلعن الشيطان واخلاص!". تدوي قهقهة الفكاك: "واس اعرفتي بعد أسي معنى رمزي ولا لا؟". يتغابى مصطفى: "رمزي معروفه، يعني يأكل ويشرب ريديرها فالستين!". يتصنع الفكاك الاحتقار: "لاواه فالسته والستين، آش من الستين ولا سبعين الله يهديك، الرجل كيولي كيف الظل، كيف الشبح، شفتي لخيال؟... تماما كيولي كيف لخيال، ومالللي يولي، أسيدي مولاي، كيف لخيال كينوضو لولاد والزوجه وكيتقاسموه، كل واحد كياخذ منو طرفو حتى ما يبقى فيه والو، هذا هو الرمز، المعنى ديال الرمز كيف شرحوه اسيادنا العلما!". سيتنجد مصطفى بعلال: "كيفاش، كيفاش أسي علال، دخلنا عليك بالله إلا ما تقولي كيفاش يمكن لبنادم يتقاسم لخيال، غير قولي، وحتى أنا وخى قاري غير لحساب راه يمكن لي نفهم بالحق إلا شرحت لي أنت!" يقول علال: "غادي نحكي ليك واحد القصة عالمية، اديال واحد الألماني!".

ويحكي لهم قصة من ارتجاله: "قصة الرجل الذي استحال إلى ظله"! وفي هذه القصة يحكي لهم كيف تحول رجل في مثل سنه، مضيفا تفاصيل أخرى من حياته الليلية في "بيته الخصوصي"، إلى مجرد ظل، كيف مات الرجل وبقي ظله، كيف يتعذب الظل في الظلام، في سريره، كيف يتشوه لأنه

في الليل لا يستطيع أن يتذكر صاحبه ليأخذ شكله، كيف يقاسي الظل الآلام الشديدة من شكله: "هذه رواية عظيمة حولت إلى فيلم من طرف أحد اليابانيين وسماه: ظلال المضاجع!".

يعلق مصطفى في ختام السهرة، وبعد أن فكر طويلا: "وعورتيها آسي علال: مالنا ومال الجد، والله ما ابقيتوا اتخليونا نضحكوا شويه!".

وفي سريره يتصور علال مختار أنه هو الظل، ظل علال مختار، ذلك الذي سيسميه "علي الرماني"!.

17

لاحظ أنه، بل أحس فقط، أنه بقدر ما ازداد الأولاد عددا وعمرا بقدر ما ازدادت الأم عبودية لهم، بالغت في خدمتهم وأكثروا من طلب هذه الخدمة، بينما ازداد هو ابتعادا عنهم، ازداد عزلة، لا جدوى: "لأي شيء يصلح رجل لا أحد يكلمه، يرد على كلامه، على سكوته الصاخب، لا أحد يطلب منه شيئا، يقدم إليه شيئا، يحاسبه على شيء، لا يبالي به أحد، ليس هناك من يجد "الوقت" للاهتمام به، شخص مجرد ظل، خيال، لم يعد حقيقيا، لم يعد موجودا بالنسبة لغيره وبالتالي بالنسبة لنفسه؟".

لا يشعر الأولاد أبدا في مراحل معينة من عمرهم، بأنهم يغتالون آباءهم، أنهم،... يدفنونهم أحياء... "السي العربي مسكين، الشاوش اللي كان عندنا فالإدارة، عقلتوا عليه... مالو؟ خرجوه اولادو من سلا، من زنقة لالة ماماس، باعوا الدار القديمة، اللي كان فيها وسط اصحابوا واهلوا، اشروا لو واحد لقفص، شقه، اف حسان، احدى الشيكات البريدية، مات من بعد ثلاثة أشهر وتبعتو لمرا بعد عشر أيام، كالوا ليه دار سلا اكبيره وامهم ما عنها صحه باش اتقابلها، كالوا لو وفوق هذ الشي انتما بعاد علينا، تعالوا قربوا لينا نبقوا نزوركم مره مره ونعرفوا آش عندكم سبحان الله، الأعمار بيد الله، ولكن... مسكين قرّاهم غير بالنفس، كلهم... واحد النهار، الله يذكروا بخير جاب لي القهوة فالمكتب وصابني مقلق كنبخ الدم... كال لي، وهو ديك الساعة غادي يتقاعد: يخصك ما تنساش، أسي مصطفى، عمرك ما تنسى

باللي لولاد ولفلوس والخدمة متاع الدنيا كلو، غير كذب، فتنه، اعمل الواجب ادياللك وفكر فالله واف نفسك! من بعد عام خرجوه أولادو من لاله ماماس وقتلوه!"

استولى الأولاد بالتدريج على أمهم، ثم على البيت، كل أركان البيت، كل وقت الأم، وأصبحوا استعمارا حقيقيا وشاملا: الغرف الثلاث تضج بهم، ليس فيها متسع لغيرهم، والصالون ملكهم، أرائكه دائما محجوزة وكذلك التلفزيون والراديو والمسجله، في كل مكان من هذا البيت، الذي اختاره فسيحا بالرغم من أن إمكانياته المادية لم تكن تسمح بمثل هذا "الترف"، في كل ركن أصواتهم، موسيقى مختلفة، أجساد ممتدة، ملابس وأحذية وأغطية وكتب ودفاتر وأوراق، ليس هناك ركن فارغ، شبر واحد لاستقباله يشعر فيه بالراحة، بأنه موجود، بأن له مكانا بينهم، بأنه مرغوب فيه، حتى المطبخ يعج بهم، بأشيائهم، بحاجاتهم، يسير وفق رغباتهم، حسب هواهم، والأم زوجته متفرغة لهم تماما، تجري طول النهار وأكثرية الليل، هذا قميصه غير محدد، هذه فستانها ينقصه زر، هذا يريد القهوة، هذه لم تجد السيشوار، هذا يريد أن يأكل قبل الوقت، هذه تحس بصداع في الرأس وتريد أسبرين، هذا ضيع دفاتره، ضيع شرائط موسيقاه، وهذه لا تعرف لماذا لا يرن جرس الهاتف أو لماذا غابت الألوان من التلفزيون"!

("ماما اعطيني!... ماما شفتي...؟ ماما فين...؟ ماما تعطلت!.. ماما زربي!... ماما بركه... ماما زيدي...! ماما تعالي... بسرعة! ماما جيبي... بسرعة! ماما قولي لولدك... قولي... لبنتك... شهدي! ماما أنا عييت... ماما آش هاذ الحياة...؟ ماما الله يلعنها عيشه! ماما خرجتوا علينا! ماما لاش ولدتونا... لاش تزوجت، لاش جبتيني للدنيا، لاش باقيه حيه؟ انت باقيه حيه... انت؟")

يطلبون على الدوام، ينهبون، يحتجون، يتوسعون، لا يفكرون إلا في أنفسهم حبا بدائيا، حبا دمويا، ملغيا، قاتلا، العنكبوت، خيوط العنكبوت... ويصرخون في وجهها، يلومونها، يشربون دم أيامها، يعزلونها عن زوجها، يطردونه عنها، وهو صامت، صابر، متحمل، سيكبرون، ستفهم ذات يوم... سينكرون، سيشيخون، لقد كبروا، لقد تجاوزوا الرشد بسنوات عديدة ولم يستأذن منهم أحد، لم تفهم، لم يفهم منهم أحد، لم يعفوا، لم يفكروا بعد، لم يشفقوا، لم يخرجوا من ذواتهم الصغيرة، ذواتهم الحقيرة، ذواتهم الملتهمة، القاتلة، العمياء، والعنكبوت، العنكبوت ينشر الخيوط، يطيلها، يضيقها، يحكمها، يرتقها: "الحمام، نعمل غرفة فالحمام، كاين شي حل آخر، علاش يلوموني؟"، "ونعمل مرحاض، ونعمل لافابو، ونعمل سرير ومكتب، ما بقي عندي حل آخر!".

فرق كبير بين "ما بقى عندي حل آخر!" وبين "كاين شي حل آخر؟"، طبعا "كاين حل آخر، كاينه حلول وكانت حلول كثيره ممكنه، ولكن"... آش غادي انكول لك أعلال؟"، "ما عندك ما اتكول لي أمحمود، ما ابقى ما يتكال، وآش نبقى داير الصف مع أولادي على المرحاض، وعلى الروبيني، وعلى أمهم؟"، "كاين حل آخر، وساهل غير ما تقدرش عليه!"، "تسمعوا بعدا، كول آسي الفكاك!"، "الحل أسيدي... خاصك تتزوج من جديد، نوض اتزوج على راسك وحل هذ المشكل!"، يتزوج، يحل مشكل بمشكل! يتزوج؟ "اتزوجت تاانت الفكاك! دير واحد القضيه: اعطيه هاذيك الشارفة ديال امك، بعدا عندها اللي يتحرق وما يتم!"، "أمي الله يرحمها، إلا ابغيت تخطبها لو من عزرائيل أنا موافق!"، "وخلينا نضحكوا شويه، اطبختونا بهاذ المشاكل الخاويه، هاذ الشي عندكم كلو سوء تفاهم، مع المرا، مع لولاد، مع رؤوسكم، ماكاين غير سوء التفاهم، وسوء التفاهم أكبر، أصبح من اجبل، ما ابقينا

قادرين عليه!"، "وها لفهامه، كيفاش نعم آس هاذ الفلسفه اديال سوء التفاهم، اشرح لينا، ورينا، نورنا الله يرحم الوالدين!"، "ومالي وليت سقراط! هاوه! كلمة وحده خرجت من فمي خاصني نشرحها، معلم!"، "إوى أسيدنا ما اللي ما قدرش تشرحها اعلاش خرجتيها، علاش ما تسدش فمك وتخطينا!"، "الفكاك، لكان غير على أمك، اتقلقت حيث اذكرتها، راني قادر نشرح لك كيفاش اقتلتوها، انت واخوتك واخوتتك، قادر نشرح لك كيفاش انت ومرتك غادين يقتلوكم اولادكم، ولكن خليني ساكت الله يجازيك بخير!"، "أنا اقتلت أمي، أنا؟"، "هاهو بغى يلصقني، كولو لو الله يخليكم راني خارج، ما كاينش اهنا، امسافر، أنا فالطاليان، ألا فالسويسرا كندوز العطله... الله ينوب الأخ!".

18

"الله يتوب ألوالد، ما عندي ما نعطيك هاذ الساعة، الله غالب، الله يعطينا ويعطيك، اللي خاصك هو اللي خاصنا، بدل ساعة بأخرى، شوف الوالده!"، "وأنا وجدت الوقت، وجدت الجهد، ها أنت تشوف آش عاملين في أولادك، وياك تا انت أولادك، ما تصبرش، ما تسناش، ما تقولش الله يكون فالعون، تاانت دري، مالك وليت غير حال فمك ومادايديك كي السعاي، الله يستر، مالك وليت اتجي مستور وتخرج مستور كي ضايف الله، وياك تا انت هاذي تربية إيديك، إوى مالك؟".

مالو؟ مالك أعلال؟

"أشعر أني مثل المتسول، ذلك الذي يمد يده إلى أهله يطلب منهم صدقة لوجه الله، شيئا من العناية، شيئا من الوقت، شيئا من الكلام، شيئا من المحبة، شيئا من الشفقة، فقط لا غير، فقط لا شيء... ولا يد تمد، لا عين ترفع، إنني أنا السائل، أنهر وأهان، أداس وأموت جوعا، أموت ظما، أغار، أحقد، أكره، تتحول المحبة بين يدي إلى مسخ، إلى وحش سيج عزلتي وأحكم إغلاقها ثم جلس على صدري ليحرسها: أنا أعزل، أعزل وضعيف، أنا وحيد، وحيد ومغلوب على أمري، أنا وحداني، وحداني لا أمل، بلا زاد، بلا قوة، بلا نصير، وها أنا أشهدك يا ولدي، أشهد الله، أشهد العالم كله على أني استغفلت، أخطأت، قتلت، قد أموت، وحيدا، في هذه الغرفة، قد يشم الجيران والشرطة رائحة عفني من غير أن يدري بها أولادي وزوجتي، زوجتي

الضحية وأنا الشهيد، لكنها سعيدة وأنا في قمة بؤسي، أريد حظي، أريد حقي، نصيبي منهم، فلم لا ينالني إلا الهم، إلا التعب، إلا الخسران، أشتري، أدفع الثمن ولا شيء آخذ في المقابل، أبيع نفسي ولا أحد يشتريني، لا أحد يريدني، أنا الأب، أنا الأب "غوريو"! "تور"! أورانيوس!" "ألفيليوس"...

"كم من المساءات، كم لبسني الحنين وهزني الشوق، كم من الصباحات، كم وددت لو أقبلهم الواحد بعد الآخر، لو أضمهم جميعا إلى صدري وأبكي، كم من الليالي، تمنيت لو يسمعوني لأقول لهم: سامحوني، سامحيني، أنا أعرف ذنبي، لا أعرف ماذا جنيت ولا متى ولا كيف، لكني ارتكبت، ولاشك ذنبا عظيما، خطأ كبيرا في حقكم فسامحوني، سامحيني، أنا أبوكم على كل حال، وأنتم أولادي، أنت زوجتي، من أجلكم لم أعد أعرف بقية أهلي، لم يعد لي أحد، لم يعد يعرفني أحد، من أجلكم سهرت الليالي، تسلقت الأعمدة المطلية بالصابون والقار، حاربت الشيطان الوسواس الخناس وأضربت عن طرق الفساد، أردت أن أصونكم بمال حلال واسم شريف يرفعان رؤوسكم، ولاشك أني في هذه الحرب الضروس، ضد كل هؤلاء الأعداء، في هذه الساحات الشاسعة الصعبة، قد ارتكبت خطأ ما، جواد وكبا، سامحوني، سامحيني! لا تغتالوني قبل أن أتصالح، قبل أن نتسامح، إنه يعز علي أن أذهب إلى قبري هكذا، وحيدا فالشيطان وحده من سيدخل إلى القبر وحيدا، لا،... ليس من الوحدانية إلى الظلمة!

كم كرهت أصدقائي، كم كرهت من الأشياء، كم مرة عدت باكرا إلى البيت، زاهدا في الدنيا وما فيها، فكان سيان لديكم أن أغيب أو أحضر! أراكم سعداء، تضحكون، تتناقشون، تتغامزون، تعلقون على الأشياء، على فيلم أو أغنية أو شخص أو طعام أو شراب، تتبادلون التحيات والدعابات والشتائم والنكت والطرائف، تتلامسون بجلودكم وعيونكم وألسنتكم، تقترضون من

بعضكم الملابس والأحذية والمعلومات والحلويات والفواكه، تتهامسون، تتخاصمون، تتعاركون، تتصالحون، تسألون عن بعضكم البعض، تتفقدون أحوال بعضكم البعض، تواسون المريض منكم والمتعب والراسب في امتحان، تحلون مشاكلهم في تعاون، تقلقون عن المتغيب والمتأخر، تعيشون قربي، كالجيران الأعداء، في وئام، في تواطؤ تام، تتقاسمون كل شيء، السراء والضراء، المحبة والكراهية، الحلو والمر، الصفاء والكدر، أمكم وسطكم تجري، تضحك معكم أو تبكي، وأنا وحدي، أتعذب، ما ذنبي، ماذا فعلت؟ ماذا أفعل؟ كيف أتجنب خروج العقل من عقلي؟"...

كنت هددت بقطع المصروف، أعلال، أليس كذلك؟

حماقة، مساومة فقط، لا غير، نداء، لا، لا، توسل: لم يبق بيننا سوى هذا الحبل الضعيف، إذا أصررتم، لا تصروا، رجاء، لطفا، فإني سأقطعه!

أقطعه، كيف أقطعه، يا بني، وهو آخر ما ظل يربطني بكم، أأقطعه لأجن، لأموت، لأستكمل دائرة الوحدانية من حولي؟

لكنه انقطع، فيما يبدو، أليس كذلك؟

أمك يا ولدي، مرة أخرى لم تفهمني، لم تمهلني، لم تسمعني، أنا كنت أستنجد، أتوسل، أتوسل وهي تعتقد أنني كنت أهدد، والحق أن بعضكم نفخ في الأمر قليلا وجعل منه مسألة كرامة، وأرجو أن تلاحظ كيف تؤول بعض الأشياء في حياتنا: هذا المصروف، في نظركم كان واجبا في السابق، وقد أصبح إهانة لما كبرتم وبدأت أتسول به شيئا من اهتمامكم، هل لاحظت؟ ما علينا، يا بني، لقد اشتغلتم وأخذتم تكسبون أكثر مني، من مساهماتكم في المصروف صار يتجمع لديها كل نهاية شهر، أضعاف ما كنت أعطيها، صارت تلعب في الفلوس، أصبح لديها بنك عائلي تفاخر به. أنا قد أخطأت مرة أخرى، أخطأت التوقيت والطريقة: "راتبك، كاملا، اشربه، تتفل بيه!"،

هكذا والله حرفيا، قبل أن تنطق إحدى أخواتك، سامحها الله: "ياالله يكفيك اشراب أسكايري، تشربو كلو شراب ولا سم إن شاء الله، شوهت بنا الله يعطيك شوهه!"، أنا، آوليدي اسكايري، وامشوه بكم؟

الحقيقة، أعلال أنك كنت تشرب كميات لا بأس بها!

حرام أوليدي كنت أشرب بلا إفراط، لم أكن أسكر، هذا هو المهم!

لا أعلال مرات عديدة تقول الوالدة ملأت البيت قيئا أو جئت محمولا من طرف أصحابك أو بقيت مرميا كالكلب، تقول الوالدة في الشارع أو في درج العمارة أو بباب أحد الجيران، يبدو أن الجيران الذين كنت تدق أبوابهم خطأ، قد اقتادوك مرات كثيرة إلى البيت، واشتكوا إليها منك، لكن بدون فائدة، لم ينفع معك أي شيء مما فعلت لصالحك، ثم إنك كنت في تلك الحالات ترغمها على أن تمارس معك الجنس من حيث لا تحب!

أنا كنت أضربها؟ والله ما ضربتها منذ ولادة أختك رقية، أي منذ تسع وثلاثين سنة، نحن تربينا على الضرب، على العنف، أول من كف عن الضرب من بين أصدقائي، منذ فتح الله علي بنعمة القراءة للمتعة! لعيالات كذابات، أو لدي يوحطيات، عنداك تمشي اتيق بكل شيء ذاك الشي اللي كتكول أمك نصو كذب! الله يلعن الشيطان! عرفت؟ راها غير كتبرر علاش ما ابقاتش كتنعس معايا!

تنعس امعاك؟

يعني ذاك الشي...!

19

"ذاك الشي"... لقد أصبح ينتظر ليالي كاملة أن تهل، بدون جدوى، وإذا صادف أن أهلت، مرة في الشهر أو في أكثر من شهر، تهل دائما مستعجلة، كعادتها، متعللة، جاهزة، شبحا لا يرى في الظلام: "عندنا في الفيلاج يحكى أن هناك رجالا لم يروا قط زوجاتهم، في الظلام، طبعا، ليلا، ولا هم عرفوا، رأوا ما فوق حزام نسائهم، ولا هم قبلوهن، ولا قبلة واحدة، خاصة في الفم"، "الله يرحم عليها السي عمر، الأستاذ صديقنا، قالك واش الفم اللي يقولك اتفاضات البوطاغاز على الفجر، هذا فم تبوسو؟"، "خليونا من الجاهلية الله يجازيكم!"، حاضر، اتكلم أعلال! كول!"، ماذا يقول لهم علال، كيف يقوله، يقول لهم ما يريد من غير أن يقول كل شيء، من غير أن يفضح سره، سر زوجته وأولاده؟ هل يستطيع أن يقول لهم إن كل شيء ساء لما ساء" ذلك الشيء"، تدريجيا، في غفلة منهما، فيما يشبه الشماتة التي تتستر في زي عزة النفس؟ هل يقول لهم إننا جميعا، نساء ورجالا، نشاهد أحيانا كثيرة، حياتنا تتفتت، تتسرب إليها الفيروسات من غير أن نفعل شيئا، ننتظر فقط على ضوء أمل غامض في أن تهلك الفيروسات، أن تتعب وتستقيم الأشياء من جديد، نراها تتكاثر، تتقوى، ونحن في كبريائنا، في بؤسنا، لا نفعل أي شيء، نعمل على تغذيتها، نتلذذ في مازوخية انتحارية، بالعذاب الذي نغزله في عيوننا، فإذا ما انتبهنا، استيقظنا، كان الوقت قد فات، كانت حياتنا قد تعفنت وكانت المازوخية، والسادية التي تستعين بها، قد حلت محل كل شيء؟ هل

يقول لهم؟ وهل هو علي يقين كامل بما يقول، بهذه التفسيرات كلها، ألم يعشها ككوابيس في حينها، وهاهو يعيشها كفرضيات، كفرضيات "فقط لا غير"، وكأنها من حين لآخر لا تعنيه، لا ترضيه، لا تنطبق عليه، تخص حياة غريبة عنه، حياة الكلام، حياة الثرثرة، حياة فارغة، باردة، لا حياة غليان الدم وانسداد العروق، حياة الرأس التي تفور، تنفجر، تتحجر، حياة القلب الذي يدق كالمدق، حياة العين التي تمتلئ بما ترى إلى حد العمى، حياة العقل الذي يشرح، ينفذ إلى أعماق الأشياء، إلى أدق تفاصيلها فلا يرى سوى العدم؟ ماذا يقول؟ "غير أجي أوكول ألسي محمود، السي المهدي؟ كول أسيدي، كول اللي كان اللي جاب الخاطر، ابكي ولا اضحك، كيف كيف، ما اللي يصعب لكلام!".

يعجبه محمود بين الفينة والأخرى، معبرا عن حاله، عن كل حياته حين يحكي شيئا واقعيا بادئا ب "غادي نحكي لكم واحد القضيه ابحال لخرافه، كيف لمنامة، ما يمكنش للعقل يصدقها ولا يفسرها..." ويروي شيئا عاديا جدا، أمرا دخل إلى الكلام، انفصل عن سياقه الفعلي، المعقد والغامض، فأصبح عاديا، محتملا ولو أنه غير مقنع، لا يشبع، لا يطفئ كل العطش والغمة، لكنه أصبح قابلا لأن يحكى، لان يتناقش وأن تتبادل فيه "وجهات النظر"، ذلك "النظر" الذي لا يرى أبعد من شروط الجلسة ومستلزمات السمر! "راني فاهم، ألسي علال، أو حاس، ولكن... آش المعمول، تنفجر، نسكتوا حتى نخواو وانعملوا: فش! آش...؟" ما يطاله الكلام ينظمه، يجعله محتملا. لذلك من الضروري أن يخف وزنه، ان يفقد شيئا، وإلا كيف نقوله، كيف "نتبادله"؟ "لكلام فيه أو فيه، أمحمود، كاين لكلام اللي خاصك غير اتشمو، كيف الورده أولا كيف الجيفه، أو كاين لكلام اللي خاصو غير الشوفه، كيف لبحر، كيف الواد الحامل، أو عندك، أسيدي، لكلام اللي ما

يخرجش، وخى تحلبو، تعصرو اعصير، أولا ما يدخلش للراس وخى اتدكو بالمطرقة والمسمار، وخى تحفر لو باش يدخل!".

حول أي شيء يحوم، منذ بداية هذه الجلسة، ولماذا يبدو بعيدا وملغزا كما لو كان في مجرة أخرى، كما لو كان الليل قد سكنه قبل ان يعود إلى بيته الخصوصي؟ "ناري، فاق الولد، اطلقني نمشي!" وتنسل خارج السرير بينما يتظاهر هو بالشخير! "جنيه هاذ البنت، هاهي كتبكي ثاني، عاد رضعتها، غادية تاكلني، اصبر، حايد، اصبر عفاك، اصبر!"، "اترجعي، اتنعسيها واترجعي بلا تعطال؟"، صافي، هانا راجعة!".

وينتظر، إذا رجعت تأتي خائفة، متوترة، تترك له نفسها يفعل بها ما يشاء، كانها جثة، وقد ترجع، وهي في طريقها إليه، لأن الولد أو البنت، بدأ يبكي من جديد، قبل أن تصل إليه أو وهي تستعد لتدخل إليه، فيشتمها، يسب الأولاد ونفسه ويحاول أن ينام.

وكم مرة جاءت إليه تسبقها رائحة البول أو البراز، رائحة الغسيل أو الطعام فيطلب منها أن تذهب لتغتسل وتتعطر وهو يعرف أنها قد تعود أو لا تعود، قد لا تجد الوقت لتغتسل، قد يقتنصها ولد أو بنت في الطريق، قد يغلبها النوم وهي تحاول أن تنيم البنت أو الولد.

عذاب، جحيم، حرب أعصاب، وكبروا، الواحد بعد الآخر، فأصبحوا لا ينامون كأنهم الجن: هناك دائما واحد منهم، أو أكثر من واحد، "يراقب"! لقد فاتنا يا ولدي أن نعلم أبناءنا هذا النوع من الحدود، من الحقوق، من كثرة ما كنا "نسرق ذلك الشيء" قد انتهوا إلى أنه ليس ضروريا بالنسبة إلينا، إلى أننا لم نعد نحتاج إليه، إلى أننا متنا وانتهينا، وأنا أعرف أن هذه التربية غير كافية، تحتاج إلى شروط أخرى: الشكل الذي تصمم به البيوت لدينا، عدد الأولاد في كل بيت، حياة الجيران من حولنا... كلها شروط لا تسمح بتأسيس

هذا النوع من الحدود أو الحقوق، أولادنا أنفسهم مظلومون في ظل هذه الشروط!

ثم ازدادت الزيارات ندرة وكثيرا ما كانت تقطع إحدى هذه الزيارات النادرة جدا قبل نهايتها العادية: تباغته وتهرب!

ومرة عاتبها لأنها لم تعد تقبله ولو قبلة واحدة، ولو قبلة قصيرة في الفم، سكتت، أصر، سكتت، أصر، فرت، ثم عادت بشكل مفاجئ بعد يومين، سألها: "علاش ما ابقيتيش كتبوسيني؟"، لم تسكت هذه المرة : "فمك خانز أعلال، كيقطع بالخنز!"، وفمها هي دائما تفوح منه رائحة البصل أو الثوم، رائحة السم، فلم يصبر على هذه الرائحة، صبر عليها سنين؟

"قالت لي أخويا الفكاك، كالت لي بنت الكلب أو بلا حيا ابلا حشمه: فمك خانز أعلال، كي...! "، ضحك الفكاك حتى كاد يغيب عن الوعي، ضحك وهو يخفي فمه بيده اليمنى، نفس الحكاية حصلت له مرارا مع زوجته، قال الفكاك أن أفواههم نتنة بالفعل "ريحتها تقتل!" من كثرة ما يدخنون من سجائر رديئة، ومن شرب الخمر العادية، الرخيصة، ومن كثرة الأكل السيء وعدم العناية بتنظيف أسنانهم وأمعائهم وتنوع جيوب التعفن في أفواههم وأنوفهم "هذ الشي يمكن يخزن الجنة ما شي غير الفم!"، "أنا نطلقها، مانكذبش عليك ألفكاك، انطلق أمها ونتهنى مع راسي، فمي كيقطع!".

عندما أضاف الفكاك أنهم في العمل كذلك، خاصه لدى النساء، رائحتهم تثير الاشمئزاز وأن الكثير من الزملاء قد نبهوا على ذلك ناصحين بالتقليل من الإدمان على الخمر والسجائر أحس بالحرج، بحرج كبير: "زعمه احنا خانزين لهاذ الدرجة!" ثم أضاف: "اعيالاتنا تاهم... خانزين، وخى غير... مره مره!". ولما أكد الفكاك على ضرورة أن يعتنوا بأنفسهم كان هو يفكر أن الأوان قد يكون فات وأن هذا "الخنز" قد لا يكون أكثر من علامة أو... دليل!

20

كانت تلك آخر زيارة، لا هو طلب غيرها ولا هي تطوعت بأخرى "اعيينا واعيالاتنا رشاوا، كبرنا والسلام أعلال!"، ويضيف محمود إلى كلام مصطفى: "عندما قررنا الزواج اخترنا الطاحونة!" يتمم مصطفى: "اتكلم بالعربية أو قل: حمار الطاحونة!"، يصيح الفكاك: "قل خدمة، نؤدي خدمة، كبقية الخدمات، قل خدمة الحيوان الاجتماعي، كما نعمل مثلا في الإدارة!"، يتفقون على أن الإدارة تمنح على الأقل تقاعدا في وقت معلوم، لا يوافق المهدي: "بعد أن تمتص دمك، كذلك الأولاد هم يمنحوننا أيضا التقاعد، إنما في وقت لا ننتظره!"، يسأل علال: "لماذا نشعر بالموت ونحن نؤدي هذه الخدمة، لماذا نشعر بكل هذه الوحدانية؟ في الإدراة، في وقت ما، كنا نخضع للإكراهات راضين، نعمل بشيء من الفرح، من السعادة، لماذا لا نحس بذلك مع أولادنا، الآن؟، يحاول المهدي الإجابة: "لأنه كانت هناك مكافأة : الراتب أولا، والشعور بالقيام بالواجب ثانيا، إيمان بدورما، هذا ما لم يعد يوجد في البيت: نحن لا نؤمن بأولادنا وهم لا يؤمنون بنا، قلبت القيم. هذا كل ما في الأمر!". لا، ليس هذا كل ما في الأمر، ليس هذا كل الأمر: لسنا سعداء، لا هم ولا نحن، وتقول لي هذا كل ما في الأمر! صحيح: كل منا يفعل، يعمل من غير أن ينال مكافأة عن عمله، حمار الطاحونة! صحيح أيضا: القيم اختلطت ولم يأخذ بعد ترتيبها شكلا واضحا، نحن نؤدي ثمن هذا الخلط، أكباش الفداء! وصحيح أن الخوف يعمينا عن الإيمان، عن الثقة... وأنا متفق

معكم على أن المرء حين ينظر من حوله يصاب بالهلع: من النادر أن يجد زيجة سعيدة!... لكن لا ينبغي أن نخلط بين الأجيال ولا بين الحالات: لماذا أنا مثلا أحس بكل هذه الوحدانية ويخيوط العنكبوت تضيق من حولي، لماذا لا أجد أية لذة في هذه "المهارب" هذه "المعوضات"، لماذا سواء هربت إلى البيت أو إلى خارجه لا أجد أية متعة، ووإذا شئتم أن أعمم قليلا، أيها الأصدقاء: لماذا تغرق زوجاتنا في الأولاد والمطبخ ونغرق نحن في الهموم، تهرب زوجاتنا، حين تهربن إلى الشوافات والشطح، ونهرب نحن إلى الخمر أو إلى زاوية شيخ من شيوخ هذا الزمان، لماذا؟ يقول المهدي: "بعدا، سمحو لي على الدارجة، هاذ الشي ماشي صحيح بهذ الشكل: انسيتو التلفزيون! ثانيا، هذ الشي ديما كان هكذا فكل ازمان اقبل مانكونوا لاحنا ولا والدينا، خليونا من كثرة الفهامة!" من قال إنه لم يكن أو أنه لن يكون: إنه كائن اليوم بهذا الشكل وهذا الحجم الذي أحس به! يقاطعه محمود: "وانت مالك سيدنا سليمان أعلال؟ دير راسك وسط الريوس، ريوس خوتك وعيط أقطاع الريوس". يحاول مصطفى أن يخفف من شدة المواجهة: "والله أسيادنا لا غير الخمر اللي كلات ريوسنا، راه تا واحد فينا ما بقى عندو الراس بسبب أم الكبائر، فكروا شويه، وخى ما عندكم ريوس، فكروا شويه واتشوفوا!"، الخمر تأكل راس من لا يعرف كيف يشربها، من هي التي تشربه!" يعلو صوت محمود: "إوي هاذي فهمتيها وهاذيك اللا، تالحياة، تالزواج، أمولاي الشريف، كيفو كيف الشراب، ما كاين لاش يتكلم الإنسان على غيرو، على الناس كلهم، وهو ما قدرش يتكلم على راسو!"، أكيد أمحمود، أكيد: "وانزيدك أعلال راه المشكله الكبيره ديال ابنادم هي كيفاش يخرج راسو من وسط الريوس ويشوفو عريان، بلا احسانه، بلا شعر، بلا مشطة، بلا ريحه، بلا بريانتين... احنا كلنا اعملنا الفريزي ولينا كيف كيف، كيف العرام ديال

الدلاح!". يحاول مصطفى مرة أخرى أن يخفف من حدة المواجهة: "واش تيغينا نرجعوا كلنا للرزه، تقدر تعمل انت الرزه دايا؟"، دعه دعه يا محمود، فهو يطلق لسانه ليقول شيئا لأول مرة! يتدخل الفكاك: "الجو ابدا يفسد!"، ينظر علال إلى السماء: الطقس رائع! يهب واقفا: "السلام عليكم!" ويتوجه نحو البيت آملا ألا يجدهم قد ناموا!

قلت لي، أعلال إننا قد نعود إلى "ذنبك العظيم"!

ليتني أستطيع، يا بني، لكن... قد لا يكون الوقت قد حان... لكن... ربما...ربما... كان بعض ذنبي، لا ذنبي كله، أنني حاولت، بل أردت، أن أحول مؤسسة "التفريخ" إلى مؤسسة "للمتعة" ولم أعرف كيف أو... من وضعي كفحل، ووحدي، من غير أن أتكلم، أن أستعين بمن يعنيهم الأمر معي أو... أن أرفض "المتعة" التي نعوض بواسطتها في "الخارج"، قلة أو اختلاف، "المتعة" في "الداخل"... جائز أني لم أعرف كيف أوفق على عكس آلاف الرجال والنساء... فأكلني العنكبوت!

تقصد بين "التقليد" و "الحداثة"؟

هذه كلمات غليظة علي يا بني، صعبة... تعرف؟ قد يكون الأمر بسيطا للغاية، كما هو الشأن بالنسبة للأشياء التي تبدو لنا لأول مرة سهلة فتصبح غامضة أو تلك التي نطيل فيها التفكير فتصبح معقدة... قد لا يعدو الأمر أنني لم أقبل كسائر الناس، ثمن المرحلة!

تعني سياسيا؟

ربما لكن أعني... ماذا؟ وجدانيا... أحسن وجوديا!

فلسفيا أعلال؟

اللا، اللا أوليدي اللا، آوه... حياتنا، حياتنا فقط لا غير!

فيها السياسة وفيها الفلسفة، أعلال!

أو هاذ الفلسفة وهاذ السياسة... مافيهاش السعادة؟ مالكم زربانين على قرياتكم، خلينا أوليدي، غير فالحياة... الحياة ما فيها زين؟ ماكتقراوش... علم الجمل، آش جاب علم الجمال للكلام؟ الزين، الزين أنا ما من حقيش نتمتع بالزين، ياك الزين حبو مولانا، وربي زين واعظيم، وفين عظمتي أنا وفين زيني؟ أنا غير اندور العجلة كيف احمار الطاحونه؟ وكولي عاود ثاني هاذي فلسفه وسياسه... وابغيت انعيش شويه اسوى بالفلسفه والسياسه اسوى ابلاش! افهمتي شي حاجه؟

شويه، شي شويه أعلال!

وأنا كون افهمت كل شي كون راني اتهنيت!

21

الأبناء الثلاثة يشاهدون فيلما في التلفزيون: "فيلم مزيان؟"، "الله أعلم، عاد بدا"، العنوان؟ "ما شفناهش!"، "أمريكي؟"، "خلينا نسمعوا شويه ألوالد!"، واضح! زوجته تصلي في ركن من المطبخ، قال في نفسه: "إذا بقيت الحال على ما هي عليه ستصلي في الشارع، قريبا جدا!"، يشرب كوب ماء، يدخن سيجاره، منذ الضجة التي أقاموها حول عادته في أن يدخن سيجارة تلو سيجارة مشعلا هذه بتلك أصبح يتجنب أن يدخن بالقرب منهم: "واحد يقتل سبعة؟ المذخن!"، كتبوها وعلقوها كبيرة، مهددة على باب الشقة، مسحها لكنها أعطت نتيجتها، يبحث في الثلاجة عن تفاحة: "التفاح فالصالون!"، تقول زوجته وهي تهم بالركوع، يدخل إلى الغرفة حيث البنات يراجعن الدروس أو يقرأن، يسأل عن أحوالهن فيردن بأدب واقتضاب، يكثر الأسئلة فترد إحدى البنات باستغراب واستنكار: "ألا ترى أننا نشتغل؟"، يرى الانزعاج على وجوه الثلاث، يعتذر خائبا: "آسف، لم أنتبه!"، ينظر في ساعته التاسعة والربع، مازال النادي مفتوحا والأصدقاء هناك، الفكاك والمهدي، مصطفى ومحمود في مكناس، يعود إلى المطبخ ليجرب آخر أمل، زوجته مازالت تصلي في خشوع، يسألها إن كانت تركت له نصيبه من العشاء، ترد وهي تسجد: "ولفتينا تتعشى فالنادي!"، يلعن نفسه التي مازالت تمنيه بأمل كاذب في هذا البيت: كان مدرسة وهاهو يتحول بعضه إلى ملهى ليلي وبعضه إلى جامع!" كثرة الصلا، لا له فاطمه الزهرا ولا امنا عايشه! باغيه اتصيديني ثاني! والله؟ آش تعملي مع الله آلبانضيه؟"، خدامه، فاش، ياك انت غير طبيبه

اديال البنج!"، "والله غير إلا اعملتها، ما لي أنا مضيع راسي!"، في ماذا؟ "في امرأة أخرى"، لاول مرة منذ أن تزوج يفكر في أن يجد امرأة أخرى خارج البيت! توجه إلى النادي "طاكسي!".

"أنا كون، لو كان عملوا معايا شي حوار افشي مجله عالميه ولا شي تلفزيون دولي وطلبوا مني نختصر ليهم حياتي كنت انكول ما يلي: آني أكول في سيرة حياتي وكمان يابيه على هامش سيرة حياتي وبصراحه برشة: كد كثير جدا ومتع قليلة جدا أغلبها فاسد، زائف!".

"أهاه! تبارك الله على السي علال مختار، مجله عالميه ولا تلفزيون دولي: العالمية دفعة واحدة، بجملة واحدة، وبجميع دوارج العرب، الله أكبر! واحنا آش غادين انكولوا ألسي علال في هاذ القضيه؟".

"تبت ألسي المهدي، الله ينورك، وشوف مزيان انتما وخاصة انت ألسي "ضاع الولد في المدينه!"، ما يمكنش تتكلموا فهذ الموضوع حيت أولا، ماعندكمش التاكتيك...".

"أهاخ! التاكتيك، واش هذ التاكتيك بالسلامه؟".

"إوى اسمع، دابا عجيتيني غادي نشرح لك التاكتيك غير صبر!... ثانيا احنا غير نسخ من بعضنا، نتشابهوا كيف ادجاج الماكينه، بحيث اللي اتكلم فينا يكفي وزياده!".

"احنا خمسه وغير نسخ من بعضياتنا؟".

"ايه، احنا بعدا من واحد الناحية غير نسخ من ابنادم الحقيقي، لو كان شفتي راسك افراسي ولا ريوس لوخرين، ومن ناحيه أخرى احنا نسخ من بعضنا، دابا أنا إلا ادخلت لدارك يمكن... أعود بالله من الشيطان!".

"ما علينلش أسيدي علال غير اشرح لنا التاكتيك!".

"أنا جايك للتاكتيك، التاكتيك، ألحبيب اديالي، هو الجبهة: إيه، الجبهه،

ادفيع الجهد اللي كيسموه بالفصحى الإراده... كي تعرف نعم أس، العالم غير تصور وإراده، راه كالها واحد الفيلسوف صاحبي ما يحملش النسا تا هو، واسمع... احنا ما اللي دخلنا للمدينة كان عندنا غير الجبهه، كانت عندنا الإرادة بلا تصور... وشوف مزيان واذكر.. هاذ ابنادم كلو اللي جا للرباط والدار البيضاء بالخصوص، هاذ بنادم كلو آش من تصور كان عندو للحضاره؟ ما كان عندو غير الجبهه، البيع والشرا بالجبهه، السكنى بالجبهه، الخدمه بالجبهه، اعلاه احنا كان عندنا شي تصور للخدمه ما اللي اخدمنا؟ السياقه والرخصه ديالها بالجبهه، السياسه إلا تعقل كانت غير بالجبهه، بالتاكتيك، ادفع الجهد وزيد... هذا الحال، حال الدنيا أف ذاك الوقت ومازال الخيرغير احنا، هاذ الخمسه ديال الأبطال ديال السيرة الهلالية، اعملنا شوية ديال التصور، اقرينا سويه وافهمنا شويه، أو غير اعملنا التصور هربت لينا الجبهه بنت الحرام، ما ابقى عندنا جهد للدفيع... هاذيك الساعة اخسرنا، افلسنا، ولينا غير شادين الأرض : فالمكتب، فالدار، فالقهوة، فالنادي، فين ما جرونا رجلينا، تافالسرير وفالحمام، هذا علاش غلبتنا الدنيا، لولاد ولمرا والمعيشة والخدمة، ما بقينا صالحين غير للكلام فالإذاعة والتلفزيون ولا فالجرائد مثلا... وافهمت دابا التاكتيك؟".

"الله يرحم من قراك ألفقيه، غير يعني انت أمنين غادي يجيك هاذ التاكتيك، ياك تاانت واحد منا، غير نسخه؟".

"تعجبني بعض المرات ألمهدي، ولكن انتم كلكم اعملتوا لعقل، غير أنا اللي باقيه عندي واحد النقيشه ديال لحماق، نقيشه حافيه شويه، إنما باقيه ومره مره تحفى كامله واتدور لي فالخوى!.

"وناري بوكم كَحلها، كملها وجملها: جاب احنش احنش بودركه كدوكد

السلوكي اديال العربي الصياد ودربوا علينا، ممنوع شي واحد يقرب من بيتو... والله غير إلا كالو لحنش بودركه... أنا راني باريه، ردوا بالكم، بوكم مسكين هاذي هي اللاخرى ليه، كملها، النقيشه امشات، الله يرحمها وابقيتوا ايتامى، الباركه افراسكم ألدراري!".

"ربي، ربي، آش درت أنا؟ عين وخرجت في، تابعه: ما اكفاهش ينعس مع احنش، يتسارى فالدار تابعوا لحنش، فالحمام يعوم امعاه لحنش، فالكبينه... غادي فالقبيبات تابعوا لحنش والناس حكرونا، كلهم ولاو يعيطوا لنا اولاد بوحنش وأنا... افآخر أيامي نولي امراة بوحنش؟ ويلي، ويلي... جاب لوحنشه!".

"الحنشه ولدت ألدراري، باضت وفقص البيض واحنا ما جايبين اخبار... كالك باغي لوناسه، يتونس بلحناش؟ أو كَالك باغي يبدا يبيع السم باش يدوز التقاعد مزيان، كَاع ما كفاه هاذ السم اللي خرج فينا؟... سير، أعلال بهدلتني وشوهت باولادك، سير أوليدي أعلال أنا ابغيت اتبات ليله مع لحناش وما تفيقش فالصباح، تا واحد ما يجيب اخبارك، لا أنا لا اولادك، تاتريح وتعطي ريحتك اخبارك، لا أنا لا أولادك، تاتريح وتعطي ريحتك مزيان، مزيان حتى يهربوا منك لحناش!".

"شوف أعلال... أنا... لو اتكلمت مكانك افهاذيك المجله ولا التلفزيون... لوسلوني عليك... غادي انكَولهم: علال غير أناني، أناني اكبير، واصافي!"، "ومالك ألمهدي ديما حاسدني، ديما تابعني، حاط علي أوناسي راسك، اديها فراسك اشويه، شوف اشويه هذاك لقرع اللي ابدا ينوض لك

فالصلعه، ياكما غادي تبدل الشعر بعدما ناضوا لك اسنان اجداد كيف لعيالات الشارفات؟".

"حاط اعليك؟ أنا؟ على لعسل اللي فيك! إوى ايه، حاط عليك حيث أناني، حيث ديما خاصك انت اللي تبرك فالبلاصه المزيانه باش تعمل اللبوزات، ديما باغي اتميز اعلينا واعلى اولادك، وحتى على امراتك، افماكلتك، وافمشرويك، وافكسوتك... وها انت شوف احنا كلنا لابسين الجلالب وانت وحدك اللي لابس كوستيم وكَرافطه، داير بيريه كيف شي برتقيزي، شاد عكاز كيف مدام شرويط... وها احنا، واحنا كانشربوا الروج ولا البيره وانت، أتربية شارلو، كتشرب الويسكي، كاين شي أنانيه أكبر من هاذي؟".

"هاذاك أسيدي مولاي... اللي كتسميه أنت أنانية... احترام النفس والنخوة... عند الناس اللي مولودين فالفيلاج ولمدينه... أما اللي مولود غير فالخلا ابحالك ألعروبي... مايعرفش مسكين الهذ شي، بزاف عليه، واضرب أوليدي الروج الخانز على كَلبك، أنا... احمدتك واشكرتك يا ربي، لولاد كلهم كبروا وكلهم خدموا، داروا المال والمستقبل واللحم اتخاوى مع لمرا... خاصني غير نبرع راسي دابا وانتنخوى!".

"آش جاب لولاد عاود ثاني للكلام؟".

"أنا ماتكلمتش على اولادك، اتكلمت غير على اولادي أنا... ابغيت الصراحة؟ أنا كون ماهديك لمرا وهاذوك لولاد كون ضربني الضو، كون راني تلفت السباط!".

"فرعك المهدي، فرعك علال هاذ النهار!".

"الله يهديك الفكاك، آش عندو ما يفرع، هاهو دغيه اهرب للدراري ولمرا، نتبعو لدارو؟".

22

تلك الليلة عندما خرج من النادي مهرو لا ليذهب إلى بيته باكرا، عندما عاد مسرعا من بيته ليلحق من جديد بصديقه في النادي، عندما تركهما في اتجاه "جُورْ إِي نْوِي" وتوجه إلى بيته محاولا أن يطيل الطريق إلى البيت، عندما التقى بالفقيه راجعا من ديور الجامع، عندما قام بطقوسه المألوفة قبل أن يأوي إلى فراشه وسط "الأنابيب" و"الجن" و "الحنش" كان يراوغ فكرة، لم يستطع أن ينام كما يحدث له في كل مرة تسيطر عليها فيها فكرة أو إحساس، لقد شعر أنه ضحية مؤامرة موغلة في القدم، في البدائية، مؤامرة من ذلك النوع الذي لا يوجد إلا في الأساطير، أساطير الأولين من اليونان والأقوام الأخرى العتيقة: الطموح، ما يسمى الطموح، طموح لُبِّسَ له كما يلبس المرء جريمة لم يرتكبها، الطموح... كما يقوم بريئ بانتقام، لا يفكر فيه، لا يريده، يحمله من أجل "القبيله"، الطموح... طموح... كل "القبيلة"، كل "القبائل"، "قبيلة أمه" و "قبيلة أبيه"... "ينتقم" لهم من قرون الجفاف والسيبه والسخرة الطويلة، من إهانات أعوان المخزن وأعوان الاستعمار وذوي الجاه، أصحاب الأرض والمال أصحاب السلطان! الطموح الخبيث كالورم: "تصير موظفا كبيرا، يا علال، واحد من أولئك الذين قهرونا، تصير يدنا ولساننا، موظفا مستقرا، قاعدا على كرسي صلب ومريح، مطمئنا وآمنا من تقلبات الطقس والسياسة، نكاية في زمن الترحال وعدم الاستقرار في موضع أو على حال! الطموح: انتقم لنا، يا علال، لأهلك، لنفسك، انتقم، اضرب رؤوس الزمان، اضرب المراحل وتسلق الدراجات، لا تتوقف، كن المخلص والمثال، تقدم لا تعد إلى الوراء! الطموح، ثمن هذا الطموح؟ مالك ومال الثمن، آش عندبوك

ما تخسر إلا ما ربحتيش، الفاس والبراكه؟ الربح سيكون أقل من الخساره، في كل الأحوال؟ ها أنا أعرفه الآن: لن أعرف الحب، لن أعرف السعادة لأني سأظل أجري داخل نفسي، خارج نفسي، سأظل أنتقم، أغزو، أفتح، لا... سأظل أهرب، هاربا كل حياتي من عذاب "القبيلة" من الإهانة التاريخية، من "الجفاف"، "من السيبه"! ويتحدثون هناك عن طموحي، عن شهامتي، عن نجاحي منذ بدأت أقبض راتبا شهريا "محترما" في نهاية كل شهر! نهاية الشهر أصبحت نهاية العمر، بلا أجر!، "أفضل من هذا الثمن الذي ندفعه منذ قرون، الثمن الذي لا ينتهي كأنه لعنة!"، ألا أيها المجرم البريء، أيها البطل بالرغم منه، أيها البطل خارج وعيه، لن تقبض في نهاية العمر، راتب نهاية الأجل! يسري هذا الأمر عليك وعلى أصحابك وعلى زوجتك وعلى أبنائك "غير إلا ابغيت ترجع سارح ولا شناق ولا سيرور ولا طالب امعاشو، اتخير!"... كيف تزعم أنك لست المثل؟ ما لا يدرك كله لا يترك كله..." يا سلام! كأن الأمر يحتاج إلى مفاضلة!...".

وها هو يشرب القهوة هذا الصباح ويفكر من جديد، في نفس الموضوع: الطموح الزائد عن حده الذي لا يحكمه الوعي، طموح يسرق من نفسه عامل صحته: الحب! هذا الطموح الأعمى لا يعرف صاحبه السعادة ولن ينشرها من حوله: الوحدانية هدفه!

"تعرف أعلال اعلاش سمي الإنسان إنسانا؟"

"اعلاش أمصطفى سمي الإنسان إنسانا؟"

"لأنه كينسى أعلال!"

"أوصافي، أمصطفى؟"

"كينسى المهم، أهم شيء فالحياة، من عهد سيدنا آدم، مرورا بقابيل وهابيل، حتى الآن!"

"واش يكون هاذ المهم، ولا الأهم أمصطفى؟"

"والله ما عرفتو، نكذب عليك؟ غير انت سكت وكَال لي راسي : علال

كيفكر افشي حاجه مهمه!"

"وانت آمصطفى ما فكرتيش فالمهم؟"

"أسيدي نكذب عليك، يمكن من الصغر وانا كنفكر!"

"اوى واش اوجدت، آشنو المهم عندك؟"

"أخويا كل مره واش كنوجد!"

"إوى، زيد!"

"وقيله الرضى، الرضى مع القناعه والحمد!"

"واللي ما عندوش اعلاش يقنع؟"

"ما يمكنش ما يكونش اعلاش يقنع؟"

"مايممكنش!"

"مايمكنش ما يكونش عندو!"

"حتى اللي ما صاب ما ياكل ولا ما يخدم؟"

"وانت مالك أعلال، ما صايب ما تاكل ولا ما تعمل؟ خلينا من اللهطة!"

"الجوع، أمصطفى، اقتلني الجوع، انطلبوا شي كاسكروت؟"

"ما عندو ما يقضي لك، ادخل لدارك أوكول!"

ماذا يأكل تفاحة؟ "هذ التفاحه باقيه تابعنا من أيام امنا حوا وبونا آدم، الله يستر واخلاص!"

"البارحة"، وهو في السرير يفكر في هذه "المؤامرة"، سمع "سيده جميله" تتحدث في برنامج إحدى زميلاتها "الحياة العائلية": "حلقة اليوم في موضوع: اختيار شريكة الحياة"! لاشك أنها استنجدت بها، في آخر لحظة، لتعويض أحد المدعوين الذي قد يكون تخلف لأسباب عائلية! برنامج "سيده جميله" غدا في نفس وقت هذا البرنامج، استغلت "سيده جميله" المناسبة للتذكير بأهمية الموضوع الذي سيتناوله برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك": تشغيل

بناتنا وأبنائنا الجامعيين العاطلين!

"أجمع" الرجال على أن شريكة الحياة ينبغي أن تكون جميله، حسناء، مخلصة، مؤدبة، اجتماعية، طباخة ماهرة، أما صالحة تربي أولادها بنفسها ولا تتركهم للخادمات، موفرة، أنيقة، صبورة، تعرف القراءة والكتابة فقط، مستعدة للتخلي عن وظيفتها إذا كانت موظفة للعناية بزوجها وأولادها، قادرة، إذا كانت تحمل شهادة عليا أو تحتل منصبا كبيرا على أن توفق بين متطلبات العاملة المنتجة وربة البيت الناجحة!.

و"أجمعت" النساء على أن الزوج النموذجي يجب أن يكون جميلا، غنيا، إطارا ناجحا، ابن عائلة وأصول، رجلا كريما، وفيا، محبا للأطفال، متحررا، يؤمن بحرية المرأة وبالمساواة بينها وبين الرجل، لا يسكر، لا يدخن، يأوي إلى البيت باكرا، غير مبذر، مستقلا عن أمه، لا يعاشر أصدقاء السوء، ليست له سوابق قضائية ولا فضائح أخلاقية!

لم تتدخل "سيده جميله" إلا بعد بقاء ربع ساعة من عمر البرنامج: "أسأل السيدات والسادة المستمعين، وكذلك الضيوف الذين يوجدون معنا هنا في الاستوديو، هل الحب ضروري، والتفاهم، والتوازن، والكفاح المشترك، هل مثل هذه الأشياء ضرورية في الزواج؟".

وانهالت من "السيدات والسادة المستمعين" ومن "السادة الحاضرين": طبعا... أكيد... بلا شك، ضروري، الخ...

اللعينة أربكتهم! فضحتهم، لكنها فضحت نفسها كذلك؛ لقد نسوا ما ليس "مهما" في حياتهم، وذكرت ما هو "الأهم" في حياتها "غاية تتعذب"! وتتباهين يا فريدة بيطيط، بأنك سعيدة في اختيارك للوحدانية، هل اخترتها حقا أم فرضها عليك سعيد البيضاوي السفاح وأكمل قيدها "أبناء الكلب المؤدبين وغير المؤدبين"؟ وهميه!...

سنرى ذلك هذا المساء، في برنامج "لا تخف من مشاكلك فهي غذاؤك"!

23

لماذا لم يحك لمصطفى عن الحلم؟

لقد رأى، فيما يرى النائم، أو شبه النائم، أنه كان في قارعة شارع كبير تظله الأشجار والضباب الكثيف، يمشي في هذه الظلمة الحالكة بين أربعة رجال بلا وجوه، أو كانوا يلبسون أقنعة واحدة، اثنان على شماله واثنان على يمينه، وفجأة تخرج عليهم سيارة سوداء، بلا إنارة، من قلب ظلمة الشارع المقفر، ترديهم قتلى، جميعا، دفعة واحدة، ثم هناك في مكان ما أشد ظلمة، يخرج عليهم ضوء أبيض ساطع، فيصاب بالعمى، غير أنه يسمع صوتا كالدوي، يقول: "تفضلوا، أربعتكم، من هنا!"، يحاول أن يتبع وقع الأقدام فيوقفه الصوت: "علال، لا!"، يريد أن يتأكد: "أنا، لا؟". يؤكد الصوت: "لا، أنت لا!"، يفتح فاه مرة أخرى من غير أن يتمكن من النطق هذه المرة، ويجيبه الصوت عن السؤال الذي لم يستطع نطقه: "حاول، في المرات المقبلة، أن تتجنب السير وسط القارعة ووسط الناس، لقد قتلت خطأ، لم تفعل بعد ما يستحق أن تقتل، لكن السائق معذور، لماذا تمشون دائما في الظلمة؟". يحس برجة قوية، يجد نفسه في مكان يشبه شارع محمد الخامس، بين "باليما" ومجلس النواب، يقول له الصوت الذي يمشي خلفه: "لا تلتفت!"، يسأل مستغربا: "أنا؟"، يرد الصوت، وكأنه خارج من ميكروفون صاف: "أنت علال مختار!"، لا يصدق: "أنا؟ وحي من جديد؟ وهذا وجهي، هذه... ما هذه؟، يطمئنه الصوت: "أنت علال مختار، علال مختار، وإذا شئت علي الرماني، زوجك في العشرين من عمرك!"، ماذا ذكره بصورته الأولى، أول صورة، صورة ملف الشهادة الابتدائية، صورته المائية على أول بطاقة رسمية واسمه، اسمه العائلي مختار، الذي سيحمله رسميا لأول مرة: علال مختار، برئ، ساذج، وسيم، نحيف، نحيف جدا!" عجيب، لم أنظر قط قبل إلى وجهي بكل... كل هذه المحبة... هذا الرضى!"، ينبه

الصوت بلطف: "أنت الآن تستطيع أن تختار من جديد، وبكل حرية الطريقة التي تريد أن تعيش بها حياتك!"، تذكر رئيسه وهو يستقبله في أول يوم من تعيينه: "يمكنك من هذا المكتب الصغير أن ترقى بإرادتك وحريتك، أو أن تبقى فيه إلى أن يأخذوك منه مباشرة إلى القبر!". عاد الصوت ينبه: "أنا سأظل معك إلى أن ينهي البرنامج جلسته الاستثنائية، إذ لم تختر قبل نهاية الجلسة سيكون الوقت قد فات: تعود إلى سنك الفعلي!"، يختار فورا بلا طول تفكير، ولا تردد كأنه يعبث "فقط لا غير": "أن أعيش نفس الحياة، تلك التي عشتها من قبل، قبل حادثة السيارة، فهي في نهاية الأمر لم تكن بالسوء الذي تصورته!"، لكنه حين يستيقظ على صوت سيارة ترتطم بأخرى يندم: "كان علي أن أختار شيئا آخر، حياة أفضل!"، يجد نفسه يسأل نفسه: "حياة أفضل، كيف مثلا؟" ويرد عليها: "أنا دخلوني للحبس، قتلوني، عملوا بي اللي ابغيتوا إلا كان خصنا شي حاجه أخرى غير: الحب والاعتراف! هاذ الشي اللي خاصنا واولادنا واعيالاتنا وجميع المسلمين والمسلمات! آه، آه! لكلام اشحال ساهل بعض المرات!... إوى اسيدي أنا مسامح، الله يسامح، دنيا وآخره، لا كان غير افحقي فيهم ابجوج، لا تعطينوا لا حب لا اعتراف... واعلاه عندكم بعد اما تعطيوا؟ فاقد الشي؟ ماشي فاقد وماشي فقير... اللهطة!...غير... زعمه...المعروف والموده... تاهما انسامح فيهم، كيف نعمل، نشق راسي! هاهما تا فالموت كَالوا لي ارجع امنين جيت، ما عندنا ما انعملوا بك... سير عاود من جديد! وأنا أحمق: انعاود؟".

لنتركه يناقش نفسه، سنعود إليه فيما بعد، إنما هذا الحلم، لماذا لم يحك لمصطفى عن هذا الحلم الذي رآه هذا الصباح فقط، قبيل أن يستيقظ؟

ياه، نحن نناقش أنفسنا بنصف الموقع، بنصف المعطى، بنصف الموقف، فما بالك ألا ينبغي أن يكون هذا، وفي كل الأحوال، حجة ضد الكلام، أي كلام، ولو كان "غير تفراق اللغا"!

24

شارع النصر...فسيح وطويل وفي آخره "الدفاع": باب الرواح!

كان يقول لأصدقائه مازحا من حين لآخر وهو يتقدمهم: "تعالوا نذهب إلى باريز"، يعني شارع النصر الذي أصبح كذلك شارع "الحلم": "هنا" عاش وقائع "اغتياله"، صحبة الأربعة المقنعين، من طرف تلك السيارة الغريبة، و"هنا" أعادوه، من "هناك"، قبل أن يتجاوزوا به باب الرواح "يوصلوه عبر مولاي يوسف إلى شارع محمد الخامس حيث سيندم على "عودته" من "هناك" إلى "هنا"... يصل إليه دائما من الزرقطوني رغم أنه من القبيبات، يبدو أقرب: يريد أن يتمشى طويلا، كثيرا بلا مضايقات رغم كثرة السيارات!

هذا الصباح "سيتوجه إلى شالة، إلى جنة شالة: أقرب جنات الرباط شالة والوداية وابن سينا! جنات آخر العمر، كل يوم يقصد واحدة منها منذ أربع عشرة سنة، وحيدا أحيانا، صحبة الفكاك في الغالب، "ينبغي أن نتوقف عن الشرب، الفكاك لا يمكن أن يتعلم الشرب الحضاري: أفسد دمه في البيت، لا يوازنه إلا الإكثار من النوم، يعتكف في السرير ليهرب من البيت، ليستريح منه ومن الشرب!"، لن يكون معه اليوم؛ "أحسن، إنه لا يحب أن يفعل أكثر من شيء واحد خارج البيت!". يعني ذلك أنه سيكون حرا في تيهه يفعل ما يريد! في العادة، منذ أربع عشرة سنة، كان يخرج صحبة الفكاك يوميا في اتجاه واحدة من تلك التي يسميها "جنات الرباط الثلاث القريبات" حوالي العاشرة، ويقضي معه اليوم كله هناك، صيفا وشتاء: "ليس عندنا

سوى فصلين طويلين: الصيف والشتاء!".

لذلك لا يغير لون بدلته إلا مرتين في السنة: الأزرق للصيف والبني للشتاء، يغير لون الأقمصة كل يوم، بما يوافق لون كل فصل، لا يغير لون البيريه ولا العكاز الأسود الفاحم، ولا يغير كثيرا ألوان الكَرافاطات؛ لون موحد، إما أزرق أو بني أو أخضر أو خبازي خلال الشتاء، يضيف "صدرية" من الصوف الرقيق فوق القميص، ويضع يديه داخل قفازين من الجلد الأسود المبطن بالقطن الأبيض... عدته التي يشتريها كل سنتين منذ أكثر من أربع وعشرين سنة، منذ أن أصبح له مُضاعِفٌ يسميه "علي الرماني": "إننا نُلْبِسُ شخصا آخر في أنفسنا، أنا ألبس علي الرماني، خيالي المكمل، أما علال مختار فيلبسه البيت والمجتمع!"

لم يعد يضرب الأرض بعكازه ولا ظل يدكها بقدميه: يمشي بعنف ورشاقة كان، صار يلامسها فقط برجليه، يلاطفها، أما العكاز فلا يمس الأرض إلا نادرا، كأنه مجرد بوصلة: "لعنة الله على من سمم الكلب في البيت، أنا نصراني، أنا؟ قتلوا لحناش، قتلوا الكلب، يقتلوني أنا أو صافي! الكلب، كلاب!". مازال نحيفا كما خرج من سيد العيدي، لكن الظهر تقوس منذ سنواته الأولى في المكتب، واستطال الدقن ويبست تجاعيد الوجه وتضاعفت: "الإنسان يشبه الارض التي يولد بها، في كل فصولها حتى في جفافها وتبدل ألوانها، حتى في مزاجها، للأرض مزاج يطبع النبات والحيوان والإنسان!".

لقد أحسن فعلا حين اختار لنفسه اسما مستعارا! "أنا مجرد ظل لعلال مختار"، لاشك أنه علي الرماني، ذلك الذي يعيش بداخله مع الكتب والموسيقى، مع الحماقات، مع الخيالات، وهذا الذي يتحرك الآن كطيف خفيفا، وحيدا، متمهلا من الخوف والتعب: "الفكاك يغير الجلابة كل يوم؛

زوجته تغير له..! "، الجلابة والطاقية والبوط، صيفا وشتاء، يمشيان متلامسين، نفس الطول، نفس الحركات، لكنهما نقيضان، واحد تضيق به الجلابة الواسعة، والآخر لا تمتليء به البذلة الضيقة، واحد كأنه خارج من حي عتيق بإحدى المدن التقليدية، مراكش مثلا، والآخر كأن حافلة من السياح اليونانيين أو الإسبان نسيته في حي قديم: "اللي شاف السي علال اف هذ الهيئة يظنه برتقيزي ولا إغريقي، كاينة ولاماكيناش اعلال؟... سبحان الله، نصراني أخويا، والله العظيم... تركة الاستعمار!"، يتابع المهدي مضايقته: "وهذا الموسطاش عندك اديال ليوطي، واسطي!".

الجو بارد، مازالت بعض الحفر والشقوق ملأى بالمطر، جسمه بدأ يسخن: على "الله ما تعاود الشتا تالليل!"، تحضره صورة الفكاك، كل الأشياء تذكره به:

"مسخوط، مازال مره مره يعمل اعمايل الدراري ويمرض بحالهم بعدما يكون كحلها!"، يضحك: "يوم آخر لن يستغرب خلاله الناس في المسجد ولا في الشارع: مراكشي ونصراني!".

مرة منعه شاب "متطرف" من دخول المسجد: "مسيو، سي تانتتيردي بور لي شيان إي لي كريتيان، اينترديِ!"، وتخابث الفكاك: "سامح ليه مسكين راه عاد ادخل للإسلام، إوى بار لوي أمسيو علال!"، فقال علال مقلدا مدام ايرين صاحبة "مطعم الصداقة": "شوف باغك الله فيك سيدي أنا مسلمان كيفي كيفك وماغوكان كيفي كيفك!"، وأضاف الفكاك: "لا إله إلا الله!"، فأكمل الشاب صاغرا: "محمد رسول الله!"، وانتهت الحكاية بأن ذهب الشاب يخبر جماعة من أقرانه: "الحمد لله، مازال المسيحيون يدخلون إلى دين الله أفواجا أفواجا!"، لكن علال لم يعد منذ ذلك اليوم، إلى ذلك المسجد خوفا من تكرار القضية أو أن يتعرف الشاب على حقيقته فيحس بالإهانة كما وقع له مرة عند

أحد الجزارين بالدار البيضاء، كان واقفا في الصف قبل أن تأخذ الاريحية أحد الشباب: "سبق هذا النصراني يمشي اف حالو علينا وهو واقف يتفرج علينا تشريو ريحة اللحم!"، ابتسم له الجزار الذي يعرفه حق المعرفة: "مسيو؟"، فابتسم علال للشاب ثم للجزار: "سيكانت غرام بور ألال، سيكانت غرام بور لوشيان!"، علق أحدهم: "مية غرام، النصراني يقسم مية غرام مع الكلب، الجوع هذا!"، فقال الشاب: "الله يستر، النصارى هزهم الما تاهما!!"، وكان الجزار قد سلم لعلال كيلو كتف وكيلو ضلعة بينما أخذ علال يخرج ثمنهما من جيب سرواله الخلفي فاعتقد الشاب أن في الأمر سوء تفاهم واحتج على الجزار: "الرجل، الرجل اطلب غير مائة غرام، ما تعرفش الفرنسية، الفرنساوية؟"، قال الجزار: "ادخل سوق راسك!"، فاغتاظ الشاب: "تسرقوا الأجانب؟ والله غير الا بيتك فين تخلص!"، تحول الأمر بسرعة إلى معركة شهرت فيها السكاكين والمدى، نسي علال نفسه فسعى إلى أن يصلح ذات البين بين الجزار والشاب الطيب البريء بالعربية، طبعا، فانقلب الشاب ضده: "تضحك علي أصورة السبانيول، يازريعة المركان؟ اليوم انجاهد فيك"!.

كم من المصائب جرتها عليه هذه الهيئة، لكن كم من الفوائد: مات زوج مدام لوبيز في حادث سيارة وتركها أرملة في الثلاثين وكان علال من أول الواقفين إلى جنب الأرملة الشابة معزيا في زوجها البرتغالي المتهور بحجة أنه أخوه الذي كان يعيش في فرنسا، صار طيلة شهر يمر على أصدقائه، وهم يرقبونه من خلف زجاج المقهى، ومادام لوبيز الأندلسية الطرية الشهية معلقة إلى ذراعه يطوف بها المنتزهات ودور السينما والمطاعم، لما استيقظت الأرملة المليحة من حلمها كانت قد أصبحت أسيرة عاطفتها القوية تجاه علال، لكنها لما علمت بكل الحكاية حاولت الانتحار،

كانت تلك آخر مغامرة لها بالمغرب، وكانت هذه المغامرة آخر علاقة له مع امرأة غير زوجته "تفرغ نهائيا لأم الأولاد" وما صدق أحد أن علاقته مع مدام لوبيز ككل علاقاته السابقة مع النساء، لم تكن أكثر من علاقة رومانسية!...

في كل مرة يخرج فيها مع الفكاك يصوم هو والفكاك، يتحدثان، يقرآن، يمشيان كثيرا، يصليان الظهر، ينامان إلى العصر، يصليان العصر، ينتظران المغرب وهما عائدان إلى قهوة "الدكالي"، يصليان المغرب مع الدكالي "يفطران"، يلتحقان بالجماعة في النادي، "يشللان المذبح" بالماء المعدني، يطلبان العشاء، ثم ينخرطان في الشرب مع الاصدقاء. كم يثيران من السخرية والاستنكار والتساؤلات! في البيت، وفي كل مكان، في البيت خاصة: "امفرج فينا لخلايق ديما، ما يحشم ما يخاف ما يتوب، الله يخرج العاقبة بخير!".

25

رجل كئيب في شوارع كئيبة، يضحك بمرارة كلما تذكر شيئا يضحك، تتصلب تجاعيد وجهه إذ يتذكر مآسيه الصغيرة، يظل يتذكر الواحدة بعد الأخرى، تختفي البسمات "كل هذه الوحدانية، ولماذا لا أحد في البيت يحبني؟".

يجلس على مرتفع صغير، تصدمه القبور المتآكلة: "تدوس على بعضنا في الدنيا والآخرة بلا رحمة ولا شفقة!"، لا نحترم الأحياء فلا نحترم الموتى: "نخاف فقط لا غير!". "وعليك أن تتصور الكارثة ألحاج الفكاك: مصيدة الخوف!" "فكر فكر تشوف!"، "فكر أسيدي علي الرماني"، "وخلي عليك علال مختاراف لوقر، هاالعار!"، فكر أسيدي "ليس في هذه الدنيا سواء طالت أو قصرت، سواء ضاقت أو اتسعت، سواء أعطتك او سلبتك سوى قيمتين أساسيتين لا ثالث لهما: العمل والمحبة!"، أين نصيبنا، نصيبي ونصيبكم من هذه المحبة؟ "غير الدمير كيف لبهايم؟" فكر "وات فكر أعلي، وأنت الفكاك، وأنت أمحمود، وانت امصطفى، وانت ألمهدي، وأنت أملاة الدار، أنتم... فكرتوا ألوليدات؟"، ماكاين زين، ماكاين لا قلب لا كبده، ماكينه دنيا هنا اف هذا الدنيا؟ لا إله إلا الله! "جري علي نجري عليك، ادفع جهة لمصيدة! العنكبوت ولد اللذين!".

- "بوجور موسيو!" قال شاب يبحث عن ضحية.
- سير اف حالك، سير ولاانديك للحبس!
- اسمح لي ألوالد الله يخليك!
- واغير سير افحالك!

غير المكان، نزل على "أطلال المدرسة"، جلس داخل ما تخيله بيت طالب على أنقاض جدار، رأى في مواجهته داخل بقايا بيت آخر، شابا وشابة يلتهمان شفاه بعضهما، فجأة يرفع البنت إلى أعلى بين ذراعيه في حركة تشبه لحظة رقصة بالي، يتركها تنزلق تدريجيا بين يديه لتعود إلى الأرض، تجلس هادئة متربعة، يتمدد فارغا بالقرب منها، يضع رأسه بين ساقيها وينام، بينما تظل تربط شعرها وتفكه لاهية: "ستلتهمهما الدنيا بمجرد انخراطهما في الحياة العملية".

"قبلنا كان الناس يتزوجون بالطرق التتقليدية، وكانت المحبة، وقد يأتي الحب من المعاشرة، ينتهي الزوج إلى أن يسكن إلى زوجته والزوجة إلى أن تحضن زوجها، رغم كل مصائب الطلاق وتعدد الزوجات وتسلط العائلة والقبيلة وتقلبات الزمان والطبيعة... كان المعروف بين المرأة والرجل يسود لفترة من العمر أو طوال العمر، التواد، الواجب، العناية، العفة، نكران الذات، الحشمة،... فلم لا يولد من زواجنا، ولا يسود معروف أو إحسان أو مودة، لا مؤقت ولا دائم، لماذا أصبح الشاذ عندهم قاعدة، عندنا؟"، يتساءل محمود في إحدى لحظات تشاؤمه القاسية، فيرد مصطفى مازحا أو هاربا من مواجهة السؤال الذي يأكل عقله بدوره: "لعنة، نحن جيل لعين!".

ويتشبث محمود بجده، بجد من يحاول الانتحار: "ومن أين أتتنا هذه اللعنة، أو ليس فينا واحد، وواحد فقط، مثقف أو مجرب، يستطيع أن يقول لنا من أين جاءتنا هذه اللعنة، كيف لفت حبالها حول أعناقنا؟".

يسكت مصطفى إذ يلاحظ بؤس صاحبه فيتابع محمود الذي يبدو وكأنه يغص في كلامه: "كأن شيئا قد خرب فينا، أهم شيء!".

يختطف الكلمة الأستاذ الذي ينادمهم من حين لآخر والذي ظن أن السؤال يعنيه أكثر من غيره، فقط لأنه أستاذ ونقابي:

– "نحن نمر بأصعب الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية نمر بأزمة حادة، الأزمة هي التي تعصف بنا جميعا!"

ها قد أخطا الأستاذ سؤال محمود الذي ازداد غضبه:

– "من أين تأتينا هذه الأزمة؟"

"الأستاذ" في حالة استقطاب ودعاية دائمة:

يقاطعه محمود وقد ازداد توترا:

"سأشرح لك ظروفها الموضوعية والذاتية، فهذه..."

– "يا أستاذ، رجاء إن ما يفسر كل شيء لا يفسر شيئا على الإطلاق، هذه الأزمة أصبحت وسيلة للتملص من المسؤولية، أداة لتقاعد الفكر...".

يجرب مصطفى مرة أخرى أن يجرهما إلى الهزل:

– "وهذه الأزمة بالسلامة غير عندنا احنا وحدنا، مالها مسلطة علينا وحدنا، فين كنعرفوها أسيدي، بونا خوبوها، ياك هي غير وليه، آش تكون، خطبوها لي نتزوج بها ونهنيكم منها! كيف ما كان الحال غاديه اتكون احسن من مرتي!".

– "باركه أمصطفى من الضحك الخاوي!".

ينهره محمود الذي يحتج على "الأستاذ":

– "الأزمة أصبحنا نعلق عليها كل شيء خاصة عجزنا عن التفكير!"

يتدخل مصطفى قبل "الأستاذ":

– "ابقيتو تأزموا تاعميتوا، مااللي تذكروا كلمة الأزمة كَولوا سمعت لحصيره وحصرت، ذكروا الله!"

– "اسكت أمصطفى شويه، خلينا نذاكرو على خاطرنا، مالك انت، عندك شي أزمة؟".

– "ألا، اسيدي، نحمد الله ونشكرو، حمدتك وشكرتك يا ربي!"

- "شوف أسي محمود، الأزمة حقيقية، واقعية وعاصفة، هي التي ضربت عقولنا وقلوبنا!"

- "أو ليس فينا واحد استطاع أن يحافظ على عقله وقلبه سالمين من هذه الطامة، يا أستاذ؟"

- "الأزمة وباء، طاعون، لا يسلم منها أحد!"

- "وكيف نخرج منها، الآن، يا أستاذ؟"

- "الحل معروف ألسي محمود: الدمقراطية الاجتماعية والسياسية!"

- "يعني أنه علي أن أنتظر أكثر لأكون سعيدا؟"

- "تماما أمحمود، بمزيد من حقوق الإنسان!"

- "ولكن، الأستاذ لماذا لم ننجح في إرساء هذه الدواقراطية التي ستأتينا بالسعادة؟"

- "لأننا لم نقدرها حق قدرها في الوقت المناسب!"

- "ولماذا لم نقدرها في الوقت المناسب؟"

- "لأن الامبريالية، وعملاءها في الداخل لم يريدوا لنا أن نكون سعداء!"

- "ولكن هؤلاء العملاء، وكذلك عملاؤهم، ليسوا اسعد حالا منا؛ يا أستاذ!"

- "لأنهم باعوا أنفسهم لغيرهم!"

- "والآن هل استعادوا أنفسهم؟"

- "الجماهير أرغمتهم على ذلك!"

- "على استعادة أنفسهم؟"

- "لا، ليس تماما، ولكن..."

- "آسيادنا، آلخوت راه النفس عزيزة عند الله تعالى، غير ما ابقات

تسوى والو فالسوق، إوى باركه!"

- "سكتنا أمصطفى الله يخليك، يعني أنه إذا فهمتك جيدا يا استاذ فكرنا سليم وليس هناك أي خلل في العقل؟"

- "أنا بصراحة لا أفهم هذه المثالية، العقل أو الفكر ليسا متعاليين، في الواقع..."

- "وأنا يا أستاذ أقول لك بصراحة تامة:

والله ما يخصك منها خصاص، كاين شي حاجه ماشي هي هاذيك حتى فالعقل والقلب، فالراس!"

- "إنه قرن الثور، هو اللي فالراس، الثور الذي يحمل الأرض على قرن واحد اعرفتوه؟"

- "ها العار أمصطفى إلا ما اسكت شويه، أنا باغي غير نعرف باش نرتاح: واش الأزمة اللي ما خلاتنيش سعيد واللاشي حاجة اف راسي؟"

- "علاه ألسي محمود أنت سهلت هاذ الازمة، مافاهمش باللي راها كيف الوباء اف كل شي؟"

- "والله، يا أستاذي ما بقيت فاهمها فين، والو، مابقيت فاهم والو!"

- "آسيادنا، راه فالواقع وفالراس غير خليونا نشربو اف خاطرنا!"

- "اعلاه راسي ماشي واقع أمصطفى؟"

- "وها انت وصلت لديكارت، اعقلت عليه؟"

حرر المهدي ضحكته التي كانت حبيسة منذ بداية النقاش؟

- "مات مسكين، قتلتوا واحد الكلبة بالغدايد!"

لم يكن "الأستاذ" على علم بقصة كلب احد أبناء جيران المهدي: بعد حصول الشاب على الإجازة في الفلسفة وعدم تمكنه من الحصول على عمل اشترى كلبا وسماه "ديكارت"!

- "ديكارت"!
- "وهذا مظهر قوي من الأزمة التي كنا نتحدث عنها، محمود وأنا!"
- "الأستاذ!...اسكت شوية، باركه...الأزمة غير اعلينا احنا؟ اذكر الله شويه وبارك الله فيك!"

خرج الفكاك من صمته:

- "نوض سير اعمل الحملة الانتخابية أف شي جهة اخرى، هذا راه غير نادي واحنا والله مانصوتوا عليك انت بعدا!"
- "وعلاش ألفكاك ما تصوتش عليه؟! "
- "اعلى حقاش أمصطفى، تاهو كيفك مايسكتش، ما يفكرش، غير كيتكلم، ماعندو فرانات مسكين!"
- "إوى الله يستر، غير..."

بينما قفز الأستاذ محتجا: "اهتموا، اهتموا بالشأن العام وسترون أن مشاكلكم وهمومكم لا تعدو حجم اهتمامات نملة... أية جمعية، أي تنظيم، انخرطوا في المجتمع المدني لتكبروا، لتصحوا وانظروا إلى الناس المهتمين بقضايا أممهم، ألا ترون أنهم على عكسكم، يتوفرون رغم تقدمهم في السن مثلكم على صحة جيدة ومعنويات من فولاذ؟ تأملوا كيف يطول بهم العمر، وكيف يطول بهم وكيف يطول بكم العمر!"

علق الفكاك: "أسيدي هذا الأستاذ لا ييأس!"

فقال محمود: "راه رجل طيب، ولد الناس!"

وأكد مصطفى: "تماما، مجالسته فيها ألفائدة!"

وكان الأستاذ قد غادر النادي: "لن أجالس هذه الديناصورات مرة أخرى!"

نام علي الرماني وهو يفكر في مبالغات محمود الذي لا يتكلم إلا نادرا لكنه إذا تكلم بالغ.

26

أيقظته حركة مطر خفيف يتساقط من الأشجار.

مازال الشاب نائما بين ساقي الفتاة وهي تجمع شعرها وتحله: "إنني لم أحب امراتي، فقط لا غير!" كيف: فقط لا غير؟ وعلى وجه الدقة؟ حلل تلك العبارة على الأقل في وعيك، وقل لنا ما تعنيه :

"إنني لا أستطيع أن أحب زوجتي!"

"لقد فشلت في أن أحب زوجتي!"

"لماذا رغم كل ما فعلت لم أستطع أن أحب امراتي؟"

"لماذا رغم كل مجهوداتها لم أتمكن من أن أحبها؟"

"كيف ينجح غيري وأفشل أنا في الحب؟"

كل هذه العبارات حمالة أوجه، متضاربة المعاني والدوافع والغايات، لكنها جميعا تقرر أمرا واقعيا، نتيجة "واضحة": "لا حب في حياتي ولا مودة".

إذن، على هذا المستوى، هناك خطا كبير ارتكبه الرجل "ذنبه العظيم"، أو عدم قدرة أو فشل، هذا ما يصعب أن يلومه عليه إنسان ذو نية حسنة: لقد أخطأ التقدير، فمن منا لم يخطئ التقدير يوما في مثل هذه الأمور في معاشرة امرأة؟ ولقد حاول أن يفعل ما يقدر عليه من أجل أن يحب زوجته ففشل، فمن منا لم يحاول مثل هذا، لكنه لم يحصد سوى الخيبة؟ ولقد سعى إلى خلق هذا الحب، أو تلك المودة لكنه لم يفعل كل ما كان في وسعه إما لأنه يئس قبل الهدف، وإما لأنه لا يملك من القدرة ما كان يمكن أن يوصله إلى الهدف،

فهل نقدر على لومه على شيء كهذا نفعله، نحن مرات عديدة في الحياة، وأحيانا في اليوم الواحد؟

لا، أبدا، غير أن تلك العبارات تفيد شيئا آخر ضمن الأشياء الكثيرة والمتناقضة التي تفيده: الندم! إن فيها عتابا كبيرا للنفس، عذابا أليما يعاني منه الرجل: كيف سمحت لنفسي أن تفشل في أهم شيء في الحياة، في الحب! كان من الممكن أن أفعل أكثر، أحسن مما فعلت، غير ما فعلت! هذا أسوأ ما صنعت! أعمى حقير، مغفل!...

قد يقول له محمود "إننا لا نفرق بين الحب والصحبة، بين رفيقة العمر ورفيقة يوم أو ساعة، بين المحبة، والنزوة، وبين الحاجة، "تلك الحاجة"، والمودة، فلا نختار، لا نعرف كيف نختار، تختلط علينا الضروريات المتناقضة والمتكاملة".

"والأدهى من ذلك أننا، وبسبب ذلك، لا نعرف متى تنتهي الواحدة من تلك العواطف ولا إذ ما انتهت كيف نغذيها، نرقعها، أو نخرج منها، إلا في حالة معاشرة المحترفات، المنطق واضح ليس دائما، لكن أكثر!"، ثم "إننا نفعل أشياء غاية في الأهمية، خطيرة من غير أن نحسب لها الحساب الكامل وكأننا في سباق طويل، نتزود بالماء أو الفاكهة!" و "النساء خطيرات، خطيرات جدا، من الأحسن أن نختار واحدة أو نتركها تختارنا، كما يحدث في الغالب، ثم نسلم لها أمرنا داعين للنفس بالسلامة وحسن المآب!".

و"على كل حال، هذا ما أحاول القيام به الآن رغم أن الوقت قد فات، فات!"

وقد يقول له الفكاك: "حي الله الشيخ ادريس النفال، لقد كان يقول إن المرأة لا تصلح إلا لأشياء ثلاثة: أما أو عشيقة أو صديقة، أنا جعلت من زوجتي صديقة وانتهى الأمر، أي أمر؟ باركه، أمصطفى من دخول السواق

الخاوية، ألعن الشيطان!" و"أنا، أنا مصطفى أسألكم: لنفرض أن الشيخ على حق وأن النساء لا يصلحن إلا لذلك والرجال، لأي شيء نصلح نحن، بالنسبة للمرأة هل نصلح لشيء؟" أما "أنا، أنا المهدي الذي تعرفون فأقول لكم ما سيقوله الشيخ: عصا للكلاب ودفه للباب، للاستمرارية، إلا من رحم بك!" لا، "لا، للاستمرارية، المرأة هي الاستمرارية، خاصة عندما تثقلك بالأولاد وتقص جناحيك بالديون، غير الطموح، تزرع فيك الميكروب فتصبح مثل الحاسوب، اخدم، اجر، غوث ولا موت، موت ولا شد الركنة واسكت!" ولكن "ها قد رجعنا إلى الدور ألفكاك إلى المشكلة!" أكيد "وماذا نفعل غير ذلك، ألمهدي، هل تظن أننا نفكر حقا، أننا نقدر على حل هذا المشكل بغير تركه كما هو؟ احنا غير كنهدرو، انكَولو أف تقدير لكلام أو لاباس إوى قرقبو الكاس!"

"وماذا لو"، يستدرك محمود "كنا نفكر بشكل مغلوط؟"

آه، آه، يستنكر مصطفى "ها قد عدت مرة أخرى إلى صاحبك ديكارت، نمسح الطاولة ونبدأ من جديد، باش بالفم؟ ما ابقى عندك تالحجر!".

و"احشم شوية، أمصطفى: الدنيا مخلطة، وأنا لم أفكر في مسح طاولة لو بدأنا من جديد لفعلنا نفس الشيء، أنا أفكر في شيء آخر مخالف تماما..." ليكن "في الانتحار، عندك ثاني تفكر فالطلاق، والله غير إلا دخلوك لولاد للحبس!" ومع ذلك "اسمع أمصطفى الله يرضي عليك، اسمع: نحن فعلنا شيئا منذ عشرات السنين، فعلناه بمعايير ذلك الوقت، بمقاييس مختلفة تماما، لكنا الآن نفكر فيه بمعايير وقت آخر، نحن كمن اشترى شاة عند ميلادها ويريدها الآن أن تضع له عجلا، معزة يريدها أن تلد له عجلا هولنديا!"

إذن "أمحمود، نحن لم نفكر في الوقت، لم نحسب حساب العمر ولا حساب التطور، لم نفكر في أن نتطور مع الزمان ولا أننا سنصل يوما إلى

مثل هذه السن، بقينا نتصرف وكأن لا شيء يتغير وكمن لا يفكر، كأن زوجاتنا طفلات أبديات وأولادنا أطفال لا يكبرون"، وهم "بالفعل، لا يكبرون، بمعنى تعرفه أسيدي علال غير في تقدير الكلام، احنا زايدين فيه شويه، رافضين نرجعو للحق، راحنا شرفنا وما اللي تفكر مزيان غادي تصيب باللي تطورنا، اطورنا بزاف، انا بعد المرات مااللي كنفكر اف هذا الشي اللي أنا فيه والحمد لله، ما نقدرش نصدق باللي أنا كنت غير سارح اف دوار مكَارطو، اوى احمدوا الله وشكروه راه الخير فيما اختاره الله!" حامدون شاكرون و "يلزمنا نفكروا في لولادنا ألفكاك، أنا ما نفكرش غير لراسي!" "إوى ألسي محمود فكر غير لراسك، أولادك تبارك الله كيف ولادنا كلنا الحمد لله، قادرين على وقتهم، غير اعمل فيهم الثقة، شجعهم وادعي معاهم واتفرج!".

كل واحد من أصدقائه حل "مشكلته" بطريقة مختلفة: محمود حول كل حبه لأولاده، مصطفى يقول في زوجته، من الأوصاف الحميدة والتغزلات ما لا يمكن أن يقوله في حبه الأول، الفكاك قام بالإعلاء من شأن "الحاجة" إلى درجة تشبه التقديس، المهدي قرر أن يستغني عن الحب وعن الزواج، وهو هو الوحيد الذي لم يرض بعد بالقسمة ولا بالنصيب، "كأنه غول، كأنه ناكر إحسان، كأنه أعمى، كأنه مغفل: كأنه مسكون، كأنه مجنون، ليس من هذه البلاد ومن هذا التراب بالذات!".

قام من مكانه، مازال الشاب والشابة في وضعهما، توجه نحو مدخل شالة وطلب من أحد الحراس الذي يعرفه منذ أربع عشرة سنة أن يسمح له بالصلاة في مكان استراحته وصلاته: "الظهر فات شويه أسيدي علال، اتفضل اتفضل... توضيت بعدا؟"، وسخن له الماء ثم فرش له سجادة؛ الله يتقبل!...، "الفكاك؟ عيان شويه الله ينجيك!"، "كبرنا أسيدي، لعظم ارشى، الله

يرد بينا، الله يتقبل نعم آس!"، "غير الحمى، شي شويه!"، "الله يشافيه، الله يعوض فلولاد، الله يتقبل أمولاي!..."، "اللا، صايم، شكرا!"، "كيف ديمه، الله يتقبل، صلي وانعس مع راسك، راه هاد الشي باش مزيان التقاعد، بالحق إلا تقاعد الراس، الإنسان يشبع غير انعاس، الله يتقبل انعم آس!"، صلى الفجر، صلى الظهر، ونام، "ما اللي يتقاعد الراس ويخوى من الفكر، أسيدي، كيموت الإنسان بخير، يسهل عليه يفارق الدنيا ويتلقى ربو، الله يرحمنا براحة البال!"، "والقلب، يا عبد الرحمان، يا حارس قبول شالة المتآكلة وأطلالها وزهورها الجميله"، هل القلب يتقاعد، يفرغ؟ أيهما أفضل تقاعد العقل أم تقاعد القلب؟ الراس، الراس كلو؟ يالحبيب ديالي، كان خدام فين غير لعقل، القلب يمكن اخدم، فالأول مع لمرا، شي شويه ويمكن واحد الشهر، مع مدام لوبيز الله يذكرها بخير، اشكون خلاك تخدم القلب، أسيدي؟ أشكون؟".

مازال مشغولا بنفس الأمر، نفس الأمر: "إنني لم أحب امرأتي!" مازال نادما؟ وهل يمكنه أن يتخلص من هذا الندم، بل كيف؟ ليس هناك ندم إلا لأن هناك أملا: "إنني لم أحب امرأتي" تعني، بالإضافة إلى ما توصل إليه من قبل ما يختصره في "الندم"، أنه ظل على الدوام يحمل أملا في أن يسود بينهما ذلك الحب، أنه انتظر أن ينتعش هذا الحب وترجاه، وهذا أفظع من الحكم عليه بالفشل والندم عليه: لقد خاب ترقبه، لكنه بقي يأمله! يأس آمل، فشل متفائل، ندم يترجى، يحنو، يتوسل: لقد كف عن أن يسكن إليها، عن أن تسود المودة والمعروف بينهما، عن أن ينتظرها، لكنه لم يفعل أكثر من الانتظار، من الأمل، لم يقطع اليأس!

27

"لن أترككم في حالكم حتى تقولوا لي: لماذا نختار وننسى أنا اخترنا، نتنكر للإختيار أو نقيس اختيارا ما، اخترناه في زمان وشروط خاصة، بمعايير زمان آخر وشروط أخرى، تصوروا أن نساءنا يحاسبننا وكأنهن اخترننا في هذه السن، لا منذ أكثر من خمسين عاما، هل تتصورون؟" "نعم، ولكن قل، يا محمود لماذا ننسى... لا... لماذا لا ننتبه إلى الكيفية التي تتكاثر بها أخطاؤنا، كيف نراكمها، الواحد فوق الآخر، الواحد إلى جنب الآخر، بحيث تنتهي إلى إخفاء من حوالينا، نساءنا وأولادنا مثلا، وإلى أن نختفي نحن بداخلها، عقلا وقلبا، فلا نعود نرى شيئا، الواقع، الحقيقة، نرى فقط ظلال هذه الأشياء، خميلها إذا شئت، فنحسب الخيالات وقائع والستائر مضاجع، ولا نعرف كيف نخملها إذا تحولت القطيفة إلى أهداب وتراكمت أو... كأننا في خميلة، لا شعاع، ولا شعاع واحد، ولا ظل، كل شيء فيها شبه ظل... خميلة تامة؟".

"سوداء، مظلمة! أهذا ما نعني، ما ندرك عندما نقول: فيا ليت ساعة مندم؟ أهكذا تصنع أقدارنا؟ فلم لا نتعرف عليها؟ لم نتمادى في الخطإ وهل هناك إمكان لمعالجة الخطإ في هذا الوضع بغير الخطإ؟".

"لا تحملنا مالا طاقة لنا به يا علال ولا تجعلنا مسؤولين عن كل شيء، كأننا أنبياء، لا، لا، إن المرأة طرف، الزواج بين اثنين وفيه أولاد، فلم تصرون على تحميلنا كل شيء؟"، "والله، يا مصطفى لو أعلم كم طرفا في

الزواج! في أية علاقة بين اثنين، رجل وامرأة...".

لم لم يتزوج، لم يطلق؟ لكل طريقته في تعدده، في الجمع بين "النساء"، فالرجال أصناف، "حسب العناصر الأساسية وكيفية امتزاجها يتنوع الرجال! حسب تكاثر الخلايا وتناسقها كذلك، أخوكم المهدي وحيد الخلية، أنا غازي، والدي كان بخاريا، أتظنون أن اسمي المهدي الغازي صدفة؟ لابد أن تتحقق كيمياء الاسم ذات يوم في أحد الأولاد، وإلا لماذا سموني المهدي هداكم الله؟ لقد هديت واهتديت... إلى وحدتي!"، كان سكران، غازيا أو بخاريا خالصا!

منذ أكثر من أربعين سنة وعلي الرماني يتردد على "النادي"، إضافة إلى سنتين قضاهما في "تعلم الشرب"، قضاهما صحبة "مدربين" مختلفين جلهم كان يريد أن "يبليه" ليستغله، لـــ "يميحه" كلهم كانووا في حاجة إلى نديم، متواطئ، شريك في الدخان والغاز في تقاسم "الفراغ"، "العدم"، ولقد تردد خلال هاتين السنتين، على كل حانات المدينة وملاهيها الليلية مقلدا، متمرنا، مغامرا، هاربا، باحثا، مستأسدا "ومستحمرا، مستكلبا"، كما يقول عن تلك الفترة، لكنه طول السنتين، لم "يفرح بامرأة"، كان هاربا منها، من تلك التي "تتمرغ في وسخ الأطفال والمطبخ وبيت الصابون"، بعد أن أصبحت "سيدة الوسخ"، "ربة الفراخ الصارخة"، هي التي كانت "سيدة الحسن" و "ربة الابتسامة" (لولا الوجه وهذه الابتسامة لما تزوجتها! وها هي تقهر نفسها وتقهرني بالبيولوجيا!).

في الأصل هزيمة، خيبة أمل أو سوء تفاهم، نوع من الخيانة (ما هكذا اتفقنا ولا على هذا وحده تزوجنا!) يرغب في شيء آخر! يبحث عن شيء لم يعد يوجد لديها؟ بسيطة وتقليدية، ليته فهم في البداية، منذ البداية، ما كان يدور في رأسه وما صار يشغلها، ينمو في رأسها كاللواية! إنه غاضب وهارب من غضبه "وافهم ألأخ، ما كاين ما يتعمل فالدار، غير كنخسرو

فلوسنا، شوف هاذ القطة كي مكلوته وامنوضه، شاعلة دين أمها وانقيه، خلص عليها كاس واتاوى معها من هنا، ينت الناس يا خونا!". لم يكن يبحث عن هذا، لقد نال منه نصيبيه، وبدون خمر، قبل أن يتزوج: محترفة واحدة "شوفتني انجوم السما كلها!"، يصعب أن نثبت دائما أننا لا نطلب سوى هذا الأمر من امرأة، أية امرأة، ولو كانت محترفة "غير ما نعرفوش كيفاش نطلبو الزايد ولا عند من؟ فقط لا غير!": سوء الاختيار أو الحياء أو الخوف!".

"وكما قلت لك، في زيارتي الأخيرة لكم في مراكش، فإنه لم يثبت على الوالد منذ زواجه إلى اليوم، أنه ربط علاقة ولو لليلة مع امرأة أخرى بالرغم من أنه مازال تام ما يسميه البيولوجي، وباستثناء علاقته مع مدام لوبيز، التي كانت بريئة إلى حد كبير، يشبه الاستيهام، وربما تأكيدا لنزوعه الفرجوي، فهو احتفالي في طبعه، ممثل من الدرجة الجيدة، فإن هروبه إلى السجائر والخمر هو الأمر الوحيد المؤكد فقط لا غير، كما يقول للحسم!"...

"تشرب كاس اديال اتاي آسيدي علال مع شويه اديال الملوي؟"، "شكرا، صايم!"، "اللهم تقبل واياك، ماعندك فين تخرج، نصليوا العصر ونخرجوا أنا واياك، ماعندك فين تخرج غير الشتا والتوريست، انغطيك ياك ماجاك البرد؟"، "اللا، اسخون، جاني الصهد، الفيستا!". "إوى راه كاين البرد، راه حنا مزال فالليالي حياني! والله اسيدي إلا كتعبر على الدنيا مع الفكاك، بهذا الصوم اديالك حتى فالليالي حياني، اللهم تقبل آمين!".

"أيها الصديق العزيز الدكتور محمد مختار المحترم، نحن نعرف أن الخمرة، وعلى الاقل كما تشربها العامة، تحلو أكثر مع النساء، لقد خلدت وصلات إشهارية، وكذلك الأدب الشعبي، خاصة العيطة والملحون، والكثير من الأدب "الفصيح"، ألوانا من صور الأنس والفحولة، من السعادة التي تأتي

من تمازج الخمرة والمرأة والنديم: ركوب الخيل ولبنات وكيسان الراح مثلا! ونحن عندما نلاحظ الدور الكبير الذي تقوم به بعض النساء المحترفات في الحانات والملاهي في دفع الرجال إلى الشرب، إلى الاستهلاك، يزداد لدينا الانطباع بأن الخمرة والمرأة والنديم متلازمات ضرورية لا يحلو بدونها "نشاط"، غير أن هذه الصورة خاطئة تماما ولا تعبر نهائيا عن واقع الأمر عند المدمن على الخمر، قد تعبر إلى حد ما عن واقع الشارب في المناسبات، لكنها بعيدة كل البعد عن حال المدمن!...

قد يطول الحديث عن "واقعية" تلك الصورة في الأدب وفي الإشهار، إنها ليست باختصار شديد أكثر من استيهامات، ولو كانت "حقيقة" بالنسبة لموضوعنا لما حضر الأدب والغناء في جلسات "لقصارة" كما تحضر النكت والنوادر، ولما حضرت بالذات على لسان النساء أنفسهن واستملحت أكثر لهذا السبب!...

ذلك أن نساء الملاهي والحانات لسن نساء "حقيقيات" ولسن مطلوبات لذاتهن كنساء ولاهن يعرضن ذاتهن باعتبارهن كذلك، إنهن مجرد استيهامات!... صورة السكير يا صديقي، السكران الحقيقي، المدمن، الخالص، هي تلك الصورة التي كانت توجد في كل الحانات، قبل أن تبدأ في الاختفاء تدريجيا: رجل وحيد يجلس في مواجهة قنينة وكأس! دعك من "بولبادر أو بودراع" وعضلاته وقرعته، إنها صورة إشهارية لا غير! انظر إلى تلك الصورة التي رسمها فنان حقيقي، لا أعرف إن كان شهيرا أو مغمورا، ولا أعرف إن كان رسمها من أجل الفن للفن أو تحت الطلب: رجل "صغير" الحجم، "نحيف" جدا، "مستدير" الشكل، أمامه كأس فارغة وقرعة نصف مملوءة، والقرعة طويلة إلى درجة أنها تكاد تتساوى مع الجزء الأعلى الذي تراه من الرجل، زجاجة في حجم رجل أو رجل في حجم زجاجة،

وتستطيع أن تراه يبتسم أو يبكي كالموناليزا تماما، كما تشاء، كما أنت، بحسب قدرتك على، أو استعدادك للنظر! هذه هي صورة السكير كما خلدها رسام لا أحد يهتم بهويته، وكما نشرها مئات من الناسخين المجهولين عبر العالم!...

السكير وحيد، دائما وحيد، يعاني من وحدانية مهولة ولو كان وسط أعز الندماء خاصة النساء منهم، رجل يهرب من "الضجيج" الذي بداخله أو حوله، ليأتي إلى وحدانية مؤنسة، فار من "فراغ" نسائي، من امرأة قد تكون أمه، فراغ كفراغ الاسفنج يبدو مليئا، اضغط عليه أو صب عليه ما تريد من الماء لترى "الامتلاء" الخادع! لذلك تصبح الزجاجة رفيقة السكير في وحدانيته، نديمته الوحيدة، فهي "اسفنجية" كالمرأة، وهي ذات جيد وقوام كالمرأة وهي "تشربك" وتوهمك بأنك "تشربها" كعدد كبير من النساء، هي مسكرة وقاتلة، مستبدة في مسامك ومخك: الشكل "الطبيعي" للمرأة شكل "إجاصي" والشكل الطبيعي للرجل تفاحي"، منذ بدء الخليقة، وفوق هذا وذاك "لا تشرب" بسرعة، باستعجال، إنك ستدوخ أو تتقيأ، ستفسد "الجلسة"!.

القرعة إذن امرأة: المرأة الوحيدة في حياة السكير، فليس هناك مدمن يستطيع أن يستغني عن "المرأة"!

قد لا تقنعك هذه المقارنة الصورية، في هذه الحالة أدعوك إلى تأمل علاقة نسائنا بالخمر: ليس هناك عداوة أشد منها، هناك نساء قد يقلبن الدنيا حين يبالغ الزوج، أو فقط يبدأ في الشرب، واغلب النساء، وكذلك اكثرية الأسر، يرفضن الزواج من شارب مدمن أو يشترطن عليه التوقف عن الشرب! لماذا كل هذه العداوة؟ لأن القرعة امرأة، امرأة يقال لها "وهميه" في بعض الأساطير وتكون دائما ضرة! إن المرأة أو الأسرة التي ترفض الارتباط بسكير ترفض في الواقع الضرة! وتلك التي تشترط عليه ان يتوقف

عن الشرب تطلب منه أن يطلق "زوجته الأولى"، ترفض أن تكون شريكة "امرأة" أخرى في زوجها، أن يكون لزوجها "بيت" آخر خارج بيتها! وإذا كان الرجل الذي يدمن الخمر متزوجا قبل الإدمان فإنه حين يدمن يصبح رجلا خارج البيت، رجلا مطلقا، طلق زوجته الأولى وفي أحسن الأحوال أو أسوإها يكون قد اتخذ له "زوجة" ثانية هي القرعة، تلك التي تشبه الإجاصة دائما!

قد يعترض معترض على هذا الأمر قائلا: "هذا لا وعي المجتمع الزراعي، البدوي، التقاليد، الدين...

المجتمع كله لا يطيق الخمر، يعادي السكير، يحتقره، يعتبره رجلا وهميا، رجل "وهميه"! المجتمع يحاربه، قد يحبسه أو يلغيه، القانون مع المجتمع، "يمنع بيع الخمر للمسلمين"، والمرأة فقط، وكما في حالات أخرى كثيرة، قد لا تكون أكثر من معبر ومدافع عن هذا اللاوعي "البدائي"!.

إن معترضا من هذا الحجم، ومن هذا اللون لا يعرف مجتمعه حقا لسبب بسيط هو أنه لا يعرف مجتمعات أخرى، خاصة تلك التي ليست إسلامية: إن السكر ممنوع في جميع المجتمعات ويعاقب عليه القانون، لكن الشرب كالبغاء مثلا، مسموح به بهذا الشكل أو ذاك، في كل الدنيا! والأهم من هذا كله موقف المرأة: كل النساء في العالم كله، حتى اللائي يشربن منهن، تعادين في الحقيقة السكر لدى رجالهن ولو بدا الظاهر غير ذلك، ولو شربت النساء أحيانا أكثر من الرجال! ولاشك أن في كل مجتمع لحظات "قصوف" كذلك، لكن القاعدة هي معاداة السكر، كيفما كان شكله ودرجته!...

ليستخرج المحللون الاجتماعيون والنفسيون ما يشاءون من هذه الظاهرة التي تستحق بالفعل، الاهتمام، لكن ما يهمنا منها، أنت وأنا، وبخصوص حالة السيد علي الرماني التي تطلب رأيي فيها، هو أنها تعبر عن

"رفض" ما نسميه "الزنى" و "الشذوذ"، وليس المقصود الشذوذ الاجتماعي أو الشذوذ "الأخلاقي" وإن كان ظاهرا فيها من زاوية ما، وإنما "الشذوذ الجنسي" والزنى بهذا المعنى كذلك: إن السكير يبدو في لحظة من لحظات تحليل سلوكه العميق، رجلا شاذا جنسيا، فامرأته المفضلة أي الزجاجة بلا أعضاء تناسلية، طبيعية أعني، وهو بالتالي شخص مخصي! غير أن أهم ما في الجنس هو ما في الحب نفسه: رمزي وخيالي! الإخصاء إذن، سواء لديه او لدى محبوبته، هو ما يقوي العلاقة بينهما ويغذيها: التسامي بالجنس إلى درجة الاحتفاظ بأقوى مكوناته وحدها، أي الجوانب الرمزية والخيالية فقط!.

لذلك يصعب على المدمن معاشرة امرأة أو العودة إلى مرأة "طبيعية"، امرأة من لحم ودم عاديين، تلك التي جاء هاربا منها إلى القرعة!.

ولذلك أيضا تفشل كثير من النساء في مقاومة مثل هذه الضرة، فيطلبن الطلاق أو يهربن أو ييأسن من "رجوع" الزوج ذات يوم إلى البيت!... يطلقنه في السر! بينهن وبين أنفسهن أو... أولادهن! والملفت للنظر حقا في هذا السلوك أنه يعبر على نوع من تقديس الجنس، على التسامي به إلى درجة "دينية" من النسك إذ ليس من باب الصدفة أن يتخذ السكارى ومنذ القديم إلها لهم، وأن يكون هذا الإله ثانيا، ذكرا وأنثى في نفس الوقت: ديونزوس أوباخوس. ونلاحظ كذلك في ختام هذا التحليل الموجز ما تؤكده الدراسات الكثيرة اليوم عن الخمر: إنها مع مرور الزمن، تؤدي إلى العجز الجنسي، فهي تقتل بالتدريج الهرمونات الذكورية، على عكس ما تعتقده العامة، وجانب كبير من الأدب في أنها تقوي القدرة الجنسية!

آمل أن أكون قد ساعدتك على فهم جانب من سلوك السيد علي الرماني: العجز الجنسي، التأنيث، تقديس الجنس أو التسامي به، أي تطليق زوجته معنويا، بعد أن طلقها ماديا بأن اتخذ له بيتا خاصا داخل البيت!...

غير أن مثل هذه الأمور، كما تعلم، أعقد من كل تحليل وأغنى من أية زاوية نظر واحدة أو متعددة تماما كما هي حال بنتنا الباتول وهي تتعلم كيف تنطق اسمك؟"، "بابا، متى يأتي عندنا عمي مخصار؟" ما رأيت اسما أعز عليها منك ولا من ينطق مثل هذا الاسم بعشرات الطرق المختلفة! سلامي وسلام الباتول وماما نجمة".

"ذكي صاحبك يا محمد، ذكي وقد يجدر به بدوره أن يتفاهم مع صاحبتك الدكتورة لمزابية، فلم لا تنصحه بذلك؟ غير أن ما قاله لا يخص سوى المرأة التي تحب زوجها بالفعل، أي تلك التي يحبها الرجل وتشعر بأنه يحبها حقا! أما الخائبة أو اليائسة إن لم تكن متمردة الطبع أو إذا لم تستطع التخلي لسبب ما عن البيت، فإنها تحول الحب كله إلى أولادها، إلى أي شيء آخر، أي رمز أو تعويض، ولن يعيبها من الإدمان غير ما هو مالي أو اجتماعي: "لا تحبنا، إذن لا تحب نفسك، أي يمكنك أن تنتحر بالسرعة التي تريد وبالصيغة التي تحب!...".

28

"كيف عامل اليوم، ألسي علال؟"، "قتلتني الوحدانية، ألسي عبد الرحمان، اعييت!" باب زعير، "الحال ظلم وابرد، علامات الشقا هاذي!" "ما تخافش علي أعبد الرحمان، أنا ديمه سخون!"، "وغير تفطر واتزيد تسخن، لحريرة مزيانه وخا البيصرة اسخن منها، مجهدة فالفطور والدكالي كيصوبها مزيان وخا اكبر العفريت، أكبر أومازال يصوب البيصرة ولحريرة بيدو، بازلو أسيدي، باز!".

باب السفراء، "أنا ماغاديش نفطر بكري هذ النهار، غادي نمشي انشوف واحد المحاضرة فالستة، اسبق انت عند الدكالي!"، "ياك ماغادي تتعطل بزاف، أنا راه خاصني نطلع تالسلا، لمرا إلا فت الثمنية تسلخني، نكذب عليك، ياك عارفني أنا مرضي مع لمرا؟ وفين هاذ لالة المحاضرة؟"، "قاعة اباحنيني!"، "اشكون ابا حنيني؟"، "اشكون ابا حنيني؟ وزير!"، "ناري رد بالك أعلال!"، "الله يرحمو!"، "ياكما ارجعت ثاني للسياسة اعقلت على افضايحك؟"، "ألا أعبد الرحمان، الدري ولدي غادي يعمــل شيء محاضرة!"، "الدري ولــدك، السي محمد؟... الراجل عندو خمسة وربعين عام أومّا زال عندك طفل؟"، "غير عمرني ما سمعتو كيدير شي محاضرة والموضوع اعجبني، الموضوع فالحقيقة اللي اعجبني!"، "آش من موضوع عاود ثاني؟"، "هندسة البيوت والحب!"، "الهندسة والحب؟ الولد عندك تاهو مشير مسكين، دكتور مشير، الله يسترنا!"، "أمين أعبد الرحمان، إوى إلا

ساليت بكري نوصل عليكم، صافي؟"، "لا جيتي قبل الثمنية!".

قاعة ابا حنيني، لم يكن يتصور أن يكون لابنه كل هذا الحضور، خاصة النساء، ثلثا القاعة الملآى نساء: "ربما نكذب، نحن الرجال، القليلون منا هم الذين يهتمون بالحب حقا!". قدمت امرأة أنيقة، جميلة في الأربعين، الدكتور محمد مختار بكلمات رقيقة نفاذة، كلمات إعجاب وتقدير دمعت لها عيناه: "ربما كان هذا ما ينقصنا: الاعتراف فقط لا غير!"، وعمل على أن يختفي في الكرسي، وسط الرجال والنساء لكي لا يراه، لكي لا يلتقي بصراهما: "قد يضطرب إذا رآني!"، بعد كلمات الشكر والترحاب والتنويه بالجمعية النسائية التي فكرت في تنظيم "هذا اللقاء الهام حول هندسة بيوتنـا والحب أو دور الهندسة في السعادة داخل بيوتنا"، بعد سلسلة مجاملات قالها بتلقائية وأدب، دخل إلى صلب الموضوع فأصبح صوته بعد تردد لم يدم طويلا، صوتا هادئا، منسابا، دافئا من كثرة ما فيه من ذكاء وتعاطف، من محبة، من لباقة، يحكي ويحلل، يحلل ويحكي: "والله أودي ألدكالي إلا ابكيت بالصح!"، لم يكن يتصور أن هندسة البيت، أن شكل الأثاث وترتيبه، أن عدد الغرف، اتجاه البيت ببابه ونوافذه، شرقا أو غربا، شمالا أو جنوبا، أن النبات، أن طبيعة المواد، أن حركة السير، الشمس والهواء، أن أشياء من هذا النوع، من تلك الأشياء التي لا نهتم بها تحت ضغط الحاجة وضيق اليد والأفق أشياء لها مثل هذه الأهمية في حياتنا وقد تؤدي بنا إلى مشاعر وسلوكات تقتل الحب والسعادة: "وهكذا، ترون حضرات السيدات والسادة أن بيوتنا لم تعد تصمم لتكون باعثا على المحبة والاحترام، ولا لنشر الدفء والسعادة؛ ونحن نعمل على حدة هذه الكارثة بطريقة اختيار وترتيب التجهيزات بداخلها، إنها صممت أو عدلت لاستقبال "الضيوف" وطردنا نحن إلى الزوايا أو إلى الشارع والمقاهي، فما هو الحل؟ أود أن أسمع رأيكم في

ما قلته ثم في الحل أو الحلول الممكنة! شكرا على حسن استماعكم!".

تصفيقات، تصفيقات حارة سخنت القاعة، "لماذا لم نهتم بهذه الأشياء؟ بوكَرون، اتفوا!". فتح باب المناقشة، قالت المرأة التي قدمته والتي مازالت تجلس جنبه: "أعطي الكلمة في البداية للدكتورة ليلى المجاطي، فلتتفضل"، وتفضلت "ناري يالدكالي آش انكَول لك؟ زينة، زينة ألدكالي، كتقطع بالزين وحلاوة اللسان!" بعبارات؟ "آش نكَولوك، دق العبارات هذا، كَالك العبارات، كَول لعسل الحر، كَول آخويا السم اديال الفن اديال لكلام!"، عبرت للمحاضر عن شكرها وتقديرها وإعجابها "إيه كَالتِ لو، لقد أعجبت كثيرا بمضمون وطريقة العرض!" وشهدت له بالريادة والذكاء "ناري على الفن، على البيصرة لمدرحة اللي ما يمكنش تعملها آلدكالي وخا تحماق!" واستأذنته "تستأذن الدري ولدي واتكَولو: إلا سمحت، يا دكتور مختار أختلف معك في نقطة واحدة ربما لم أفهمها جيدا!" بأدب ولطف "أنا تعطيني غير الأدب واللطف، تعطيني غير الزين، اتكَول لي كلمه وحده من هاذوك وتاخذ النقط كلها، غير اتختلف معايا!" وبلسان فصيح، يستعين بالفرنسية من حين لآخر، لكنه مستقيم وحاد، مسترسل، سياب "أنا عمري أخويا ما كَالت لي شي امرا كيف هذا لكلام، عمري ما اوقف كَدامي شي زين كيف هذا لعسل الحر واتكلم باحترام وأدب.. غير بإعجاب! إوى ياك اقريت كتوب الدنيا والدين، لاش اقريت هذيك لقراية كلها لاش؟ اعلى هذا الشي تاأنا اعلاش اقريت، اعلاش ادفنت راسي سنوات... أو هانا عايش غير فالخنز، إخ، تفوا!".

"أختلف معك في البداية، في مقدمة العرض، إذ يظهر لي أنك لو بدأت بشراء البيت كما يشترى عادة من طرف العديد من الناس، لتبين لك شيء أخطر أو ليس أقل خطورة من الأشياء التي تكلمت عنها وحللتها بمقدرة فائقة، إنني أعني "الرهن"، كيف نرهن حياتنا في شراء بيت ثم خطاطة

الرهن التي تمتد إلى الأولاد والعائلة، وإلى العمل، إلخ... وكيف ينعكس ذلك على الحب، على السعادة في البيت"، "صدقت، صدقت صدقت والله ولا صدق أصدق من هذا الصدق: قدر علي أن أحب الجمال والذكاء وأن أعيش في مزبلة وسط أغبياء!"، وتوالت التدخلات "كل وحدة تبارك الله تتسيك فالاخرى، أسيدي راحنا عايشين غير فالظل، فالظلمة وبايله على فراشنا المشه!".

بابتسامة طيبة، وهو يحرك رأسه من فوق إلى تحت من فترة لأخرى، تلقى القبلات "التدخلات، الله يستر كاين علاش يدوخ ابنادم، أسيدي!" وقال: "لقد استفدت من جميع الملاحظات التي وجهت إلى هذا العرض ولاشك أنها سدت ثغراته وأنا أشكركم جميعا جزيل الشكر عليها، لكني لاحظت أن نقطة الضعف الكبرى في هذا العرض تكمن فيما أشارت إليه الدكتورة ليلى المجاطي وأكدت عليه متدخلات أخريات..."، "وها لولاد ديال الصح أبا الدكالي، ولد زين وكيقطر بلفهامة واللطافة، كون شفت وجه الدكتوره ليلى المجاطي، ولى ابحال مطيشة، امع تاهي زعرة وعامرة!"، "لذلك أشكرهن كلهن وأخص بالشكر الدكتورة ليلي!"، "ليلى وصافي؟ كمل آلجن، والله ما كمل السميه!"، "وأستسمحكم، كما أستعطف السيدة المحترمة الأستاذة الكبيرة، نجاة لمفضل، رئيسة هذه الجلسة، لتسمح لي بأن أتلو عليكم بعض الملاحظات التي كنت قد دونتها بخصوص تلك النقط التي أكدتن عليها، هل يمكن؟"، "تفضل بكل سرور، نحن لا نحظى بلقاء باحث مثلك كل يوم، هذه فرصتنا وأنت الذي يستحق الشكر!"، "ياك تاأنت يالكريكيبة اديال الشكلاط؟ لمفضل يتفضل وبو محمد المختار يدخل فالكرسي، يغبر، اعلاه ماكاين ارجال اف هذ القاعة؟ وهاذ لعيالات كلهم فين كاينين؟ اللي جا لهذ القاعة يحسب لو لبلاد عامره غير بهم، آجيو انشوفو بوكَرن اديال المسلسلات

المصرية وامريكا اللاتينية! كَول أولدي، كَول الله يرضي عليك ويكون منك الزرع والزريعة!"، وحكى لهم قصة، "جن هذا الولد كيكتب! ابحالي، غير ما عندوش البعد الفلسفي مزيان، يخصو يقويه شويه باش ما يوقع لوش اللي واقع لشي سطوله اديال الميكه! كَال لك الوصف، والسرد... أهاه، أهاه، وراك ماقاريش الأدب فالأصول اديالو أسيدي اوليدي! الله ينوب! اسمع الولد اديالي آش كيكَول واسمع امع راسك وشوف هاذ النوار الداير به، الله ينصر اسيادنا اديال الملحون فالفوحان على بعضياتهم! شوف الدكتورة ليلى المجاطي، شوف علي بوسة واعره عملت للدكتور محمد مختار، وشوف أمولاي هاذ المشموم لكبير اديال الورد كيف كي يتخاطف فيه، كل زهرة تعمل لو بوسه ولا تجرو تكَول لو غير كلمه، كيبوسوك أنت آخانز الفم، كيقربوا منك ألهايش، أبوكَرون، اسكت إلعن جد لخروق أولكَماط والتلامط ودار الضوء اللي تا انت عاطيلك الما والتريسينتي سير دابا ان..." ماذا حكى لهم؟ لماذا اهتزت القاعة بالتصفيق؟...

"كَال لك لمرا عدوه اديال الرجل والرجل اعدو ديال لمرا، هذاك الشي راه عند بوكَرون ابحالك، وهاانت شوف مع راسك واتفقص، شوف المحاننة والتضامن، شوف لحترام، ها الاستقلال اديال الصح جاي!".

عرفت أعلال؟ انت راك واحد الفاسق كبير، عاد اعرفتك فاسق اف لباس ولي صالح!"، "اسكت أليهيمة، اسكت، كب البيصرة واسكت، آش جايك للثقافة انت؟"، "الثقافة، أنا؟ باركه أعلال، كَول لينا غير آش كَال الدكتور ولدك ألدوك لعيالات مسكينات!"، "انت هو المسكين ألدكالي، عايش اف دار غفلون... آش ابغيته يكَول ليهم؟ كَالهم الصراحة والصلاة على النبي!"، "إوى كَول، احكي عافاك!".

محمد مختار يروي قصة للدكتورة ليلى المجاطي
ولسائر النساء المحاضرات وللرجال كذلك
عنوان القصة: " الزمن"

بداية "القصة": تبدأ هذه "الحكاية" منذ انخراط الدكتور محمد مختار، كباحث اجتماعي في مرحلة ما يسميه "البحث عن الاستقرار" التي تعود بداياتها بدورها إلى السنوات الأولى من دخوله إلى مجال العمل كموظف، وإن كان يردها الدكتور محمد مختار إلى نشأته في بيت والديه مارا بالطفولة والمدرسة والثانوية والجامعة ليصل إلى ولوجه عالم الشغل مطلا منه على عالم التقاعد والشيخوخة، ذلك العالم الذي تحتاج فيه النفس إلى أن تسكن إلى وليف وإلى ذاتها راضية مرضية، محمية بعد أن تكون هذه النفس المطمئنة قد تركت وراءها أختيها: الامارة واللوامة! لكنه فضل أن يحكيها مجزأة، مبتورة لتلائم المقام وبدأها منذ شهر فقط، الشهر الاول من بلوغه سن الخامسة والاربعين فقال:

"لقد لازمني، وأنا أهيء هذا البحث المتواضع من أجل تقديمه إليكم في الصيغة التي تشرفت بعرضها عليكم، سؤال كبير لا أعرف لحد الآن كيف أواجهه مواجهة علمية، ولا حتى ذاتية ملائمة، فعمدت إلى تجزئته قدر المستطاع لأقترح عليكم التفكير فيه من زاوية واحدة فقط، زاوية تصميم بيوتنا ودوره في خلق أو خنق علاقات الألفة والمحبة أو السعادة بين أفراد الأسرة الحديثة في بلدنا، الامر الذي أدى من حيث لا اريد إلى نوع من سوء التفاهم في هذه القاعة، إلى نوع من اللبس في عرضي، لذلك ورفعا لهذا

اللبس مساهمة في تلطيف سوء التفاهم، أقول تلطيف لأرفع سوء التفاهم، أعرض عليكم ذلك السؤال الكبير الذي لاأشك في أنكم تطرحونه جميعا ككل الأحياء، آملا أن نجد له جميعا صيغة ملائمة اعتبارا لأن طرحه بشكل دقيق قد يؤدي بنا إلى فهمه وتوضيحه بشكل أفضل. أرجو إذن أن تأخذوا هذه الصيغة بما يكفي من التحفظ والحيطة من التسامح والعطف، لطفا حضرات السيدات والسادة، فيما يلي الصيغة المقترحة: "ماذا حدث أو يحدث لنا على مستوى العواطف بطبيعة الحال، نحن الفئات المتوسطة بالخصوص، التي بدأ وعيها يتفتح مع نهايات الستينيات وبدايات السبعينيات، والتي تحتل اليوم مراكز مختلفة، متوسطة أو مهمة، كأطر في سائر الإدارات والمنظمات الخاص منها والعام، المدني والرسمي؟"

وبعبارة أخرى آمل أن تكون أوضح: "لماذا لا نكاد نجد السعادة في الارتباط فيما بيننا، ولا أقول الزواج وحده بحيث يكاد الارتباط السعيد يشكل نوعا من المعجزة من حولنا وكأن الداخل منا إلى مجال العاطفة كالخارج منها والمستقر فيها، بإرادته أو بالرغم منه، شخص يواجه جهنم أينما ولى وجهه؟".

هذا السؤال الغريب على بعض المسبتات يمكن كما قلت أن يصاغ من عدة زوايا وبصيغ متعددة، أرجو أن تسمحوا لي بمحاولة ثالثة للصياغة: "هل الحب مجرد سوء تفاهم بيننا في هذه الفترة من حياة مجتمعنا، بحيث يمكن القول إن الحياة المشتركة بين المرأة والرجل قد أصبحت مبنية على على سوء تفاهم مزمن، وهل تم التخلي، أو التسامي أو التراجع عما نعتبره جميعا في قرارة أنفسنا بالأمر الأهم، وبم عوضنا هذا الأهم، ماهو البديل الذي ملأنا به حياتنا لينوب عنه؟ وهل نحن راضون حقا عن هذا التعويض إذا وجد، هل نحن سعداء بالفعل؟ ألا ترون أن الكثيرين منا لا يحبون بالفعل حتى

أوولادهم، ناهيك عن أزواجهم وعن العشاق والآباء والأمهات؟".

هذا، حضرات السيدات والسادة، هو سؤالي كما أرجو أن أكون قد وفقت في صياغة جانب أساسي منه: "لماذا عندما نخلو إلى أنفسنا بالفعل نجدنا تعساء، وحدانيين، فارغين، من ورق؟".

أستطيع أن أصغي إلى هذا السؤال في صيغ عديدة، خارجي، من حولي، في مختلف ألوان الشكوى والتأفف، في أصناف الأرق والمرض والانكسار، أستطيع أن أسمعه في حواراتنا المتنوعة، في الحوار الساخن المقاتل، في الحوار الباكي المنهزم، في الحوار الجارح أو المزعج، الهارب إلى الأمام أو المتراجع إلى الوراء، في الحوار المباشر أو العفوي، العلمي أوالعلموي، الواثق الدغمائي أو الشك المتردد، في ذاك الذي يثرثر سرمديا أو في الذي سكت بلا رجعة، في الحوار الذي يوهم بالفهم والتعالي بينما هو يريد فقط أن يفهم، أن يفهمه أحد، أن يفحمه أح، وفي ذلك الذي يتواضع ويتلاشي ليزداد قوة وعنفا ليجد من ينطقه، في الحوار الذي يريد أن يسمع نفسه في كلامه أو كلام الآخرين، يبحث عنها كما في ذلك الذي يصرخ لكي لا يسمعه أحد، لكي لا يسمع نفسه...

وفي هذا الحوار الشفاف، بوجوه متعددة ومستويات مختلفة الذي دار بيننا هذه الأمسية، يمكن أن نجد عدة عناصر مهمة للإجابة أو فقط لتدقيق الصياغة، هناك مثلا، وكما تفضلتن بذكر ذلك، تصارع أنماط الحياة العصرية وتصادمها الضروري مع الحياة المتوارثة وما ينجم عن ذلك من تصارع العواطف المختلفة في ذواتنا؛ وفي مقدمتها أحلامنا واستيهاماتنا، إضافة إلى عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي وما يصحب كل هذا من مظاهر الخوف من المستقبل وعدم الشعور بالأمان، زيادة عن الإحباط المستمر والإحساس بالدونية أو اللاجدوى، وما قد يثيره طول عدم

الاعتراف، والعدل والمساواة، من مشاعر العزلة أو الاستقالة أو من الرغبة في الانتقام أو الإحساس بالاضطهاد، أي كل ما يدفع الرجل والمرأة معا إلى عدم الاستقرار على حال إيجابية، ما لا يشعرهما بالآدمية، وهناك ما يخص المرأة على مستوى العواطف ككابوس التطليق وتعدد الزوجات وما أسمته إحداهن "ظل الولاية والقوامة" أي الوضع المتوارث خاصة القانوني منه، كما تعكسه "مدونة الأحوال الشخصية" التي يجب أن تراجع بشكل دوري وعميق لتساير بطريقة سليمة كل ما يجري في اليومي عنددنا، والتطلعات، وما يجري في العالم من حولنا، وهناك كذلك ما يخص الرجال بدون شك.

ونحن بإمكاننا التعرف على أثر هذه العوامل، متفرقة أو مجتمعة، من خلال فعلها المباشر ونتائجها أو من خلال أقنعتها أو ظلالها الكثيرة مثل الوصولية والانتهازية المتنامية والتهافت وأشكال العمى الإديبولوجي ونظارات الغوص في التطرف والإلغاء في الإدمان بألوانه الكثيرة، المادية والمعنوية، في الانتماء إلى أزمنة عتيقة أو غريبة، في التباهي المستفز والواجهات المحرضة على الفتنة أو المبعدة، في تصاعد الأنانية واللامبالاة، كما يمكننا أن نلاحظ كل ذلك في الحب والمعاشرة وكيف تعمل عملها فيهما... إلا أنني أود بعد إذنكم طبعا أن أحكي لكم كيف أصغيت إلى هذا السؤال بداخلي، مؤخرا، راجيا أن يظهر لي ولكم ما أسمته الدكتورة ليلى المجاطي كأخريات بالرهن، وهو من أطرف ما وقع لي في هذا الشهر البارد جدا:

ذهبت مرة أطلب من إحدى الطبيبات أن تضع حدا لاضطرابات تطرأ من حين لآخر على جهازي الهظمي، عدت إليها ثلاث مرات، فكانت في كل مرة تصف لي مجموعة من الأدوية تطمئنني على أن حالتي من الناحية الفيزيولوجية لا تستدعي أي قلق، مغلقة هذه "الفزيولوجية" وهذا "القلق" في

ابتسامة طويلة حنون لم أكتشف مكرها إلا فيما بعد، ذهبت إليها مرة رابعة. لم أشتك إليها من فعالية الدواء، لقد كنت يائسا وخانقا، خائفا في الواقع "تضرب امها حتى تدور إلا عاود تبسمت!" تلفظت بكل قاموس الاحتجاج والسب والتنقيص من كفاءتها، غلقت الباب وتظاهرت بتحرير وصفة: "ماذا لو كانت تكذب علي وبدل أن تقول لي إن أيامي معدودة وان لا أمل في شفائي من سرطان القولون أو أي مرض خبيث آخر تعلم أني مصاب به...؟".

مضى أكثر من نصف ساعة وأنا أصرخ وهي تكتب، أنا مضطرب هائج وهي هادئة "تضحك تخنقها!" فجأة شعرت بالخجل: "هذ الشي اللي اعطا الله أمحمد والسلام!"، وهممت بالانصراف "فتحي لي نمشي افحالي عند اطبيب آخر وعاد نمشي ندعيك!"، مدت لي المفتاح، فتحت الباب "رد لي الساروت اديالي!"، "هاهو مالي أن لص كيفك؟"، "طيب، ممكن تجلس دقيقة؟ اجلس... هنا... انظر إلى هذه اللوحة، تعرفها؟"، طبعا "العلاقات الجميلة للرسام ماغريت، هذه نسخة مشوهة!"، تعرف "هل تريدين أن ألقي عليك عرضا حول فن هذا الرسام، نصف ساعة مقابل نصف أجرك في نصف دقيقة؟"، "تفضل، يسعدني ذلك، تفضل لكن بدون مقابل، ألا تذكر اني طوال هذه الزيارات الأربع لم آخذ منك أجرا سوى مرة واحدة؟"، خجل هذا أم خوف أم ندم؟ "إذا لم تفهمي سر لوحته عن الغليون، عفوا البيبه فإنك لن تفهمي بقية لوحاته، هل سبق لك أن شاهدت إحدى نسخ هذه اللوحات؟" التخلص! "هذه ليست بيبه!"، آه؟ "تماما، هذه السلسلة من اللوحات..." ماذا تريد؟ "وهذا الذي تعاني منه ليس مرضا يحتاج إلى وصفه عادية؟! " هكذا؟ "يعني؟"، "الآن يمكننا أن نتفاهم، هل تريد أن تعرف حقا، وكل شيء؟" المرض الخبيث! "كل شيء وبصراحة!"، الله يخرج العاقبة بخير! "لدي سؤال

إذا أجبت عنه ستشفى، ستشفى تماما!"، تبتسم، تبتسم مرة أخرى؟ "تعنين أن المرض سؤال لم يجب عنه بكيفية سليمة؟" ولم لا يا دكتور مختار؟ "أحيانا، مرات كثيرة!"، هذه طبيبة غير عادية، نادرة "هاته سؤالك لنرى!" خلينا الله يخليك من هذه الابتسامة! "هذا العجب، أنا مريض بسؤال، إيه يا باستور، الله يرحم فرويد!"، سنرى! نظرت إلي بتركيز وصفاء "هل تستطيع أن تحكي لي قصة حب جميلة؟" هيه! "حكاية، يعني حكاية أو قصة وقعت لي في الواقع؟" "يالله جاوبني! كيف كيف، اللي تحب واعلاش ما تقدر!" اعلاش ما انقدر، كيفاش اعلاش ما نقدر؟ ها احنا وصلنا للإهانة! "تفضل، احك!"، لماذا تلح بهذا الشكل؟ استبعدت أن يكون في الأمر شيء مشبوه "أيعقل أن...؟ لا لا،" كما استبعدت ان تكون قد اضطلعت على بعض مقالاتي وأنها بصدد توجيه نقد صارم بطريقة غير مباشرة إلى كل ما كتبت لان لغتها العربية "ضعيفة جدا".

"ولم لم أكتب حتى الآن أي شيء عن الحب؟" كأنها تسمع همسي: "دع عنك كل الشكوك والتساؤلات، دعها للآخر، احك فقط قصة حب جميلة عشتها مع امرأة أو تخيلها إذا شئت!" تضحك علي! أتخيل؟ معها الحق، وماذا لو كنا عاجزين عن تخيل قصة حب كهذه، حاولوا أنتم، تخيلوا حكاية حب جميلة ولو للأطفال! "التخيل دليل؟ على ماذا؟"، "احك أولدي حكاية حب جميلة أو ياركه من الفلسفة!"، كاينة: سير جيب سلة اديال الريح او قفة اديال الما وخلينا من الفلسفة! "رجل في الخامسة والأربعين، لاشك أنه..." انه ماذا ألاله، خلينا من السبان! "لا تفكر طويلا، قل!" انتفض في الرجل "ابو الأربع نساء": "أستطيع أن أحكي لك أربع قصص حب جميلة!" قالت بهدوء وقد اختفت ابتسامتها: "إذن احكها كلها، واحدة بعد أخرى، قل!" أنت جبلية ولاّ فاسية؟ وقيل غير من عندنا وبدلت... "قل؟"، أين الطاووس؟ انفخ شوية

هاذيك الدربالة أمولاي!

حكيت لها اثنتين بافتخار "واكَولي ما كاينش الزين، ياك هذا هو الحب الجميل، تقدري تنكره ألمزابيه أمشركة العينين؟". عندما بدأت أقص الثالثة بدأ الشك يتسرب إلى نفسي: "زعمه هذا الشي عادي، ماكاين حب، واشنو هذا؟ فقصة؟ إوى سير عاش؟ آوه"، عندما انتهيت من القصة الرابعة كنت أشعر بالخجل، بالعار، بالتفاهة: "أربع نساء، أربع علاقات، افضل علاقاتي كلها بدأت بالعار وانتهت بالتفاهة، أخصتني هؤلاء النسوة كما أخصيتهن! ياكما حر الموس الحافي ديال الحجام بنبوعزة اللي ختني؟ لعيالات عندنا ما يعرفوا ختانة! شحال من واحد ومن وحدة عندنا، وغير اف تقدير الكلام، فالخيال، وغير من باب الإخصاء، عفوا الإحصاء السري يمكن يكون مازال بلا ختانة؟ احشم شي شوية أدكتور محمد مختار!" حرام! "هذه ليست بيبه يا محترم!" أستغفر الله! محايدة تنظر إلى لوحة "العلاقات الجميلة": ياكما؟ تستحق الشكر والتقدير: "معذرة، لا أعرف كيف أشكرك يا دكتورة!" لم ترفع عينيها عن اللوحة: "ترجع ومعك قصة حب جميلة تحكيها لي وأنت سعيد، سليم القولون!" آه على فضيحة!

وانشوفو الإخوان الأصدقاء والزملاء، أما أنا الغالب الله، يا ربي تعطينا من خيراتك شي رزيق زين شي شاوية، شي عروبية مرملة عينيها مشركَين ولا شلحة بنت الناس ولا شي صحراوية شكلاطية مخلطة بالحليب ولا شي شمالية صغيورة، استيتوه وبونيطه... ناري أولد علال، هاذي اللاخره ليك ابحال اباك! فهمت دابا أمك واباك، افهمت العيب اديال لكتوب اللي جالس كتهرد فيها كيف اباك هذي اشحال؟ واش افهمت لكلام؟ خلينا انشوفو الأصدقاء والزملاء، اللي ماشاف يسمع على الاقل، ياك لوذن ابحال العين؟ اسمع!" إوى شوف، أسيدي مولاي!

30

في المقهى، زوال ذلك اليوم الرمادي كنا خمسة أساتذة باحثين نحتسي القهوة والنميمة والدخان، وما قدر لنا أن نسرق النظر إليه من خلف الزجاج، خمسة باحثين من خير ما أخرج لهذه الأمة من علماء في مختلف التخصصات، أعدت على مسامعهم نكتة العالم الكبير الذي انتقد امرأة وضعت في خم واحد أحد عشر ديكا ودجاجة واحدة لارتكابها بهذه الفعلة، خطأ علميا لا يغتفر، فردت عليه المرأة ساخرة: "أسيدي هون عليك، ليس في هذه الديكة سوى ديك واحد حقيقي، أما الباقي فكلهم أساتذة باحثون مثلك!"، قلت لهم إن العلم كالإدارة، كالمستشفى، يقتل العواطف، إنه مثل الزوجة التي لا تحتمل الضرة فأنكروا خمستهم، ففاجأتهم بالسؤال: "إذن يمكن لكل واحد منكم أن يحكي قصة حب جميلة في حياته؟" وجدوا السؤال تافها ثم ساخرا في البداية، ثم ما لبث أن تحول إلى كارثة: لم يجد ثلاثة منهم سوى طرائف اعتقدوا للوهلة الأولى أنها قصص حب جميلة! أما أستاذ الفيزياء النظرية فظل يدافع على أن الحب كذبة، أسطورة من خلق كليات الآداب! "مسكين، عاش بئيسا وسيموت تافها، لن ترحمه ذراته غدا يوم القيامة!".

وهكذا أظلنا قلق عظيم لم تسعه المقهى: واحد متمسك بكذبة وأربعة عاضون على سراب! فقلت تعالوا نلعب لعبة، لعبة تفرج عنا الكرب: "تعالوا نختلق، نتخيل فقط أجمل قصص الحب، كل واحد منا يختلق واحدة ويرويها لنا!"، قال أستاذ الفيزياء النظرية: "أنا أترك هذه المهمة للأدباء!"، وكان أحدنا

روائيا والآخر يكتب الشعر، فاتفقنا على أن أدبنا، وكذلك سينمانا، ليس فيها قصة حب جميلة واحدة! فتدخل أستاذ الفلسفة محتجا: "مستحيل هذه جريمة... ما تقولون!"، وأصررت على أن نتخيله، أن نختلق: "يا عباد الله اتركوا الحرية لخيالكم ودعوه يؤلف لنا حكاية حب جميلة، ماذا تخسرون لو فعلتم؟" كل شيء؟ "ألهذه الدرجة وصلت أزمة الحب، درجة ألا نستطيع حتى تخيله؟ ياك يا الطبيبة لمزابية يا مولاة العلاقات الجميلة؟ أو ساكتة مع راسك، سايرة كتحلبي في الناس بالبلاصيبو!".

في بيت الصديقين اللذين اشتهرا بقصة حبهما، عادل وعائشة، ايام الدراسة في الجامعة، كنت أستمتع بالهندسة الرائعة للفيلا التي أتما بناءها منذ شهور قليلة: تحفة من تحف حي الرياض! المطبخ وحده يجعل هذه الفيلا جديرة بأن تصنف ضمن التراث العالمي للإنسانية: يا سلام على الذوق الرفيع! وفرجت بطبيعة الحال على الصالونين، البلدي والرومي، ونبهت لأني ضعيف البصر إلى ألوان الرخام والزخارف الجبصية والزليج المغربي الأصيل وأنواع الفيترينات الطلائعية الأشكال، إلى آخر ما في هذا البيت التحفة من تفنن وابتكار.

لقد لاحظت في إحدى الفيترينات وجود "صحيح البخاري" ونسخة من المصحف الكريم بين موسوعة للطبخ والعديد من كاسيط الفيديو، لكني اعتبرت ذلك أمرا حسنا ودليلا على ارتباط هذا البيت الغربي بأصوله المغربية الإسلامية.

أخذني صاحبي إلى "الكاف"، الجدران لم يكتمل طلاؤها بعد، ثلاث "بونجات"، تلفزيون صغير 14 أو 12، كؤوس قليلة وأواني قليلة فوق صندوق خشبي قديم من تلك التي تستعمل في نقل الخضر والفواكه: "أنت واحد منا، لن نجلسك في صالون، تعال!" أشار إلي بالجلوس على "بونجة"

زرقاء متآكلة، نصب القهوة على كمبنغاز، جلس قبالتي على "بونجة" صفراء، تناول التليكوماند وأخذنا ننتقل من قناة إلى أخرى، ومن موضوع إلى آخر: "الطقس هنا في الكاف بارد صيفا دافئ شتاء ونحن نطل بشكل أفضل على الحديقة!"، لم تكن هناك أية حديقة: أعشاب برية وتراب في كل مكان: "ليس أحب إلى نفسي من الحريكَة وقوقة احمار، أما بلعمان أخويا مختار!" دخلت عائشة.

"آه، كي ولات، شرفت مسكينة!" القهوة جاهزة، "لا، ماتعملش السكر! هاذ صاحبك راه احمق بالصح، الراجل يعمل لانسولين ويعمل السكر فالقهوة؟" ياك لاباس؟ "علاه ماف راسكش؟ قبضو السكر، غفلو، وانا من داك النهار وانا فالطانسيو!... كي جاتك الفيلا؟" الله يستر! "جيب الدراري عندنا يلعبوا فالجردة!" وأنا مزوج بعدا، وجدت لمرا؟ "تتعشى امعانا، ياك؟ صاحبك رابط واحد الفروج بلدي اعلى مزينو فالجردة!" لا، آسف "عندي شي شغل مهم!" انتهت المجاملة "إوى اعملت شي دار بعدا ولا مازال؟" دار ابحال هاذي؟ "اللا، ما عنديش لفلوس اديالها!"، الله يهديك ألاله عايشة، الله يحفظك واخلاص! "لفلوس، اعلاه احنا كان عندنا شي افلوس؟ البنك يعطيك اللي ابغيت، احنا اتسلفنا ثمانين مليون اعلى خمسة وعشرين عام!" آشنوا، ثمانين مليون على خمسة وعشرين عام؟ "والباقي دبرناه، كاين لمعلمين اللي كيصبروا شويه! غير ازعم أمحمد!"، اعلاش، على اخلا دار بويا؟ وانت غير أستاذة السلك الأول وهو مهندس تطبيق! "إوى، هاهي مرهونه، النفس الامارة بنت لحرام!" والله أسيدي غير إلا ما درت عليهم كلهم هاذ الصحاب اللي اشحال هذا ماشفتهم!...

"مرحبا بالسي محمد ولد السي علال، انهار كبير هذا!"، قادتني إلى "بيت لكَلاس" مباشرة: "ها صاحبك عاد جا يبارك لك الشقة، تاقدامت أو

حالت!" "جلابية هذي ابا سعيد، أمنين اشريتها من عند شي سعاي؟" فوطه امسخه، جلابيه امقطعة آش جيت نعمل؟ قصة حب جميلة؟ انت عندك شي عقل ولا ما عندكش أولد علال؟ "خاصكم غير شي مكتبه!"، "اف هاذ الشقة!" هل شتمتها؟ "وفين غادين انعملوها، ما شفتيش هاذ الضيق فاش احنا عايشين؟" آوه، مائة وثمانية متر مربع والضيق؟ "وها احنا، وها احنا فرضنا عندنا فين نعملوها أسيدي محمد باش نشرو لكتوب، تعرف اليوم اشحال كيدير لكتاب ديال التخصص؟"، صدقت، يا سعيد الصدق كله! "أستاذان باحثان يشتريان شقة بهذا الحجم وهذا الثمن ولا يجدان بما يشتريان الكتب ولا اين ينشآن مكتبة في البيت! صدقت يا سعيد، سعيد، أنت سعيد؟

الله أكبر! "هذه ليست بيبه يا دكتورة يالمزابية!"، ينبغي أن افلت بنفسي اللوامة!، "انوصلك للدار؟" يبحث عن مبرر للخروج! "اعلاه اشريت شي سيارة؟" هو اشترى نصيبه الكامل في "السماء" وأنت...؟ "واحد السيارة اصغيرة، بالحق اجديده!" الله يكمل بخير، واللي ارهن شويه اعلاش ما يرهن كل شي؟، "اللا، شكرا، أنا غادي غير اهنا قريب!" الحمد لله، الهواء منعش! "سيدي محمد؟" من عاود ثاني؟ "أبا المعطي، وليت عساس اف هاذ العمارة كي عاملين اماليها؟" غير اسكت! إوى اختصر أبا المعطي!، "جوج اللي من عشرين كيخلصوني، شوف غير الزكروم أو خوه شوف الله يلعنها خدمة، شوف كَول لصاحبك يخلص العساس اديال السيارات، يخلصو غير هو، أنا الله يسامح، شوف ويحرك هذا السيارة شي شوية، شوف راه ديك النهار جاوا البوليس ابغاوا يديوها، شوف وغير اتصبت أنا هنا، شوف كَلتهم ماشي مهجورة شوف كاين مولاها، شوف...! ".

وكلنا عليك الله يا دكتوره انت وهاذاك "ماكَريت" اديالك!...

شكرا على حسن إصغائكم!

- تسمح بملاحظة أخيرة، رجاء يا أستاذه لمفضل!
- أمري لله يا دكتورة المجاطي، تفضلي!
- أقترح على الدكتور محمد المختار أن يحذف من هذه القصة الجميلة...
- جميلة من غير أن تكون قصة حب؟
- عفوا دكتور، عفوا...أن تحذف القسم الأول كله وأن تبدأها مباشرة من "أحكي لكم كيف اصغيت إلى هذا السؤال "بداخلي..." مع إعادة صياغة طبعا، لهذه البداية...
- يا دكتوره ليلى، الوقت من فضلك!
- بسرعة، العنوان، أقترح عليك عنوانا: "الطيور لا ترهن حياتها من أجل أعشاشها"!
- أنا أرحب به واشكركم جزيل الشكر!
- شكرا لكم جميعا، أرفع الجلسة مادام قد حصل الاتفاق في النهاية بين ليلى ومحمد!
- يا ريت يا بني يحصل لكما اتفاق على المحبة والمعروف!

31

"لوبيبه" دائما "آجي أرشيد، سير جيب لي أوليدي الله يرضي عليك واحد لبلوك اديال لوراق واتعالى نملي عليك شي حاجة!"، "آش غادي تملي عليه عاود ثاني أعلال؟" "غير واحد الرسالة ألولدي محمد!".

"أعلال العن الشيطان، خلي عليك أولادك بالتوقار اووقر مرتك شوية، راها دمرت امعاك وكبرت اولادك، راحنا امثالنا خاصهم غير الجامع وانتظار لقبر!" "واتامالك آلدكالي، كبرت في ولدك؟"، "يا سيدي خوضو، عملوا معاك فالحالة المدنية!"، "أو ياك كنخلص إلا كتب لي شي حاجة، كتعطيه انت كَدي؟"، "أسيدي اطليه غير سدو امعاكم القهوة والله يعاونكم!"، "وفين غادي انت يا عدو الله، عند ديك العبدية لغليظة، عاود ثاني؟"، "اسكت، اسكت غادي تفضحني، غادي تفضحني مع ولدي الله يفضحك!"، "زيد آوليدي أرشيد زيد، ابرك... يالله اكتب!".

يخرج الدكالي وهو يحذر من نسيان القهوة مفتوحة ومن عدم جمع الكراسي وغسل الأرضية...

"بسم الله الرحمان الرحيم

من قارئ ومتتبع محب إلى الدكتور محمد مختار

وبعد،

لقد استمعت إلى محاضرتكم حول "هندسة البيوت والحب"، كما استمعت إلى قصتكم حول الرهن وأعجبت إعجابا كبيرا بكل ما جاء فيهما من أفكار ومشاعر أوافقكم تماما على أهميتها ونجاعتها، إلا أني أرى وأرجو

أن تسمحوا لي بهذا الرأي المتواضع، أنه كيفما كانت هندسة البيوت وخطورة الرهن يمكن أن يحصل شيء من الاتفاق على المحبة والمعروف، إذا ما توفرت لذلك بعض الطقوس، بعد الانتقاء والتفاهم على أسس سليمة، وهاكم رأيي: لنتساءل بادئ بدء عن الحياة الزوجية، ما هي الحياة الزوجية، الحياة المشتركة بين اثنين في المعيش اليومي؟ (آركَكْ شوي آعلال واتواضع راك كتكلم اف موضوع خطير، خطير بزاف! رد بالك أمولاي!...).

ليست الحياة الزوجية في مجملها يا سيدي الدكتور سوى مجموعة من الأفعال المشتركة الجزئية، الصغيرة، التافهة أحيانا، المملة والمتعبة من حين لآخر لكنها رابطة، مقربة لاحمة، وضرورية في كل حياة بين اثنين، في أية خصوصية ولو كانت فقط لا غير بين الفرد ونفسه: الكيفية التي نستيقظ بها معا كل صباح، الحركات الأولى، الكلمات الأولى، الإشارات التي ترتسم على وجوهنا، إراديا أو لا إراديا، وضعنا في السرير، الكيفية التي نخرج بها من السرير أو نبقى بها فيه، الطريقة التي، وكذلك الوقت، نعد بها القهوة أو الشاي، ونتناولها بواسطتها لون وشكل الكوب أو الكأس، ترتيب لوازم الفطور في الصينية او في أي مكان، المكان الذي نجلس فيه للفطور، الوقت الذي ندخل فيه إلى الحمام والمدة التي نقضيها فيه، حركاتنا وأصواتنا في الحمام، خلعنا لثياب البيت واختيارنا، ولبسنا لثياب العمل وما يصحبهما من إيماءات وأصوات، من تردد أو انتقاد أو طلب للنجدة، خروجنا معا أو متفرقين للعمل، انتظارنا في العمل لحركات مماثلة أو مختلفة وقت الغذاء والقيلولة، تقسيم العمل داخل البيت، العودة إلى الشغل من جديد، تفكيرنا المطمئن او الخائف فيما يفعله شريكنا آنذاك، انتظارنا لطقوس المساء والعشاء والسهرة والنوم، كل ما نفعله أثناء فترة النوم...

هذه الحياة المشتركة اليومية، ما يقربنا من بعضنا، ما يربينا مع بعض،

ما يجعلنا نتحمل بعضنا البعض، ما يجعل الآخر ضروريا، موجودا، وبدون هذه الطقوس ليس هناك حياة مشتركة إما بسبب الاختلاف المطلق في المزاج وإما بسبب عدم توفر الحافز وإما لأننا خلقنا حياة مشتركة بديلة في السر أو العلن على هامش الأولى!

وإذا ما توفرت هذه الطقوس وتقوت فإن بإمكانها أن تعوض الحب ذاته إذ تكتسي الألفة بفضلها طابع المعروف والمودة وأكثر من ذلك فإن المشاريع الكبرى، أي كل ما يتعلق بما أسمته حضرتكم "الرهن"، تصبح روابط إضافية أو مكملة، لكنها ليست ضرورية ضرورة هذه الطقوس مادام يمكن الاستغناء عنها في كثير من الأحوال، فالرهن يصبح قاتلا إذا لم تسبقه أو تصحبه تلك الطقوس الضرورية، أو لا ترى يا دكتور أن هذه الطقوس هي كل شيء في الكثير من الزيجات خاصة التقليدية؟

إن الطقس كما لا يخفى على كريم علمكم، ضابط الإيقاع والسلوك هو الذي يقنن حركتنا ونزواتنا واندفاعاتنا الأصلية، الأنانية والتمركز حول الذات، الفوضوية واللامبالاة، بمعنى أنه هو الذي يخلق النظام، يضبط كل ما يضمن الاستمرار، كل ما يتطلب الوقت والصبر، الانخراط في أي عمل جماعي بل فردي، ناهيك عن الزواج فهو يحتاج إلى الوقت وإلى دوافع، لكنه بمجرد ما يتحول إلى نظام من الطقوس يصبح أسهل، عاديا ضروريا.

ولا داعي إلى أن أثير انتباهكم بهذا الصدد إلى حالات يتحقق فيها الطقس في أبهى حلله الإلزامية كالرقص والغناء والرياضات الجماعية والتكوين العسكري، هل يمكن أن نتصور شيئا من هذا بدون طقوس، جمالا وسعادة في هذه الأمور بدون تلك الطقوس الناظمة؟

نحتاج إلى "القصوف" من حين لآخر، أكيد، متواطئين، لنعود أكثر استعدادا إلى طقوسنا الجميلة، الصغيرة، المطمئنة، الأليفة، سبب متعتنا

المشتركة بالرغم مما قد تخلقه من شقاء عابر!

ولكن حذار من خرق الطقس خارج معيار التواطؤ، فإن المؤسسة لا تتردد في القصاص، فقد تحدث القيامة إذا تأخر أحدنا عن موعد الأكل أو الرجوع إلى البيت في وقته أو استغلال الاحمام أكثر من غيره إذا هو نسي أن يشرب كوب الماء أو العصير الذي ألفه في أوان محدد، إذا بدت شهيته إلى الاكل غير اعتيادية، إذا لم يغسل يديه قبل الأكل أو بعده، إذا تأخر في النوم، إذا جلس في مكان غيره أو توسع في موضع على حساب الغير؛ حول المائدة مثلا، وقد يحدث الواحد منا أزمة حقيقية في البيت كله إذا هو نسي أن يقول "صباح الخير" أو "مساءه" في الوقت المناسب وبالكلمات والإيقاع الضروري لأنه لم ينتظر الآخرين بلا سبب مقنع، فأكل قبلهم وغسل يديه، لأنه مريض أو متعب او حزين، أو لأن لا أحد قال له "كيف حالك؟"، لأنه استولى على أكبر قدر من المكان من الغطاء في السرير المشترك، لأنه تعود على فعل شيء دائما "فنسي" مرة واحدة في الحياة، أن يفعله (تقديم هدية أو الخروج إلى نزهة، الخ...)...

من مثل هذه الأشياء الصغيرة، البسيطة أو التافهة في أغلب الأحيان، تتالف حياتنا الزوجية، أي حياة خاصة، حتى حياة العزاب، وبفضلها تنشأ الألفة والمودة، النظام، الإيقاع، الجمال: ما أجملها هذه الطقوس الصغيرة وأعظم متعتنا منها!

وهذه يا سيدي في نظري المتواضع، هي مصدر عذابنا، سبب الشقاء الكبير في حالات الطلاق أو الدخول إلى عالم الزواج في البداية، وفي حالة حدوث أي تغيير في حياتنا، أي طارئ؛ كالمرض أو الموت أو قدوم مولود جديد أو حلول ضيف!

إن الحفاظ على هذه الطقوس هو الذي يدعو إلى طلب الرهن أو

بحسب الحالات إلى رفضه رفضا تاما، ولكم واسع النظر، سيدنا الدكتور.

صافي، وقع أرشيد... آش اعملت؟ الاسم الكامل... باللاتي... ماتعملش اسمي انا... بدل الورقة واكتب أولدي الله يرضي عليك: عزان رشيد... هاك، هالغلاف، اكتب: الدكتور محمد مختار المحترم، شارع القبيبات، عمارة باب تامسنة، شقة 15 – الرباط العامرة... صافي؟ اعطيني... لا، اعمل هذا الشي اللي اكتبت اف لغلاف، لصق، دير الدفال، مالك؟ أرى تشوف... هاك، اليوم غادي نعطيك خمسين درهم! شوف، آه، اغسل القهوة مزيان، اجمع لكراسي، وسد مزيان بالقفل، الدكالي غادي ويوصي، وكن رجل عافي ولدي... آه العشرة ونص، ما ابقى نادي هاذ الليلة! اجمع راسك، أرشيد!

"ماذا أردت ان أقول لمحمد ابني؟ أني أعلم منه؟ قد يكون! أنكم طردتموني خارج طقوسكم في البيت؟ ولم لا أقول ذلك لابني؟ بيني وبينكم كل هذه الطقوس، أي الوحدانية؟ لست أدري!".

32

باب لعلو "الله يخرج هاذ الليلة بخير!"، ساحة الشهداء "الله يرحمنا جميعا بدون استثناء، اللهم اغفر لنا يا رب يا رحيم!"، المجلس الدستوري "اللي فرط كرط، أعلاه الوقت يتسنى شي واحد!"، المقبرة تبدو وكأنها اقتربت أكثر، أكلت جزءا من ساحة الشهداء، "ليت للبراق عينا..."، شارع المقاومة "كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة، العمر كله! ما أطوله!"، الظلمة حالكة، قارسة، "ما ابغات تنزل ما بغات تسخن... الوقت!"، يفكر في البيت، في الفراش، في الغطاء، في التدفئة "ما كاينش اللي يسخن احسن من ابنادم، من الألفة والمحبة، من الحب، إيه... إيه مالك حشمان؟ اعلاه الحب يتأجل؟ إوى أجل الحياة، أسيدي، كَولهم ينتظروك تا ترجع، تاتفيق اعلى خاطرك! أجل الخدمة، أجل الموت تاهو، وقتما فقت وابغيت!".

مالك، ماذا أصابك، كيف وصلت إلى هذا الحد من الوحدانية، من الجنون، خرف السن؟ "يمكن أعلال عندك عقدة الخميلاء!"، "وما هي هذه العقدة يا علي الرماني؟"، "عقدة الخميلاء؟ هناك أناس يتأخر عنهم الموت، بمعنى ما، فيبدأون في التهام أنفسهم بلا شفقة ولا رحمة، يتركون "الخملة" تتراكم عليهم، تقضمهم، تخنقهم!"، "عقدة الخميلاء أو عقدة المدار؟"، "يعني، هما وجهان لشيء واحد، في عقدة المدار نسد دورة العمر بالاستبطان أو الحث، الحث في صورته الكهربائية أو المغناطيسية، نضع حواجز خارجية من الألفة والتعود من روابط البنوة والأبوة، من وشائج الزواج وعلاقات المحبة من الحياة الاجتماعية ذاتها!"، "لم افهم جيدا ياعلي!"، "يمكنك أن تتصور شخصا في ملتقى طرق يعج بالسيارات؟"، "يمكن طبعا!"، "ممكن،

طبعا! فانظر جيدا إلى هذا الشخص يا علال، إنه تائه في مكانه، ظل لا يدرك ما حوله، كل هذه الفوضى التي تسكن دماغه وتجري من حوله لا يدركها فيستمر واقفا، أو جالسا وسط الملتقى، هذه هي عقدة المدار، وجه من وجوهها!"، "هذه عقدة الحاج قزازه، هل تعرفه؟"، "أذكره، حشرة تشبه الجرادة حجما وشكلا لكنها خضراء، كنا ونحن صغار نسألها عن طريق الحج فتدلنا عليه، أذكره، تقتل ذكرها عندما تقضي وطردها منه! لكنك تسألها عن طريق الحج فتدلك عليه!"، "هذه مجرد إشاعة، لا صحة لها من الناحية العلمية والموضوعية؟"، "أنا، يا أخي علال أفكر في السن، في عامل السن، يبدو أنه حتى الكلاب وحيوانات أخرى عندما تشيخ تتبول أو تتبرزعلى ذاتها، تاكل برازها وتزهد في العلاقات مع المحيط، تعيش مع المحيط، تعيش نوعا من النكوص نحو المراهقة أو الطفولة الأولى، إنها عقدة التراب، الخوف من التراب!"، "التوجس من المغادرة، باب المغامرة!"، ربما، لكن على كل حال المرء مدعو إلى أن يغادر وحده، أعزل، أن يواجه المجهول وحده، أن يأخذ نفسه بيده ويدخلها في حفرة عرضها شبر واحد، هل فكرت مرة، ولو مرة واحدة، في هذا الضيق، وفي الرطوبة؟ "ويأتي علينا حين من الدهر فتدوسنا الحيوانات والآلات، يدوسنا البشر، نغطى بنبات أو حجر: كان رحمه الله..." أو: هنا يرقد علال مختار! "أنا عندما أفكر في ذلك، وقد فكرت فيه مرات عديدة، أشعر بالتقزز والرعب من الدود، أنا يأكلني الدود؟" الأمر منه النسيان، بالتدريج تستمر الحياة بعدنا وكأننا لم نمر منها، لا يتذكرنا أهلنا إلا خوفا أو لحاجة يقضونها بذكرنا! "المرحوم واحد النهار كان كَالس تم فين كَالس انت دابا وكَالس ساكت تاتكلم وكَال لي اللي جا من لولاد فيه البركة، اللي كان وخا غير درهم ولا فولار!".

الحياة تعود لكن الإقلاع عن العادة عسير، لذلك نتمنى كلنا موتا مفاجئا بلا ألم ولا طول احتضار: "الله يدينا قالضو، يقدد لعمر مع لبصر، لهلا يفضحنا ولا يعذبنا ويعذب أولادنا معانا، يا رب!" والدود، والضيق،

والرطوبة؟ كيف نودع، كيف نقطع حبل العادة والألفة؟ "بالإكثار من الصوم والصلاة!" مهم لكن، لم نظل خائفين؟ "رحمة الله واسعة يا علي!"، حل وحيد "ماهو؟" "تكف عن حب أنفسنا! ونصبح مثل تلك الكلاب؟" لا، لم لا نحب ذوينا، العالم من حولنا؟ "لأنهم يتعبون، يتمنون في أعماقهم أن نرحل ونتركهم يعيشون حياتهم في أمان" بلا كدر! "عندما ننهي مهامنا البيولوجية والاجتماعية ينبغي ان نرحل!" متى بالضبط؟ "أنا بعد مائة وأربعين سنة إن شاء الله!" ولكن، كيف لا تفكر في الرحيل، كيف تستعد في هدوء؟ "نقطع دابر المودة!"، يالطيف أليس هناك أي حل آخر؟ "نتزوج من جديد ونبدأ مهامنا من الأول!" من يضمن لنا أننا لن نرتكب حماقة عندما يشتد بنا الخوف وعدم الاطمئنان: انتحار، خمر، قتل، حادثة سير، تطليق، انهيار عصبي، سكتة قلبية، مستشفى المجانين، الخ..."اسمع يا علي عندما تقول إن لا أحد يحبني فأنت تريد أن تقول لا أحب أحدا أو لم أعد أحب أحدا ولا شيئا، إنني أودع، أنتظر قطار الدود!" في انتظار ذلك تبدأ بالسهل: لا أحد في البيت ولا في النادي يحبني حقا، والمنافقون منا لن يصلوا أبدا إلى صيغة إنني لم أعد أحب نفسي، يظلون على عكسنا، نحن المخدوعين، يغدقون صور الحب من حولهم ليتلقوا في مقابلها أضعافا مضاعفة من الهدايا، من هدايا المحبة، من العناية، لكن كل تلك الصور وكل هذه الهدايا من ثلج، لن يقدروا على القول إنهم خائفون، قلقون، لا يريدون أن يرحلوا، مساكين لن تترك النفس الأمارة ولا اللوامة أختها المطمئنة تطمئن! "لن تدعهم الفتنة يملأون قلوبهم بالله"، "لذلك نجد أنفسنا في عمق كل هذه الوحدانية!" الدود، البرودة، الظلمة، الضيق، العراء، العزلة، لاشيء في لانهائية العالم! "لقد نسيت صلاة العشاء، أصلي في ساحة روسيا!" العودة على البدء: نكره كل ما أحببناه في يوم ما، نهد كل ما بنينا، نتخلص من كل ارتباطنا به، نرحل من أنفسنا لنبدأ كل شيء "من جديد" لأننا نعرف أننا لن نعود، لن يكون بإمكاننا أن نختار مرة أخرى، أن نرتبط أو نبني! "العن الشيطان، ياعلي واتركني أصلي!".

33

زنقة مالي "تجري الأمور كما لو كنا نعبث تحمل نفسك ذات يوم وتقول لزوجتك وأولادك: "سأتزوج اليوم!" وترحل، كأن لاشيء كان من قبل، تهرب من نصف حياتك! "هيا إلى مكان آخر، إلى القبر، لكنك لن تفعل ذلك بدون أن تقطع حبال قلبك وصوتك!"، "قالت لي فدوى بنتك، إن والدي كان ينبغي أن يكون فنانا كبيرا، ممثلا مثلا أو باحثا عالما، لكنه أخطا الطريق إلى الإبداع، لم يحاول فأضاف إحباطا إلى إحباطاته الأخرى، فأصبح رجلا شقيا، أعمى وأصم عن محبتنا له، أبكم فيما يخص محبته لنا، فهل تفهم لماذا يوهم نفسه بأن أمي هي عدوه الأول؟ تعرف السلوك العدواني للحيوانات التي تتربى بعيدا عن أمهاتها؟ تعرف سلوك النمرات لدى النساء العجائز اللائي يعشن وحدهن طويلا؟ "الوحدانية!" أولادنا قد يظنون أننا خلقنا بأسنان من جوهر ثمين، نحن خلقنا عاضين على الصلصال وبلا أسنان، واحيانا يظنون أننا ربينا في ارقى الأحياء الأوروبية، تعلمنا من آبائنا كل شيء، كيف نتلقى الحب ونعبر عنه، نحن رمينا في الخلاء رميا، لقد ربينا أنفسنا بأنفسنا، وعندما نقارن وضعنا بوضعهم نشعر بالغيرة، نحس بالغضب لأننا لا نفهم لماذا ومماذا يشتكون مقارنة معنا، وكثيرا ما يغمرنا الشعور بأنهم ينبغي ان يشكرونا وأن يفتخروا بنا، بدل هذا"... قال أحد أبناء مصطفى لأبيه: "أنت حمار، مغفل وحقير، لماذا ولدتنا، جنيت علينا، أيها المجرم، وهذه الثقافة التي اكتسبت، هذي ثقافة؟ شوف أولاد الناس اللي قراوا والديهم بالصح او فهموا

الدنيا كي ما شيه، شفت اسيدي اولاد البرقوقي، أو امراة البرقوقي أو فيلة البرقوقي، وعز البرقوقي؟ ينعل!" عندو الحق ولدك أمصطفى: يدل الفضيلة والعمل النظيف يريدك ان تصبح تاجر حشيش! ألا يدفع بعض الأولاد أمهاتهم، وأخواتهم، إلى أن يصبحن بائعات لذة أو خادمات محتقرات في بعض البيوت، ألم يرتش كثير من الرجال بسبب ضغوط أولادهم أو زوجاتهم، ألا تعرف عدد العائلات الكثيرات العدد حيث تعمل الأم والبنات بينما الأب والأبناء يلوكون الوقت؟ أو مالهم، أسيدي، مالهم هما ماعندهم نفس؟ واشوف كيفاش انقلبت شي مسائل اف هاذ الدنيا!"، "والدي، يقول ابنك سمير، رجل عجيب، مثقف سري، محبط بكل تأكيد، لكنه بطريقته الخاصة، شخصية قوية، ولقد عرف أشياء كثيرة؛ قرأ، فكر، ناقش، وتأمل، ذو ذوق رفيع، مغرم بالموسيقى والشعر والفلسفة، هناك مجالات يعرفها أحسن من بعض الاختصاصيين، لكنه أهمل ربما تمشيا مع عقلية جيله، ربما بسبب أصوله البدوية، وربما بسبب الهلع العام، أهمل أمرا حيويا: لم يعرف نفسه معرفة كافية، خاصة مزاجه الذي أصبح حادا جدا. ولهذا السبب ذاته لم يعرفنا نحن معرفة جيدة، أقصد أولاده وزوجته!" "ولماذا تضعونها هي في كفة معكم وتضعونني وحدي؟ ولماذا التهمتموها وتركتموني وحدي؟ ولماذا لا تقولون لي كلمة واحدة طيبة، وتريدون أن أقول وحدي، أتبقون اطفالا وأكبر وحدي؟ ها أنا أكبر وحدي، وحداني كما خلقت في سيدي العيدي!" لكنك تبالغ أعلال تبالغ جدا، والله! هذا الإحباط الذي يأكلك من الخارج، مما سماه ابنك سمير بالهلع العام، إضافة إلى هلعك الشخصي، هلعك التقليدي أو الوراثي، القبلي، فلم تصر على أن تجعل بيتك مسؤلا عنه، لم لا تستطيع أن تلاحظ أنك تقوم بتحويل أصله ومجراه على غرار أغلب الرجال فتجعل من زوجتك وأولادك جلادين وهم كما تعلم مجرد ضحايا مثلك؟، "والله يا أخي، يا علي

الرماني، كم قلت ذلك لنفسي وعاتبتها عليه لما كانوا صغارا وكانت أمهم دائخة وسطهم! غير أنهم قد كبروا، نضجوا، أصبحوا رجالا أو نساء، فلم لا يعطفون علي، لم لا يغدقون علي شيئا من الكلام الطيب، لم لا ينصحون أمهم بأن تقترب مني أكثر، بأن تحاول فهمي أفضل، لم يظلون ينتظرون مني ما أصبحت أنتظر منهم بدون جدوى، أليسوا قبيلة كاملة والحمد لله، بينما أنا وحدي، كيف أظل أحمل قبيلة وحدي، ألا ترحمني هذه القبائل التي تنتظر كل شيء مني وحدي؟ هل يعتقدون أننا لا نضعف ولا نتعب، لا نحتاج إلى سند ونحن في هذه السن التي تهرب بنا إلى أسوأ مراحل الطفولة؟ مزاجي حاد، عدواني؟ لأني أفسدته في كثرة العمل وشدة التفكير في مصالحهم، في مواجهة بوكَرن الذي يسميه سمير الهلع، عاما أو خاصا، هل يعتقدون أنهم كانوا سيكونون على ما هم عليه الآن لولا أني قتلت نفسي في التفكير فيهم، تعليما وصحة وغذاء، وضحيت بالكثير من الملذات والمسرات، اخترت من أجلهم ومن أجل نفسي، لاشك، الطريق الصعب لأترك لهم اسما يشرفهم اجتماعيا، يقويهم، سمحت لهم في حقي في أمهم فأضافوه إلى حقهم فيها، وها أنا أسيدي علال أستعد للرحيل من الدنيا كما جئت إليها: عاضا على الصلصال وبلا أسنان، بلا سند!"، هم يقولون أنك تعاني من السوداوية، أنك لا ترى محبتهم لك وتعمى عن افتخارهم بك، زوجتك نفسها تزعم أنها تركتك على هواك، تفعل ما تشاء احتراما لك ورأفة بحالك، هي لا تكف عن ذكرك بخير امام اولادك، ونهي أبناءك عن ان يقولوا كلمة "عيب" في حقك ولو كانت كلمة حق، ثم إنهم يقولون إنك تسيء إلى سمعتك وسمعتهم بالاستمرار في شرب الخمر إضافة إلى قيامك ببعض الحماقات التي لا تناسب سنك ولا وضعك، يتمنون لو تتفرغ للصلاة والقراءة، لو تلتزم بوصفات الطبيب، خاصة الريجيم!" تقصد أنهم يريدون قتلي، دفني حيا، لن يكون لهم، لها، هذا:

لن أسكن لهم في السرير لكي يشفقوا علي! ولاحظ: إنهم يريدون مني، مني، أنا وحدي، ولم لا يقولون لي ذلك، لا يفعلون من أجلي بعضا مما يطلبون مني: أظل كل عمري محل تلقي وتلبية حاجاتهم أنا وحدي؟" يا علال، إنهم يشتكون من أنك لا تتحمل مناقشتهم لك، تتلقى نصائحهم بازدراء، تثور إذا أبدوا نحوك شعورا طيبا، إذا طلبوا منك أن تحترم أوقات الأكل لينعموا بحضوورك معهم، وتهز كتفيك إذا التمسوا منك أن تستقبل معهم ضيفا أو تصحبهم في زيارة أو نزهة أو قضاء حاج، إنك ترفض أن تخرج من وحدانيتك، فماذا تريد منهم أن يحبسوك، أن يحجروا عليك، أن يرغموك على الدخول إلى مستشفى؟ وهاأنت، أنظر إلى نفسك، ها انت مبلل، بارد، ترتعش في هذا الليل القارس الحالك، لكنك تصر على أن تبقى خارج البيت، تتسكع كالمتشرد، ها أنت، ماذا بإمكانهم أن يفعلوا من أجلك من غير أن يسيئوا إليك؟، "الحبس؟ الحجر؟ المستشفى؟ الشمس أقرب إليهم من كل هذا، من الإساءة إلي، وأية إساءة أكبر من عدم احترام وحب رجل في مثل سني، رجل قضى جل حياته في انتظار هذه اللحظة، لحظة أن ينعم بأولاده في هذه السن وأن يسكن إلى أم أولاده؟ اللي اعطا الله اعطاه، سيرون نتيجة هذا الهلع، أما البرد فلا تهتم، إن دمي اسخن من دم الخنزير، وبالله عليك قل لي: كيف تعود إلى شبكة طقوس خرجت او أخرجت منها؟"، عندنا في المغرب كاتب يحب ان يتكلم من حين لآخر عن الكلاب وهو يقول على لسان إحدى شخصياته وهي تصف شخصية أخرى: ما أتعسه لقد شاخ كما يشيخ الكلب! "او ما يشخش الكلب؟".

34

شارع تمارة "ليتني أستطيع العودة إلى قريتنا للعيش هناك لا أنت هنا ولا أنت هناك!" هل تذكر يوم حصولك على الشهادة أعلال؟ الشهادة الابتدائية وهل معك غيرها، غير المهنية، يا علال؟ "لا، كانت دكتوراه أبناء ضعاف الحال، الأسر التي لم تكن لديها تقاليد علمية أو إدارية" مدرسة بعيد الاستقلال وقبيله؟ "كان الفرنسيون يريدون أن يصنعوا من كل واحد منا سنغور، وكان المغاربة يريدون أن يجعلوا من كل طفل ابن تومرت، الكتب والدفاتر والأقلام والحبر والمطاعم بالمجان، وحين تتفوق وتكون عندك الإرادة قد تجد نفسك في رمشة عين في باريز أو القاهرة، من الحي أو الدوار مباشرة إلى الإدارة أو الزعامة!"، دعنا من البكاء على الفوضى التي أصابت تراتبية القيم في هذا الوقت العصيب، هل تذكر يوم حصولك على تلك الشهادة؟ "المقدم عباس هو الذي جاء بالخبر من سطات، فاجتمع من حوله أهل الدوار وكأنهم تلقوا نبأ استقلال المغرب!" كنت الناجح والوحيد في تلك المنطقة ؟ "تقاطر الجيران والأهل والأحباب من كل مكان على براكتنا مهنئين غابطين أو حامدين، محملين بمختلف الهدايا: السكر، الزيت، الدقيق، البيض، الدجاج، الزبدة، العسل... حتى امتلأ الكوخ، وضاق بكل تلك الهدايا: ولد البسير غادي يخدم مع الحاكم، شد الشهادة!" وفي كل يوم، طيلة أكثر من أسبوع، تأتي الوفود خاصة النساء، محملة مهنئة، فتتعالى الزغاريد والأصوات بالغناء والأرجل ترقص والأيدي تضرب على التعاريج

والصينيات والبنادر؟ "يسخن الطرح فتحمل الوالدة الله يرحمها على البستيلية وتشرع في دكها دكا بينما تلتف حولها فتيات ونساء يركزن باردة باردة واللي ما حماها تقطع يدو!" من أين كانت الوالدة المسكينة، الهادئة عادة، شبه المريضة على الدوام، تأتي بكل هذه القوة على الشطح؟ وأولئك النسوة المحصنات، العفيفات، الجادات فوق طاقتهن، العاملات كل الوقت، كيف يستطعن أن يتحولن إلى لبوءات كاسرات عندما يبلغ "الهيت" أعلى درجاته؟ "ولدك أنا نركبو- يعطيه الحمى تركَدو! راجلك جاب الضرة! زائدة انعاونها تريشو! - مرتك هزها الحـــال! - حيث صاحبها فالدوار؟"، من الصعب آنـــذاك توقع سلوك امرأة عندما "يدوي" بندير أو تعريجة أو سنتير أو "تتكلم" غيطة أو "قصبة"! "كانت إحدى خالاتي تقول لأمي وهي تدور وتدك البستيلية: شطحي، شطحي ياللميمة شطحي، أيام الفرحة قليلة والزمان غدار، فرغي جوفك وربي جبار، شطحي!" وماذا فعلت أنت؟ "أصبت بالهلع، هربت إلى النوالة، دخلت بين حصيره وتليس وأنا أردد: المرأة أخطر، أقوى من الرجل، أعنف!".

"بقيت الأرض تهتز من حولي، وكذلك السماء، والله يا أخي يا علي لكانت لبهايم، الدجاج ولحمير، حتى لمعيزه الشارفة، تشطح تاهي مع لعيالات، غير لكلاب اللي هزبت من الدوار تاسلا الشطيح!" وأنت بين الحصيرة والتليس فالنوالة؟ "خائفا من النساء، من تبدل أحوالهن المفاجئ، العنيف!" لكنك كنت على علم بذلك من قبل؟ "تماما" غير أني كنت دائما أصاب بالرعب، وكيف لا، امرأة هادئة، خجول، صبور، صامتة تثور فجأة، تتبدل حالها، تشطح كالمجنونة، تندب موتاها بالقرشال، تضرب نفسها بسوط، تنتف شعرها كله، تفلت من يدي رجل فلا يعود ينفع معها ضرب، ولا تعاويذ ولا وسطاء، تهجر أولادها أو تتعلق برجل غريب، تخرج من البيت إلى

أقاصي الدنيا، تلزم ضريحا أو مزارا أو شجرة أو صخرة فلا تنجح أية قوة في زحزحتها من مكانها، تنفر من شيء فلا راد لها، كثيرا ما تصبح النساء آنذاك كالماء، دوز عالقرقوري لا تدوز على السكوتي!" وهذا ما فعلته أمك مع الأسف؟ "كنت قد حصلت على عمل في أول عهدي بالإدارة في الدار البيضاء، قبل أن يموت الوالد بسنتين، جاءني وهو في أقسى شقائه "أمك هربت علي! "ولم نسمع عنها خبرا إلى الآن، خالتي فاطنة قالت ماتت قبل عشر سنوات تقريبا في آسفي! إوى مااللي امك تعمل هاذ لعجب كيفاش ما انخافش من النسا؟" وزوجتك لم تفعل شيئا من هذا على ما يبدو؟ "زوجتي التجأت إلى تاكتيك انقلابي أعنف: حرمتني من كبدي ونصبتهم أعداء ضدي!"، ألا يمكن أن يكون هذا الوسواس من الطفولة مثلا، أقول مثلا فقط؟ "واش الشيطان دري أعلي، أنا عمري ما نقدر انتيق اف شي امرا، أنا مجربهم، عارفهم من صغري!" واهذا علاش... "خلينا من القراية الخاوية!" أعلال قد نجني في نهاية الأمر، ثمرة ما نخاف منه، لا، من باب القدر الأعمى، وربما لأننا نعتبر موضوع خوفنا أمرا حتمي الوقوع فنعمل من حيث لا ندري على وقوعه، نحن الذين نزرعه ونتعهده ونحصده! "آعلي، خليني عليك من كثرة لقراية، واش لمرا قضات بي الغرض، درت ليها لولاد، قريتهم وكبرتهم وفي الآخر ارماتني وكحلت كَلوبهم علي، وانت ساير اتكَولي أنا خواف، وأنا اللي اعملت هذا الشي كلوا! واش عندك شي اعقل ولا تا انت خرجت اعليك لمرا؟" ومع ذلك، مع ذلك أعلال! ومع ذلك آش؟ اتفرق معايا أخويا ، أنا امزاوكة فيك، ها العار ! مع ذلك، كالك ! الوالد اعمل اعلاش باع لمعيزة الشارفة على شيخة... وأنا مالي، آش اعملت، ياك تامدام لوبيز مسكينة رجعتها رابعه العدوية؟".

قهوة موريطانيا "جلول السبسي، باقي حي؟ الله يخرج العاقبة بخير" لماذا يكرهه؟ "قيس بن الملوح في هذا الزمان؟ الله يستر!" إنه يغيظه إذن؟ "على كل حال أنا كنت مشغولا بما هو أهم، هي التي كان عليها أن ترعاني مثلما رعت أبناءها أو أكثر، ولنفرض أنني جننت وهو أمر مستحيل، أو أصبت بمرض خبيث، أبهذا الشكل كانت سترعاني؟" ولو حدث لها هي ما تفرضه أعلال ماذا كنت ستفعل بصدق؟ "واش مابغيش تبعد مني هذا الليلة أعلي؟" هي على الأقل احتضنت أولادها ورعتهم، أما أنت فكنت ستتزوج من جديد، وبلا تردد، أليس كذلك؟ "أنا، أتزوج، أنا عدو المرأة أتزوج؟"، ولم لا، على الأقل لتعذبها كما عذبت أم أولادك، تنتقم لأبيك أو لجدك... للقبيلة، ألست الابن البار للقبيلة؟ "أنا، أنا وحيد يا أخي، وحيد أبواي الله يرحمهما، كنت دائما وحيدا، لم يكن لي من رفيق سوى لمعيزة الشارفة والكلب الأعرج الميراص، وفي المدرسة كنت وحدي، لا أحد يقترب مني إلا ليسخر أو يمتحن قوة عضلاتي، واالدي كان يقضي ثلثي اليوم في العمل بالحقول، أمي كانت دائما تبكي، تنوح، تعيط ولا تهتم بي، تضربني إذا اقتربت منها، تعيرني بوالدي، أنا أتزوج بامرأة أخرى غير هذه؟ ماذا أصاب عقلك يا علي الرماني؟ سير بعد مني، دخلت اعليك بالله!"، ليس قبل أن تقول لي ما فعلته خلال أكثر من عشر سنوات وأنت تتهيأ كل ليلة لامتحانات الترقية الداخلية! "وها ذاك هو المهم ألحمق، أو كنيت تفضل أن أبقى في السلم الذي بدأت فيه، وهل تعتقد أني كنت سأحقق للأولاد ما حققت لهم من إمكانات مادية؟" غير أنك زرعت الإرهاب في البيت كله، كنت قد احتللت غرفة على حساب الجميع لتجعل منها مكتبك الخاص، أليس كذلك؟ "وكنت تريد مني أن أذاكر

في المرحاض؟" لا، طبعا، إنما كنت قد منعت اللعب في البيت، منعت الضجيج، منعت الحركة، أية حركة، بحجة أنك تريد الهدوء التام والتفرغ الكامل للمذاكرة، هل تستطيع أن تنفي؟ "ماذا أنفي، الضرورة؟"، وهكذا اعتزلتهم وفرضت عليهم أن يتكدسوا في غرفة واحدة بابها مغلقة عليهم على الدوام، هكذا لم يعودوا يحتملونك! "كنت أبني مستقبلهم، ألا تفهم؟" أفهم كل شيء، هذا ما تسميه "الأهم"؟ "من منظور تلك المرحلة بسبب ضرواتها آنذاك!" الضرورة كانت تقتضي أشياء أعدل ألا تتزوج في تلك السن مثلا، لو تزوجت وانت في تلك السن، كنت ستكون من يقدر الأمر بنفسه؟"، هناك دائما جانب من التقدير، من المسؤولية! "لم نكن سوى أدوات فقط لا غير!" أعلال اعترف! "باش غادي نعترف بأني ارتكبت اخطاء ارتكبها كل أفراد جيلي ومازال أفراد من أجيال أخرى يرتكبونها؟ باش اسيدي؟" فلم تحاسب زوجتك على شيء لا يختلف عن هذا، لم؟ ولم تحاسب أولادك كل هذا الحساب، لماذا؟ "لأن، لأن... واش عرفني؟ أسيدي بعد مني!... آجي يا مبارك... هاك... اتخلص اف هذ الموندا... اعطيني بياسات اديال الدراهم...ما شفتيش وهميه آمبارك؟" اشكوك هذا اعلال، زبون اديالنا؟ "لا، واحد السيد جاي عندي من اليونان، ماجاش شي واحد سول علي هذا النهار؟" جا الفكاك ما سولش، لا اعليك لا على تاواحد، اشرب قهوة كحلة وامشي! "وفين امشي؟" أسيدي، اسمعتو كيسول على الحاقلة اديال اغادير! "صافي اخوى لبلاد؟" شفت كيفاش ابنيت هذ الوحدانية امع راسك؟ "أعلي آش باغي عندي هذ الليلة، باغي تحمقني، ما تبعدش مني لوجه الله؟" نوض، سير تعمل هذاك التلفون اللي من الصبح وانت تفكر فيه! "آش من تلفون أعلي؟" أسيدي غير نوض، مالك؟ ابحال إلا خايف ولا حشمان! تعالى، اتبعني، ارمي لفلوس... إوى اتكلم، اتكلم مالك زَيْزنَتْ؟... اتكلم، زيد لفلوس واتكلم، اخلاص! هاغايه... وها وهميه!

- سيدة جميلة؟

36

- علي الرماني!
- ....

كيف عرفت؟ من أخبرها؟ كانت تستمع إلى برنامج "لا تخق من مشاكلم فهي غذاؤك"؟ أين؟ مستحيل! "شوف أولدي، اسمعني وحل وذنيك مزيان: أنا بوكم راني حافظها كيف الماء نقدر نسمع صوتو من اهنا، من القبيبات وهو اف حسان، تقدروا تعملوه وسط ميه اديال الناس، اتغمضولي العينين وتسدولي الوذنين وانكَولكم هاهو، هاالخطية هابولفعايل، ها المصيبة، ها سعدي لمدفكَ وميموني لعوج، ها العافية، هالشوك اللي حطيت فيه راسي وأنا باقيه رمانه وامغمضة، ها الحفرة اللي احفرت ليك أراسي وادفنتك فيها، ها اغدايدي وقلة نفسي وحد جهدي، هاقسمة اللي ما عندو لا والي ولا تالي، خليوني انهنيكم ونذبح راسي، خليوني انهنيكم منو أو مني، طلقوني، حايدو بعدوا، اليوم ندي عمرك أعليليل، والله غير..."، وتخرج من المطبخ حاملة مدية، تظل تضرب باب غرفته بالمدية إلى أن يقوم ويفتحها:

- مالك عاود ثاني صبحنا على الله، احمات فيك البيضة من جديد؟

تعودنا على ألا نتدخل في مثل هذه الحالات، نراقب ما يجري لنضحك او نتجنب ما لا تحمد عقباه، التجاوزات التي لا رجعة بعدها، ما لا تحمد عقباه؟ شكل من أشكال الكلام فهما يتخاصمان هكذا، منذ "قرون"، "أومالك أسيدي علال، آش اعملنالك، فاش ضربناك، امنين اجرحناك أوباش؟

افضحتينا فالراديو، فاضحنا فالعالم بأسره، مالك أخويا امخرجنا فالجورنال بلا احيا بلا حشمة، مالنا قاتلين اسماعيل ياسين ولا عبد الرؤوف؟ أو غير فكر شويةأو اعمل بالوجوه، اتقي فينا الله أولا ما صبت امناش تحشم كَول هاذ الناس راهم اخوتي فالإسلام، اعلاه احنا ماشي مسلمين، ماشي المغاربة ابحاالك؟ وغير كَولي دخلت عليك بالله والطعام اللي مشاركين يوكَف لك فالركابي إن شاء الله كَولي فين نعطيوا الراس أوباش من كمارة انكَابلو الجيران، والعائلة وأصحابك، واصحاب أولادك، آش من وجه خليت لينا باش انخرجو بره، باش نمشيو فالزنقة، باش اندخلو للسوق انقابلو مول الضو والما، مولا جافيل ولمقدم باش يمشيوا ولادك للخدمة؟... ووكلنا عليك الله أعلال تاشاب عاد حلق احجاب الله يستر، أو ما احشمت ماستحييت، ما حشمت من اولادك اللي كلهم معروفين فالبلاد، ماحشمت مالمعارف، تاراسك ما حشمتيش منو ألكافر بالله، مالخفتيش مالله أعدو الله؟... وفين اترد وجهك يوم القيامة؟ آش غادي تكَول لناكر ومنكر فالقبر، واش تكَول للملائكة، اتكَول لهم اخرجت عقلك، اتكَول لهم اخرجتي اعلينا، وسختينا، بهدلتينا، دكيتي ماحرتي، كل ما اجريتو واصبرت أوقاسيت؟... أو مالك أكرش لغدر، آش خاصك، عريناك اسيدي، جوعناك، اقهرناك، دخلناك للحبس، ادیناك لمستشفى الحماق، احجرنا اعليك، اجرينا اعليك من الدار، دخلت عليك الله غير، غير كَولي آش ناقصك، أناكر لحسان، لعصا؟ اجمل جيعان واجمل عطشان؟ والله ما اصبتيني امرا قادة ابشغالي ولاكون راني اعطيتك وخليتك شاد الركنة اتبول اف سروالك كي عاملات لعيالات الفحلات اللي عندهم ارجال ابحالك!... أوهاعيني اف عينك ياك واكل أوشارب أوغاسل احسن من الناس، ياك ناعس وحدك كيف الحاكم، ياك تاواحد مايوصلك، ما يخسر معاك لكلام، كيف إلا اتكون انت هو اللي عساس على ابواب الرزق؟... ياك

أسيدي تخرج وقت ما تبغي وتدخل وقت ما تبغي، ياك اموسخ الدار غير وحدك ابهاذاك السم اللي كتشرب وترمي فالكابينه؟ كيسولك شي واحد منين جاي، فين غادي، مع من كنت ولا اشكون اللي شفت ولا آش اعملت؟ اشحال هذا عمرنا كَلنا لك اشحال كيجيك فالمانضة، فين كتخسر افلوسك واعلى من، عمرنا كَلنالك خلص الما ولاالضو، جيب البوطاغاز، دخل اف يدك شي حاجة من السوق، عندك تنسى الضريبة اديال الدار، اشري امعاك الخبز ولا لحليب، اتفكر أعلال العيد والعواشر هاذي، والمصروف اتقاضى، راني عريانة، راني خاصني باش نمشي للطبيب، باش نمشي للعرس ولا الكَنازة، ياك عندي ديما كيف الفرح كيف القرح، ياك أنا مفضلة الدربالة عالقفطان، عندي أيام الله كيف كيف أوما عاملة لابحال امرأة الموظف ولامرأة الدومالي، ياك من النهار الأول وأنا غير خدامة عندك انت واولادك، مامغيرني دنيا ماهزني حال، إوى هاذ الشي اللي اسويت عندك ألعمى، هاذ الشي باش جازيتيني اف آخر أيامي، هذا هو التقاعد اديالي، ارسلتيني للحج وكرمتيني واجمعت امعايا لمكب واقريت احساب الطعام والملح أو لعركَ أو لوسخ، ياك أعلال، أتركة السحارة؟... خليتك تعمل، تعمل غير اللي اف راسك، مشرفاك، هازه اعليك اصداع لولاد واصداع الزمان... ردوا بالكم أولدي وعندك يابنتي، بوكم امريض... امقلق، علال عيان، علال سكران، علال امتمن، علال عندو شي مشكل فالخدمة، علال خاصو لفلوس، مقطوع من الشراب، خاصو الدخان، خاصو النعاس، علال ناعس، علال خاصو ينعس، علال جاي، علالو خارج، علال قايد، علال نبي الله، ماكاين غير السي علال فالدنيا، اللي ابغاها سيدي علال هي اللي اتكون، ياك أسيدي علال، راضي، مزيان، فرحان؟... اسكت أولدي، هالعار... سكتي أبنتي ولا انوض ليك، حشموا من بوكم، نوض، آجي...هاك... ادي البوك، جيب

البوك، اسمعت آش كَال بوك، بوك ما يبغيش هاذ الشي، غير يجي بوك وانكولها ليها...

انكَولها لبوك؟... أناري وحدي، أناري أعلى سعدي... علال ظالم، السمع والطاعة، علال باغي علال مابغيش، السمع والطاعة أسيدي... علال؟ مال بوكم، علال دري صغير، علال ماعندو اعقل، علال راجلي، مول العقل، نص اعقل!... أوها علال اخرج على اللي ابقى من لعقل، اسكتنا ليه واصبر حتى جازانا بلحماق، استرناه أوناض افضحنا، اخرج على راسو... هرس سمعتنا واطلانا بالتقيا، بالشراب، هو يشرب واحنا نتلعنو... سير أولدي أعلال آش ابغيت لك؟ آش نطلب لك أكثر ماللي فيك، باش انجازيك، باش انواتيك؟ وكلت عليك الله اللي ما يعيا ما يتقهر! مازال أولدي اعلال مازال غادي تلقاها كامله إن شاء الله... واللي كتفني راه ساير يفتل ليك... احبل... لفعة بإذن الله... لفعة كَرطيطة تكمل لك السلعة... هاذي راها غير البديه، اعلاه أعلال ربيماينتقم ليش منك، من لعقايب اللي خرجت في، من الذل، والقهرة، والوحدانية، من الشوهة، من خيبتي فيك وقلة جهدي؟ ياربي راك عالم وداري، قادر أوعادل، شوف من حالي والطف بي، قوي اذراعي أوجمد كَلبي أو خليني انفك راسي واولادي من هاذ لخطيه!...".

كان قد خرج، دفع صدره نحوها: "يالله ضربي آش نتسناي؟" ثم مد رأسه إليها: "كوني امرا وضربي، هاراسي!" وكان البيت قد امتلأ عن آخره بالجيران والمتفرجين الداعين إلى لعن الشيطان! تسلل علال من بين الجميع، وخرج وهو يردد: "فقت، عاد فقتي، وفين كنت اشحال هذا؟" التفتت هي إلى الجيران فجأة: "اتفرجتوا، شبعتوا افراجة؟ يالله اللي عندو شي مارستان يمشي لو، سيروا وجدوا الكاميرا واتسنوا باش اتصوروا اوسخككم ماللي يجي وقتو... يالله، بره!" كانت الساعة حوالي السابعة والنصف صباحا: "سخني

لفطور أمريم لخوتك أنا داخله للحمام!" ورجعت بعد عشر دقائق هادئة وكأن شيئا لم يحدث، لم يتكسر هذا الصباح: "سمعوا أوليداتي، اللي غاديه انكَولكم هو اللي يكون: أنا غاديه نمشي انزاوك في جدي سيدي عبد الرحمان، والو تاواحد مايجيني عند الوالي، النهار اللي يطلق الله اسراحي راني نرجع وحدي، إوى نوضوا سيروا لخدمتكم، اتهلاوا اف روسكم، أوعندكم اتعملواَ فيكم الضحك، اتهلاوا اف بوكم وردوا لو البال، ما يبات فالقبر غير مولاه، الله يرضى عليكم ويكون منكم...".

ستعلق مريم على هذه الواقعة بعد أن طال غياب الوالدة: "أنا والله كنت أظن أني أعرف كل واحد منكم خاصة أمي وأبي حق المعرفة، وكنت مطمئنة إلى المستقبل إلى أنه لن يحدث ما يغير شيئا من مجرى هذا النهار... وها أنا أستيقظ على كابوس!"، فقال سمير: "كانت مشكلتنا محتملة عندما كانت خاصة بنا، شخصية إذا جاز التعبير، أصبحت غير محتملة أي فضيحة!" وقلت في سري: "ما أسهل أن يحكم الأولاد على الآباء، أو العكس قبل أن تتحول المشاكل إلى فضائح!" وبدا لي بعد ذلك أن أضيف: "هذه قصة حب أخرى سيصعب علي إن لم يستحل أن أجعل منها قصة حب جميلة!".

37

لم ينفع معها شيء، لا الاستعطاف و لا الاحتجاج، لا وسائلنا ولا وسائل الوسطاء: "والو غاديه انزاوك اف جدي سيدي عبد الرحمان وربي ارجايا!" حملتها مريم في سيارتها إلى محطة الحافلات: "لا ابنيتي خليوني نمشي فالكار، مايمشي امعايا حد، هاالعار!" أما هو فقد كان على الساعة الثامنة والربع وسط شارع النصر قبالة المركز الوطني للبحث الزراعي واقفا يحرك عكازه ولسانه: "أنا علي الرماني الرجل الذي يموت ويحيا مرات! يا عباد الله يا مؤمنون من منكم يستطيع أن يدوسني بالسيارة لوجه الله، تعالوا، تعالوا جربوا لتعرفوا أنه مازالت تحدث في زماننا الكرامات، اقتربوا لتعلموا كيف يمكنني ان أموت وأن أبعث قبل أن يرتد إليكم طرفكم، حاولوا فقط لا غير، إني أعود إليكم كما سبق لي أن ذهبت ثم رجعت، أنا أستطيع أن أبدأ حياتي من جديد، شابا في العشرين فلا تترددوا في معايشة هذه التجربة الفريدة، وليعلم منكم من مازال يتوفر على نية طيبة أنه يستطيع أن يذهب معي ويعود معي بإذن الله وقدرته ليصبح شابا من جديد ويبدأ حياته كما يريد، يا عباد الله، يا إخوة، يا مسلمون، يا مغاربة، أليس فيكم واحد، واحد فقط لا غير يطمح إلى أن ينال أجرا كبيرا عند الله هذا الصباح، رجل كريم يعمل صدقة لوجه الله، يقتلني، يصحبني، هنا... أنت... لا، أنت... لا تخف يا جبان، تشجع يا بخيل... أنت... نعم أنت... اغمض عينيك واضغط على البنزين مئة وعشرون، واربعون، وثمانون، مئتان... يالله اطلق الفرامل... لن يحدث

لك شيء سأعود قبل أن يحضر الأمن... اقتلني وانتظر قليلا فقط لا غير، لترى كيف سأبعث حيا في العشرين من عمري، في هذا المكان، من هذا المكان... هالفلوس، تريدون مكافاة؟ أنت... أنت، اقتلني وخذ كل ما في جيبي، شوف راه عامر، مدكوك، يالله ازعم، غير ازعم أصاحبي، ازعم مالك!... الصدقة ابلاش... المكافأة ابلاش... مافيكم حتى مجرم هذا الصباح، مجرم واحد فقط لا غير، غاسل مزيان وامحلق اعلى راسو، وجهو امنور ابحال إلا بايت فالجامع... والو؟ لبلاد اخوات من المجرمين؟ آه، آه، حتى احتجتهم أنا عاد اخويتوها من المجرمين؟ احرام اعليكم، احرام... باش غادي انموت أنا، بالسيدا، بالسرطان؟ أوما نبقاش فيكم انموت معذب؟... اتريشوني فالسيبطارات؟ أنا احمق! زيد المهدي، زيد اخويا، جابك الله... ها أنت شوف الظلم، المنكر... تاواحد أخويا مابغى يقتلني، يعمل في الخير، يعاوني نرجع اشبابي اللي ضاع مني، أويلي على صغري ضيعتو اخساره!...وياك انت صاحبي دير في هذا الخير!...".

من أصدقائه لم أجد سوى المهدي جالسا في شرفة بيته يتلصص على النساء الذاهبات إلى العمل، والبنات المتوجهات إلى المدارس: "كفى، أعرف أين سأجده، عد أنت إلى عملك واطمئن، إنما... اعطيني خمسين درهما للطاكسي، عندك؟ طمئن أمك وإخوتك وشكرا!" جرائد الفضائح عملت فينا مصيبة، شربت ما تبقى من دمنا مع أن لا أحد من محرريها شاهد حادث النصر! كتبت جريدة "أخبار البركان": "المهدي المنتظر يظهر في شارع النصر بالعاصمة!" وهات ما عندك من خيال! أما "حدود السوق" فقد أعطت للقضية بعدا دوليا: "علماء البحث الزراعي بالمغرب يطلقون في شارع النصر أول إنسان يتوصلون إليه عن طريق الاستنساخ مؤكدين بذلك تجاوزهم لاستنساخ النعاج والقردة!" أما جريدة "بورصة المجتمع" فقد نشرت

"من مراسلنا في عين المكان": "المتطرفون يبدأون الحرب ضد الدولة: رجل يحتل شارع النصر ويزرع الرعب في قلوب أصحاب السيارات!" وزايد عليك!

هكذا صرنا ولمدة شهر تقريبا مادة للفضائح، فكان علينا أن نواجه المجتمع كله!

والأمرُّ من ذلك والأدهى أن الوالدة مازالت "امزاوكَة اف جدها سيدي عبد الرحمان" بعين الدياب بينما الوالد "امزوكَ اف مولاي ابراهيم"! "إوى حلوها ألولاد تقول مريم التي بدأت تحتل مكان الوالدة في البيت، حلوها ولاتفرجوا... اتفرجوا مع راسكم... ولا اعلى راسكم!".

ولكن حذار يا مريم: على أي مستوى، وبأي وجه، تعنينا حقا هذه المشكلة؟

نســـاء آل الرنــدي

إلى

يونس و عادل

إغـراق الجسـد

كازابلانكا. "الكافرة بالله !" و"الشاليانى، أسيدي!". ملتقى الشوارع السبعة. تبدل المكان بشكل موغل في التجريد الحضاري: "رومبوان تكعيبية". ومازال الناس يقولون: "سبع شوانط"!

–و"أنت بعدا شكون قال لك أكبر وولي رجل، اشكون؟"

وتبدلت البنايات في كل من شوارع الحسن الثاني وعبد المومن والزرقطوني: بنايات "طلائعية:، مدهشة، غرائبية، توحي بالقوة، بالغنى الفاحش، بالشفافية، بالجمال المتوحش، بالرغبة في التنافس على استعراض الجاه، على الواجهات، الجاه الحقيقي أو الكاذب، الجاه المحلي والمستورد، الجاه الشخصي أو المستعار.

–و"هنا طاح الريال!"

–هذه البنيات الفخمة، الشاهقة، المختلفة الأشكال، المتباينة الألوان، بنايات إيروتيكية، هاربة، بنيت لعهد آت، لزمن لم يستقر بعد إلا في الخيال، مثلها مثل السيارات الفارعة، التي تزهو بنفسها في هذه الشوارع، تتوقف مضطرة في "رومبوان سبع شوانط" وأنفها في السماء، دائما مستعجلة، هاربة من شيء، تطارد شيئا، دائما متوترة الأعصاب، مشدودة القسمات؛ مخلوقات نظراتها مليئة بالاحتقار والغضب، تسوق بعنف وتحد، في عجلة، متورطة في زحام أو شجار، تضيق بها الشوارع والسيارات مهما اتسعت وازدانت:

–(أين يذهب هؤلاء الناس، بهذه العجلة، وهم في أبهى حللهم!؟)

-الكثيرون ذاهبون إلى مكاتب بتلك البنايات، سيستلقون على أرائك فاخرة، أو متواضعة، ويبدأون في استعراض أنفسهم على بعضهم البعض أو على بعض الزبناء، سيتكلمون ساعات طويلة في الهاتف أو مع بعضهم، يحكون بتطويل عن متاعب الشغل الروتينية، عن مشاكل البيت الصغيرة، عن آلامهم الجسدية العادية، عن صعوبة الحب واستحالة العشق، عن سوء الحــظ وتسارع الوقت ونار المعيشة... يفعلون كل ذلك وهم يهيئون الملفات أو يشاركون في اجتماعات أو يعقدون الصفقات أو يثبتون ربطة عنق أو ماكياج، يفعلون كل ذلك وهم يفكرون في طعام غذاء أو سهرة، ثم تغلق البنايات أبوابها وتطفئ أنوارها وتبدأ السيارات في التسابق نحو مقهى أو شاشة تلفزيون أو مطبخ:

-(ولم كل هذه العجلة، كل هذه الوجوه العابسة المتشددة، كل هذه الاستعراضية العدوانية، كل هذه الزينة المبالغ فيها، كل هذا البذخ، كل هذا التعالي والاحتقار، كل هذا البؤس، هذه الحرب...! ؟).

-طوط ! طوط ! طوط !...

-"حمار !"

-"حمارة !"

-"زيد ألبغل، زيدي يلعن دين... !" ...

-الله، يا ربي يا مولاي، هذه ولية أخرى حاصلة !"

-"تعجبونا فالكرفاطة !"

-"خليني انزل لدين..."

-" يلعن جد جد جد جد بوه، يقولي حمار، أنا !"

-... "كثرة لعروبية، البدو! ... فسدوا لمدينة أولاد الكلب !"

-... "الرخص ... اللي ناض يشري قصديرة، شوف، أسيدي شوف، هذي سيارة يعطوها الحق فالسير، وهذاك اشكون اللي اعطاه الرخصة!" ...

-"بوغطاط، حمار الليل!"

-"قلة القانون وادهن السير، وخاصهم يوسعوا الشوارع من جديد !... يعملوا المترو... غير البريفيريك!..." إوى انباتوهنا أسيدي بوسبعة!؟" ...

-طوط ! طوط ! طوط ... !

-"سبع شوانط" جهنم، لكن أي جهنم؟ ومن أين تصدر

-طوط ! طوط ! طوط !...

-(هل الجحيم في داخلنا قبل أن يكون في الخارج، في الآخرين، أم ترانا استبطناه فقط ثم رعيناه ونوعناه وصممنا على أن نخفيه خلف الواجهات، على الإكثار من الواجبات والمبالغة في تزيينها ومتانتها ؟ أسأل بوسبعة.

-دعوني ألقي عليكم خطبة صغيرة بالمناسبة، خالصة لوجه الله، وإلا فإني سأنفجر وأقتل، أو أجرح منكم المئات:

"بسم الله، يا عباد الله، يا أصحاب السيارات الكبيرة الفاخرة، يا أصحاب العمارات الشاهقة الفاتنة، يا أصحاب السيارات الصغيرة الخانقة أو القديمة المتلاشية، يا أصحاب البيوت الاقتصادية الضيقة أو الفقيرة البئيسة، يا من تلبسون من أفخم المتاجر الأجنبية، يا من تشترون ثيابكم من السويقة أو الجوطية، يا من تحبون أغلى العطور والأصباغ، يا من تكتفون بزيت الزيتون والكحل البلدي والغسول، يا من تتمخترون في الشوارع راجلين أو راكبين، إني أدعو الله أن يزيدكم من نعمه، أن يرفع كل من يوجد في درجة إلى الأعلى منها وألا يحرمكم أبدا مما أنتم فيه، لكني أريد أن أسألكم: هل نزعتم يوما أقنعتكم، أعني أصباغكم وواجهاتكم، أعني تسريحات شعركم

والرصاص أو الذهب الذي ملئت به أسنانكم البراقة، أعني ثيابكم وأحذيتكم، أعني سياراتكم وبيوتكم، أعني الصور المتضاربة التي حشيت بها أدمغتكم وقلوبكم، أعني نظاراتكم وعدساتكم المكبرة الوضاءة الساترة لأعينكم الكئيبة، أعني، أعني...؟ تعرفون ما أعني، والله الكريم ... ! تعالوا نفعل ذلك، نلعب فقط ونحن نفعل ذلك.. مالكم مكشرون؟ لم تجدوا أجسادكم ! مع الأسف الشديد: لا يمكن أن تجدوا أجسادكم، أج........أحسننا سيجد شبه جسد، شبه ذاته، شيئا لم يألفــه أو يعد يذكره! فلا تأتوا بعد الآن لتشتكوا من الغربة، من الوحدة، من الأرق، من صعوبة الحب واستحالة العشق، من عدم التواصل، من غياب الرغبة الجنسية أو خمول اللذة، من مرارة الحياة وتفاهة أو سطحية محيطكم، من برودة القلب وسخونة الرأس، من طوط واللغــط والمازوط !... وعلى كــل حال، فإني أدعــو الله لي ولكم بالعافية وحسن المآل، ولا يفخرن في هذا الأمر غني على فقير ولا نسوة على نســوة ولا صغير على كبير ولا متعلم على أمي فإننا متساوون في اللغط وطوط طوط والمازوط ولله العزة والمجد آمين وفاتحة لبوسبعة الله يرحم الوالدين!"

-ربح، زبيد ربح، بوغطاط ربح، تازبيدة ربحت واللي مازال ما ربح يربح، كل شيء يربح، يزيد يربح ويربح... اربح، غيــر عمــر أوراق الربح تربح !... تهاجر؟

-مازال هذا اللاغط يلغط، يا لطيف!

حــرق السفــن

في مغارة، في حفرة ضيقة، سماها رفيقي، الذي مات منذ يومين، "جحر الضب الكليم"، كنت أرقد وعيناي ترقبان الأضواء الفاتنة المخيفة في "جبل طارق" و"الجزيرة الخضراء" و"طريفة": كان من المتوقع أن نكون هناك، في "طريفة"، منذ أربع ليال، لكن المركب لم يصل بعد؛ قد يصل هذه الليلة وقبل الفجر قد نكون عبرنا وبدأنا الانتشار في الاتجاهات المختلفة نحو "الغرب"، كل هذه "الأشباح" وأنا! ليلة ثالثة باردة، عاصفة، قاسية ككل ليالينا وأيامنا الماضية، ترسل فيها السماء مطرا وابلا ورياحا مرعبة ثم تستريح، يهدأ كل شيء وتضيء الدنيا فألمح الأضواء الباهرة المفزعة هناك، ثم تستعيد الكرة، فتختفي "إسبانيا" من عيني؛ كابوس هذا أم طبيعة؟ قال لي رفيقي، "ولد النية"، وهو يلفظ أنفاسه القصيرة الخافتة:

–اسمع يا علي يا رندي، إذا مت لا تقل إني لم أعبر، ارمني في البحر وقل لكل من يسألك عني، خاصة أمي: آخر عهدي به في "الأندلس"، تزوج ب"رومية عربية" من أجل "الأوراق"، وتركنا وهو في غاية السعادة !

كان يضحك، وهو يحتضر، وكان يضحك، وأنا ألقي به إلى الحوت؛ من أين أتى فجأة بكل هذه القدرة على التهكم وأنا لم أره قط يضحك؟ وكيف نسيت أنه مصاب بالسل ؟ "أفضل للمرء أن يموت بحلم، بوهم من أن يموت بأي مرض أو ورم خبيث، بطعنة غدر أو إهانة، مثلا، أقول مثلا فقط"، أي كما في حالتك يا ولد النية !

جئنا معا، مع بداية الصبح، من "الكريمات"، "ابن احمد". قلنا للأهل والأصدقاء إننا ذاهبون لطلب العمل بالدار البيضاء:

-"صاحبي ولد النية له خال ذو نفوذ !".

لكن أمي وأمه تعرفان كل شيء فلقد باعتا كل احتياطيهما من الذهب العتيق لنهاجر !

تسكعنا النهار كله في شوارع العاصمة الاقتصادية وتصيدنا كل مناسبة لانتقاد هذا " التخلف" الذي يهمن على هذه المدينة، " الدار الكحلة"، التي أصبحت قبرا للبسطاء والمقهورين؛ نؤدي الثمن، كل الثمن، بلا أن نحصل على البضاعة:

-"سترى الحضارة حقا، هناك"، ردد مرات عديدة.

-غادرنا "الدار البيضاء" حوالي العاشرة ليلا، وداعا أيتها الدار الخالية من الحلم، جهنم السوداء القلب؛ "حذار من السفر نهارا ومن المسافات الطويلة، وسافروا دائما مع الناس"، نبهنا العفريت أكثر من مرة !

لم نكن نحمل غير الثياب التي كانت على أبداننا. تخلينا عن "بطاقة التعريف" فإما نموت نكرات وإما نبعث كرماء، لا نريد أن يتعرف علينا أحد بشكل رسمي، وخطنا احتياطينا المالي "تحت السليب": خمسة آلاف بسيطة ! كنا خائفين؟ كان الفرح أكبر من الخوف، لا الحلم أكبر: أخيرا تسنح الفرصة لنحرق بدورنا !

-لنحلم هنيهة وهات يا طوفان أو يا طاعون !

-ماذا يمكن أن تفعل في مكان، أو مع أناس، محروما من القدرة على الحلم، على المغامرة ؟ لن يهلكنا إلا الذين يفسرون كل شيء "بالخبز" !

وامتطينا الطاكسي لنعود إلى محطة الحافلات فقال لي إنه لا يحب "المرسيديس" ويفضل عليها "الجيطه"، مثل جيطة ولد حادة، لكنه لن يتزوج من "نصرانية كافرة"، ولو أسلمت، عكس ولد حادة، ولو اضطر إلى صوم الدهر:

-"كل من يأكل لحم الخنزير يفقد الطيب من رائحته!"

"تطوان"، حوالي الحادية عشرة، "حمامة بيضاء" حقا، لكنها ضاجة ومكتظة:

-من أين يأكل كل هؤلاء الخلق في هذه المدينة ؟

سؤال أي بدوري يدخل لأول مرة إلى مدينة، نبهي الصديق؛ ومن أين تأكل كل الدار البيضاء، أين تنام كل هذه السيارات! "تذهبون إلى تطوان للتمويه، تشترون أربعة كيلو غرامات من "المورطاديلا" وتعودون إلى محطة الحافلات للذهاب إلى طنجة"، يؤكد العفريت !

طنجة فارغة، حوالي التاسعة ليلا، إلا من بعض الأشباح المتسارعة تحت المطر الغزير. "نزل غرناطة" كئيب، أكثر من الرجل القصير الأعرج الذي صاحبنا إلى الغرفة:

-"ممنوع الخمر والحشيش والنساء !".

كأنه ليس عندنا لا خمرة ولا حشيش ولا نساء في "الشاوية" الغاوية التي كانوا يحذرون أبناءهم، قديما، من فتنتها !" تشترون ما يكفيكم من الخبز في طنجة ثم ترحلون في الصباح الباكر في اتجاه القصر الصغير!".

-ما أصغر "القصر الصغير"، قال ولد النية، قبل أن يضيف:

وليس فيه ساكنة، على ما يبدو، إلا البيوت المغروسة في الجبل وحول الوادي، لا أحد هنا، كأن الكل هاجر!

-جميل بلد كله مهاجر أو بعضه هاجر والباقي لا يحلم سوى بالهجرة، تصور حاله وأهله يعودون إليه كل صيف، دفعة واحدة، ليقضوا عطلهم! علق ولد النية.

وأكد العفريت: "تقطعون الوادي إلى الضفة الأخرى ثم تنزلون إلى الشاطئ ثم تمشون، مشيا خفيفا، مدة ثلاث ساعات كاملة، شرقا، وستجدون

مغارة مدخلها مطلي بالأسود الفاحم، ادخلوا المغارة وانتظروا إلى أن يأتيكم العفيريت بالمركب ليلا، ناموا بالنهار إذا استطعتم!"؛ كيف ننام والمطر يرعد والريح تبرق، كيف ننام والأضواء الفاتنة المرعبة هناك على مرمى البصر؟ "أندلوسيا مي إسبيرانسا، مي سوبليسيو، مي دولور، مي سويرتي، مي أمور"!

-نم لك ساعة، دقيقة!

-أضواء "الأندلس" لا تتركني أنام!

ومات فاتحا عينيه كأنه خائف من أن تهرب منه تلك الأضواء: أكيد أن صاحبي مازال يرى "أنوار الأندلس" في مكانها وهو في عمق البحر!

-هل تعرف أن جدي الأول من غرناطة ؟

-عجيب، وأنا جدي من رندة!

جملتان تبادلناهما مرات عديدة، بمناسبة وبغير مناسبة، لكن وقعهما كان جديدا تماما ونحن ننطقهما في الوقت الذي كان يلفظ فيه بقية أنفاسه المتعبة:

-سيذكر عني أهلي، بفخر واعتزاز، أني رحلت إلى "الأندلس"،على طريقة أجدادي الكبار، ولم أرجع منها، فلا تفضحني، رجاء!

لم أتردد في تنفيذ وصيته: حملته على كتفي وصرت به إلى أعلى صخرة ثم رميت به إلى الماء من هناك؛ كنت سأطلب منه أن يفعل معي نفس الشيء لو أني أصبت بمكروه، لو أني مرضت فقط: إنما نحاول نهاية وهم، بل حلم، فنموت أول نبجل!

-جميع الديانات، من حيث المبدأ، متسامحة، لكن الذين يغزون باسمها أو يحكمون ليسوا دائما متسامحين، في هذا الأمر ليس هناك دين أسوء أو أحسن من دين، يسيطر منطق الخوف أو القوة!

كنت أذكره بالشهادة وأتلو الفاتحة عندما أدركت أنه هالك بينما كان قد ذهب بعيدا في مقارنة بين مختلف الأديان حين تصبح لها طبيعة دنوية ! عندما حصل على الإجازة في الفلسفة، منذ سبع سنوات من كلية الآداب بالرباط، كان ينوي أن يتخصص في "الدين المقارن"، من "غرناطة الغراء"، لكن عدم حصوله على "الفيزا" حوله إلى "متدين متطرف": أصبح العالم عنده مقسما إلى "دار كفر" و"دار إيمان"؛ "دار الكفر" يعرفها جيدا: أهلها جلهم من النساء، يشربون الخمر ويأكلون الجيفة ولحم الخنزير والأنانية، وعلى رأسهم عائشة، الحبيبة ورفيقة الدراسة، التي مسها بغتة "جنون الماء"، أو "لوثة القلب"، كما يقول، فركبت البحر مع "نصراني" إلى ألمانيا ! ألهذا كان يصر على أن يدفن في البحر؟، لقهره، لينتقم منه؟

- "ليس للنفس قرار واحد" !

-سأحرق كل سفني بحثا عن "دار الإيمان" !

فلماذا تبعته، أنا؟ هو صاحب الفكـــرة، في البداية. ظل يمدح لي في "دار الإيمان" حتى تبعته ؟ لم تبعت هذا الفيلسوف الضال حتى صارت "أنوار الأندلس" تبدو لي بدوري، ورغم المطر والريح، رغم كل هذا البرد، فاتنة ومرعبة؟ "ليس للنفس مدار واضح قريب" !

في مثل هذا المكان، من الجهة الأخرى، كان جدي يرقب "أضواء طنجة" "وسبتة"، كان يحلم بدوره بالعـــودة إلى "دار الإيمان"! لقد جاء أهلي من "الأندلس" ولكنهم، قبل ذلك، كانوا قد حلوا بها من "المغرب": باعوا كل ممتلكاتهم، "في المغـــرب"، وهدوا البيت الكبير ثم وصلوا إلى "الرندة" عـــن طريق "سبتة" ثم "مالقة" سنة 1092! اشتروا أرضا واكتروا أخرى ثم أصبحوا من كبار الفلاحين في المنطقة:

-لقد كنا "صابئة" فأصبحنا "يهودا" ثم "أسلمنا" وسنصبح "نصارى"، فيما بعد، لنعود "مسلمين"، أخيرا، من غير أن يكرهنا أحد على ذلك، فقط من أجل "اندماج أفضل مع الأهل، من أجل المحبة!".

لكنا عرفنا، بسبب ذلك، بالمتغيرة وأشيع عنا بأننا لم نكن من أهل الكتاب وإنما كنا متصرفة متغيرة ندعو إلى "التسامح" ونمارس شعائر هي خليط من الأديان المعروفة المختلفة !

لذلك أكسبنا هذا الوضع أمانا وإكراما من طرف جميع أهل الديانات وحتى من "الملحدة"، أيام السلم والاستقرار، وكان عاملا أساسيا في ازدهار فلاحتنا وتجارتنا الكبيرة، لكنه شكل مصدر خرابنا كذلك ساعات الشدة والتطاحن:

-نصبح، ساعتها، ضحايا "المسلمين" و"النصارى" على السواء، لا مكان لمثلنا في مجتمع تقتتل فيه "ديانتان!"؛ مع من أنتم ؟ مع لا أحد من أهل "الدين" ؟ ضدنا إذن !

-لنبحث لنا عن مكان جديد، أرض الله واسعة !

وهكذا كنا نصبح، بعد العز والإكرام والمودة، منافقين كفرة، في نظر "المسلمين"، ومرتدين مبتدعين، في عين "المسيحيين"، فنفقد صفة المتصرفة أو المتغيرة المسالمين!

-آه من هذا البؤس الذي في الفلامينكو ومن هذا الشجن الذي في الطرب الغرناطي أو الأندلسي عامة، يقول ولد النية وهو يتحدث عن النعيم الذي عاش فيه أجداده بالأندلس قبل أن يلقى بهم في البحر!

فقدنا كل شيء، من جديد، سنة 1490، إذ نهبنا النصارى بقدر ما نهبنا المسلمون. في تلك السنة جمع أهله وأرسلهم، مرة أخرى، إلى "المغرب"، من مكان ما قرب "مالقة" إلى "طنجة" وبقي هناك ليرى ما ستسفر

عنه الأمور: هروب "المورو"، في هلع، عبر مختلف جهات البحر، نحو "الجنوب" سنة 1492. وهاهو المتغير المتصرف المفزوع لم يعد قادرا لا على البقاء مع النصارى ولا على الهروب مع المسلمين إلى أن جاءه "وسيط":

–أستطيع أن أوصلك إلى أهلك بالمغرب شريطة أن تكتب لي أرضك!

تردد ثم كتب له الأرض في اسمه. أوصله، ليلا، إلى مغارة تطل على "سبتة" و"طنجة":

– تنتظر المركب هنا، يوما أو يومين فقط!

كم عدد المرات التي فكر خلالها في الرجوع إلى "الرندة" ؟ لم "يخرج" أحد من الأندلس وليس في نيته أن يعود إليه ذات يوم، أن خروجه مؤقت، سواء أكان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا:

–سنعود مجتمعين مرة أخرى، معززين مكرمين!

وكم ألفت من الأغاني، وحكيت من القصص، حول هذا الخروج و هذا الرجوع الكبير؛ لا الخروج ولا الرجوع يمكن أن يتم بنفس الوسائل والشروط:

–سنرجع معززين مكرمين أكثر من الأول !

–تعرف لماذا أكره كر يستوف كولومبوس وفاسكو دي غاما ؟ لأنهما سبب الكارثة التي حلت بنا، يفكر ولد النية مقلدا أباه ثم يتابع:

–كان البحر وسيظل دائما مستقبل البشرية ولو أنها بصدد غزو الفضاء، البحر هو الجزء الحيوي من الفضاء والجاهل دائما من لا يعرف لا القراءة ولا السباحة المباشرة في هذا الفضاء!

كذلك أقنعني بتعلم السباحة في مدينة جف نهرها، مدينة تبعد عن البحر بأكثر من ستين كيلومترا، فكنا نقصد البحر، أحيانا كثيرة، راجلين، كنا نمكث به أسابيع أو شهورا: نتدرب على السباحة؛ نقترب من "الأندلس"!

وكنا جيرانا، كنا أهلا، كنا نفرح ونبكي معا: أهله كذلك من المتغيرة المتصرفة، جل أهل "الكريمات" و"النخيلات" متغيرة! يجمعنا رجل شيخ أو امرأة عجوز ليحكوا لنا "القصص أو السير الأندلسية" وليعلمونا ذاك الشعر الشجي والرقص الباكي العنيف، مرة كل شهر يقام في بيتنا، أو في بيت ولد النية، حفل لممارسة التذكر والحداد: ما زلنا متغيرة متصرفة كما كنا دائما، مستعدين لحرق السفن في كل حين؛ ما رأيت كنسائنا حدادا!

-أكثروا من الولد فإن الأرض كريمة والبحر أكرم ولا تنسوا أننا، مهما طال بنا المقام، رحل بين "سوس" و "الشاوية" و"الريف" و"الأندلس"؛ "أحسن الزاد حزم النفس حين تضيق أو تهان ولا تستطيع رد الضيم"!

شعار جدي الذي انتظر في تلك "الحفرة" حيث كان يرقب "المركب" و"أنوار طنجة وسبتة" البراقة المرعبة الفاتنة. يحكون أنه انتظر سبع ليال كاملة حتى كاد جسده أن يتجمد.

-فبراير غرار وأبريل كذاب، في كل وقت ومكان!

في العاشر من فبراير، مباشرة بعد صلاة العشاء، جمع جدي ما تبقى من أطرافه المتجمدة، من البرد والجوع، ورمى بنفسه الحزينة في الماء:

-باسم الله، إما أموت من المغامرة أو من الانتظار؛ الموت مرة واحدة في عمر الشجاع الذي لا أمل له في انتصار قريب!

غدا يحل العاشر من أبريل الكذاب: لا مركب ولا جو يسمح بالسفر !

-وجد جدك مرميا في شويطيء بين "القصر الصغير" و"الدالية". سقاه "جبلي" صياد ماءا ثم حمله إلى بيته وأطعمه خبزا وتينا وشايا. لما وصل

إلى "الشاوية" كان قد تعلم تدخين تلك العشبة الخبيثة ثم صار يسافر مرة في السنة:

-أنا ذاهب عند عمكم "الجبلي"!

الذي لم نره قط حتى جرى بين النساء، وفيما بعد بيننا، أنه "جبلية"، "عمة" لا "عم" ! وليكن !

-إني أذهب فقط لزيارة هذا الصديق الحبيب حيث أستطيع أن أراقب "الرندة الجميلة" من هناك، أما النمامون فقد ادعوا قبل هذا أني تأخرت في "الأندلس" بسبب "رندية"، قبح الله ذكرهم ومسعاهم! وليكن كذلك !

لي في هذه الناحية، إذن، أبناء عن عم أو عمـــة، ولكن كيف السبيل إليهم ؟

-تجدهم قد هاجروا بدورهم أو التحقوا بأعلى "الريف"، يعزيني ولد النية !

آه، آه كم تزيد العزلة من شدة البرد !

وهاهو جدي يقترب بحفرته من حفرتي:

-لا تطل الانتظار، إما تتوكل على الله أو ترجع حامدا شاكرا، تذكر أن العفريت والعفيريت بداخلك، يا-بني!

ويؤكد طيف ولد النية:

-ستخونني إذا رجعت وإلا كيف ستحكي لهم عن "آخر عهدك بي في الأندلس" وعن "مغامراتي مع الرومية العربية" وعن " السعادة" التي أعيش فيها في هذا البلد مع هذه المرأة، ثم لماذا تريد أن ترجع، لتتفقد سفنك التي أغرقها الوقت؟ أحرق سفنك الغارقة وتوكل!

كأني كنت على موعد مع الماء: بعيد صلاة المغرب، من اليوم العاشر من أبريل الكذاب الشامت، كنت قد بدأت أسبح في اتجاه "الرندة"!

–مع الفجر سأكون هناك، في الحفرة التي عاد منها جدي، إذا سمحت رياح بحيرة المتوسط!

غير أن الأمواج رمت بي في موضع لم يخطر لي قط على البال: "كولومبيا"! ولما سمعت الاسم لأول مرة خلتني في "كتامة" التي كان ولد النية يسميها "كولومبيا" بالرغم من أنه لا يعرف عنها أكثر من أنها توجد في "الريف" قريبا من "الحسيمة":

–مرحبا بك، أيها المغربي، في "كولومبيا"، قال الفتى بالإسبانية!

–يمزح ولا شك، فأنا مازلت في "المغرب"، لقد صارت الرياح بما لا أشتهي والسلام، قلت في سري؛ كذب أبريل مرة أخرى!

لكنه لما سألني بالعربية:

–امنينا موضع، أخاي، في "المغرب"؟

وهو يمد يده نحوي ب"بوكاديو" شطائر اللحم الوردي وبيرة:

–تفضل، قل باسم الله، الخير فيما اختاره الله!

نظرت حولي فلم أجد ما يؤكد لي أني مازلت في "المغرب":

–من "ابن أحمد"!

زاد ابتهاجه فجأة:

–"ابني أحمد"؟ من عندما، "جبلي"، أخاي، حتى أنت! قدرت فرحته وكرمه:

–"ابن أحمد" في "الشاوية" ناحية "الدار البيضاء"، غير "ابني احمد" الجبلية، من "الكريمات" بالضبط!

لم يفقد شيئا من علامات فرحه وكرمه:

–"المغرب" واحد بالنسبة للفقراء، العالم كله واحد بالنسبة إليهم، حتى "كولومبيا" لا تعتقد أنه لا يوجد فيها غير " مافيا" الحشيش و"تجار" الحرب

الأهلية، بلد جميل وطيب، لكن القهر لعنة، أخاي، مثل الفقر، كفر... "المغرب" قد يشبه "كولومبيا"... تماما!

ثم سكت:

-يتذكر شيئا حزينا، قلت لنفسي!

ثم خرج من صمته من غير أن تفارقه غلالة الحزن:

-احك لي كيف وصلت إلى هنا؟

هو الذي ينبغي أن يحكي!

لكني رويت له "الهجرة" كاملة، من اللحظة التي رمى خلالها جدي نفسه في الماء إلى اللحظة التي رأيت فيها "باخرتهم" فأغمي علي:

-لا أفهم كيف أغمي علي في تلك اللحظة !

كان قد استرد كرمه وفرحه:

-صدق أنه وقع لي نفس الشيء، منذ أكثر من ثلاث سنوات، فانتشلني من البحر هؤلاء "الكولومبيون"... خلال ثلاث سنوات أنقذنا أحد عشر "حراقا"، ستة مغاربة وخمسة أفارقة سود، صرنا نتعرف عليكم من بعيد، كأننا نشم رائحتكم في الماء!

توقف ليكمل ضحكته ثم تابع:

-أنا كنت متوجها من "وادي لو" إلى "هولندا"، تصور، وهؤلاء البحار لم يعد منهم سوى كولومبي واحد، كلنا "حراقة" في الأصل، صاحب الباخرة نفسه ليس كولومبيا، برتغالي ولد في جنوب إفريقيا!

-عجيب !

قلت، وقد بدأت أتخلص من بعض الندم، فقال:

-وما العجيب في هذا ؟ نحن لسنا جمعية خيرية: كل من تنقذه هذه الباخرة مدين لها بسنة من العمل وليس له من دين عليها سوى الأكل والشرب والدخان، صاحب الباخرة يعامل الناس بما عومل به عندما التقطته سفينة غير بعيد من شواطئ "فلوريدا"!

لم أعرف، ولم أحاول أن أعرف، ما كانت تنقله هذه الباخرة خلال الرحلتين اللتين تقوم بهما مرتين في السنة بين "كولومبيا" و"إيطاليا"، لكنا خلال هاتين الرحلتين تمكنا من انتشال خمسة أفارقة...

لما انقضت السنة خيرت بين العمل في الباخرة، بمقابل محترم، وبين أن يتركوني في "كولومبيا" أو في أي بلد أوربي. اخترت "إسبانيا" بدون تردد. أنزلوني في ميناء "برشلونة"، صحبة زوجتي الكولومبية، بجوازي سفر مزورين، طبعا. قلت لزوجتي بعد إجراءات الميناء، التي دامت أربعة أيام كاملة، ونحن نطأ أرض المدينة:

-كان من الممكن أن نكون نحن مكتشفي "أمريكا" لولا أن أجدادنا استطابوا اليابسة السهلة وأتلفهم الترف، "سحر الأندلس"، لهذا أكره "كريستوف كولومبوس" وأعتبر سنة الاحتفال باكتشافه سنة حداد!

فقالت:

-وأنا أكرهه بدوري لأنه دمر حضارة قارتين!

فحاولت أن أفهمها أني أمزح لأن ما يسمى "الحضارة العربية" كان قد دمر قبل ذلك بسنوات عديدة من طرف "العرب" أنفسهم وأن هذه الاكتشافات وغيرها قد وسعت من دائرة الفضاء الحيوي للبشرية، وأنا، كيفما كانت حالي، واحد من هذه البشرية:

-أنت أيضا من المتغيرة المتصرفة، مثلي، قلت!

ورغم أني حاولت، بكل قوتي، أن أشرح لها ذلك فإنها بقيت تحتج إلى أن قلت لها:

-معك الحق، ولا أنا عدت واحدا منهم، ذلك عهد ولى ولم يبق لنا منه غير أحباب وأنصار مشتتين في كل أنحاء الدنيا!

فابتسمت وقبلت أن ندخل إلى مطعم لتناول وجبة حقيقية!

ملتقى الشوارع السبعة

–اسم سحري، قدسي، "سبع شوانط"، "سبعة رجال"، "سبعة أيام"، "العامريات سبعة"، "سبع سماوات"، "رجال الله سبعة"، الأراضي... فأين السحري، القدسي في هذه الدار الكحلة، بل في ما كان يسمى "سبع شوانط"؟

–كل هذه البنايات، هذه الفضاءات الجديدة لم ترث سوى هذا الجانب "المدنس"، "الشيطاني" من "السحري"، من "القدسي"، برغم أنف الجدل في ارتباط "السحري بالشيطاني" وال"القدسي بالمدنس"، جدل لا يرحم، لا ينفصم منذ بداية الخليقة، منذ التمدن، إلا في هذه الدار الكحلة!"

–"قل في كل المدن المتسارعة اللاغطة، في كل الرؤوس والقلوب المتجارية، مع الأسف الشديد، منذ نشأة الدار البيضاء وهذا الجدل يتصارع، يؤسس ويهدم من غير أن يتمخض بعد على "سحري" ولا على "قدسي"، إلا على التعب!

–"ربما كان هذا صورة من إشكال التمدن في كل المدن اللاغطة؛ بقدر ما نحب نكره!".

وتصر الذاكرة، كما تصر العين المترقبة، على إفساد خصوصية الانتظار: أنا في انتظار امرأة، كنت دائما ولا أزال في انتظارها كشاعر، متسمر هاهنا لأرى ما فعل بها هذا الجدل، هذا اللغط، فلم تصر الذاكرة على استرجاع "نقاشات متوجعة"، نقاشات كانت تعبر، ولا تزال لدى أغلب الناس، وفي أغلب المدن، عن التعب والانهيار أكثر مما تعبر عن واقع حال، "شكوى استهلاك"، "أنين المقهور والمتعالي"؟ ولم ترفض العين أن تغادر هذا اللغط والواجهات؟ طال انتظارك!

قيل لي إنها تخرج بسيارتها من عمارة في آخر شارع عبد المومن، غير بعيد من شارع غاندي، تمر بملتقى الشوارع السبعة، توقف سيارتها عند حارس بمدخل شارع المعاني...

-ثم تمر أمام مقهى "لاروطوند" راجلة، لتسير في شارع الحسن الثاني بضع دقائق وتدخل باب عمارة من تلك العمارات "الطلائعية" التي جعلت شارعي عبد المومن والحسن الثاني يشبهان "لاديفونس" بباريس وكأن الدار البيضاء، منذ ليوطي، مصرة على أن تضاهي العواصم الأروبية... باريز خاصة، ليوطي!

مقهى "لاروطوند" رغم تبديل الواجهة، لم يتغير كثيرا، وبالرغم من كل ما يجري حوله، مازال هادئا، وسط كل ذلك الضجيج، حميميا، وباستثناء "ساعات قهوة الأطر"، فإن رواده، الذين يغلب عليهم رجال تعليم من سن معينة وبعض المثقفين وصغار الموظفين، يتكلمون بهمس، يتصرفون بتواضع لا يضاهيه إلا تواضع وكرم الساهرين على خدمتهم، إضافة إلى أن المكان ممنوع على "نساء الله يستر" وشباب "الله يخرج العاقبة بخير". لذلك يسود في هذا المقهى جو شبيه بجو المكتبات أو المساجد، جو عائلي أحيانا...

هنا كنا نقرأ ألتوسير وغر امشي، "الهيمنة الثقافية" يا رفيق، قرأنا نتشه وتهجينا هنري بوانكاري وميشل فوكو، كل الرواية الجديدة، وكم دبجنا من القصص والمقالات، كم دخنا وكم شربنا من القهوة السوداء والكلام السحري المقدس. أثناءها كانت الكثير من المقاهي قد رفعت شعار "ممنوع القراية"! من هنا، بعد يوم مثمر، كانت ثلاث جماعات "بورجوازية صغيرة تنتشر، متفرقة، في الليل: يا لطعم الحياة الشاقة البسيطة، الكادة العذبة، طعم

الورق، والحبر، والقهوة، والسجائر والعرق والبيرة، والنبيذ والصديقات، "المترجلات"، الحانيات الكريمات!

الساعة تقترب من الثامنة صباحا، الثامنة إلا ثلاث ثوان. ستمر "نزهة" على الساعة الثامنة إلا ثانيتين، قيل لي.

-نوز، أيتها الطفولة!

انتهى أبريل، كان الناس في منتصف مايو ومع ذلك علق الكثيرون مستنكرين حين وصلهم الخبر:

-هذه كذبة أبريل! .

كيف يكذب أبريل الكذاب؟

أول من نطق بهذه العبارة كان المكي الذي عاشر لفترة قصيرة أحد الفرنسيين. المكي يفهم، من تلك العبارة، المعنى الغربي الذي تحيل عليه "سمكة أبريل"، لكنه لم يستعمل هذه الصيغة الأخيرة، أما الذين رددوها بعده فقد فهموا منها المعنى الذي يوجد في التقويم الفلاحي:

-أبريل يفرز القمح من الشعير، فين ما شفتي الفول ميل، ولكان مارس يمرسها ولا يملصها رد بالك من مايو وفبراير: بين السبولة والفولة يموت ولد المهبولة!

وهكذا فإن الاستنكار قد طال واتخذ أشكالا عديدة. وهذا عبد السلام مثلا يستنكر:

-مكيدة مسيحية ضد رجال الله المسلمين!

الوحيد الذي لم يستنكر الخبر هو حمان. لقد مكث حمان اسبوعا كاملا في طنجة سنة 1903. وبرغم مرور الوقت على هذه الإقامة فإنه مازال قويا، أي محصنا في النقاش، بامتيازين: الأول أنه أقام في طنجة التي لم يرها بعد أي واحد من الجماعة المستنكرة. الثاني أنه يزعم رؤية السيدة التي أثارت الزوبعة، لقد قاطع المكي ساخرا:

-والله أسيدي المكي واولادي حرام علي وأنت تعرف بنات الروم... والله ألمكي... لو رأيتها تهبط نحو المساء ... نحيلة تلبس الحرير... والريح... الشرقي... والمظلة فوق الرأس كالفراشة...والساقان الشمعيتان عاريتان إلى نصف الركبة... والوجه... ماذا أقول عن الوجه؟ ...سبحان من جعل البياض رمز النقاء... أتدري لماذا ندفن في الأبيض... أتدري لماذا الحليب والقطن والثلج.... والله... لما استنكرت والله ولا استغربت... كنت ستقول للملأ لأولادك والعياذ بالله من الفتنة: برهة... من رأى هذا الجمال برهة... من فتح عينيه عليه برهة ثم أغمضهما إلى الأبد يستحيل أن يدخل جهنم... أستغفر الله... وإن بقي مفتوح العينين يستحيل ألا يرتكب حماقة ... ألا ينتحر مثلا أو ألا يرتكب جريمة... تقولون كذبة ... والله قد يكون ... إن هذه المرأة لا يمكن أن تكون من الحيوان ... واحدة من البشر... وتقولون مكيدة... إنها والله لكذلك وتستغربون... وأنا أستغرب مثلكم: كيف يمكن أن يوجد بشر من هذا النوع ومن أي شيء يصنع الله مثله إذا كنا نحن من طين؟؛ وهذاك الذي جعل أصل الإنسان حيوانا!؟ لكني رأيتها ولا أستغرب أن يحدث ما سمعتم: الزين امتحان من الله وبرهان، والإنسان يسلم للخاوي إذا بغى ينجى من المليان!

كانوا مجتمعين في مخزن حبوب عبد السلام المهدي، اليوم سوق الاثنين بالكريمات، وقد رتب عبد السلام في مدخل المخزن مكتبا وصالونا يستقبل فيه الزبناء والأصدقاء. هؤلاء الحضور لا يستقرون على عدد، يدخلون ويخرجون باستمرار. وعبد السلام لا يكف عن الدعوة إلى شرب الشاي وعن السؤال عن أحوال زبنائه بالرغم من انهماكه الجدي في مناقشة الموضوع الذي يشغل الجميع منذ أكثر من أسبوع. وهذا الاهتمام المزدوج بالزبناء وموضوع المناقشة، في نفس الوقت، قد يبدو عاديا في وقت عاد،

لكن ما قد يفسره، في هذا الوقت بالذات، أن الناس على "أبواب الحصاد"، إذن يجب أن يحرص الرجل على بقاء زبنائه "في اليد"، كما قد يساعد على فهمه أن المعني الأول بالأمر، أو "الفضيحة"، تربطه علائق زوجية وعائلة عبد السلام.

ورغم كثرة عدد الداخلين والخارجين فإن جماعة المقربين لم يتغير عددها منذ طلوع الشمس: المكي الذهبي الفلاح الكبير مربي الماشية بجلابيتيه الصوفيتين ورزته الصفراء، حمان السرجان مصدر القطاني والماشية ببذلته الأوربية وطربوشه الأحمر، أحمد السوسي، العدل، بجلابيته الصوفية البيضاء والبرنس البني والرزة الزرقاء، إضافة إلى مساعدي عبد السلام اللذين لا يكفان عن استشارته والتماس أوامره ولا يكفان عن الدخول والخروج من المخزن وهما يضعان فوق رأسيهما كيسين من القنب يتدليان بين الكتفين إلى حدود أعلى الحوض. وبينما يبدو هذان الأخيران كأنهما من عالم الأشباح يبدو عبد السلام إنسانيا تماما وهو يتبادل التحية والأخبار أو يدفع سلفيات للفلاحين في انتظار أن يحصدوا ويدرسوا ويأتوه بالمحصول.

أما نادل المقهى المجاور فإنه يدخل عليهم كل نصف ساعة، تقريبا، حاملا صينية، مبشرا بالشاي الساخن المنعنع، يضعها مكان تلك التي استهلك شايها والتي يخرج بها منوها بسخاء "الكرماء متذوقي الشاي الرفيع الأصلاء أبناء البلد اللذين يحبون ماء البلد ونعناعه وترابه". إنه لا يكف عن الإطراء والدعاء وهو ينتظر أن يتراضى الحاضرون ويقبلوا أن يدفع فلان أو فلان ثمن الشاي إذ كثيرا ما يحدث بين الحاضرين ما يشبه المعركة من أجل الدفع وهي معركة فيها كثير من الادعاء والنقاش، أي اللعب، يفوز فيها الأكثر قدرة على التمثيل إما بأن يؤدي، إذا كانت له مصلحة في ذلك، أو بأن يتجنب الأداء ببراعة كبار الممثلين. الشاطر حقا من يعرف كيف يظهر

الكرم من غير أن يضر بجيبه والحال أن لا أحد يحب، ولا ينبغي له، أن يوصف بأنه من البخلاء أو من الطفيليين ولو كان بالفعل واحدا من هؤلاء أو أولئك. لكن النادل يعرف بحدسه من البخيل ومن الكريم والتمثيلية لا تملك أي سر بالنسبة إليه. وقد يشارك فيها، إذا وجد متواطئا معه، لتوريط بخيل أو طفيلي وأحيانا لتجنيب كريم حقيقي الإسراف. لعبة يتقنها كما يتقن لعبة الإطراء ويتقن لعبة النميمة في المجتمع. وعلى العكس منه تماما فإن مساعدي عبد السلام لا يتقنون سوى شيء واحد: العمل. وكما أن رائحة الشاي تفوح باستمرار من جسد النادل فإن رائحة الحبوب تفوح على الدوام من جسدهما وحتى عندما يذهبان إلى الحمام فإن هذه الرائحة لا تنقطع.

هذا المكان كله ملئي بروائح الشاي والحبوب والتراب. وهي روائح لا تسود بنفس الشكل في كل أرجائه، ففي المكتب والصالون تغلب رائحة الشاي، وفي الداخل، حيث المطامير والأدراج التي رتبت فيها الأكياس، لا منافس لرائحة الحبوب، وعندما يرتفع عدد الفلاحين في المدخل لا تشم إلا رائحة التراب. وعندما تغادر المخزن إلى الزقاق تنتشر روائح البهائم وتسود.

جميع هذه الروائح تتغير بحسب الفصول وطبيعة الطقس، بالخصوص، فرائحة الحبوب مثلا تصير رطبة في الشتاء ورائحة الشاي تصبح نفاذة عندما يشتد البرد بينما ترتفع سخونة رائحة البهائم، وقد كان البرد شديدا ذلك اليوم بحيث طغت رائحة الشاي على كل أرجاء المدخل، رائحة نفاذة منعشة ودافئة. وحميدة النادل عندما تنخفض درجات الحرارة وترتفع درجات رائحة الشاي يشعر بالأهمية إلى حد "الجنون" أحيانا إذ يفلت منه حس مراعاة التراتبية الاجتماعية وتقدير المقام. وهكذا كان الأمر صباح

ذلك اليوم إذ أدار ظهره فجأة لمعركة أداء، كان يعرف نتيجتها مسبقا، وقال لعبد السلام بصوت شامت وكأنه ينم عليه في حضرة المكي وحمان وأحمد:

-فعلها الشريف ابن الشرفاء والآن لم يبق إلا دور الشريف مولاي عبد السلام!

فشهر عبد السلام عكازه في وجهه متوعدا:

-أغرب عن وجهي يا وجه النحس وإلا هشمت رأسك!

فخرج النادل هاربا بينما ظلت فرائس عبد السلام ترتعد وكأنه أصيب بنوبة هستيرية.

تدخل حمان:

-نؤجل الحديث في هذا الموضوع إلى المساء، إلى ما بعد صلاة العشاء.

وسانده أحمد:

-لا يمكن أن نتحدث في أمر كهذا في حضور العامة! وقف الثلاثة وانصرفوا.

من عادة الأربعة أن يصلوا معا صلاة المغرب ثم يتفرقوا حوالي ساعة ثم يعودون للقاء من جديد ليصلوا معا العشاء وليسهروا معا إلى حدود الحادية عشرة فيذهب كل واحد منهم إلى بيته بعد أن يكون أولاده قد ناموا:

-"ساعة الدنيا"!

أما ما يفعلونه خلال تلك "الساعة" التي يتفرقون خلالها بعد صلاة العشاء فإنهم يعتقدون في أن لا علم لأحد من "العامة" بذلك. غير أن حميدة يؤمن إيمانا راسخا بأنهم يتفرغون لخليلاتهم ثم يدخلون إلى بيوتهم:

-وقد غسلوا أفواههم بالماء والصابون كأنهم أولياء من أولياء الله الصالحين !

ورغم أنه يملك الكثير من الأدلة على هذا المر فإنه لم يطلع عليه سوى زوجته. ولأنه يدرك خطورة سر كهذا فإنه لم يبح لها به إلا مضطرا إذ عاد ذات ليلة متأخرا من المقهى، كما يحدث له في بعض الأحيان، فهددته، إذا استمر يتأخر، بجمع حاجاتها والذهاب إلى بيت أبيها، فقال لها:

-ماذا تظنين أني أفعل، مثل الأربعة؟

-فأصرت على أن تعرف قصة الأربعة أو أن يطلقها فحكى لها ما "يفعلونه خلال تلك الساعة". أما اهتمامات الأربعة بعد "هذه الساعة"، وبعد أداء صلاة العشاء، فإن الجميع على علم بها:

إنهم يجتمعون كل ليلة للعب الشطرنج !

والواقع أن هذه اللعبة ليست سوى مناسبة للحديث، بعيدا عما يسمونه العوام، في أمورهم الخاصة وفي شؤون البلاد. وهذا الموضوع، موضوع الخبر الذي شاع بين الناس منذ أكثر من أسبوع، له علاقة مباشرة وخطيرة بأمورهم الخاصة وبالشؤون العامة. لذلك شغلهم إلى درجة أنهم، وعلى غير عادتهم، تكلموا فيه في مَحل عمومي وكادوا يشركون فيه "الغوغاء":

-الشريف يهرب ويتزوج بنصرانية !

أما وقد اختلوا إلى بعضهم البعض في بيت عبد السلام بعد أن نصبت بينهم رقعة الشطرنج ووضع إبريق القرفة، ليغلي على نار خفيفة، ونام الأولاد والنساء والخدم، فإن الحديث قد اتخذ طابعا آخر وكان عبد السلام أول من عاد إلى الموضوع:

-أما إذا صح الخبر يا إخوان فلننتظر الساعة !

وتدخل المكي ليترجم ما كان يدور سرا في خلد الجميع:

-لا دخان بلا نار... ينبغي أن نتعامل مع الخبر على أساس أنه صحيح... وربما وجب علينا أن نعترف بدورنا في هذه المصيبة إذا أردنا أن نفهمها ونتقي شرها قبل أن تعصف بنا جميعا...

أي شر وأية مصيبة ؟

قال أحمد العدل:

-أن تغرينا بنات المستعمر الفاجرات !

فوافق حمان برغم أنه مازال يشعر بالرغبة في الإفاضة في وصف جمال تلك المرأة وفتنتها:

-خيرا نطق المكي وعلينا أن نفهم ما حدث !

فتابع المكي الذي استيقظت لديه واقعية الفلاح وحدسه:

-إن هذا الخطر يتسرب بالتدريج كالعدوى؛ تذكرون يوم عاد الرجل من الحج سنة 1899؟ لقد أخذ يتردد باستمرار على مفوضية الفرنصيص وأصبح يلبس مثلهم... كما أدمن أم الكبائر وبدأ ينتقل بواسطة "حصان الريح" وصرنا نرى بعض الفرنصيص يترددون على بيته... ومن هؤلاء صديقك، يا حمان، إن كنت تذكر...

وأكد حمان وكأنه يتخلص من شعور بالذنب:

-نعم، في بيت الشريف تعرفت عليه !

فاستطرد المكي وهو يحاول إخفاء ابتسامة خبيثة:

-ما فعلنا نحن!؟

صاح عبد السلام وكأنه يدفع التهمة عن نفسه:

-قلنا له: عيب... حرام... يجب أن تستغفر ربك وتتوب!

واستغل المكي الفرصة ليحول الحديث إلى استجواب:

-وماذا كان رده... هل تذكر رده كاملا يا عبد السلام ؟

وانتفض عبد السلام وهو لا يدري إن كان الأمر يتعلق بإهانة أو اتهام أو إدانة:

–قال لنا بالحرف: يجب أن نستعد ليوم عصيب وهو يوم ينبغي أن نهيأ له الآن، استعدوا لمعاشرة الفرنسيين فإنهم شر لابد منه لفترة قليلة من الزمان الآتي...!

ولم يتركه المكي يكمل إذ سأل:

–وماذا قلت له أنت بلساننا جميعا ؟

فعاد لعبد السلام بعض الهدوء بعد أن أحس بما في هذا السؤال الأخير من تبرئة الذمة:

–قلنا له: أنت إمامنا ومرشدنا، أنت أميرنا وفي مكانة ممثل أمير المؤمنين... ولكن هل راعيت رأي السلطان؟

فسكت طويلا، كما تذكرون، ثم قال:

–إن لنا قدوة في مولانا السلطان !

وبقيت تلك العبارة غامضة !

تدخل احمد وكأنه يخاف أن ينسى عبد السلام شيئا هاما:

–وماذا فعل السلطان بعد ذلك بحوالي عام !؟ أرسل إلينا باشا من الحوز وأهان الشريف...

فقاطعه المكي ليعيد الحديث إلى موضوعه:

–وماذا فعلنا نحن؟ ألم ننقطع عن زيارته لفترة طويلة حتى تابعنا في ذاك العوام ومرض مرضه الطويل آنذاك!؟

وأضاف حمان:

–بل، ماذا فعلنا حين هجرته زوجته وأولاده وذهبوا جميعا إلى فاس عند خالهم القاضي؟ ألم يكن بيننا عزيزا فذل !؟ ألم نكن نرى جرحه الداخلي

ينزف حتى ذبل وأشرف على الهلاك!؟ الطعنة القاتلة هي تلك التي وجهت إليه من طرف زوجته وأولاده، فماذا صنعنا له نحن المقربين إليه !؟ لقد انصرفنا عنه كما انصرفت عنه العامة... وها نحن نجني ثمرة ما غرسنا بأيدينا: رجل حر دعا إلى حقن دماء إخوانه فصار خائنا وتزوج من نصرانية كافرة بالله!

-لا، بارك الله فيك...

احتج العدل قبل أن يتابع:

-لا، الشهادة لله. الرجل كان من المتصرفة المتغيرة، الله يهديك؛ في كل وقت مع فرقة، حتى لما رجع من بيت الله!

أحس حمان بأن الحديث سيغرق من جديد في قضية "الفرقة الناجية" فأوقف العدل:

-نحن من أهل السنة والجماعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أما من خرج عنا فقد ضل والضال لا شأن له بنا ولا شأن لنا به إلا إذا حمل السلاح ضد أهله!

فأمسك العدل بالعصا من آخرها:

-الخلاف، عندنا، في الخروج عن الجماعة، خاصة بعد الإكرام والمودة؛ ماذا كن صاحبنا قبل أن يحل بيننا فنكرمه ونحسن إليه ونرفعه إلى درجة الشرف؟ مجرد هارب متغير متصرف!

وهكذا استمر الحديث طويلا إلى وقت متأخر من الليل قبل أن يتفقوا على أن إبليس اللعين، والسبب في كل خلاف بين المسلمين، يسكن نساء النصارى أجمعين!

وحين تفرقوا كان حميدة لا يزال ساهرا مع صديقه عباس الفرناتشي بالحمام الذي خلا من الزبناء باكرا بسبب شدة البرد. النار مازالت تطقطق،

تتكلم، كما يقول حميدة، وقد أضاف عباس قطعا من خشب الكاليبتوس لتطهير المكان. زجاجة لتر الماحية بقي منها الربع وجزء من الطنجية غير بعيد من النار. ليس من عادة الصديقين أن يشربا أكثر من مرة في الأسبوع يسميانها "تعكير الجو". لكنهما شربا البارحة وأول البارحة وهاهما يشربان هذه الليلة أيضا. عباس يؤدي كل الصلوات في وقتها ولم يشرب قط قبل أن يؤدي صلاة العشاء. وهو يقول حين تغلبه الرغبة في الخمرة:

-إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر ولا شك أنها غالبة يوما هذه الرغبة في الهلاك!.

قد يدخن قليلا من الكيف، من حين آخر، خاصة بعد الفطور في رمضان. وهذا كل ما في لائحة موبقاته. بينما حميدة لم يدخن قط. وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه سيتخلى عن شرب الخمر عندما تتحسن حالته الروحية. وما يسميه "حالته الروحية" شيء غامض جدا فهو تارة يفهم منه "حالته المزاجية" وتارة أخرى " حل مشكل نسبه". وقد يفهم منه فقط "تقدمه في السن" أو "الإتيان بولد أو بنت"! والذي يعرفه الجميع أن الرجلين يكرهان الزنى كراهية لا نظير لها.

والذي يعرفه الجميع كذلك أنهما يعيشان في انسجام تام مع زوجتيهما بالرغم من أن لا أحد منهما يلد. وغالبا ما يضرب بهما المثل من طرف النساء وإن كان بعض الرجال يتهكمون ويتندرون منهما. وكثيرا ما يتهامس هؤلاء الخبثاء في موضوع نسب كل من حميدة وعباس.

حميدة أخو "الشريف" الذي يدور حوله الحديث هذه الأيام، غير أنه أخوه من أبيه فقط. وأمه خادم من خدم أبيه. لذلك لم يعترف به أبوه وظل في نظر الجميع ابنا لا شرعيا. بالرغم من أن أخاه "الشريف" اعترف به

وحاول أن يقربه إليه ودمجه في الوسط العائلي فإن حميدة رفض كل ذلك وظل خارج دائرة العائلة "الشريفة" مصرا على ألا يعترف "بشرف" أحد.

أما عباس فلا أحد يعرف أصله وكل ما يعلمه الناس عنه أنه نزل بينهم ذات يوم، وهو لم يصل بعد سن البلوغ، راغبا أن يشتغل في حمام أو فران، وها قد مر على اشتغاله بالحمام أكثر من ثلاثين سنة. وقد سأله مرة حميدة عن أهله فأجابه:

-لا أعرف أحدا من أهلي ولا أعرف إن كان لي أهل أم لا، بل إنني لا أعرف حتى أين ولدت، لقد وجدتني، حين بدأت أعي، في هذا الحمام وكأن لا ماضي لي، كأنني ولدت هنا!

إن انمحاء هذه الفترة كاملة من ذاكرة عباس يجلب له الكثير من الراحة:

-شخص لا طفولة له، ولد في النار وسيموت فيها!

وذلك على العكس تماما من حميدة!

يشرب حميدة بهذا الشكل منذ ثلاثة أيام لأن مزاجه

-قد "اختلط"!

كما يقول، وحين يختلط مزاجه فإن كل حميدة يختلط، يتعكر صفو ذاته فتعمى بصيرته ويحتاج إلى "هذه القذارة" التي تفعل في نفسه فعل الصابون ويسميها، لهذا السبب، تغشت".

أما عباس، فيعرف، من كثرة المعاشرة والمحبة، هذه الحالة عند صاحبه، يعرف كيف يشاركه فيها مشاركة وجدانية عميقة، ويستطيع، أحيانا كثيرة، أن يتوقعها. ذلك أن لهذه الحالة علامات تسبقها: تدريجيا يسيطر الاكتئاب على حميدة، يبدأ يفقد القدرة على الكلام، لا يتحمل أبسط صيغ المزاح المحبب إلى نفسه، يصير صارما، لا متسامحا، متجنبا الاختلاط

بالناس ولا تصبح لديه أية قدرة على التحكم في الصينية وفي تذكر طلبات الزبناء. حينئذ يتحايل عليه عباس، يبحث عن أية وسيلة ليخلو به، ليبعده عن بيته وليترك العمل في المقهى لفترة تطول أو تقصر، حسب درجة الحالة التي يكون عليها حميدة. وعباس يعرف أن هذه الحالة لا تستحوذ على صديقه إلا لسببين غالبا ما يجتمعان معا:

-عندما يطيل حميدة التفكير في عقمه وعندما يسيطر عليه مشكل نسبة!

وقد تصور عباس أن أزمة حميدة الراهنة سببها الخبر الذي شاع حول "الشريف" أخيه. ذلك أن حميدة رغم كل ما ينطق به لسانه من كراهية لأهله وافتخار بأنه "ليس ابن أحد"، ممزق، في الباطن، بين انتماءين:

-انتماء "نقي" لأسرة " الشريف" وانتماء عبثي للنفس وحدها!

وكلما واجه صعوبة أو واجهت "أهله" مأساة استيقظ بهذا الانتماء العسير المزدوج ليعيشه كانشطار، كتيه. وتأخذ هذه الحالة أشكالا متنوعة لديه: مرة شكل ظلم هائل يسقطه على الوجود كله، مرة كتمرد ساخر يأخذ شكل تهكم من كل شيء، ومرات كبكاء داخلي يشبه النزيف الباطني أو كنعمة استقلال تشبه وضع الأولياء والمجاذيب، بل كتعاطف تام مع أخيه "الشريف" الذي كثيرا ما يكون عرضة للمؤامرة والوشايات والدعايات والمكر.

منذ ثلاثة أيام وهو يعيش هذا الوضع الأخير بسبب الخبر الذي حيك حول "الكبيرة" التي يقال إن الشريف قد ارتكبها. طوال تلك الليلة التي قضاها في صحبة عباس بالفران لم يتحدث، بعد أن استدرجه صديقه، إلا عن محنة أخيه مع زوجته وكيف كانت هذه الأخيرة تكيد له، كيف حرضت ضده الأولاد وعزلته في غرفة لينام وحده ولا يكلمه أحد من أولاده ولا يرد

عليه تحية أو يستجيب لطلب من طلباته القليلة البسيطة حتى كاد يفقد عقله بسبب وشاية من خصومه وأعدائه الذين أقنعوا الزوجة زورا بأن له علاقة مع امرأة من إحدى القرى النائية التي لا يزورها إلا مرة واحدة في السنة. وكان حميدة مقتنعا بأن أخاه لا يمكن أن يقوم بفعل شنيع كهذا مدافعا عنه بــأن خصومه وأعداءه قد اهتــدوا إلى نقطة ضعفــه: زوجته التي لا تحبه!

-لا تحب سوى الوجاهة والثروة التي يوفرها لها وضع الشريف الروحي والاجتماعي!

تلك الليلة نسي تماما مشكل نسبه ودافع عن أخيه كما لو كان هو نفسه المعني بالأمر مؤكدا على أن أفراد عائلته، منذ قديم الزمان، لا يزنون ولا يتزوجون بأكثر من زوج سواء في ذلك رجالهم ونساؤهم، فكيف يتهم أخوه بالزنى؟ غير أنه في لحظة من هذه المرافعة انتبه إلى أن أباه قد خرج عن هذه القاعدة فتساءل:

-من أين تسرب إلينا هذا الدم الفاسد، الفاسق؟

وسكت طويلا فظن عباس أن الحالة قد تم تطويقها فسكت بدوره عن السؤال والتعليق ليتركا معا الكلام للنار والماحية والريح التي عندما توقف المطر، أخذت تهدد، كما يقول، عادة، حميدة. غير أن هذا الأخير عاد في الليلة التالية حاملا زجاجة ماحية وقليلا من لحم الكبد والزيتون. طوال هذه الليلة ما نطق حميدة بكلمة غير:

-"الله !"

التي كان ينطقها في أغلب اللحظات طويلة متضرعة.

ولما عاد في الليلة الثالثة كان عباس قد قرر أن يستمر في صمته الذي لم تكن تقطعه إلا بعض الأسئلة القصيرة جدا من نوع:

-"أصب لك؟"

أو

-"تأكل هذه القطعة الصغيرة؟"

والتي كان حميدة يجيب عنها بإشارة ثقيلة من يده اليمنى تفيد "لا !" أو "نعم !"

عندما أفرغت آخر قطرة من الماحية في حلق حميدة تكوم الرجل وأخذ يرسل تنهدات مسترسلة متوالية حتى قال عباس:

-"من الأحسن لك ولي أن تتكلم !"

عاد حميدة إلى وضع الخياط أو تلميذ الكتاب، كما يقول في عبارة شهيرة له

-"تجلس جلسة الطالب ليغفر لنا الله ما نفعل!".

وعندما استوى تماما قال:

-من أين تسرب إلينا هذا الدم الفاسد!

ابتسم عباس:

-أخوك يستمتع برومية وأنت تعذب نفسك بسؤال يتجنبه كل أبناء الأسرة!

لم يسمعه حميدة الذي تابع وكأنه يحدث نفسه:

-هذا الدم جاءنا من والدي اللعين، أكبر منافقي الأرض والسماء، أكبر شياطين الخليقة، وأنا ورثته عنه!

هذه المرة، عباس هو الذي لم يسمع، لم يسمع

-"وأنا ورثته عنه!"

فأخذ يطمئنه:

–قدر ومكتوب ولا دخل لك فيه كما لا راد له إلا الله، فلم تعذب نفسك بما يستمتع بع غيرك!؟

توقف حميدة فجأة وتكور من جديد ثم أخذ يتمايل إلى الوراء والأمام قبل أن يجمع وعيه ويقول لصديقه:

–إني أقصد نفسي هذه المرة!

علق عباس مواسيا بلطف:

–أنت رجل طيب، شريف وخير!

وتابع حميدة بصوت أجش:

–لقد تسرب إلي الدم الفاسد وها هو قد بدأ عمله الخبيث في!

ظل الحنو يغلف صوت عباس الذي بدأ يدرك أن هناك سرا، خبرا آخر خطيرا:

–اسمع يا حبيب الله: قل لي ما في نفسك واسترح، إني حمال المآسي!

انفجر حميدة باكيا ومتكلما في نفس الوقت:

–إني... أحب... امرأة ... متزوجة!

حاول عباس أن يخفي المفاجأة التي ملأته رعبا فجأة وأن يقلل من طول هذا الاعتراف الصعب:

–احك... قل كل شيء دفعة واحدة واتركنـــا نتدبر الأمر!

تردد حميدة لحظة ثم أخذ يحكــــي باسترسال قصة حبه لرقية زوجة حمان السرجان!

–تقتل بالزين والحلاوة، تخرج العقل!

شاهد حميدة رقية، لأول مرة، منذ سنوات، وهي عائدة إلى بيتها من الحمام. كان يسير وراءها بالصدفة وهي تتقدمه بخمسين مترا. مالت الشمس لتملأ الزقاق قبل أن تغرب. إنه يمشي في حياء يشبه اللامبالاة. وهي تسير

أمامه في حشمة تقليدية تعرف النساء، أحيانا، كيف تجعلها شكلا من أشكال السحر الأنثوي التقليدي، المرأة خفيفة هادئة متمايلة بلطف، من حين لآخر، داخل جلبابها الطويل وحجابها الذي يلف الرأس كاملا بكثافته التي تجعل أعلاها يظهر وكأنه سلحفاة بحرية ضخمة. لم يهتم بها، بل لم "يرها" فهي مجرد أنثى تسير أمامه! ولم يتعرف عليها، فهناك نساء كثيرات لا يغادرن بيوتهن إلا نادرا وحين تراهن بهذا الشكل لا يمكن أن تتعرف عليهن إن لم تكن تعرفهن جيدا، الهيئة أو الرائحة على الأقل، وتعرف على الأقل بعض أشيائهن المميزة كالجلباب أو البلغة أو شكل الصدر أو طريقة النظر. وهو لم ير قط هذه المرأة برغم كل ما سمع عن جمالها الغريب وسحرها الفريد. يعرف، بالطبع، كباقي الناس، أنها لم تبلغ بعد الثلاثين وأن حمان الذي يكبرها بسبعة وعشرين عاما والذي عاد بها من إحدى رحلاته إلى "سوس"، قد تزوجها منذ أربعة عشرة سنة، أي منذ بلغت زوجته الأولى الأربعين وأحس أن لحمه ولحم هذه الأخيرة قد "تخاويا" بعد وضعها لخمسة أولاد وأربع بنات. يعرف كذلك، كما يعرف الجميع، أن هذه السوسية ليست سوى خليلة شرعية لحمان الذي أطلق العنان لزوجته الأولى، حادة الدكالية، المتصرفة المطلقة في البيت والمشرفة على تسيير كل شيء، بما في ذلك علاقة السرجان مع السوسية. وأهل الكريمات يحكون أشياء غريبة في هذا الموضوع منها أن الدكالية هي التي تختار ليلة السوسية مع السرجان وهي التي تشرف على جميع طقوس هذه الليلة كما يقولون أن الدكالية قد تصرفت في رحم السوسية لتجعل منها امرأة عاقر وأنها لا تتردد في أن تطلب منها أشياء سرية جدا من تلك التي تجرى بين بعض النساء في الخفاء. والله أعلى وأعلم!

هذا كل ما يعرفه عنها، أي أنه لا يعرف عنها أكثر مما يعرفه الآخرون. وبطبيعة الحال، فإنه لا يفهم كيف يمكن لرجل أن يتخذ خليلة بهذه "السرية المفضوحة" التي تديرها الدكالية ولا كيف أن يكون متعدد الزوجات وأن يضيف إليهن خليلة:

–إن السائل الفاسد، يردد حميدة، من صنع الشيطان نفسه والشيطان قد خلق ليكيد لبني آدم إلى يوم الدين، ماء السرجان ماء فاسد بكل تأكيد.

كانت المرأة قد أوشكت على أن تميل نحو اليمين لتدخل في زقاق ضيق يؤدي بها مباشرة إلى البيت. لكنها، في تلك الزاوية، وبدل أن تعرج يمينا، توقفت فجأة وكشفت عن ساقيها ثم أخذت تضبط وضع رجليها في البلغة. من تلك الساقين الصقيلتين الشمعيتين انبلجت أشعة شمس نصفها في الأرض ونصفها في السماء وخيل لحميدة أن الشمس تخرج من الساقين لتنتشر في المغرب ...

كان قد توقف، تسمر في مكانه وعيناه جاحظتان تماما، كأن الشمس، في الساقين، قد ذهبت بنورهما. لم يدر كم طالت تلك البرهة التي يذكرها الآن وكأنها الدهر، فجأة تنط المرأة وتلتفت نحوه قبل أن تختفي في الجهة الأخرى من الزاوية. ولما استرد وعيه كان يحس بأن جسده يتفتت، يتحول إلى رماد ملتهب كل ذرة فيه جمرة حامية لا قبل له بحرارتها. استغرق في نوم طويل وعميق بمجرد ما تكور في فراشه. ولما استيقظ قبل الفجر تذكر أنه طوال نومه أحس بأنه وسط شمس الساقين وأن هذه الشمس باتت ترتفع حرارتها بدون توقف. والأغرب من ذلك أن الحمى قد زالت بشكل تام لكن صورة شمس الساقين ظلت لصيقة بنظره ولم يجد وسيلة للتخلص منها. حمل نفسه وقصد بيت صديقه عباس، الفران:

–ما يقيك من البرد، تقول البدو، هو ما يقيك من الحرارة!

طوال الطريق ظل يشعر بأنه فقد الرؤية، بأن شمس الساقين قد تسربت إلى عينيه واستقرت بهما لتصيبيه بالعمى. وحكى لعباس كل شيء بتفصيل. فكر عباس في أن صاحبه قد بدأ يجن لكثرة تفكيره في عقمه ونسبه، ثم تصور أن المرأة قد تكون جنية لا امرأة السرجان، ثم تخيل... وتذكر ما يحكى، في الشاوية، عن أهل سوس، من إتقان لفنون السحر وأن صديقه قد تعرض لمحاولة مكر. إنه يدرك مقدار جمال صاحبه؛ ألم يحك له حميدة كيف اضطرت أمه إلى إخفاء جمال وجهها بواسطة أنواع من الوشم غريبة لكي تتمكن من العمل الشريف وتجنب مكائد الرجال؟ ألم يقل له هو نفسه كيف أن هذا الجمال كثيرا ما يتخلص من وشمه ويصبح أخاذا لا قبل لأحد بسحره وأن هذا ما حدث بالضبط لوالده مع أمه؟ وها هو يؤكد له ما رواه عن أبيه الذي سمعه سرا يحدث رجلا جاءه طالبا بركته من فاس:

-يملك كل واحد منا قدرا من الجمال المادي أو المعنوي يجهله أو يتجاهله. وفي يوم ما يتدخل الشيطان ليسلب عقله بواسطته، خذ... هذا كتاب الله... اقرأ منه كل ليلة ما تريد من السور على أن تختم ذلك بقراءتك لسورة سيدنا سليمان!

كل ذلك طاف بفكر عباس وهو يستمع إلى صديقه يحكي محنته. لكنه بم يقل له أي شيء من ذلك. ولما بدأ حميدة يستغرب:

-عجيب هذا الأمر! أنا ما يثير انتباهي، لأول مرة، في المرأة هو الصدر، وحتى الدجاج... إنني أفضل الصدر على ماعداه ولا أحب، على عكس أغلب الناس، فخذ الدجاج... وها أنت ترى أن الساقين قد ذهبتا بعقلي وبصري!

آنذاك قال عباس مازحا:

-أسيدي اذبح دجاجة أو اثنين، بل أنثى ديك رومي وكل من الصدر إلى أن تشبع ويتوب الله عليك، أو كل ... من الساقين!

غير أن حميدة لم يبتسم، فعاد عباس إلى الجد:

-قل لي أحميدة !؟ منذ متى لم تقرأ كتاب الله !؟

فوجئ حميدة:

-والله أسيدي ... منذ أكثر من ستة أشهر ... ويخيل إلي أني نسيته تماما !

إن الرجلين يحفظان عن ظهر قلب القرآن. وإذا كان عباس لا يذكر أنى حفظه ولا كيف، فإن حميدة يعرف أن أمه قد استعملت كل الوسائل لتحبب إليه حفظ القرآن ولما أتم "السلكة الأولى" لفظت أنفاسها بمجرد ما أبصرته وسط الطلبة محتفى به. لذلك أعاده سؤال عباس إلى طفولته، إلى أمه وكاد ينسى همه. استخرجه عباس من ذلك:

-اقرأ سورة يوسف بقدر ما تستطيع كل ليلة وسيذهب عنك هذا السحر !

لم ينتبه عباس إلى لفظ "السحر". إلا أن الكلمة قد فعلت فعلها في حميدة. وقد أكثر من قراءة سورة يوسف فزالت محنته في أقل من أسبوع ونسي الحكاية تماما، كان ذلك قبل أربع سنوات قبل أن تظهر له رقية من جديد!

لم يذهب عباس، على غير عادته، إلى الحمام قبيل الفجر. البارحة وهو يغادره باكرا صحبة حميدة، أوصى بوجمعة الكسال بأن ينوب عنه في تسخين الماء وقرر أن يبقى نائما إلى الضحى:

-أحيانا اكره الماء الساخن واكره النار ورائحة بني آدم كمن يصاب فجأة بكراهية للطعام أو الشراب أو ...

قال لحميدة وهما يخرجان:

-وأشعر برغبة في أن أنام دهرا بكامله أو أن أخرج من البلد ولا أعود إليه إلا وقد فقدت الوعي كما جئت إليه، أضاف.

وقال حميدة مواسيا:

-هذه النفس لئيمة وملومة، كذلك أشعر في المقهى، تتولد عندي حساسية للشاي والسكر والنعناع فأصاب بما يشبه الزكام، كما تعلم، وألزم فراشي ليومين أو ثلاثة لا أشرب إلا الشيح والزعتر!

ثم تحدثا عن فوائد الأعشاب الطبية وزيارة الأولياء وافترقا.

كان عباس قد وصل إلى بيته وكان حميدة يريد أن يمشي لمدة، حوالي خمس دقائق، قبل أن يصل إلى البيت. لا يذكر كيف عاد إلى المقهى الذي وجده مغلقا كما تركه. واصل السير نحو بيته، وفجأة بدت له رقية تحت ضوء القمر الخافت شهابا يتمايل في هدوء وفتنة. بدأ يرتعش، أخذت درجة حرارته ترتفع وأحس أنه سيفقد وعيه. وفي هذه اللحظة بالذات أسعفته رقية:

-تعال ... تماسك ... أعطيني يدك !

كانت واقفة وكان يسير نحوها وكأنه مجرد آلة. أمسكت بيده اليسرى وجرته بلطف نحو دار خربة. وهناك استيقظ على مشهد قطة مازالت تعبث، غير بعيد منه، بفأر صغير كانت قد قتلته. انتبه إلى نفسه، كان عاريا وثيابه مبعثرة من حوله. طرد القطة وأخذ يجمع ملابسه. ارتداها ببطء قبل أن يرفع بصره إلى السماء. القمر المكتمل بقي ثابتا في مكانه حيث رآه قبل أن يحدث له ما حدث. حاول أن يتذكر ما حدث. نظر حوله ليتأكد من أن المكان خال. لا أحد، لا صوت، لا شيء سوى رائحة رقية. رائحة الخزامى تملأ الفضاء، تفوح من جسده وكأنه خارج فورا من حمام الخزامى. طرق

مرة أخرى باب صديقه. لا أحد يجيب. خرج من الخربة وذهب إلى الحمام. لم يجد سوى بوجمّعة يلعب الورق وحده:

-تلعب معي !؟، سأله بوجمعة.

-لا أعرف، لا ألعب الورق، أريد أن أستحم، أجاب.

قال بوجمعة:

-الماء بارد، انتظر قليلا أسخن لك سطلا في بيت النار!

جلس فوق بردعة حمار قديمة وأخذ ينتظر. ملأ بوجمعة جرة ووضعها في بيت النار:

-ربع ساعة وتستطيع أن تغتسل !

وعاد يتربع على تليس متآكل يستعمله عباس للجلوس مع حميدة كما يستعمله فراشا للاسترخاء. وزرع بوجمعة الكارطة بينه وبين خصم وهمي. لاحظ حميدة أن بوجمعة يتكلم مع امرأة فتذكر سخونة رقية. قالت له قبل أن تتركه ملقى في تلك الخربة:

-أنت لست عقيما، زوجتك هي العاقر !

استغرب:

-لكن زوجتي أنجبت من زوجها الأول طفلا وأنا لم أنجب معها شيئا!

قبلته في جبينه بحنان:

-معي ستنجب طفلا وبنتا !

تصور أنها تسخر منه:

-أنت متزوجة وأنا متزوج، هذا مستحيل !

قبلته مرة أخرى في جبينه بحنان أكبر:

-سترى أن لا شيء معي مستحيل، وانصرفت.

وحين فتح عينيه اعتقد أن الأمر يتعلق بحلم.لكن، وثيابه المعثرة من حوله؟ ورائحة الخزامى، هل ينام في مزرعة خزامى؟ خزامى في تلك الخربة!

أخذ بوجمعة يشتم خصمه، ثم نهض:

–لن ألعب معك مرة أخرى، أنت غشاشة...حتى في الكارطة تغشين !

ثم استدار نحو حميدة وأخذ يتفحصه وكأنه يراه لأول مرة، ثم صوب يده نحوه:

–أعطيني هذا الدفتر لأسجل فيه النقط وأضع على الأقل حدا لزيادات هذه المرأة في ما تحصل عليه من نقط، لأجد على الأقل وسيلة لمعرفة كيف تغلبني دائما!

دفتر !؟ نظر حميدة إلى حيث تمتد اليد، هناك شيء كالدفتر يتدلى من جيبه: مجموعة أوراق صفراء مشدودة إلى بعضها البعض بخيط رفيع. قرأ الورقة الأولى: عبارة بربرية تحتها: "ديوان شعر من تأليف رقية الركونية" مازال يفهم قليلا من تشلحيت التي علمتها له أمه: "أمان يخسرن"! ديوان شعر من تأليف...! طرق باب عباس بقوة أكبر. لا أحد أجاب، لا حركة، قال بوجمعة:

–الماء سخن!

وأخرجه من بيت النار ثم أفرغه في سطل كبير من الخشب ومده إليه:

–اغسل الخزامى!

حمل الماء ودخل حيث البرمة، الحمام دافئ جدا. ترك السطل قريبا وعاد إلى حيث بوجمعة لكي يخلع ثيابه. رأى خرقة مرمية فأمسك بها وستر

بها عورته. دلف من جديد إلى حيث السطل. لم يصدق عينيه. طرق باب عباس بعنف مستجيرا. لا حركة!

-أنت، رقية... ماذا تفعلين هنا !؟

-جئت أنظفك، يدك لا تصل إلى ظهرك ... زوجتك لا تنظف ظهرك، تعال!

قالت بحنان أمومي، فتقدم نحوها بشكل آلي، آلي تماما. دلكت ظهره، ثم حوضه، ثم يديه، قم فخديه، ثم ساقيه، ثم قدميه، ثم أصابع رجليه، ثم شرعت في طلي جسده بالصابون بادئة بأصابع القدمين صاعدة تدريجيا نحو الرقبة، اعتنت بشكل خاص بالعمود الفقري وهي تردد:

-استرح... استرخ... إنه يخرج من بين الصلب... استخرج... استرخ!

وظل يسترخي إلى أن نام، طرق باب الصديق بكلتي يديه. لا أحد يرد. ولما استيقظ كان عاريا تماما مرة أخرى، بحث عن الخرقة التي كان قد ستر بها عورته، اختفت. تشمم رائحة الخزامى. لم يشتم سوى رائحة الصابون .البلدي، طرق الباب من جديد، أجابه الصمت المطلق من الداخل. خرج يبحث عن ثيابه. حمد الله على أن بوجمعة كان منهمكا في شجار حاد مع خصمه. ارتدى ملابسه و بحث عن الدفتر في كل جيوبه. كان بوجمعة ممسكا بالدفتر وهو يحلف:

-والله ما أخطأت... خذي الدفتر واحسبي المجموع من جديد!

اقترب منه حميدة وخطف الدفتر من يده وخرج. مازال يطرق الباب:

-هل ماتوا بدورهم!؟

نور القمر قد ازداد إشعاعه، الليل كأنه نهار، الأزقة مقفرة إلا من بعض القطط والكلاب. وجد نفسه يمر من جديد بالقرب من تلك الخربة.

اقترب من الزاوية التي رأى ساقيها منها لأول مرة، أبصر قطة تموء مواء كالاستعطاف، ذهل إذ لاحظ أنها تحك جسدها بعنف على الأرض ثم تدور حول نفسها ثم تقفز إلى أعلى ما تستطيع ثم ترمي بجسدها فوق الأرض بأعنف ما تقدر ثم تعيد نفس الحركات مرات عديدة وكأنها تحاول أن تنتحر. غير بعيد من القطة يجلس قط في هدوء ينظر إليها من غير أن يفعل شيئا، بل خيل لحميدة أن القط كان يضحك بخبث وأنه يتلذذ بما تفعله القطة. آنئذ فكر في أن تلك القطة لا يمكن أن تكون إلا رقية وأن القط حمان السرجان بذاته وصفاته. لذلك، ربما، تصور أنهما جنيان. فجرى نحو بيت صديقه، أخذ يطرق الباب بعصا غليظة، سمع صوت زوجته عباس تشتم:

-الصباح لله... انتظر يا نذير الشؤم !

ولما رأته اعتذرت

- ظننتك أبي... هو الذي يأتي في مثل هذا الوقت... مالك... كأنك خارج من الحبس... !؟

لم يتركها تكمل:

-أيقظي عباس!

وجاءه صوت عباس لطيفا:

-عباس استيقظ... تعال... هل احترقت الكريمات كاملة أم مازال بها بعض الأحياء !؟ ونحن... أين نحن... في الدنيا أم في الآخرة... مالك... تبدو خارجا للتو من مجرى القانورات! اجلس هنا جنبي! ... ما بك؟

وجلس جنب صاحبه ثم حكى له كل ما وقع له تلك الليلة. فلما سأله عباس:

-هل سبق لك أن اشتغلت في المذابح أو في حمام أو فران !؟ كانت الزوجة قد دخلت بالحليب والحلوى فسألت حميدة:

-تريد الاشتغال في حمام أو فران؟ ولم تنتظر الجواب:

-حذار... أنظر إلى صاحبك... إن النار تقتات من الدم!

أدرك عباس سوء التفاهم فطلب من زوجته أن تهييء شايا. انتظر حميدة خروج المرأة ليسأل صديقه:

-لماذا تسألني هذا السؤال!؟

تردد عباس في الجواب:

-على كل حال... أنت تشتغل في مقهى!

لم يفهم حميدة:

-ما علاقة هذا بكل ما مر بي هذه الليلة!؟

تظاهر عباس بالتفكير:

-هذه الأماكن يا سيدي مسكونة... مثلها مثل الخرب!

احتج حميدة:

-أتؤمن بمثل هذه الخرافات!؟ ليس عليها دليل، على كل حال! علا صوت عباس:

-الدليل في النفس، أنا عندي الدليل! ...

ثم هدأ وقال:

-أنا أيضا كثيرا ما تخرج إلي امرأة في الحمام ليلا وتفعل معي مثل ما تفعله معك رقية... هذه المرأة اسمها لاله ميرة، ميرة... وهي متزوجة كرقية... ترفض أن تطلعني على هوية زوجها... أنا أعرف أنها زوجة... عبد السلام... نعم عبد السلام !

لم يصدق حميدة أذنيه:

-لا أصدق... لا يمكن أن أصدق أن رقية مجرد وهم!

وتابع عباس:

-وأنا لم أقل شيئا من ذلك... دعني أكمل... بوجمعة... الكسال... تعرفه!؟... بوجمعة في كل ليلة يقضيها في الحمام تأتيه زوجة المكي تلعب معه الكارطة وأشياء أخرى!

آنئذ اضطر حميدة إلى التفكير:

-إما أن هؤلاء النسوة ساحرات وإما أنهن جنيات وإما أنهن أوهام فقط، مجرد خيالات!

وكاد عباس أن يوافق:

-أنا عرضت الأمر على الفقيه السوسي... اخترعت حكاية مثل حكايتي عن أحد زملائي... أتعرف ماذا قال لي الفقيه؟ قال لي: لقد ثبت عن أحد العلماء أنه، بعد أن استشارة شيخة رضي الله عنه، قال لرجل كان يعشق امرأة متزوجة: إذا لم يكن لك أمل في تطليقها من زوجها لتتزوجها اتركها... قال الرجل: لماذا أتركها وأنا أحبها وهي تحبني!؟ ... قال العالم الجليل: إن عشق المتزوجات، بالإضافة إلى أنه زنى وخيانة، يؤدي إلى ضعف الإرادة والهمة، يقضي على الأمل في الدنيا والآخرة، يورث الخيالات، في النفس، وإذا غلبت الخيالات على النفس مالت إلى الجريمة أو الجنون، فاتق الله في نفسك!

لم يصدق حميدة أذنيه وأخذ يقلب هذا الكلام على جميع الوجوه، يزنه على ضوء حالته وحالات عباس وبوجمعة، يقارن بين هذه الحالات ويستغرب كيف اجتمع ثلاثة فقراء على عشق ثلاث من زوجات الأغنياء إلى أن اهتدى إلى القول:

-على كل حال، يجب علي أن أغادر هذا البلد... هؤلاء القوم... هذه المنطقة!

فجاءه تعليق عباس كالصدى:

-أنا أيضا كنت أفكر مثلك... كنت أريد أن أقول لك انج بجلدك من هذه الناحية!

-ساخرج... سآخذ زوجتي وأخرج، أكد حميدة!

-ولكن أين يمكننا أن نخرج... أين تريد أن تخرج!؟ ... كل نواحي المغرب مسكونة هذه الأيام، أضاف عباس نادما!

-أنا سأخرج وحدي مع زوجتي... بدونك... وسأجد حتما ناحية غير مسكونة بالخيالات... الدار البيضاء، مثلا، تتوسع وفيها عمل لكل الناس... وسآتي لآخذك مع زوجتك... احتج حميدة!

كان قد وقف وكانت زوجة عباس واقفة بالباب تحمل صينية الشاي. داهمها حميدة وخرج. صاحت:

-الشاي أحميدة... الشاي!

قال عباس:

-دعيه يخرج... لقد شرب ما يكفي من الخيالات... ليته يجد مخرجا... له... ولنا جميعا!

ظل حميدة يبحث عن طريق يقنع بها زوجته بالخروج. فكر في أن يحكي لها كل شيء. خاف أن يصدمها، قرر في النهاية بعد طول فكر، أن يخترع أكذوبة. سعى إلى خلق جو يسمح لزوجته بتصديقه. قال لها:

-مضى زمن لم أذق خلاله من يديك تلك الشهيوات التي لا يحسن صنعها غيرك: السفنج، رزة القاضي، البغرير... هلكتنا بالملوي والفطير الله يهلكك!

انتبهت: تعرف طرقه الصبيانية في الطلب. فرح: اعتبر أن الرهان مربوح، قالت:

-ماذا تريد على وجه التحديد؟ قل لي وأنا أهيئ لك ما تشاء ولو اقتضى الأمر أن أقترض من الجيران!

فكر في الوقت الذي يتطلبه إعداد تلك الشهيوات:

-نفسي الآن في بيضتين مقليتين في الزيت البلدي مع زيتون!

-فقط ؟ حالا، قالت بخبث !

ونظر إلى ساقيها... إلى كل أطرافها... تفحصها في برهة وكأنه يراها لأول مرة: أطراف رقيقة، رفيعة، عجيزة مليئة، صدر مكتنز، كتفان عريضتان... ووجه كالبرتقالة... شكل رجولي! شيء ما أخطأته الطبيعة في هذه المرأة!؟... لا... عنكبوت!... عنكبوت رهيب الجمال... نفاذ السحر... ورقية السوسية؟ رقية قطة... قطة فقط... قطة أحسن خلقها... فيها عيب واحد... عيبها... ربما... أنها وحشية... تحب الترع والخرب، مثل القطط البرية بينما زوجتي تحب الغرفة النظيفة المرتبة الدافئة... السعدية الأمان... الاطمئنان... رقية الخوف... الرهبة... والسعدية البساطة... التلقائية... الهدوء... أما رقية... لغز... الحمى... الدوخة... الدهشة... "خرجان لعقل"!...

عادت السعدية تحمل بيد صحنا مازالت تتراقص فيه حبات الزيتون والزيت وأطراف البيض... وفي اليد الأخرى صينية:

-أمسك الصينية... الصحن ساخن جدا!

وأعادته رائحة الزيتون والشاي إلى موضوعه:

-الناس يقولون إن الفرنسيين يهيئون جيوشا لا قبل لنا بها من أجل تدعيم احتلالهم للمنطقة والتصدي للمقاومة!

تظاهرت بأنها لم تسمع:

-وهم يوجدون في كل مكان بيننا... بعضهم شركاء لبعضنا في التجارة... وبعضهم يتجول متنكرا... متسولا أو زقاصا... ومنهم من يرتدي لباس اليهود أو الفقهاء... وفي كل مكان لهم أتباع ومتعاونون وعيون من بيننا... بالإضافة إلى عساكر هم وحكامهم!

صبت الشاي ومدت إليه كأسا أخرى وهي تمعن النظر فيه:

-وماذا تستطيع أن تفعل... أنت... أو أنا!؟

أحس بأنه يقترب من مراده:

-بل، ماذا ينبغي أن أفعل... أنا وأنت؟

خفضت بصرها:

-وماذا يجب أن نفعل!؟

استجمع قواه وصاح:

-نرحل... نترك هذه المنطقة قبل أن تشتعل من جديد!

تشاغلت بتجميع ما تبقى في الصحن:

-ومم أنت خائف... على أي شيء أنت خائف!؟

أدرك أنها تشفق عليه وأحس بالخجل:

-من كل شيء... أنا خائف... من ... لا أحب النصارى... لقد قتلوا منا الكثير في إسبانيا ونكلوا بأجدادي... بكل المتغيرة المتصرفة... طبعا!

حاولت أن تواسيه:

-رحمهم الله جميعا... لكن ذلك زمن مضى... زمن اليوم شيء آخر... لم يعد لنا فيه ما نفقده ولا ما نقاوم به غير الصبر... إن أهلنا ينكلون بنا يوميا كذلك !...

-أنا لا أريد أن أصبح نصرانيا... ولا أريد لزوجتي... هل ترضين لنفسك أن يطأك نصراني وسخ!؟ قاطعها خوفا من أن تذهب بعيدا وتؤثر على قراره فكسا الغضب وجهها:

-يلعن أبوه وأبو... ما عاش الذي يطأني بدون رغبة مني! فكر في أن يستغل غضبها:

-هل تريدين أن يطأك نصراني بإرادتك!؟ هل تعتقدين أنه سينتظر... سيطلب منك... أن توافقي!؟ هؤلاء قوم وحوش... لا يغتسلون... وغير مختتين!

انتبهت إلى أن الحديث قد يتحول إلى شجار:

-اسمع... اتركني وشأني وقل لي ماذا تريد أنت... أنت ماذا تريد؟

تنفس الصعداء:

-ينبغي أن نترك هذه المنطقة فورا... قبل...!

هي، في أعماقها، تريده أن يرحل، لكنها تشفق عليه ألا يقدر:

-أنا لا أرى إلى أين يمكن أن نذهب معا... إذا شئت... اذهب وحدك!

شعر بأن النصر قريب:

-قلت لك إني لا أريد أن أصبح نادلا في حانة نصرانية... إنهم سيشترون المقهى أو يستولون عليها ويحولونها إلى حانة...لكني، لا أريد أن تصبح زوجتي خادما في بيت كافر ولا خليلة لقذر غير مختن من هؤلاء الخنازير ولا...

وتوقف: لم لم يفكر في هذه الحجة من قبل!؟ فتابع:

-إنهم في كل موقع يدخلون إليه ينشئون فيه حانة ويجمعون النساء البالغات غير العوانس في مكان واحد يسمونه البورديل، البوسبير حاشاك........ ويضعونهن تحت تصرف الجنود... يمكنك أن تتصوري ما

شئت من أنواع الاغتصاب وإتيان النساء من حيث لم يأمر الله تعالى... وأنواع الأمراض... والخمر والحشيش والأسلحة... نعم... حتى الأسلحة يستعملونها...

توقف إذ رآها تبكي ثم إذ أطال السكوت قالت:

-قل لي صراحة... لماذا تريد حقا أن ترحل؟

اعتقد أنها لم تفهمه جيدا:

-آ... السعدية... أريد أن نرحل معا... أنت ... وأنا... ولن أرحل وحدي !

قالت وقد عاد الأمل إليها من جديد:

-ولم لا يفكر الآخرون في الرحيل!؟

علق:

-الكل... كل الذين أعرفهم، كل الأحرار، يفكرون في الرحيل ويريدون...

قاطعته يائسة:

-وعبد السلام... حمان السرجان... المكي... لم لا يفكر هؤلاء في الرحيل!؟ لم لا ...

لم يتركها تكمل ؟

-هؤلاء أغنياء... مترفون... الفرنسيون في حاجة إليهم... هم جميعا شركاء لفرنسيين... تحت حماية فرنسا... تخلوا عن دينهم وأصبحوا نصارى... ومنهم من تحت حماية الإنجليز أو الألمان... هل تريدين أن أتخلى عن ديني وأصير نصرانيا بدوري... مثل هؤلاء!؟ هل علمت أنهم يقولون عن الشريف... أخي... لعنة الله عليهم... إنه قد أصبح بدوره تحت حماية الإسبان؟

كان من الممكن أن يطول بينهما هذا الحوار بهذا الشكل ساعات عديدة. إلا أن السعدية فطنت إلى نقطة ضعفها: إنها ممزقة بين الأمل واليأس. لذلك ضعفت إرادتها في الإقناع. أما هو فإنه عندما يعتقـد في شيء لا يعرف ساعتها إلا الأمل الكامل أو اليأس الشامل، والحقيقة أنه يائس تماما من أن يتخلص من خيالاته إذا ظل في نفس المنطقة مع رقية. لكنه يائس كذلك بشكل تام من أن ينجو من غير أن يعطي للقضية بعدا "وطنيا" لا ليقنع السعدية وإنما ليقنع نفسه. وهذا ما أخطأته السعدية. كان عليها أن تبحث عن وسائل إقناعه بالتخلي عن مشروع الرحيل في الجانب العاطفي، أن تفتحه ليتحدث، أن تتحدث صراحة عن علاقته مع رقية، لكي يفهم لماذا لا تريد أن ترحل معه. والواقع أنه قد وقع بينهما سوء تفاهم فظيع: هو يريد أن يرحل بصحبتها لينجو من رقية وهي تريده أن يبقى معها هنا لكي يتخلص من زوجة السرجان، ولا أحد منهما كان على علم بأن الدكالية، بتواطؤ مع زوجة عبد السلام وزوجة المكي وتنفيذا لرغبة رقية، تخطط لتهريب هذه الأخيرة. لو أدركت السعدية ذلك لقبلت رحيلا مؤقتا مع زوجها واختارت بنفسها الجهة: فاس أو القصر الكبير أو العرائش أو طنجة مثلا، أي الرحيل شمالا، لأن السوسية لايمكن أن تذهب إلا جنوبا، إلى أقصى الجنوب كما اشترطت عليها الدكالية، ولو علم هو بذلك لبقي إلى جانب زوجة يحبها ويسكن إليها. لو علم كل واحد منهما بذلك السر لما أصر أحدهما على الرحيل والآخر على البقاء. وهي واثقة من قدرتها على التغلب على رقية إذا ضمنت ولاء زوجها، وهو على يقين من قدرته على التخلص من رقية لو ضمن ثقة زوجته، لكن رقية، المفتاح والمشكلة، يخاف كل واحد منهما من ذكره، وقد فكرت السعدية مرارا طوال هذا الحديث أن تقول له:

-جاءتني رقية أكثر من مرة... أخبرتني في كل مرة بما كان يجري بينكما... وفي آخر مرة طلبت مني أن أتخلى عنك... أن أتركك لها لتهرب معك وتعطيك ولدا وبنتا... تعطيك شجرة عائلية... وقد كدت أقول لها: خذيه... وأسعديه إذا كنت قادرة على ذلك أحسن مني... إذا كان يريدك حقا... لكنني أعرف أن الشيطان يسكنها... أنها ستضيعك وتتركني أرملة!

غير أن هذه الخيالات لم تبق مجرد خيالات ولو أن كل ما عاشه معها كخيالات... خيالات ينبغي أن يتخلص منها لينجو بنفسه من الكارثة !

-هذا أمر شائع، يقول عباس مذكرا بكلام الفقيه السوسي، بين الأزواج: يتسرب إلى النفس خيال رجل أو امرأة يظل ينتشر في الذات كالميكروب إلى أن تعمى البصيرة...

وهذا ما حدث بين حميدة والسعدية. لذلك:

-كان لابد أن يفرق بيننا، تقول السعدية، بعد مرور سنوات على هذا الحوار، وما أدركت، كما سيدرك حميدة، فيما بعد، أن هذا النقاش الطويل بينهما كان مجرد وداع مقنع وشكلا من أشكال طلب المسامحة الشقية وتواعدا على لقاء قريب، لقاء ممكن أو حتمي ذات يوم:

-أنا ذاهب إلى الدار البيضاء ومنها إلى هناك حيث أخي "الشريف" يجاهد في سبيل الله مع عبد الكريم الخطابي!

وخرج مع الفجر قاصدا الدار البيضاء فما كاد يخرج من الكريمات حتى رأى ساقين تطلع الشمس منهما تتقدمانه!

-رحماك يا ربي، اللطف بعبدك الضعيف اللهم!

بيـــــاض

أذني خارج المقهى. عيناي على الزجاج.

–لن يستغرق مرورها أكثر من ثانية !

من واجهة المقهى المطلة على شارع الحسن الثاني، حيث أرقبها، لا تستطيع أن تراني لأن الستائر مسدلة إلى النصف، لأنها كما عرفتها تمشي مطأطأة الرأس، لأنها لا يمكن أن تتصور أنني عدت من إسبانيا وأنني هاهنا، في السر التام، أسرق النظر إليها! أسرق! ؟ أتجسس ! ؟ أغتصب ! ؟ أمارس الحنين ! ؟ وإذا لم يجد عوليس لا بتارك ولا بيتولوب... من ينوب عني في وصف ما يجري، ما سيجري؟ قد لا يجري شيء على الإطلاق، ما جرى قد يكون جرى وانتهى، فلم يخفق القلب وترتعش الذات ؟ الذكرى؟ المخيلة؟ اللغط يهدد كل شيء، يلتهم كل شيء!

الساعة العاشرة إلا ربعا. قدم. قدمان. جورب. جوربان. جوربان أسودان. جوربان مخرمان. جوربان حيان. يبدآن نحيفين، دقيقين، ثـم يأخـذان في الارتفـاع، في الامتلاء، تدريجيـا، بساقين رفيعتين، شهيتين. جوربان يعبران شارعا باردا، مقفرا، يتسللان من حذاءين عاليي الكعبين، حذاءين أحمرين، أحمر فاتح، ليهربا من العين، بارزين، ناصعين، تحت جوبة سوداء تمتد بالكاد إلى أسفل الركبتين. جوبة صوفية، قاتمة، لصوق. جوربان سميكان، رشيقان، طويلان، جذابان، شبقيان تنضح منهما بشرة بيضاء، دامية، بياض يكاد يخفي السواد، يلتهمه. بياض أحمر قان، بياض بشرة الظل التي يجرحها البرد أو تعصرها الحرارة...

-سبحان من يلبس الليل النهار، من يطعم الرضيع دما في شكل حليب، من يخلق من الماء، ذلك الذي يخرج من بين الصلب والترائب أو غيره كل شيء حي، كل شيء ملون، رفيع!

-البياض أصل الجسد، صدق أهل الكريمات، وما دونه ستار أو شوائب(المني... والحليب!) جوربان، يا عباد الله، جوربان فقط.جوربان يمخران صباح شارع يجاهد لفتح عينيه، ساعة منبهه ضجيج. جوربان وحدهما يوقفان كل شيء في ملتقى سبعة شوارع، يستبدان بالمكان، يشدان إليهما كل الأنظار، من كل الأعمار والمستويات، يفرضان الهدوء والسكينة، يرفعان اللغط والزحام؛ من يصدق أن الدنيا، هكذا، كما في هذا الصباح، يمكن أن تشد إلى ساقين، أن تعلق من عينيها إلى... إلى جوربين غير رواد المقاهي، أولئك الذين يقضون الساعات الطوال خلف الزجاج، خلف أنفسهم أمام الزجاج، من؟

-مولانا نسعوا رضاك وعلى بابك واقفين لا من يرحمنا سواك يا أرحم الراحمين! (وإذ رأى تلك الكافرة بالله، النصرانية التي تأكل لحم الخنزير والجيفة، تخلع جواربها، رافعة الساق بعد الأخرى في حركات تشبه اللهو، لتدخل إلى الحمام، وهي تنظر إليه وتبتسم، وهما في الفندق بالقصر الكبير، قال رحمه الله وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

-سبحان من قد يضع آياته في أسوإ خلقه!

وأشاح بوجهه العفيف ليصلي صلاة الاستخارة)

جوربان من حرير خالص يغطي الساقين أو تغطيانه ورجل في مقهى ينتظر، خلف، خلف الزجاج المبلل بالبخار والرطوبة، أمامه فنجان قهوة بني فارغ قرب مطفأة سجائر ملأى، بيد سيجارة وبيد قلم، كان يحاول أن يسود به خانات "كلمات مسهمة"، رجل يتظاهر بالتفكير بينما عيناه في الزجاج وأذنه

في الشارع، فجأة يلمح الجوربين، لا يرى سوى الجوربين والحذاء وأعلى الركبتين تحت الجوبه، تشتعل في بدنه نار سحرية، يتنامى الحريق، يأخذ في التململ في مكانه وفي الغمغمة بينما السيجـــارة تلتهم مقدمة شفتية... طعـــم الطفولة، بهاء الصبا، امتلاء الفتوة، انفجار الذاكرة: يتراكم الزمن على الزمن، الأثر على الأثر، الجرح على الجرح، اللذة على اللذة... وردة فوق وردة، شوك على شوك، نجمة فوق نجمة، حلم على حلم، كابوس... غابة، مجرة، طفولة شقية ومليئة بالشجن، ليكن...!

—لكنها بهية، بهيجة كهاتين الساقين!

—لم تبق منها إلا الذكرى، الألم ! ؟

—الشقي من لم يبق له منها شيء، أي شيء، من طفولته في هذا اللغط وطوط طوط والمازوط... جنة الأصفياء!

أدركتم، حضرات السادة والسيدات، أنه، مثلكم، لا يشاهد ليشاهد فقط، أنه يصف ليتذكر فقط، وماذا يمكنه، وهو في هذا الوضع، أن يفعل أفضل من ذلك، يأكل نفسه مثلي أو مثلكم؟

—يصف !؟ يا للخدعة، من يستطيع أن يصف جسدا !؟ لا... لا... ليس بسبب "طوط طوط واللغط والمازوط" فقط !

—ولنفرض أنه بسبب ذلك، ألم نتعر من قبل، ألم نتعر قط؟ ماذا نصف في هذه الحالة غير زوال الأقنعة والأصباغ!؟ والتعب والملل؟ هذا جسدي، هذا جسدك، هذا...! ؟ لنتصور، لنتصور فقط، أننا ذات صباح كهذا، أو ذات ظهيرة، قد توقفنا، فجأة، المحترمين أصحاب السيارات والدراجات والمشاة والجالسين في المقاهي والحانات، وخلعنا ثيابنا وأخذنا ننظر إلى أنفسنا، في تلك المرايا المحيطة بنا من كل جانب والتي قد يكون وضعها ساحر مجنون أو طفل عابث!

-الحمد لله أننا كنا نلعب أو... نتخيل! أما في الواقع، في الحالة الجد، الصدق، التي تشبه الجنون ها هنا، فإننا قد نفقد العقل، وإلا كيف يوقف جوربان الحركة في سبعة شوارع!؟ كيف سنتعرف على أجسادنا، هذه التي يرفعها جوربان أو ما يشبههما سواء في سبعة شوارع أو شارع واحد أو في ركن صغير كالسرير مثلا !؟ -التجياح موجود، حق أسيدي، وكم من واحد ضربته جايحة طويلة ولا قصيرة ما خرج منها، أو مازال الآن يتلقاها مرة مرة الله يستر!

-اللاغط ؟ مازال يلغط !

-إيل مو ديرانج سو فوابو!

-الله يستر !

رائعــة الحمــوي

عاد حميدة فجأة إلى البيت ومعه طفل صغير، طفل لا عمر له في الواقع، حين رأيناه لأول مرة أجمعنا على أن سنه لا تتعدى الخمس سنوات. حين تكلم، حين بدأ يتصرف معنا وكأنه واحد منا لم نعد نقدر على تقدير عمره، قد يكون راشدا لم يستمر نموه الجسدي إلى ما بعد الأربع أو الخمس سنوات، لكنه، بكل تأكيد راشد بالمعنى العميق لهذه الكلمة:

-ها قد جئتكم بغلام اسمه يوسف!

ذهب بنا الظن في كل الاتجاهات، بطبيعة الحال، وإن كانت البنت قد مالت إلى فرضية زواج سري لحميدة من امرأة قد تكون ماتت أو فرت وتركت له الولد بينما ملت، أنا الذكر، إلى ترجيح كفة "الشذوذ الجنسي"؛ ولا تدفعوا بصفة قطعية الاعتقاد في أن بعض المتقدمين في السن من الرجال قد ينتهون إلى اختيار "غلام" وهو أمر شائع ومعروف، استيهام على الأقل كاستيهام " السطاشية"، فلم نكرانه وعدم قبوله؟ سامحنا الله، قد تنشأ لدينا استيهامات مبكرة من هذا النوع فنسقطها على أهلنا ومعارفنا ونحن نعتقد أننا نفسر الواقع، لكننا قد نغض الطرف عنها حين تكون "جرائم" بالفعل!

-يوسف أخوكم ولن أقبل بأن يعامل بأقل من هذا !

وسمعت الوالدة بالحكاية، وهي في الكريمات، فعادت إلى البيت. وتصورنا، مرة أخرى، كل الاحتمالات السيئة:

-"هذه نهايتك الحتمية، يا حميدة، هذه المرة، ستقلب عليك البيت، ستقتلك!"، ختمت أختي نقاشها قبل "المواجهة" بينهما.

لقد جئت بغلام اسمه يوسف، تعال يا يوسف !

تفحصت الولد طويلا. كان الغلام واقفا، ثابتا بمدخل "بيت الجلوس" وهي تمسحه بنظراتها، بعينين شبه مغلقتين، لكن ثاقبتان: حالة استعدادها للانفجار أو الاستسلام للأمر الواقع، حالة غير قابلة للتوقع من حيث نهايتها !

-وأريد أن تربيه كما ربيت بقية الأولاد، أن تحبيه كما أحببتهم، أن تحبيه لذاته، أن تربيه لذاته، خالصا لوجه الله!

هبت من مكانها واقفة:

-"الله يحفظ!".

دنت من الغلام، دارت حوله تتفحصه من جديد. ثم أخذت تتلمسه وتتشمم رائحته.

-"السلوقي سينقض على الطريدة!"

كأنها تفتشه.

-"دركية الحدود المغربية-الإسبانية !".

إنها تبحث عن شعره.

-"الويل له إذا وجدت فيه قملة واحدة، صيبانة واحدة!".

إننا في انتظار الكارثة. انتظارنا طال.

-"هكذا تفعل حين كانت تريد معاقبة الواحد منا، ما أطول هذه العناية الزائدة، الكاذبة التي تسبق العقوبة !".

أمرته بفتح فمه:

-"افتح، زيد افتح !".

استعانت بيدها:

-"تنفس، زيد !".

وأمرته أن يجلس جنب حميدة، على السداري، وان يمد رجليه نحوها. فتشت أظافره بعناية قبل أن تفتش ما بين الأصابع بدقة وتركيز:

-من أين لك بهذا الولد ؟

لا شك أنه أدرك أنها مازالت تتردد وأن ريبتها في أمره كبيرة، لكنه تجلد وحافظ على اتزانه:

-من مولاي ابراهيم احمر التراب !

غريب: في مثل هذه المواقف، قبل أن تتقدم في السن، كانت "تقتله" هذه الريبة، وكان يثور، يقلب الدنيا لمجرد أنها كانت تشك في بعض نواياه، في صدق طويته، فقد كانت تعرف أنه "يمثل عليها"، من حين لآخر، وكان يعرف أنه "يمثل"، بالفعل، لكنه كان ينفجر فقط لأنها كانت تريد أن تتأكد من قدرته الفائقة على التمثيل...أقسى شيء على "ممثل" أن نشك في قدرته على التمثيل!

يندمج حميدة في دوره، يتقمصه كاملا فلا يعود يفرق، لا هو ولا هي، بينه وبين دوره. وتحاول هي أن تبحث عن حميدة الحقيقي بينما يعتبر هو أن هذا البحث شك في ذاته: لقد نشأ معه هذا الممثل منذ بداية طفولته، نما معه ورافقه كل عمره، فكيف يفرق بينه وبين ذاته الحقيقية؟ لقد كان يثور لأنها كانت، في مثل هذه المواقف، تحاول أن تتقمص شخصية أمه !

-شايل الله أمولاي ابراهيم! ... استيقظت، ذات صباح، فوجدته جنبك!؟

كتم ابتسامة انفراج:

-الفيضانات... الفيضانات!

وشعرت أنه قد يغرق في التمثيل:

-ما اسم أمه ؟

فالتفت إلى الولد الجالس بينهما:

-ما اسم أمك، يا بني؟

لم يبد على الطفل أي انفعال وهو ينظر إلى الوالدة:

-لا أعرف، لا أعرف إن كانت لي أم أو لا، لكني أسمع البعض يناديني "ولد رقية السوسية"، أنا لم أرى قط رقية هذه!

-رقية السوسية؟ ناري !

انفلت لسان نزهة بالرغم من أنها كانت تمسك فمها بكل ما في اليد اليمنى من قوة. لم يهتم أي واحد منهما: هادئان كرماد مأتم!

فكرت أنه قد يكون درب الولد بدوره على التمثيل، لكن الطفل تابع بتلقائية كأنها الصدق ذاته:

-حين فتحت عيني في ضريح الولي الصالح فتحتها على نساء كثيرات لم تخبرني أية واحدة منهن بأني ابنها، كنت أظن أني ابنهن جميعا، فقد كن يرعينني كما لو أني كنت كذلك، إلى أن عرفت أني لست ابن أحد عندما طردت من أحضانهن!

وتدخل حميدة لينجد الغلام:

-إنه طفل متخلى عنه، القيمون على الضريح أكدوا لي هذا: وجدوه فجر يوم اثنين فوق قبر الولي، جنينا كما ولدته أمه، فسلموه لنساء الضريح، قال لي القيم ابن الشيخ الصالح:

-"أمر عاد، تعودنا، أولاد وبنات، نساء يأتين من أنحاء مختلفة، يلدن ويختفين، نخبر المخزن وينتهي الأمر، نساء الضريح يتدبرن الأمر، يجدن دائما من يحتضن، من يتبنى، إلا هذا الولد، لا أحد طلبه فأصبح واحدا منا، ابن الشيخ هو كذلك، مثلنا، مثلنا!".

كانت عيناها تدوران بينه وبين الطفل:

-وقد جعله الولي من نصيبك ؟

تدخلت نزهة مستغربة بسذاجة وكأن لسانها مازال يفلت منها:

-ولد لقيط، لقيط من نصيبك !

نهرتها الوالدة:

-استحيي، كيف عرفت أنه حرامي !؟

لم تقل "حرامي"، لكنها تجاسرت:

-متخلى عنه، هل يتخلى عن الشرعي؟

ابتسمت الوالدة فجأة: أخيرا، أخيرا نلمح الابتسامة السحرية، الغامضة، العالمة التي تحاول أن تتستر عن علمها بالطيبوبة، بالسذاجة، الابتسامة المنتظرة:

-العني الشيطان، يا بنيتي، اللي ما خرج من الدنيا ما خرج من عقايبها، إياك والثقة الزائدة في الدنيا، المجهول أكثر من المعروف في الدنيا الغرارة!

لم تفهم نزهة واستمرت في عنادها:

-مازلنا نتخلى عن الأطفال خوفا من العار...

وأكملت الوالدة:

-أو من الفقر، من المجهول، من الغيب ؟

اتخذت نبرة نزهة طابعا "نضاليا" ظافرا:

-أناس جبناء ومجتمع منافق، مازالوا يلدون اللقطاء، مازالوا يئدون أبناءهم!

وتواضعت الأم أكثر:

-أعرف أكثر من امرأة تخلت غن جنينها حبا أو رحمة!

ازدادت "نضالية" نزهة حدة:

-لا يمكن، وكيفما كانت الحال، فإنه لا عذر لأحد في أن يلد لقيطا ولا في أن يتخلى عنه، علينا أن نختار بين الصدق والنفاق، وإذا اخترنا الصدق فلنختر بين العازل أو الإمساك، بين أن ننجب أطفالا بدافع الحب وأن نتحمل

مسئوليتهم أو أن نستمر في ارتكاب الجرائم، كل جنين لا يأتي بدافع الحب والرغبة في العناية به جريمة، أبشع جريمة !

-ويلي، ويلي يا نزهة، يا لله عندك عشر سنين !

كنا قد بدأنا نضيق صدرا بهذا النقاش، من مثل هذا النقاش الذي كلما تعلق الأمر فيه بالطفل أو المرأة أو الرجل تحوله نزهة إلى قضية "سياسية" وأخلاقية وتتحمس له فلا يستطيع أحد أن يسكتها. لكن هذا النقاش كان متنفسا، جاء في وقته، هذه المرة وعلى عكس ما يحدث عادة، ليلطف من الجو، من حدة الموقف بين الوالدة والوالد:

-وما دخل الفيضانات في قصة هذا الولد؟

انتبه حميدة إلى سؤالها وأخذ يفكر وكأنه نسي قصة الفيضانات:

-الفيضانات...الفيضانات ألاله... أغرقت كل الناحية، لم يسلم منها أحد، لا الناس ولا البهائم ولا النباتات ولا البيوت... إلا ضريح الولي الصالح وهذا الولد وأنا... كنا نائمين وحدينا في الضريح ... أيقظني الولد مع مطلع الفجر:

-لم يبق في هذه الناحية سوى الولي الصالح وأنت وأنا، الدايم الله أحميدة!

-هرعت إلى الخارج: كان "البحر" قد احتل سهل "أسني" وكان الماء قد غطى الناحية كلها واقترب من أعلى الجبل، بهائم وبشر وأشجار تطفو على امتداد السهل، ولا بيت واحد قائم غير بناية الضريح!

-ماذا حدث ؟

أجابني الغلام هادئا:

-جرفت المياه كل شيء وأنت نائم!

استغربت:

-يحدث كل هذا وأنا نائم ؟

طمأنني الولد:

-يحدث أكثر من هذا ونحن نيام!

بدأت أفكر في الكيفية التي أخرج بها من هذا الحصار والطفل واقف، هادئا تمام الهدوء، جنبي إلى أن قال:

-هل تذكر ما قاله لك الولي قبل أن أوقظك؟

لم أفهم:

-الولي يتكلم، كلمني أنا وأنا نائم، سمعته يكلمني؟

بدا أنه فوجيء، لكنه استمر في هدوئه:

-كلمك وكلمني، وكلمنا معا !

الولد المجذوب، مسكون ؟

-وماذا قال لنا، ماذا قال لي؟

أشاح بوجهه عني، نظر إلى الجهة الأخرى، ناحية أطلال الجهة الشرقية:

-لا أذكر !

وشملنا صمت رهيب، فارغ إلا من حركة الماء، فسألت الغلام:

-وماذا ستفعل الآن، كيف ستعيش ؟

نظر إلي في هدوئه التام حتى أحسست بالاضطراب:

-هل يمكنك أن تتبناني وتأخذني معك إلى بيتك ؟

الخبيث ! خبث ضد الخبث:

-لن أجيبك قبل أن تقول لي ما قاله لنا الولي الصالح، هل تقول؟

عاد ينظر إلى الجهة الشرقية:

-قال لك يا حميدة الكبير، يعني أنت، هل تقبل أن يكون حميدة الصغير، يعني أنا، ابنا لك؟

فقط؟ لا غير؟

-وماذا قال لك أنت؟

لم يعد بنظره من هناك:

قال لي:

-يا حميدة الصغير هل تقبل أن تكون ابنا لحميدة الكبير؟

لا إله إلا الله:

-وبماذا أجبت حين سألك؟

مازال ينظر إلى الجهة الشرقية:

-قلت له: أمرك يا سيدي إذا كان سيحبني ويرعاني كما يجب أن يحب ابنه الحقيقي ويرعاه، لا يهان ولا يظلم ولا ينهر ولا يكره على ما لا يحب ولا يريد...

طلب للتبني بشروط الخزيرات!

-وبماذا أجبته أنا حين سألني ذلك السؤال ؟

نظر إلي من جديد بهدوئه التام وعينيه الثاقبتين:

-لم تجب أو لم أسمع جوابك وأرجوك الآن: أجب عن سؤال الولي الصالح!

قالت الوالدة وكأنها تحتج في غير قليل من السخرية:

-وأجبته: نعم، أتبناه ثم حملته إلينا وهو في هذه السن والحالة!

تأملها حميدة قليلا:

-لا قلت: أسأل زوجتي، إن أجابت بالإيجاب أقبله وإن أجابت بالرفض أتدبر أمره بطريقة أخرى، أجد له، مثلا، من يريده، وها أنا أسألك، السعدية، باعتبارك زوجتي ورفيقة حياتي: هل تقبلين حميدة الصغيرة ابنا لك ؟

أطرقت تفكر، أمسكت رأسها بين يديها وهي تفكر، بدت تصارع غموضا كبيرا، خلنا أنه لن يخرج شيء من هذه الرأس "الناشفة الصلبة". فجأة رفعت بصرها إلى حميدة الصغير:

-إني أشهد زوجي وأشهد ابني وابنتي على أني أقبل حميدة الصغير ابنا لي وعلى أن أحبه وأرعاه كما رعت أمنا مريم ابنها سيدنا المسيح، فهل تقبلني، يا حميدة الصغير، أما لك وتتعهد بأن تحترمني وبأن تكرمني وتثق في بما لا يسيء إليك ولا يضر بمصالحك وحاجاتك؟

لم لا يبتسم هذا الغلام ولا يبكي، كأنه لا يعرف الانفعال؟

-أقبل بك أما وأتعهد باحترام حاجتك وحدودك، فهل تقبلني أنت، يا حميدة الكبير، ابنا لك بنفس الشروط؟

كان حميدة الكبير يطوف ببصره علينا: ماذا يريد، هل ندم؟ هل تورط؟

-لا، لا أستطيع قبل أن يقبلك ابني أخا لهما ولا قبل أن تقبلهما أنت أخا وأختا لك!

يقبلنا نحن، هذا المسخ يقبلنا نحن إخوة له؟ احميدة...

-اسمعوا كلكم، البنت والولد، من منكما يرفض حميدة الصغير أخا له؟

تبادلنا نظرات الاستغراب والتساؤل، فأمهلنا لحظة ثم عاد يسأل:

-من منكما لا يريد أن يكون حميدة الصغير أخا له؟

لا أحد يريده، في العمق، ولكن خطة العجوز قد نجحت: لقد كسب وزارة "الداخلية" إلى صفه، وها هو يورطنا، بدل أن يسألنا "من يريد" يسألنا

"من لا يريد"! يريدنا أن نرتكب أبشع الحماقات: أن نخالف وزارة الداخلية ونعمـــق الحماقـــة بقـــول "لا" عـــارية إلا من هـــوية الرافض "أنا"!

وتواطأت معه الوالدة التي تعرف سرنا من غير أن نقوله:

–ألا ترى أن لا أحد يرفضه أخا؟ إسأل الغلام الآن!

فسأل الغلام على الفور:

–وأنت يا حميدة الصغير، هل تقبل، بلا خوف ولا طمع، بطوية صافية وقلب كريم، أن يكون ابني أخا وبنتي أختا لك ؟

أيقبل ونحن عصبة، من غير أن نطلعه على قصة يوسف؟

–أقبل ذلك وأتعهد بألا أكن لهما غير المحبة والتقدير!

ووقف الوالد مديرا ظهره للتلفزيون:

–اسمعي يا السعدية وأنتما، بنتي وابني، إني أشهدكم على أن أتخذ من حميدة الصغير ابنا لي كما أشهدكم على أني ألتزم بحبه ورعايته واحترام حاجته وتعليمه الحدود، الحقوق والواجبات، من غير أدنى إساءة إلى جسده ولا إلى نفسه ولا إلى فكره، أشهدكم على ذاك كله وعلى الوفاء، في إطار احترام نفسي، بكل التزاماتي، ثم استدار نحو الغلام وقال له:

–اسمع، يا حميدة الصغير، لقد قبلت بك ابنا لي من هذه الساعة!

هكذا تبنى والدي الابن الثاني... وختم حميدة هذا التبني قائلا:

–إني أسميتك: يوسف!

سألت الوالدة، مساء ذلك اليوم، ونحن نشرب "القهوة":

–هل تظنين أن الوالد صادق في كل ما رواه؟

لم تترك لي أية إمكانية للشك:

–كل الصدق!

ومع ذلك لم يطمئن قلبي فعدت أسألها:

-كيف عرفت ذلك؟

ابتسمت تلك الابتسامة السحرية، الماكرة:

-عرفت والسلام !

لن تفلت مني، هذه المرة:

-قولي، مرة واحدة، أخبريني: كيف تعرفين مثل هذه الأشياء؟

ظلت تراوغ:

-أبوك خبز يدي !

ألححت عليها طويلا:

-عرفت من الولد !

استغربت:

-الولد هو الذي قال لك ؟

اتسعت ابتسامتها وأضاءت أكثر فتذكرت تفتيشها للغلام، عفوا: لحميدة الصغير، ليوسف أخي !

-لماذا كنت تفتشين الولد ؟

نهرتني وأمرتني بأن أكف عن السؤال، لكني أصررت:

-عن أي شيء كنت تبحثين؟

اضطربت إلى أن اختفت قسماتها وسط غلالة حياء:

-عن أي شيء ؟

-عن بقايا امرأة !

-بقايا امرأة، يعني ؟

-رائحة، شعر، ...

-وماذا وجدت ؟

-لم أجد سوى رائحة التراب، الحمري !

-وصدقت ؟

-رائحة كهذه كافية !

-على وجود رقية السوسية؟

-إلعين الشيطان وقل الحمد لله الذي وهبني أخا !

-الحمد لله !

وختمت الكلام:

-والحمد لله الذي وهبني وزوجي يوسف على الكبر!

وأضفت لنفسي:

-والحمد لله الذي ابتلاني، بعد الأخت، بالأخ !

الألـــوان

لنكتف، في البداية، بمعرفة سبب النار التي أشعلتها في جسده رؤية الجوربين، فالإنسان يرى، كل يوم العديد من الجوارب، في الشارع أو في عمله أو في بيته، من غير أن يحس بشيء من ذلك الذي يحس به هذا الرجل أو يحس به مثله وبهذا الشكل. ولنعر، على هذا المستوى، هذا الجسد، هاتين الساقين لنرى إن كان السبب في الجوربين وفي الحذاء والجوبة. إن هذا لن يغير شيئا من أمر صاحبنا وأنا سأضطر إلى إنجاز الوصف بنفس العبارات، لن أغير حرفا ولا فاصلة ولا نقطة ولا جزاءا، مهما صغر، من صورة أو صوت. فالجسد لا يكون سوى في أحد وضعين لا ثالث لهما: الجسد إما عار وإما مكسو، لكن هذه مسألة نظرية فقط أو مجرد عادة. في الواقع الجسد العاري مكسو والجسد المكسو عار. والعري إما أشد كثافة من اللباس الكثيف وإما أكثر شفافية من اللباس الشفاف، فالعري دائما إلباس كما أن اللباس تعرية، نحن نعري لنلبس أو نلبس لنعري، وأية حالة خالصة من العري أو اللباس إنما هي لا مبالاة أو نسيان، أي وضع غير طبيعي بالنسبة للجسد. أما بالنسبة للجسد البشري، أي الذي يهمنا بهذا الشكل أو ذاك، فإن حالة العري الخالصة كحالة اللباس الخالص مجرد خدعة، هناك دائما لباس نخلعه عن جسد أو نلفه به، حتى في حالة النسيان أو اللامبالاة، التي سبقت الإشارة إليها، هناك ما يشبه الكفن، غسل وكفن، نلبس فيه بدورنا، للمناسبة، ثوب حداد أسود أو أبيض نستتر فيه على دورنا في القتل بالنسيان أو اللامبالاة أو نتخيل فيه دورنا كقتلى بنفس الأسلحة؛ الدكتور، البروفسور ولد النية، على حق دائما! وعندما نتعرف أكثر على الرجل الذي يجلس الآن مشتعلا برؤية

جوربي نزهة سندرك لماذا ألبسها الأسود لأن لون الجوربين، في الواقع، رمادي ولون الجوبة فوقي بينما لون الحذاء بني، لكنه في حاجة إلى الأحمر والأسود ليتذكر، فقط ليستعيد لحظة جنونية ماضية، مضت منذ سنوات عديدة وقد جاء لالتقاطها من جديد. لذلك قلنا إن وصف جسد خدعة، إنه إما وصف لذكرى أو لاستيهام، والواحد منا عندما يصف جسدا إما يتذكر أو يشتهي، والغالب أننا نتذكر لنشتهي أو نشتهي لنتذكر، نستعمل كل واحدة من هاتين الحالتين كبهارات أو مشهيات للحالة الأخرى. أما علي فقد كف عن الاستيهام بخصوص جسد نزهة، إذ بينهما الآن جبل ثلج اسمه يوسف، ولم يعد يقدر سوى على الذكرى في حدود قدرتنا على عزل الاشتهاء عن الذكرى.

وعلى كل حال فقد جاء إلى المقهى باكرا ليرى نزهة تمر، ليتذكر شيئا نسيه منذ سنوات، وإذا كان الاستيهام انتقاما أو امتلاكا فإن التذكر بالنسبة إليه إما استعادة للشعور بالعار أو الرعب وإما حنين يشبه البحث اليائس عن ماء أو ضوء ساكن يغطس فيه من جديد. النوستالجي لا يصل ولو وصل، في جميع الحالات. أما الباحث عن استعادة شعور بالعار أو الرعب فيكفيه أن يتوفر على قدر من المازوخية لينال مراده، وبما أنه في كل علاقة بين جسدين، إذا طالت قليلا، تنشأ بعض المازوخية والسادية، فإن أي جسد يمكنه أن يشعر بذاته وأن يصف ولو القليل من هذا الشعور وهو يتذكر قريبه سواء كان قريبا منه أو بعيدا عنه. تبقى الغاية من ذلك. لا نعي دائما هذه الغاية، قد تحدث بتوارد خواطر وقد تحدث بسبب أي شيء يذكرنا بالجسد الآخر فتكون غاية لذاتها، قد نفعل ذلك أيضا لنعاقب أنفسنا على ما نحن فيه، على ما لم نستطع الانتباه إليه أو فعله في الوقت المناسب، أي على شعور ما بالعجز، بالندم، بالحداد. وهذا بالضبط ما جاء علي من أجله: الحداد !

لكل حداد كبير طابع انتقامي، انتقام من الذات ومن الآخر. وكلما استحلنا على بعضنا ازددت في تحقيرك وفي الإعلاء من شأني ليسهل علي قتلك، أغرقك في الأسود، وأغرقني في الأبيض، أو العكس، فالأسود يخفي والأبيض يكشف، الجسد يغيب في كثرة الألوان، يمحوه التعدد الهائل للألوان، الجسد لا يحتمل أكثر من الأسود الذي يخفيه ليظهر كتلته أو الأبيض الذي يعريه من اللون، أي يفضحه. ولكل لون لون آخر يساعده على أداء مهمته، حسب الغاية والمناسبة. يريد الرجل أن يرى هذه المرأة مجرد كتلة ولآخر مرة، لذلك قطعها نصفين لم يكن يهمه منهما سوى النصف الأسفل، هذا النصف الذي يملكه أخوه يوسف. هذا هو النصف الذي استيقظ باكرا ليلفه في السواد، النصف الذي لم "يره" قط من قبل، كان يريد أن يراه جيدا، أن يختصر فيه الجسد بأكمله، أن يوشحه بالسواد ويرشه ببعض الأحمر كما لو كان يضعه في تابوت ليبعث به إلى أخيه، ليزهد فيه بشكل نهائي: جسد يغتال من نصفه في الشارع ولا أحد يقدر على وصف هذا الاغتيال، لا أحد يهتم، جسد مغتال والحركة في الشوارع السبعة مشدودة إليه كأنه حي، كأنه تمثال!

بعد برهة سينزع الرجل المدية من بين الساقين، سيوجهها إلى نفسه مرة أخرى لينسى... مازالت تمر! عاش الفيلسوف "ولد النية" وعاش فكره الشامل المحيط: "الصوفية تعيد بناء الجسد انتقاما من اللحد والقهر"!

-أنا، يا أماه، من أصل نبيل، جدي، من أمي، كان أميرا، وجدي من والدي، كان شيخ رباط، أكبر حكماء عصره. تدوولت الإمارة والحكمة في هذين البيتين قرونا عديدة، قبل دخول الإسلام إلى المغرب وبعده. منذ قرون، ثلاثة أو أربعة، زالت الإمارة وسقط الرباط، لكن بقيت الحظوة والعلم، بقي الناس يعاملون أجدادي، من الأسرتين، باعتبارهم أهل قرار ورأي، بقي أقاربي يتصرفون على أساس أنهم أصحاب إمارة وعلم. لم نكن نملك الثروات الطائلة، كنا نملك فقط، من الأرض والبهائم، ما يسمح لنا بألا تمد أيدينا إلى أحد، بألا ننهب من رزق الناس، ما يجعل بيت جدي، من أمي، مفتوحا دائما للغريب والمضرور، ومكتبة جدي، من والدي، مأوى لطالب العلم أو الشرف. لذلك لم يكن كل هذا الجاه الذي نتمتع به بين الناس، وهذه السمعة، سوى رأسمال رمزي. كان جدي، من أمي، قد درس اليهودية والمسيحية، جميع الملل والنحل، واعتكف في روما، سنوات عشرا، يتعلم علوم الرومان واليونان، كما أقام سنتين بمصر وسبع سنوات بمختلف مملكات إفريقيا.

وهذا ما فعل مثله جدي، من والدي، بعده بسنة فقط، ولو أن هذه الرحلة لم تتطلب سوى عشر سنوات أغلبها في "الأزهر" و"قرطبة". حين عاد هذا الأخير من رحلته إلى سوس، إلى بلدته، التي تسمى اليوم "تلوين"، كان الأول قد أصبح أميرا لما يطلق عليه في هذا الوقت اسم "أولوز".

أنشأ الثاني الرباط وأصبح الصديقان القديمان حليفين في خدمة الخير والحرية. لم يتم بين الأسرتين أي زواج. هناك وصية مكتوبة تحرم مثل هذا الزواج وموقعة من طرف الجدين الكبيرين. فقد كانت الأسرتان عائلة واحدة اختلطت فيها الروابط الرمزية وقويت فحرمت فيها رابطة الدم.

ظل هذا الأمر جاريا، مقدسا إلى الآن. ومع دخول الاستعمار إلى المغرب بدأت الأسرتان في التشقق، تفرقتا في كل أنحاء البلاد. ظل كل الأفراد على موعد، مرة كل سنة، في الخامس عشر والسادس عشر من كل ذي الحجة، يلتقون في "البلاد": في الخامس عشر، ابتداء من الضحى، يجتمعون في "بيت الإمارة"، يقيمون الولائم ويتحدثون في أمورهم متشاورين أو طالبين للمساعدة. في السادس عشر، قبل أن يتبينوا الخيط الأبيض من الخيط الأسود يتصحرون ثم يقصدون، مجتمعين وصائمين، "رباط تلوين".

هناك كانوا يعتكفون على الصلاة والذكر إلى المغرب حيث يفطرون ثم يشرعون في الاستماع إلى تاريخ رابطة المحبة حتى الفجر فيختمون "حجهم" بالصلاة وينهون هذه الصلاة بتأكيد العهد على الاستمرار في المحبة والتآزر إلى يوم الدين. آنئذ يصبح كل واحد منهم حرا في أمره فتبدأ الزيارات الشخصية وتفتح الهدايا العائلية ويسافر من يسافر ويبقى من يريد إطالة الزيارة وإن كان لا يتأخر منهم إلا القليل جدا لأن أغلبهم يكون في عجلة من أمره.أصبحت هذه الزيارة السنوية عادة والتزاما منذ 1492. ومع بدايات الاستقلال أصبح اغلب الذين يلتزمون بها سنويا من الشيوخ والعجزة، أكثرية الشباب لم تعد تقوم بها بانتظام ومنهم من لم يعد يتذكر موعدها إطلاقا ولا يعدم الحجج لتبرير ذلك: الدراسة أو العمل، خاصة!.

هكذا صار عدد الزوار يقل تدريجيا، بسبب السن أو الدراسة أو العمل، كما يزعمون، إلى أن لم يعد يقوم بها إلا نفر قليل ما لبث كثيره أن فتر حماسه بدوره بينما ارتفع عدد السياح الأجانب الوافدين على المنطقة من أغادير وورزازات ومراكش الذين يتفنن المرشدون السياحيون في إفتانهم برواية أسطورة "أمير أولوز وصاحبه شيخ تلوين" مركزين، بالخصوص، على الرحلة العلمية إلى روما وقرطبة وعميق معرفتهما باليهودية والمسيحية

والإسلام، متوقفين طويلا عند "اختلاقات" من نوع "الحريم" و"السيبة" وأسر "الروميات" و"العبيد"!

لقد أصبح تاريخ "الإمارة" و"الرباط" خرافة تروى للسياح الأجانب!

وما أن أطلت سنة 1965 حتى أصبح، أو كاد، لا أحد يعرف أحدا من هاتين الإمارتين العريقتين.

في هذه السنة التقت أمي والدي بمولاي ابراهيم. جاءت من "باب دكالة"، وجاء من "سيدي يوسف بن علي"، في مراكش. كان يبحث عن امرأة وكانت تبحث عن رجل كما كانت عادة الكثيرين ممن يقصدون ضريح "طاير لجبال". لكنهما، في ذلك الموسم، كانا الوحيدين اللذين جاءا للزيارة بهذه النية!

بعد سبعة أشهر وضعتني أمي في غرفة باردة كانا يكتريانها في بيت من سبع غرف وطابقين تحتل كل غرفة منه أسرة صغيرة أو كبيرة، لكن فقيرة مثل أسرتنا. كانت في غرفتنا كوة تطل منها على "سبعة رجال"... ولدت في اليوم السابع، في الشهر الهجري السابع، في الغرفة رقم 7 التي تطل، من كوة فقط، على "سبعة رجال"، بعد الشهر السابع من الحمل!

أتيت في منتصف الليل، كانت مراكش تحت رعب وابل لم تعرف مثله منذ عقود طويلة، كانت الريح "تجري مثل الجن" وكان الليل حالكا وباردا إلى درجة أن لا أحد يمكنه أن يرى أو يعرف ما حوله، أين يضع قدمه: الكل في مكانه مرعوبا ينتظر وكانت أمي تنتظرني متوجسة. ألم دقيقة، تمزق، حركة عنيفة، أخرجت ما في رحمها، بعد سبع صرخات حادة أطلقتها المسكينة، أطلقتها لتطلب النجدة أكثر مما أطلقتها ألما: لا أحد أطل علينا ولا أحد، ربما، قد سمعها! والدي كان طوال هذا الوقت ممسكا برأسها بين يديه ويأمرها:

-"زحمي، زحمي !"

.وكان هذا الأمر يصل إلي أنا أعنف مما كان يصل إليها هي !

قالت له:

-"اقطع الحبل، السرة !".

لم يعرف ما يفعل، لقد نام وهو يحضن رأسها بين يديه، سمعها تصرخ فوضع صدرها بين كلتا يديه وكأنه يحلم، كأنها تعيش كابوسا، ولما قالت له:

-"الوجع، بطني!"

أخذ يقول لها من جديد:

-"زحمي، زحمي !"

وكأنه مازال في الحلم. فلما أمرته بقطع الحبل كان عليه أن يخرج من هذا الحلم !

تذكر أن "الضوء" مقطوع. قالت له:

-"أنر نفسك بيدك !".

تردد ثم أقبل يبحث عن الخيط بيني وبين أمي:

-"عض، اقطع بفمك !"

قبل أن تتابع:

-"احزم، عند سرة الولد !"

سألها دهشا وهو يبحث عن سرتي:

-"ولد، كيف عرفت أنه ولد؟"

استغربت:

-"بنت !؟"

استنار بيده اليسرى، وهو لا يزال يمسك الحبل بيده اليمنى:

-"لا، ذكر، ولد !"

أطلقت تنهدة حادة:

-"لا إله إلا الله، صدقت الرؤيا !"

وسألها وهو يحزم الحبل:

-"العرافة، أية رؤيا ؟"

يبدو أن أمي، تلك الليلة، ساعة قبل وضعي، رأت أن الشياطين قد ملأت الغرفة، كل واحد منها يحمل جنينا، ذكورا وإناثا، مئات الأجنة تطوف بها وهي تبكي ثم تأخذ في افتراسها دفعة واحدة، وقد ازدادت دموعها غزارة، ثم تمسح أظافرها في شعر صدرها، ثم تفقأ عيونها بمخالبها ثم يخرج ضوء كثيف من عيونها ثم تتوجه نحو أمي، مجتمعة، وفجأة ينقض عفريت عملاق على بطن أمي وبضربة بكلتا يديه يخرجني من بطنها فتحيط بي العفاريت تنفخ في النار من عيونها فماهي إلا ساعة فأكون قد صرت عفريتا بحجم العفريت العملاق فأتوجه نحو أمي، بعد أن تكون العفاريت قد عادت إلى البكاء، فأبدأ في إرسال النار من عيني إلى جسدها فتبدأ تحترق ولما أصبحت مجرد رماد استيقظت فجأة فأحست بالوجع في بطنها فوضعتني كما سبق ذكره:

-"لما أخرجه العفريت العملاق من بطني قال: "ها بوسبعة، مرحبا بك يا عفريت بوسبعة!، تحكي أمي لوالدي.

-"نسميه بوسبعة والله، وسبعة رجال يتولون أمره !"

رد خائفا، وقالت أمي في سرها:

-"ستصيبه، وتصيبنا معه سبع مصائب": "تغرق مراكش ومولاي ابراهيم مدة ثلاثة شهور لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد، يغير مصير الولد مع كل فيضان وقد يموت، أما باقي المصائب ففي علم الغيب"، تشرح لها عرافة سيدي محمد الجزولي، قبل ان تضيف:

-"لقد ارتكبتما حراما يوجب الكفارة"

-"وإلا فإنكم، ثلاثتكم، ستفنون بإحدى هذه المصائب السبع !"، تابعت محذرة وممهدة لطلب ثمن مرتفع لهذه العرافة.

وفكرت أمي طويلا في هذا الحرام الذي أتته مع والدي: لقد تزوجته على سنة الله ورسوله وبنية أن تخلص له وتكون رفيقة عمره ولا مجال في الشك في أن للرجل الطيب نفس النية، فما أصل هذا الحرام الذي تولد عنه "بوسبعة ؟"

يوم السبت، وهو اليوم السابع من ميلادي، استيقظ والدي باكرا وقال لأمي إنه سيذهب مع صديق له إلى "لبلاد". انتبهت أمي إلى أنها لا تعرف أين توجد هذه "لبلاد". قال وقد أحس بنوع من الفخر السري:

-"أهلي من أولوز !"

واكتشفت الكارثة:

-"وأنا من تلوين !".

لم يسمعها، لحسن حظه. خرج إلى محطة الحافلات حيث سيلتقي بصديقه. أغلقت الباب عليها وبدأت تنتحب، شقت صدرها ونتفت شعرها. كانت تريد أن تقتل نفسها...

حافلة صغيرة ووحيدة في المحطة، سائق مغامر بلا مساعد يصيح:

-"مولاي ابراهيم، بلاصة وحدة !".

لم ترضعني أمي منذ أن اكتشفت "الحرام"، أي مدة يوم كامل.جردتني من قماطي وتركتني كما ولدتني:

-"اسخن بالنار، نار العفاريت !".

انقلبت بنا الحافلة الصغيرة ونحن نصعد الجبل نحو ضريح مولاي ابراهيم، على بعد نصف كيلومتر، من الضريح. لقي الجميع حتفهم إلا أمي وأنا. كان الدم، الذي فتحه الماء، يقطر بين رجيلها.

وضعتني فوق قبر الولي:

-"هذا ولدك، أمولاي ابراهيم، واسمح لي !"

وعادت تبحث عن الطريق إلى مراكش. كانت السيول آخذة في العلو، في "دوار لعرب"، وحول الفندق السياحي. ظلت تنزف في كوخ أمها العجوز المكفوفة إلى أن خلا جسمها تماما من الدم لم تحك شيا من هذا لأمها ولا والدي عرف شيئا منه فيما بعد. لما أعياه الانتظار قال لنفسه:

-"لقد ذهبت مع رجل آخر، رقية عشاقة، رايسة !"

وترك الغرفة، ومراكش كلها، هاربا من الشعور بالعار. في تزنتيست قتله انجراف التربة وهو في الطريق إلى "لبلاد" !

وها أنت ترين، يا أماه، أن أمي كرهتني وتخلت عني، لأنها صدقت كابوسا، وكرهني والدي لأنه كره أمي، وكرهت نفسي لأن لا أمي ولا والدي يحبني ولأني، وهذا الأشق على نفسي، حرامي! أنا طفل غير مرغوب فيه، طفل متخلى عنه!

-لا، نحن نحبك، نحبك ونرغب فيك، لقد تبنيناك، يا ولدي !

كانت قد استمعت إليه متوجعة، وهاهي مرعوبة. بعد أن انتهت من تقشير الخضر، أحست بالرغبة في البكاء فتناولت بصلا آخر وأخذت تقشره!

-والله يستر ويخرج العاقبة بخير، ابلك!

وفي المساء، أثناء خلوتهما، قالت لحميدة:

-ما يخيفني في ولدك يوسف أنه لا يترك دمعة واحدة تنزل من عينيه!

-عصري له بصلة في عينيه، قال لها!

وكذلك فعلت لكن لم تخرج من عيني بوسبعة أية دمعة!

دليل الطالب المحتاج

إلى معرفة الشريف الحجاج

أو الرحلة الشمالية

(مبتور)

وبهامشه البدائع السندسية في الديار السوسية

أو الرحلة الجنوبية

(مفقود)

وقد استهله المؤلف غفر الله له بمقدمة يذكر فيها ما ألهمه والدافع إلى التأليف والغاية من الرحلة والتصنيف قال الشيخ العدل الثقة العالم النبيه السوسي الرندي الأصل والتربية والتوجيه الشاوي المولد والإقامة والعمل الذي لا يخيب له في الله أمل والذي يسأله تعالى التوفيق إن أجاب أو سأل الحجاج بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الرندي بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن ابراهيم المعروفي الذي ينتهي نسبه إلى عبد الله السوسي التارودانتي الركجوني المعروف بجمعه المبين بين علم الأوائل والمتأخرين والشهير بصاحب المرابطين من جماعة المتغيرة المتصرفين رحمهم الله أجمعين وأسكنهم إلى جوار الأنبياء الصالحين والحمد لله الرحيم الرحمان الذي أكرم العرب والبرابرة بالقرآن وجعلهم في بلاد المغرب أحبه وإخوان وجعل لهم من الاختلاف نعمة للائتلاف وحماهم في الشمال والغرب ببحرين ورفع درجتهم بجبلين عظيمين وفتح لهم بالصحراء على إفريقيا بابين فأصبحت بلادهم من بديع الآيات مفتوحة لهم على غيرهم مسدودة من كل الجهات والشكر له على العافية وحسن المآب ومنه المغفرة والثواب نسأله العون على كل أجنبي طماع وحفظ علمنا اللماع ودفع كل مفرق طماع وكل موسوس خداع.

وصلى الله على سيدنا ومولانا الذي تركنا على المحجة البيضاء وجعل لنا قدوة ناصعة في سيرته الغراء وبين لنا فضائل الهجرة للنصرة والإيواء وترك لنا في أصحابه والتابعين نجوما للاقتداء ورضي الله تعالى عن آله وصحبه وأزواجه والداعين إلى كتابه ونهجه إنه سميع الدعاء لا يخيب الرجاء نسأله التوفيق والسداد والصبر على الطيبات والشداد نسأله تعالى العز والتأييد والحكمة والرأي السديد لأمير المؤمنين ولكل من يتولى شؤون المسلمين بالرعاية والإخلاص والحق وأن يلهمه سبيل العدل إذا أشار أو نطق وأن يعيننا على رد الأعداء الذين تكالبوا علينا من كل الأنحاء وأن يهدينا إلى استكمال العدة من أجل النصر والوحدة بألا يولي علينا غير الأكفاء المخلصين العارفين آمين يا رب العالمين.

وبعد فهذا كتاب "دليل الطالب المحتاج إلى معرفة الشيخ الحجاج" سعيت فيه إلى تقييد رحلتي إلى شمال البلاد وعملت فيه على تخليد ما يقاسيه كل العباد من طمع الطامعين وكيد الكائدين وتحالف المفسدين وأنا أبحث عن الاتصال بالمجاهد الخطابي ومعي زمرة من أصحابي للمشاركة في تحرير الشمال من الأنذال في انتظار أن تعود المقاومة في الجنوب إلى أحسن الأحوال آملين أن تعزز الصفوة وتتقوى بالصبوة وتقوم بعد معرفة واستقصاء ما يحدث حتى للنبهاء عندما تختلف الأشياء ويعبث في الأرض السفهاء فسادا وغلبة أهواء فلا يعود في هذه الظلمة الظلماء يميز حتى العقلاء بين المحجة البيضاء والمحجة السوداء إذ تكاثر على بلاد المغرب من مالو ارتفع في السماء لحجب عن النظر ذكاء.

وقد قمت بهذه الرحلة بتوفيق من الله الكريم ورغبة نفر عظيم من أهل الكريمات وابن أحمد ومديونة وبرشيد الذين اقتضى نظرهم السديد أن نتتبع أخبار المجاهدين الأحرار في الشمال وأن نساهم لوجه الله في رد العار والدفع

بالعدو خارج الدار لكي لا يبرد في أيدينا السلاح ونبقى من الصالحين للكفاح بعد أن شملنا بنعمة المرابطين وأخيرنا الرقاص بعزم أخينا حميدة على ركوب الطريق إلينا أعاننا الله وحفظنا من أن نحتاج إلى الارتباط بعلاقة زواج أو حماية أعدائنا من الإنجليز والألمان والبرتقيز لما يعلمه سبحانه من الحكمة من كل هذا الضجيج الذي أثير حول بلدنا العزيز وما فيه من إخماد وتكالب لجذوة وحدة المغارب في مقاومة الأجانب.

كان بالكريمات خمسمائة كانوا وكان أعيانهم من الأسر القليلة التي ظلت مستقرة متماسكة بتامسنا رغم ما عرفته هذه البلاد من المحنة. يذكرون حملة عبد الله بن ياسين ويذكرون غزوهم من طرف البرتغاليين وكيف حولت بلادهم التي كانت زهرة مملكة فاس وأصبحت مرات قبل اليوم مأوى للأسد والذئاب والبوم وهم كثيرو الحكايات يروون فيها عن أنفسهم أروع البطولات. هؤلاء القوم شديدو الحذر والخوف من مكر الأعداء مستعدون طول الوقت للحيلة والفداء ومن هذه الناحية قد يدرك إصرارهم على التحام شرفائهم بأحرارهم والرغبة في استقصاء الأخبار في شأن المجاهدين وما لديهم من الأفكار ثم إن الإشاعات قد كثرت والاستعدادات قد بدأت ولم يعد الخير يقبل التنقيص من أن الشاوية قد سكنها الفرنصيص وكانت هناك أخبار تحريضية تقول بأن آنفا التي هي أجمل منظر في إفريقيا تتحول إلى دمار وأن ما سيلحق الشاوية من العار سيبدأ من هذه الدار الكثيرة المساجد والدكاكين والقصور الوافرة البساتين والكروم والتمور المهددة على مر العصور.

وأهل الكريمات لقربهم من الدار البيضاء كثيرو التأنق والخيلاء الكثير منهم تجار وعلماء تعودوا على الحرية والإباء بعضهم من كبار الأغنياء يملكون دورا في آنفا متأثرين في عزة إسلامية واعية وأنفة بربرية بحياة تجار الإنجليز والبرتقيز وزاروا كل هذه الأمصار بهدف الغزو أو التبادل أو

التجوال مرتبطون بأرضهم أشد الارتباط وأهلهم موزعون في أكثر من رباط يشدهم حيل وثيق من دم ومجد عتيق وأكبرهم بيوت أولاد الذهبي الذين منهم أشهر العلماء وأولاد السرجان قادة الحرب المعروفون في المعارك بالدهاء وأولاد الوردي كبار التجار المختصون في المال والعقار لكن المكي كبير أولاد الذهبي في هذا الوقت العصيب وكبير أولاد السرجان حمان وعلى رأس أولاد الوردي عبد السلام وهؤلاء هم الذين يختارون القواد ويدعون الناس إلى السلم أو الجهاد وهم الذين يعينون أئمة المساجد الثلاثة وفقهاء الكتاتيب وفرق التضامن والإغاثة على الرغم من أنهم أوقفوا حرب التحرير ولم يعودوا يدعون إلى تغيير بحجة الاستعداد الأفضل للمصير وفقنا الله وإياهم إلى ما فيه الخير وعززنا بالمحبة والوئام حتى يعود إلى وطننا السلام فاهتدينا إلى حيلة نشركهم بها في الاستعداد بعد أن بلغنا أن أحد أولياء الله الأتقياء قد غرر به السفهاء فقلنا نذهب إليه ونستقصي ما يكون من أمره وكان قد هيئنا قبلها الرجال لما يقتضيه واقع الحال وجمعنا كل أمين شديد متكتم صنديد مستعد للموت السعيد ورشحنا النفس لهذه المهمة بعد أن ثبتت الهمة في بيت السي عبد السلام اجتمعنا قبل الرحيل وتذاكرنا الوقت الطويل بشأن الزاد والعتاد وما ينبغي أن يؤخذ من حذر وفير لتجنب سوء المصير في رحلة خطيرة غير مضمونة إلى مناطق لم تعد مامونة واختير لي للصحبة خمسة رجال متعودون على ركوب الأهوال أذكياء على علم بالحال أقوياء شداد كالأفيال تبرع السي عبد السلام بالمؤونة والمال وأعطانا السي المكي جملا وبغال وكذلك السي حمان مثلهما من الكتان بالإضافة إلى جملين وحصان وأملى علي السي عبد السلام الرسالة الحيلة الموجهة إلى الولي لاستقصاء الحالة ثم وقع عليها الثلاثة وأوصوني بالاحتراس من كل من قد ألاقيهم من الناس وأطلعوني على ثلاثة كتب الأول يقول إني محمي من الألمان عزيز والثاني من الإنجليز

والثالث من البرتقيز قبحهم الله أجمعين وخيب مسعاهم في العلمين وأوصوني بألا أضعها في مكان واحد وأن أذكر مكان كل واحد حتى أكون لها عند الضرورة واجد وهذا نص الرسالة الحيلة التي أردناها للسرية والحيطة وسيلة من غير أن يعلم كبار القبيلة:

رسالة من أهل الكريمة الكريمات إلى الشيخ المهدي البركات لتذكيره بالعهد وبواجب الود بينه وبين آل كريمات الفهد.

الحمد لله وبه نستعين والصلاة والسلام على خير المرسلين سيدنا وعوض والدنا لقد بلغنا بشأنك خبر مشين وأنت حفيد سيدنا الحسين وإن القلب والله لحزين لما بلغنا من ارتباطك بالإنجليز وأنت السيد العزيز لك بيننا موقع الريادة وقد كنت دائما محط إشادة نشاورك في الصغيرة والكبيرة ونعمل بآرائك السديدة تحفظنا بركتك وتزيننا حكمتك نحتفي برسول الله في شخصك ونحفظ وده في ودك وقد فضلنا زاويتكم على جميع الزوايا وأخلصنا لكم النوايا ونشرنا وردك في أولاد احريز وتمارة ولازال لنا إشارة وإمارة به نستعين بعد الكتاب المبين وسيرة سيد المرسلين فصرت عوض الأب والمستشار في كل أرب لساننا لدى أمير المؤمنين ولسانه لدى أهل الشاوية أجمعين تشير عليه كما تشير علينا لما فيه وحدة وعزة المغرب ضد جميع أطماع الأجنبي ونخبرك أن صنيعك لم يلق سوى الاستنكار وأتباعك قد بدأوا يشعرون بالاحتقار بعد أن كانوا أهل الافتخار وأعلن أغلبهم أنه منك براء فخلع عنه ما كان عليه منك من رداء ومن الفقهاء والعامة من أحل دمك وأباح لكل امرئ هتك عرضك وبلغنا أن أخاك في سطات يخطب في الناس بأن دمك فات وان علم أمرك الإنجليزي والعياذ بالله عند أهل الله المقاومين في كل الجهات.

هذا أمرك بعد العز والجاه وهذا شأنك لدى من عنه تاه ونحن مازلنا نأمل فيك ونرفع من شأنك عند الغير نرجو أن تكون أكثر من محمد العربي بن محمد الهاشمي الحسيني العلوي المدغري أو أبي عثمان سعيد بن عبد الله الحليفي المحمدي الدكالي وغيرهم من الأقطاب والعلماء الذين يدعون الناس إلى الرغبة في الشهادة وطلب السعادة وفضل الشجاعة ويجب أن يكون لك من أمرك معنا أمران إما بالعودة إلى أهلك في نفس المكان بعد التوبة وتنقية الوجدان لمساندتنا في ما يحاك ضدنا من الدسائس ولتكون معنا لهذا الشأن سائس وإما تجنبنا اختيارك صف الإنجليز إن كنت عليه حريص مع تأكيدنا لك والله لن يساعدنا ضد الفرنصيص والله نسأله العافية والتوفيق في اختيار الرفيق قبل الطريق أما حامله فهو مجرد صديق بالإكرام والمحبة خليق فلا تترك صدرك به يضيق فهو لك من المحببين وعامله بالتخليق ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا واجعل طاعتك ديننا واهدنا إلى ما فيه خير المسلمين في الآخرة والدنيا ولا تجعل لغيرك ذلنا واجعل عزنا في عزة هذا البلد الأمين آمين.

تدوين الرحلة

قرر السي حجاج بعد استشارة مساعديه والاسترشاد بنصائح باعثيه أن نأخذ طريق البريد ذلك الذي يتبعه الرقاصة وهكذا اتفق الجميع على أن تمر البعثة بفضالة ثم المنصورية ثم الرباط ثم سلا ثم القصُر الكبير والعرائش ثم أصيلة وأخيرا طنجة كان الوقت بداية الخريف والحر لا يزال شديدا وإذا كان الرقاصة المتدربون جدا يقطعون مثل هذه المسافة في حوالي خمسة أيام وإذا كانت القوافل تقطعها في حوالي سبعة أيام فإن بعثة جدي السي حجاج ستقضي في هذه الطريق واحدا وعشرين يوما وذلك نظرا للمشاكل الطبيعية والبشرية الكثيرة التي ستصادفها. هذه هي الملاحظة الأولى على محتوى هذه الرحلة. أما الملاحظة الثانية فهي أن مؤلفها لم يدون شيئا من الوقائع إلا بعد محاولتهم قطع نهر سبو وكأن الرحلة لم تبدأ فعلا إلا في هذه اللحظة. وهناك ملاحظة ثالثة لا تخفى أهميتها: لم يكن آنذاك في المغرب أي طريق معبد، فالناس كانت تسافر على الإبل أو على أي نوع آخر من البهائم، خاصة البغال، وربما لم يكن علم لدى الكثيرين بهذا النوع من الطرق. وربما لهذا السبب لم يثر انتباه السي حجاج ذلك الطريق الوحيد شبه "المعبد" الذي يربط بين طنجة ورأس سبارطيل فلم يشر إليه المؤلف برغم ذكره لكل مظاهر المدينة الحديثة التي دخلت آنذاك إلى طنجة. وهذه فقط علامة من علامات كثيرة تشير إلى أن صاحب هذه الرحلة كان يرى بالدرجة الأولى ما كان قد تعود على رؤيته من قبل وفي الدرجة الثانية ما صدمه بعنف وشد بصره لأنه يخرج كثيرا عن المألوف. وهذه "الرحلة الشمالية" مليئة بالخوارق والكوارث بقدر ما هي مليئة بالمألوف والاعتيادي. وسنختار للقارئ من ذلك ثلاثة

نماذج: واقعة قطع سبو وواقعة زلق الجمل بين العرائش وأصيلة وواقعة غرق أحد الرجال بوادي تهدارت، بين أصيلة وطنجة، وهي كافية لإعطائه فكرة حقيقية عن الجو العام الذي جرت فيه الرحلة قبل الوصول إلى هدفها. وقد نسينا أن نشير إلى أن المؤلف قد أفاض في وصف الذهاب. لكنه لم يشر ولو إشارة واحدة إلى الإياب، وكل ما نعلمه عن ظروف العودة قوله إنه قد شرع في تحرير تفاصيل الرحلة مباشرة بعد تقديم التعازي إلى ثلاث من عائلات مرافقيه وبعد إطلاع المكي الذهبي "وبقية الإخوان" على حصيلة الرحلة. فنعلم من ذلك أنه لم يعد من هذه البعثة إلا رجلان مع السي حجاج وأنه لسبب من الأسباب لم يطلع عليها لا عبد السلام الوردي ولا حمان السرجان. والراجح أن السبب يكمن في تلك العلاقة "بالرومية" التي عادت معه إلى الكريمات والتي لم يتفهمها غير السرجان على ما يبدو من متفرق الأخبار وليفهم القـارئ اللبيب الغرض الأخلاقي من عزوفنا عن ذكر كل تفاصيل العلاقة مع هذه الفرنسية لأن أسلوبها يشبه "ترجمان الأشواق" ولأن تفاصيل كثيرة تـرد في غفلـة من المؤلف تشير كلها إلى أن هذه السيدة التي كانت آخر أكبر حب في حياته كانت تمارس ما يشبه التجسس والله أعلم!

عبد الواد وساط الرعد

وصلنا إلى سبو والوقت على المغرب بقليل يربو وقد تقدمنا بعض الرجال فحطوا على ضفته الجنوبية الرحال ولما رأونا نفكر قالوا لنا إن سبو الآن يختلط بالبحر ولا داعي لإعمال الفكر فلا أحد بإمكانه أن يقطع ليلا هذا النهر وطلبوا منا أن نحط أمتعتنا بالقرب منهم وألا نبتعد كثيرا عنهم فإن الأسد الضارية تخرج من المعمورة الخالية وتفترس من الدواب والناس ومن الحزم ألا نتكل على الحراس وقد سألناهم عن أصلهم ومقصدهم فأجابونا أنهم من مزاغان وأن وجهتهم وزان لزيارة أهل بتلك الناحية والتبرك بالزاوية وأعلمناهم بأننا من الكريمات بالشاوية نقصد مدينة طنجة لطلب النصيحة والنجدة من شيخنا هناك لأننا على وشك الهلاك ففرحوا بنا فرحا كبيرا وفرشوا أرضا صغيرة وحططنا بالقرب منهم الأمتعة وربطنا بهائمنا مع بهائمهم لكي لا تضيع ونصب رجالنا الخيمة وكان أولئك قد أقاموا وليمة فأكلنا معهم سمك الشابل الذي لم نذق ألذ منه بالكامل وعرضنا عليهم شيئا من الدجاج المشوي وأكثر ما أكلوا من الملوي ثم شربنا الشاي بالنعناع المجفف وسهرنا إلى بدأت طلائع الفجر تزف وأثناء ذلك التحق بنا بعض الخلق واحد منهم نصراني وإن بالإسلام تخلق وآخر مجوسي أو بوذي برغم زيه اليهودي ولحقت بنا كذلك فرنسية ترتدي لباس الرجال أخفت بداخلها كل ما لها من جمال والحاصل أننا قبيل الفجر كنا ثلاثين نفر أربع نساء وستة وعشرين ذكر والغالبية من أهل الحضر خليط من كل البشر أكثرهم الأجانب وأقلهم المغارب وقد وجدنا عند أولئك الذين سبقونا إلى النهر خبر زواج شيخنا وكيف إلى طنجة فر واستقر وأطلعونا كذلك على أن شيخهم الأكبر قد أقدم

بدوره على مثل هذا الأمر ولمسنا لديهم اعتقادا بأن هذا من الكرامات فما صدقنا هيهات مثل هذه الانحرافات اعتقادا في أن الكرامات تكون على صورة من المعجزات وما عداها يعد من الترهات لكنا شايعناه رياء وأمسكنا عن التعليق اتقاء لكل ما قد يفسد الجماعة ويضر بالتعاون في تلك الساعة أما الأجانب فأكثر سؤلهم عن أحوال المغاربة يتكلمون بتحفظ عظيم ويظهرون الخلق الكريم وكأن لا أحسن منهم نديم ولما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود تفقدت رجالي فوجدت المعطي الدكالي غارقا في الرمل إلى أعلاه ولما قام القوم وانتشلناه وجدنا أنه قد بترت رجلاه وجروح عديدة تنزف من أعلاه فقال رئيس أول من صادفنا هناك من العباد "لقد قتله عبد الواد" وغسلناه ثم دفناه بعد أن صلينا عليه صلاة الجنازة وما رأيت أولئك الرجال الشداد يرتعشون إلا عند ذكر "عبد الواد" وهكذا تأخرنا عن العبور إلى الضحى أو يزيد بعد أن بكينا صاحبنا البكاء الشديد فلما علا اللغط واجتمع كل الرهط وبدأ إلى الماء الهبط توكلنا على الله المعين وبدأنا نغوص في الماء والطين وبينما نحن خائضون في هذا الهول سمعت أحد أصحابي يولون ولاحظت أن الماء يهرب ببغل وإذا بمنظر لا يخطر على بال فتسابق عدد من الرجال وانتشلوا البغل المحمل بالمال وشكرت الله على حسن المآل عندما أصبح البغل في الضفة الأخرى وعاد الرجال سالمين ليختلطوا من جديد بالعابرين ورأيت الفرنسية تسبح كالبركة إلى جانب حصانها الذي يشبه السمكة والناس يصرخون يا رب يا معين بجاه زين الزين احفظنا أجمعين وحين عاد إلي الأمل توقف في يدي الجمل أحسست أنه يغوص في الرمل بكل ما حمل وأنا أجبذه وأصرخ فيه والرمل والماء يمتصان قوائمه فعاد الهرج والمرج من جديد وأقبل علي رجال كلهم من النوع الصنديد فخلصوا الجمل من كامل حمله وأخذوا يجرونه في اتجاه واحد من ذيله وعنقه فما مال إلى تلك الناحية

ولا توقفت أرجله عن الغوص في الهاوية حتى جاء ألماني بأنبوب طويل عض على طرفه بفمه كالفيل وطلب أن يمسك أحد بالطرف الآخر في الهواء وغاب عنا برهة ونحن فوق الماء وما عاد إلينا إلا بعد أن رأينا الجمل يمشي بصعوبة فأخذنا نجره وهو يتبعنا بأعجوبة وقد لامنا بعض الأصحاب ونصحونا بالتخفيف من حمل الذواب وقالوا إن ذلك قد يتسبب في مصيبة فنحن في بلاد السيبة وقطاع الطرق كثيرون وعدد من اللصوص متنكرون ونحن قليلو التجربة في السفر على الماء وهو غالبا شديد الأهواء والحق أننا نعرف أن هذا النهر قد لا يعبر في الشتاء والربيع وماعدا ذلك فهو سهل وديع وقد كنا ننوي عبوره بواسطة الفلك لكن الأقدار شاءت أن تكون الفلك عطالة وان يزهد صاحبها في إصلاحها خوفا من بعض شريرة العبارة وعلى كل حال فنحن نحمد الله الذي نجانا من الهلاك ولم تضع منا دوابنا وأمتعتنا هناك نسأله العافية وحسن التقدير وهو الذي بيده التدبير لا إله إلا هو سبحانه عز وجل أما ما كان من صاحبنا الذي افترسه " عبد الواد" فإننا نرجو الله المغفرة وحسن المعاد كما نرجو منه تعالى أن يرحم عباده من هذه الحالة ويهدي هذا الوحش الذي يعيش مع وحشة إلى ديننا الحنيف كي يسلم منه كل مسلم عفيف فهو وأنثاه يثيران الرعب في النفوس ولا يميزان بين المسلم واليهودي والنصراني والمجوسي بل وأكثر ضحاياهما من المسلمين وكأنهما حليفان لأعداء الدين اللهم إنا نسألك الرأفة بهذه الأمة حتى تزول عنها هذه الغمة وتعود إلى صراطك المستقيم متخلصة من كل دخيل لئيم أما ما كان من شأن الأغراب فقد ودعوا كالأحباب وصاروا فرقا في اتجاهات مختلفة وظلت قافلتنا متخلفة صحبة أهل مزاغان القاصدين مدينة وزان وما هي إلا ساعات حتى داهمتنا الريح الشرقية وحاصرتنا من كل ناحية ولم نعد نرى بعضنا البعض وعلا صراخ الرجال كل واحد يمسك ما باليد والبهائم تستغيث

والرجال تستنجد ولا أحد يرى أحد وارتفعت درجة الصهد كان اليوم الوعد ونحن ندور وكأننا في بابور يصطدم الرجل بالرجل أو البغل أو بالجمل فلا يراه ويصطدم الحيوان بالحيوان وأنا ممسك بلجام الحصان مرة أسقط إلى الأرض ومرة يجرني وهو يركض والرجال يصرخون لا تتفرقوا كل يمسك بما في يمناه لا إله إلا الله وقد دامت هذه الحالة إلى المغيب يا له من يوم رهيب ولدنا فيه من جديد بعد جهد جهيد إلى أن بدأت الشمس الصفراء تطل علينا من المغيب بباهت الأضواء ونظر من بقي لديه بعض النظر فأبصر بشرا ما هم ببشر ودوابا ملقاة كالحجر وبصعوبة تعرف الواحد منا على صاحبه أو على دابة من الدواب إذ كانت الوجوه والأجساد معفرة بالتراب وكان الواحد إذا نظر لا يتبين البشرة سبحان من خلق آدم من طين في أحسن صورة وجعل الريح تدور هذه الدورة والعياذ بالله من النفس المغرورة فلا جمال إلا جمال القلب وإن كان جمال الصورة محبب وقد فقد رفاقنا رجلين وثلاث بهائم بينما عددنا سالم ولا شك أن "ساط الرعد" المعروف قد التهم الرجلين والبهائم ونحن وسط العاصفة في ذلك الوضع وقد يكون أكلهما الضبع أو السبع فلم تعد تفصل بيننا وبين القصر الكبير إلا أميال وفي هذا الموقع حططنا الرحال فأخرجنا الكثير مما كان معنا من قديد عازمين على الاحتفال بعدما قاسيناه من هول شديد وبدا الانشراح على الوجوه الصفراء ونحن نوقظ نارا عظيمة كأننا في عاشوراء ولما امتلأت البطون وبدأ الحديث ذو الشجون والقمر مضيء في السماء والنجوم تسبح في الفضاء أخرج العايدي الكنبري وانبري صالح للبندير وشرعت الأكف ترقص الأثير وأبلى أهل الشاوية ودكالة البلاء الحسن في الهيت والعيطة ومثلهم فعل اجبالة في الطقطوقة وقد استحييت أن أدعوهم للصلاة وهم في ذلك الوضع من الشطح واللهاث فقمت وصليت وحدي في السر ثم نمت إلى مطلع الفجر وكان رئيس

أهل مزاغان قد أقام الأذان فصلينا جميعا وأكثرنا من الدعاء لهم ولنا وللأمة جمعاء وأكلنا ما تيسر من الخليع ثم تهيأنا للتوديع وقد انهمرت من عيني الدموع ونحن نفارق أولئك الإخوان الذين انحرفوا نحو وزان لكن تعاهدنا على أن نزورهم أو يزورونا إذا وفر الله للمغرب أن يخرج من تلك الوضعية الحزينة وتحرك ركبنا الصغير في اتجاه مدينة القصر الكبير وطلبت من رجالنا أن يضاعفوا من الحيطة والحذر وألا يعتمدوا إلا على أنفسهم في مواجهة كل خطر فتفقدوا أسلحتهم البيضاء والنارية وقلوبهم على تحمل كل صعب ناوية وقد امتطينا ظهور البغال ونحن على أحسن حال فلما تجاوزنا القصر الكبير ببضعة أميال وتوغلنا في الأدغال أراد الله أن يبلونا من جديد فهطل علينا مطر شديد كانت القطرة منه تشبه التبروري حتى لتخالها حجر يسقط من أعالي الشجر فضللنا الطريق وأخذ المكان من حولنا يضيق وقد دام ذلك حوالي نصف ساعة كان على النفس أطول من ألف ساعة وخرجنا من مخابئنا فرأينا المئات من صغار الضفادع تنط وأن المكان قد تحول إلى مستنقع شاسع فحملنا الأمتعة وصعدنا إلى أعالي الأشجار بعدما كسونا ظهور البهائم بالأستار وملأنا لها بالشعير المعالف وأكل كل واحد منا مما معه وهو خائف من أن يغفو فيسقط على غصن فيبقره عود أو ينزل إلى الأرض وهو مفقود وقد بقينا على تلك الحال ثلاث ليال إذ عاد ذلك المطر الصخري مرات إلى الضرب وصار الواحد منا مثل الكلب فلما فرج الله عنا الكرب وتوقف المطر عن الهطول سعينا إلى النزول فوجدنا الأطراف متجمدة وقد توقف الدم في الأوردة وخرست الألسن وصمت الأذن فبقينا في موقفنا ونحن في حيرة من أمرنا إلى أن أرسل الله شمسا تسخننا وبدأت أطرافنا تتزلنا فهبطنا حامدين شاكرين وكان الماء يصل إلى ركبتينا والضفادع تنق من حوالينا فملأنا المعالف للبهائم بالشعير وأوثقنا رباطها بحبل كبير ثم عدنا إلى مواقعنا في

الأشجار وكأننا من الأطيار والشمس لا تزال حارة في السماء وقد عادت ألسنتنا تفيض بالدعاء وبينما نحن على تلك الحال أحاط بالبهائم بعض الرجال وبدأوا يفتشونها وهم في القوارب لا يهبطون منها إلى الماء فما وجدوا غير علف الدواب وتشاوروا طويلا إن كان ينبغي أخذ البهائم ونحن مصوبون نحوهم فوهات البنادق فلما انسحبوا من غير أن يبصرونا حمدنا الله على أن دمهم لم يرق بأيدينا لكنهم ما لبثوا أن عادوا نحو الحيوانات فأدركنا أنهم فتشوا عنا في كل الجهات ولما مدوا أيديهم نحو الوثائق أطلقنا عليهم عيار البنادق وأحطنا بأفلاكهم الخشبية ورميناه في الماء إلى الهاوية ثم وضعنا أمتعتنا فيها وهي ثلاث وشددنا أحزمة الدواب إليها وقلنا الفرج آت فجدفنا في الاتجاه المعاكس للشمس التي مالت نحو المغيب واستأنسنا بما تبقى لدينا من حدس وقلنا إن الخلاص قريب ورحمة الله آتية لا ريب وكذلك كان إذ رأينا بعد قليل من الزمان أننا نقترب في أمان من أضواء مكان آهل بالسكان وما هو إلا وقت قصير حتى كنا في القصر الكبير نأوي إلى أحد الفنادق فيه الجو رائق فأكلنا وشربنا وأطعمنا الحيوانات بشعير جاف وقلنا ما فاز عبد خاف وليكن بعد الآن ما يكون فنحن من الموت عائدونين وإلى الموت ولابد راجعون سواء عدنا من حيث أتينا أو صبرنا على الطريق مؤمن فلا علم لأحد بما هو من العمر باق سواء غط في النوم أو فاق وهنا التقينا الألماني والنصرانية من جديد وقد ليست لباس النساء وحسنت منها المفاتن والأثداء وظهرت على ما لا يوصف من البهاء سبحان من يعطي كل العطاء حتى للكفار وعبدة الحيوان والتماثيل والنار ولا يفكرن أحد في غده إلى حد الهم فإن الله قد يهبه من حيث لا يعلم وإلا من أين كان علي أن أعرف وأنا غريب أنه سيكون لي بعد المشقة من هذه الفرنسية نصيب؟ الحمد لله على ما أعطى وكتب ونحن في المحنة والتعب وقد ازداد الهم واضطرب القلب بعد أن وصلنا أن الخطابي قد

أسر أو هرب فلا تضعف ربنا جنوبنا ووسطنا بالشمال وأنت تعرف يا متعال كم في هذا البلد من خيرة الرجال انصرنا ببعضنا البعض ولا تجعل علينا من يضعفنا في هذه الأرض والحمد والشكر لك يا عظيم على أن هديتني وبقية الرجال في الضيم إلى أن نجعل من أخينا حميدة الزعيم والقائد المحنك الحكيم لما تبقى من الرحلة والأهوال وكنت لنا النصير المعين في كل الأحوال فهذا أمرنا في كل ظرف وحين متغيرة مجانين بالرغم من أننا لا نغدر ولا نخون ولا تضعف منا إرادة أو النفس تهون مرابطين مجاهدين حامدين شاكرين لا تكل منا أذن ولا عين.

الرمــاد

دقة حذاء. دقيقة حذاء. دقتان. سواد في بياض في دم في بخار في دخان. بضع دقيقات. خانقات. جسد يرتعش. ثم تختفي الإثارة، تتوقف النار، رماد يتطاير. يهبط مطر بارد. ثلج. لقد مرت. اختفت عن النظر. يعود الشارع إلى ضجيجه، إلى صباحه المتعب، البارد، داخل الرطوبة، إلى أعصابه المتوترة وقسماته المشدودة... لقد توقف الزجاج عن الاهتزاز، سكنت الطاولة والفنجان والمطفأة، بسط الرجل الجريدة وأخذ يبحث عن خانات " الكلمات المسهمة" الفارغة، بدأت الخانات تتسع وتتضح أكثر، هدأت الأذن وارتاحت العين: نوافذ الجسد التي دخلت منها الذكرى، تتسرب منها الذكرى، تتسرب منها النار وتخرج، وما عاد جسد الرجل يشتغل بالرؤية والسمع، لا يشتغل بالعقل، وقال لنفسه:

–لم يعد جسدها يشتغل، يشعل بغير صورة والصوت معا، أصبح سمعيا–بصريا، جسدا عينيا، ليس للشعر ولا للذوق ولا... للمس... إنه جسد حراق... يغطيه الماء من أية جهة جاء!

–اسكت من اللغط، أيها اللاغط، اسكت!

–كيف يصل بنا الأمر إلى هذه الدرجة، كيف نحطم الأشياء الجميلة في حياتنا أو نتركها تتحطم أمام أعيننا بدون أن نحرك ساكنا أو أن نقوم بالتضحية اللازمة!؟ أبعد مثل هذا، كل هذا نبكي حظنا التعس!؟ أو بعد هذا الذي يجري في كل لحظة لنا وحولنا نتناسى " طوط طوط واللغط والمازوط"!؟

هذا الجسد المغتال يستطيع أن يتخيله، بل يعرفه بكل تفاصيله وخباياه، فلم أصر على قتله ببتر الجزء الأسفل منه؟ لنؤجل الأسباب المهنية

والاجتماعية والاقتصادية و...فتحليلها بسيط ونتائجها تكاد تكون بدهية، معروفة أو قابلة لأن تعرف بسهولة، بل يمكن التعرف عليها من غير التطرق إليها لأنها أول ما ينبغي أن ينصرف إليه الذهن وبعض الصحف تقوم بهذه المهمة على أحسن وجه، وفي جميع الأحوال فإن الاقتصاد والسياسة، رغم أهميتهما القصوى، لا يمكنهما أن يقولا لي لماذا أقطع الجزء الأسفل من امرأة، في أول هذا الصباح، وكأني أريد أن أفطر به ولا لماذا التهمته لأنساه، فالأمر في غاية الخطورة ويمكن تلخيصه، بدون تطويل ولا بحث، على الشكل التالي: لقد أصبت بمرض قومي، لقد أكلت جسد امرأة وشعرت بالشبع وأنا على يقين من أنني لن أجوع ولن آكل امرأة أخرى إلا بعد سنوات، إني صائم الآن، أي أتلذذ بهضم حدادي...! وهذا الكلام الذي يشبه الهذيان يحتاج إلى تحديد: نحن، رجالا ونساء، في بلدنا وفي بلدان أخرى، نأكل يوميا، ومنا من يأكل في كل ساعة، جسدا، نقطع جزءا معروفا أو أجزاء معلومة فلنلتهمها، نفترسها ونشرع فورا في البحث عن جسد آخر. إننا إذن لا نشبع، إننا نأكل الجسد كما نأكل أي لحم آخر، نتناول وجبة الغذاء في انتظار وجبة العشاء، في انتظار أن نكرر ذلك في الغد، هناك حتما شيء نجده ولا نجده في هذه الأجساد، هناك شيء في أمعائنا وشيء في ما نأكل، شيئان لا يجتمعان، لذلك نشعر بالجوع فورا بعد الانتهاء من الأكل، ومع الوقت نأكل بلا وعي، بلا لذة، ونحن مقتنعون بأن ما نأكله لن يشبعنا، نخادع، يصبح الخداع لعبة، ممارسة، موقفا، تصبح كل الأجساد جيفة، نصبح كلابا وغربانا، نتعلم النباح والنعيق، هل هذا النباح وهذا النعيق هما ما نسمع في ملتقى الشوارع السبعة: طوط طوط!؟ جوع أو شره، بوليميا اللحم الآدمي، الأنثوي!

-وأنت اسكت من اللغط، الله يهديك ويرد بك !

-الناس، على ما يبدو، نوعان في هذا الأمر: أغلبية وهم أكلة الجيفة وأقلية وهم الذين يرفضون بوليميا الأغلبية. هذه الأقلية أقليتان:

نوع وجد أو يتصور أن بإمكانه أن يجد شيئا غير الجيفة ونوع زهد بشكل نهائي في طلب الجسد، هذه هي الصورة العامة التي أريد أن أحدد من خلالها ذلك الكلام الذي يشبه الهذيان بالرغم من تقديري لولد النية. هذه الصورة بدورها شبه هذيان، موافق، أما الأدهى والأمر ففي أنها يمكن أن تصح سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا، أي أنها تعقد القضية ولا تبسطها بالرغم من أن القضايا الحقيقية دائما معقدة ومتشابكة... فلنترك الكلام الغليظ، يا صاحبي! المهم أنها أدت بعضا من وظيفتها: إن السيد علي الرندي قد فعل هذا الصباح ما يفعله الكثيرون منا، لقد دفن جيفة!

هذا كل ما في الأمر، فنحن، في أية لحظة من لحظات حياتنا، قد ننتبه إلى أن الشخص الذي نحب قد تحول إلى جيفة فنقرر دفنه، نحن لا نختلف عن بعضنا البعض إلا في طريقة خلق المناسبة والطقوس والدوافع من أجل أن نواري التراب جيفتنا أو ما نتصور أنه جيفة. وما كنا نعمل على وصفه هو تلك المناسبة والطقوس والدوافع الخاصة بمراسيم دفن السيد علي الرندي لجيفته:

-رجل يأتي إلى مقهى ليغتال الجزء الأسفل من امرأة، مسألة مثيرة، أليس كذلك!؟

-أبدا: هنا نغتال نساءنا، في العادة. نحسب أصابع أو أشبارا ونقطع لنأكل أو نرمي إلى الكلاب والغربان. أعتقد العمليات تنتهي بإيجاز آثم، تختصر في حركة واحدة: الذبح!

ومع ذلك فالعملية ليست بهذه البساطة الأولية: إن هذا الاغتيال انتحار! إن السيد علي الرندي، وهو يغتال تلك المرأة، إنما كان ينتحر!... أجل! واغتيال هذه المرأة إنما كان مساعدة لها على الموت، أي على انتحارها هي!...

-أجل، المسألة واضحة، مالك!

استدراك

هل نستطيع، بعد كل هذا، أن نعود لاستكمال وصف جسد تلك المرأة؟ صعب. صعب جدا. ولكن لنحاول فقد يساعدنا ذلك، على الأقل، على معرفة استحالة هذا الأمر...

نحن دائما في ملتقى الشوارع السبعة، ما أصدق هذه العبارة على أنفسنا! في كل ذات ملتقى لسبعة شوارع؛ أو تظنون أن التقسيمات السحرية أو القدسية للعالم وأشيائه مجرد لهو، عبث!؟

-أبدا، ما من عبارة في هذه اللغة، يزعم ولد النية، خالية من المعنى أو سطحية، كل كلمة في معجم هذه اللغة إحالات أصلية ضاعت أو كساها تراب ما وحين نبحث في الماضي بداخلنا، ماضينا العام أو الخاص، نجدها مكشرة أو باسمة، صورة على صورة، طبقة على طبقة، طرس على طرس: الأركيولوجيا، في الأصل نفسية، وكذلك عوامل التعرية! ألم تلاحظوا، يؤكد البروفسور ولدالنية، أن كل لباس جديد يعرينا، أن كل لباس مختلف يجعلنا مختلفين!؟ نحن علماء آثار لا نتوقف عن الحفر، على جميع المستويات، أما عوامل التعرية فلا تعد ولا تحصى ابتداء من أرق الليلة الماضية وحلمها الجميل أو المزعج مرورا بقهوة هذا الصباح التي وجدنا فيها طعم الحمص أقوى من طعم القهوة وصباح الخير التي لم نسمعها أو قيلت متعبة وانتهاء بالوسادة التي تتهرب من رأسنا أو الغطاء الذي لا يتسع لقامتنا؛ أين اختفى ذلك الصوت الذي كان يحكي لنا حكاية، يقول لنا كلمة، يمر بيده على نقطة من جسدنا فننعزل نهائيا عن الضجيج الذي في الخارج أو في رؤوسنا، ندخل عالما هادئا يهيئنا لصباح لطيف ويوم سعيد!؟

هذا هو "الشارع" الذي كان يسير فيه الأستاذ علي الرندي، هذا هو الطرس الذي يحاول محوه، الطبقة التي يريد ردمها، الصورة التي يقطع إربا إربا: المرأة التي اختصرت في جزئها الأسفل هي جزؤه الأعلى، كلاهما مشوه. أكلته عوامل التعرية، مات، وهو يعمل على دفنه، عفوا... على دفنهما!

أما المرأة الأخرى، وكذلك الرجل الآخر، فإنه يعرفهما في كل تفاصيلهما، إنه يعرف جسد هذه المرأة ذرة ذرة، يعرف موقع كل شامة بالضبط ومواطن الزغب، كل ثني، كل منبسط، كل منفتح، كل منغلق، مواطن البلل والجفاف، نواحي التصلب والارتخاء، مكان كل خصلة وكيف تتحرك وتهدأ، يعرف كل دقيقة في هذا الجسد، مالا يمكن أن يخطر على بال...

لو طلب منه رسمه أو وصفه لما أخطأ منه شيئا: الشعر الأشقر، المصبوغ طبعا، الكثيف المنفوش الذي يعثر على الكتفين، الوجه الصغير المدور بأنفه القيصري الماكر وفيه المشع الشفتين نصف المنفتحتين والعينين السوداوين الواسعتين العائمتين في شبه ذبول والجبهة العريضة المنبسطة المختفية تحت مقدمة الشعر المنفوش... أما الجيد الطويل الأبيض والصدر المستدير المتوسط الاكتناز والسرة الظاهرة والظهر المستقيم والعجيزة الصغير الصلبة التي تتظاهر بالتراخي والفخذان "المرمرتيان اللتان ترفعان إرم ذات العمد" والساقان... ما من شيء يخفى عليه في هذا الجسد: متر وأربع وخمسون سنتمترا خارج علو الحذاء، جسد شاب، رياضي، فاتن، واثق من نفسه، حازم، لا يخلو من بعض الخيلاء، علامات السحر مازالت بارزة فيه رغم أنه تجاوز الأربعين بثلاث سنواتَ، واحد من تلك الأجسام القليلة التي لا يمكن أن تظهر، أن تمر، من غير أن تثير النظر، لا يمكن أن تقابله بلا مبالاة!

والأكثر من ذلك والأفيد أنه يعرف هذا الجسد منذ أن كان صبيا، يعرفه باللمس، بالمداعبة، باللعب معه، بالهروب إلى أحضانه، بالنوم معه جنبا إلى جنب، متباعدين أو متلاصقين، بالاستحمام معه، خلال الطفولة الأولى، بمراقبته في الضوء والإحساس به في الظلام، بالحلم به في النوم واليقظة، إضافة إلى الاستماع إليه وهو يحكي الخرافات وقصص الحب والمغامرات أو أسرار البيت وسكان الحي... وهو يحلم أو يحس أو يفكر!

لقد راقبه وهو يحبو، ينمو، يثمر، ينضج، يثير، يجذب ويصد، يسعد ويشقي، يضحك ويبكي، يختلف عنه ويبتعد، ولاحظ كيف تتحول سنة من الفرق في العمر إلى سنوات، إلى عمر، كيف يتحول الابتعاد إلى اقتراب والاختلاف إلى تشابه...

إنه يذكر كل ذلك صورة صورة، خطوة خطوة، وكيف تتداخل الصور أي تتمايز، أما ألوان وأشكال الثياب وتحولات الملامح التي تتبدل حسب التقدم في الدراسة والعمر، في الحياة، حسب الحالات النفسية، فهو يعرفها عن ظهر قلب، فقد تابع كل ذلك منبهرا، سعيدا، في ما يشبه الحلم، وفجأة يصبح هذا الجسد محط منافسة وتنمو لديه إرادة الحرية والاختيار...

في هذه المرحلة بالذات بدأت تظهر في نفسه الرغبة في اغتياله لأنه بدأ يضيعه، لأن الآخرين بدأوا يشاركونه فيه، يسعون إلى امتلاكه وحرمانه منه. لكن في هذه اللحظة بالذات بدأت الرغبة فيه. أما قبل ذلك، رغم كل الفوارق والحدود، فكانا متلاحمين، متداخلين، كتلة واحدة، جسدا وحيدا... مراهقون ورجال، ونساء كذلك، أصبحت، فجأة، عيونهم وأنيابهم موجهة إلى هذا الجسد الذي أصبح، دفعة واحدة امرأة. لم يكن يتصور قط أن هذه الكتلة الصغيرة ستتحول ذات يوم إلى شيء من هذا النوع ولا أنها ستثير من حولها كل تلك الرغبة وذلك الصراع في أناس سلاحهم المكر والقوة معا. لذلك لم يفهم، في

البداية على الأقل، مصدر رغبته المزدوجة: أن يغتالها وأن يريد لها الحياة الطويلة في نفس الوقت!

هي نفسها ساعدته على إذكاء هذا الشعور في نفسه: لم تكن تصد أحدا منهم، كانت دائمة الابتسامة. صحيح أنها لم تكن تستسلم لأحد...

–لكنها كانت دائمة الابتسامة، هذه الابتسامة!

وحتى حين يعاتبها أو يحذرها تبتسم، تبتسم فقط. وكانت تقتله هذه الابتسامة، تغيضه وهو لا يقوى على ضربها، لم يضربها ولو مرة واحدة، لم يستعمل معها أي شكل من أشكال العنف، لم يندم على عدم تعلمه العنف سوى مرة واحدة عندما تدخلت آلة الهمجية، الآلة الهمجية في العائلة: يوسف أخوه، بوسبعة! اغتصب الطفلة وأممها لنفسه ولم يستطع أن يفعل شيئا ضد هذا الأخ القوي الذي كان يكبره بسبع سنوات. أما هي فقد صارعت في البداية، ثم أخذت تحرك ما فيها وهي تقهقه!

آنذاك ابتعد عنهما، فتح كتابا في الرياضيات وبقي يرى في كل صفحة منه ساقيها ترتعشان ويسمع في كل معادلة منه ابتسامتها التي تحولت إلى قهقهة إلى أن حصل على الباكلوريا وغادر الدار البيضاء إلى الرباط!

لقد كبر أبناء الحاجة السعدية والحاج حميدة الرندي، الولدان والبنت. لقد تبنيا عليا ثم نزهة ثم يوسف من غير أن يعرف أحدهم عن الآخر أصلا سوى بالظن والإشاعة. وها قد سارت الأمور، كالعادة، وفق منطق الدم، وهو، أي علي، لا "علاقة" له بهذا الدم "الفاسد"، فيما يعتقد، لا بدم العائلة ولا بدم نزهة ولا يوسف، عليه إذن أن يغادر مكان المعركة مهزوما في كفن العار. لكن هل يمكنه أن ينسى هذا الشعور بالعار، هذه الإهانة!؟

–إن من يرفع ساقيه، قهرا أو طمعا، كمن يرفع يديه، خوفا أو استسلاما، كلاهما ميت، أي مغتال، جسد بلا روح، جسد ملأته الريح، أفرغته

من دمه. لذلك يتساوى، في أحيان كثيرة، رفع الساقين ورفع اليدين، بل من رفع ساقيه يكون قد رفع يديه، كذلك يرفع ساقيه، في حالات عديدة، من يكون قد رفع يديه.!

هكذا يمكن أن نفهم معنى أن يكون الاغتيال انتحارا، معنى أن يكون الانتحار انتقاما، أن يكون الانتقام وصفا، معنى أن يكون الوصف تذكرا، معنى أن يكون التذكر شعورا بالعار، أن يكون الشعور بالعار اختزالا لجسد في نصفه الأسفل، أن يكون الجزء الأسفل هو الجزء الأعلى، أو العكس، معنى أن يكون جلوسنا في مقهى، في صباح باكر أو ليل متأخر، استعدادا لارتكاب جريمة !

لكن هذا التشريح الضروري للفهم قد يشتتنا ويمزق الرجل والمرأة، هذه امرأة وهذا رجل، أي اثنان من البشر، منا، فلنقربهما من إحساسنا، لنشاهدهما في أنفسهم، لا... في أنفسنا، بل في مئات الآخرين... ماذا أحاول أن أقول؟ أنتم؟ لا... أنا و...! ؟ أستغفر الله، نزهة وعلي ويوسف... فقط! يوسف وحده، أما يوسف، الشهير الآن ببوسبعة، فإنه حتى حين اكتشف، وبما لا يدع مجالا لأي شك، أن نوز أخته الشقيقة، من رقية السوسية وحميدة، فإنه احتفظ بها عشيقة ولم يذرف ولو دمعة واحدة!

-الدكتور علي... مرحبا!

-ألا تتركني وشأني؟

-أنا أنتظر امرأة، كيف حالك؟

-أنا انتظرتها... مرت...عن إذنك!؟

-لم لا تشرب معي قهوة، نتذكر أيام... معا!؟

-شربت، شكرا، لا أريد أن أكون شريكا في جريمتك!

-جريمة!؟

-الوداع!

كذلك اغتال الصديق الوحيد الذي بقي له في الدنيا والذي كان ينتظر ويفكر معه هذا الصباح، "يلغط"!

مسكين الدكتور علي الرندي، من كان يمكن أن يتصور!؟... جريدة من فضلك! لا... ارفع الستائر أكثر... لا أرى شيئا... يكفي!... قهوة أخرى... مسكين أنا، كل من ضيع حب، أوصداقة، الصبا؛ ألا يقول إنه من المتغيرة؟ أعوذ بالله من كل المتغيرة المتصرفة!

مدام بونجور والمليارديير

اقتربت من المدخل الكبير الذي يشبه بوابة كاتدرائية. توقفت محاولة إبعاد وجهها عن الزجاج الذي انفتح آليا! تفعل ذلك كل يوم أربع مرات منذ سبع سنوات، مرتين دخولا ومرتين خروجا، وكأنها لأول مرة في حياتها تقوم بهذا! قبل أن يغلق الباب من ورائها كان الحارس واقفا يؤدي تحية الصباح لها:

-أسعد الله صباح مولاتي!

-بونجور !

يكمل طقوس التحية:

-الشريفة بخير؟... نامت نوم الملكات، بإذن الله!... استيقظت كما تستيقظ عروس، والحمد لله، ستقضي يوما سعيدا، إن شاء الله!...

تفقد "وقارها" وتضطر إلى القهقهة، قهقهة تدوي في كل أرجاء البهو الفسيح بينما يبدأ في فرك يديه وهو مازال منحنيا في أدب، وبسمة باطنية تنشر الرضى في كل جسده: لقد نجح هذا الصباح أيضا في إضحاكها!

يتكرر هذا المشهد أربع مرات في اليوم: يهب واقفا، منحنيا، وقورا، يشرع في إلقاء التحية، وهي خارجة أو داخلة، يأخذ، تدريجيا، في المبالغة عن طريق التكرار أو التضخيم إلى أن تدوي قهقهتها في كل أرجاء المدخل. تغمره البهجة إذ يشعر بأنه نجح في إنجاز بداية الطقس، أهم طقوسه اليومية. تكون قد تركته وراءها بضع خطوات، يتحرك ماشيا خلفها، تستمر تعبر البهو في اتجاه المصعد الفارغ، بعد أن تحول بسرعة القهقهة إلى ابتسامة صغيرة، يظل يمشي وراءها منحنيا، وهي تدق الأرض بكعبيها العاليين الحادين، تتمايل في هدوء وبعض الخيلاء، بينما هو يسرق النظر، دائما من الخلف،

إلى الصدر الشهي المتدلي من العنق وإلى المؤخرة المتينة التي تبدي التخنث، إلى الفخذين المتباهيتين بحملها... فجأة يقفز أمامها ليفتح باب المصعد وهو في أقصى درجات الانحناء ليتركها تمر:

–الله يعاون مولاتي!

–مرسي!

ترد وهي تقاوم لكي لا تتحول الابتسامة الصغيرة إلى قهقهة مجلجلة من جديد. تدخل المصعد. يغلق الباب وراءها، يظل متسمرا في مكانه، بعد أن يستقيم كاملا، يعد الطوابق، يستمع إلى دقات حذائها وهي تغادر المصعد وتعبر ممر الطابق الخامس، ينصت إليها تدير المفتاح، تدخل باب مكتبها، ثم تغلق الباب وراءها. آنئذ فقط يعود إلى مجلسه بمدخل العمارة، في ذلك الركن القصي المظلم الذي يشبه القبو حيث لا يراه أحد وحيث يستطيع أن يراقب كل شيء. بدوره يفعل ذلك، في هذه العمارة، منذ سبع سنوات، كما كان يفعله في العمارة القديمة ذات الطوابق الثلاثة في "درب السلطان" منذ عشرين سنة. لم يتغير، بالنسبة إليه، سوى عدد الطوابق والمصعد الذي عوض الدرج، المصعد الذي اختزل عدد دقات الحذاء، قصر مدة استمتاعه. ومنذ سبع سنوات لا يستطيع أن يسمع من وراء الباب الزجاجي الكبير سوى شيئين اثنين: دقات حذائها وصوت سيارة السيد الرئيس، المدير العام، حين تقلع أو تقف. قبل ذلك، أي طيلة ثلاث عشرة سنة كاملة، كان يشم رائحتهما من بعيد، كان بإمكانه أن يقول:

–"السيدة على بعد مائة متر من هنا!"

أو:

–"السيد قد خرج من بيته الآن!".

لم يثبت، إلا نادرا جدا، أنه أخطأ في هذا التقدير! لقد تكون لديه ما يشبه الحس الخارق في شم الرائحة ثم في سماع الصوت، رائحتهما وصوتهما اللذين أصبحا متميزين لديه أشد ما يكون التميز. لذلك ينعته الكثيرون "بالسلوقي"!

-لم يوجد بعد كلب يضاهيه في هذا الأمر، لا بين الحيوانات ولا بين البشر!...

يشمهما، يسمعهما في أي مكان، من بعيد، وسط الزحام، لكنه يتصنع المفاجأة دائما، كأنه يفعل ذلك لأول مرة!...

يعرف متى يفتح أذنيه، يظل مرتبصا، لا يهب واقفا، متصنعا المفاجأة والرهبة، إلا عندما تبدأ الباب الزجاجية في الانفتاح، يقفز إلى نفس المكان لينحني وكأنه هناك منحنيا منذ بداية العالم، يفعل ذلك بسرعة وبمران غريب، إلا أنه يترك الوقت للداخل أو الخارج لتمرير الايهام بأنه فوجئ كي يضفي على طقسه الهام، بالإضافة إلى الاحترام والتقدير، الخوف، ما يشبه الرعب، الترهيب...

هذا الطقس يهدف إلى غايات مختلفة قد يكون أهمها إظهار أنه الخادم الأمين الذي يفيض احتراما وتقديرا للسيد والسيدة، أن هيبتهما ترعبه. لكنه يؤدي هذا الطقس ليرعب الآخرين كذلك، كل الموظفين إذ يضطرهم بدورهم إلى الانحناء، إلى إلقاء التحية أو على الأقل إلى إفراغ المكان وقت مرور السيد أو السيدة. إنه إذن تعبير عن طاعة لجلب مزيد من الطاعة، لإدامتها على الأقل، ثم إنه تذكير للسيد والسيدة بأنهما مضطران بمجرد ما يصلا إلى المدخل، إلى التحلي بصفة الرؤساء العظام والتصرف بما يفرض الاحترام، وإن بلا تقدير، وإن بنشر الرعب.

هذه هي المهمة الأساسية التي يقوم بها الحارس "شيبوب" في حضرة الرئيس أو الرئيسة: تمثيل دور المرعوب بتلقائية! وقد أخذ يتدرب عليها منذ الصغر، منذ أن كان ملازما "لبوسبعة"، "الطفل المنحرف"، عفوا "الطفل الذي بلا عمر ولادمع"! ثم منذ أن أصبحت "نوز" ملكا "لبوسبعة": يمثل دور المرعوب عند ظهور بوسبعة أو نزهة أو هما معا في جماعة، أية جماعة من الصغار أو الكبار، منذ كانوا "أطفالا"!

بهذا الطقس، منذ عشرين سنة، يبدأ نهاره أو ينهيه وقد يطلب منه أن يؤديه خارج العمارة، في أماكن مختلفة حسب الحاجة والمناسبة. وما أشد شقاءه إذا أخطأ بعضا من هذا الطقس أو أخطأه كله! الأمر لا يثير سوى قهقهة السيدة أو تكشيرة السيد. لكن شيبوب يمرض، يصاب بالأرق ويكاد يقتله تأنيب الضمير أياما طويلة وليالي كثيرة لا تشفيه إلا هدية من السيدة: دراهم معدودة لإعادة التوازن إليه!

ذلك أنه لا يخطئ إلا إذا كان في "ضائقة مالية". أما في الأوقات العادية فإنه يؤدي نفس الطقس بنفس الإتقان: يتسمر منحنيا أمام المدخل، في نفس المكان ليلقي بنفس التحية، يتحرك وراء السيد أو السيدة وقد أخرج كل عتاده من الدعاء والتمني، ينط ليفتح باب المصعد منحنيا، يتصنت إلى صوت المصعد ثم إلى وقع خطوات، إلى باب المكتب يفتح ويغلق، ثم يعود إلى كرسيه، إلى "قبوه" معتبرا أن بداية الصباح أو الزوال قد مرت على أحسن ما يرام وعليه أن يشرع في اهتماماته اليومية العادية في انتظار نهاية الصباح أو الزوال حيث لن يتغير من الطقس إلا بعض الجوانب التي تمس الشكل: يبدأ الطقس بباب المصعد وينتهي بانطلاق سيارة السيد أو انغلاق الباب الزجاجية خلف السيدة، تختلف بعض عبارات التحية والتمني، يدخل إلى غرفته

الصغيرة قرب القبو، يفتح نافذة صغيرة على الشارع يستعملها لتهوية الغرفة، خاصة أثناء الطبخ، وشباكا للتعامل مع زبناء الليل.

لا يغادر هذه العمارة ليلا ولا نهارا إلا إلى البلدية أو للمستعجلات، إنها مقر عمله وبيته ومكان استجمامه. علاقاته النهارية مع الموظفين علاقات خالية من البروتوكولات، جاسوسية في الغالب، محكومة بالمصلحة المادية وإن كانت لا تخلو من أخوية، بل من أبوية، فهو المنبه، الرادع، النصوح، المتكلم، المساعد على تجاوز الأخطاء والهفوات، المخطط لأسهل الطرق من أجل الحصول على ترقية أو رخصة، من أجل الوصول إلى قلب السيد أو السيدة، حلال الصعوبات المادية والنفسية والعاطفية والزوجية.

غير أنه لا يمكن أن يتفرغ لكل هذه المهام الثانوية إلا إذا مرت دخلة السيدة، أولا، ثم دخلة السيد، ثانيا، على خير ما يرام، إن دخلة السيدة هي ميزان الحرارة الذي يقاس به مزاج السيد، المزاج الذي يصمم على مؤشره طريقة الاستقبال وشكل التعامل مع السيد طيلة الصباح أو الزوال، وهو يعرف أن ميزان الحرارة يشتغل إذا ردت عليه بعض النظر عند الصباح والمساء:

–بونجور !

ويعرف أن الحرارة ممتازة إذا سمع قهقهتها تدوي في أنحاء البهو، لكنه لا يطمئن تمام الاطمئنان إلا إذا سمع الرئيس، داخلا أو خارجا، يرد عليه في هدوء:

–عليكم السلام!

تتهاطل عليه أسئلة ودعابات الموظفين بعد ذلك:

–كيف حال مدام "بونجور"؟

–سمن !

–والسيد الرئيس؟

–عسل!

–وأنت !؟

–سمن على عسل !

–والقهوة ؟

–بدرهمين !

–والسيجارة ؟

–المستورد بدرهمين والمحلي قد نفذ!

–والويسكي؟

–اسأل عن الريكار أحسن لك!

–والفودكا؟

–لا، أنت تسأل عن الويسكي، لقد جاءتك المفاجأة!

–والنبيذ... والبيرة؟

–عندي لك برميل ماء، لقد جاءت زوجتك تشتكي من كثرة ديونك!

–الشاي، أشيبوب!

–الصباح لله، وجوه الشاي ظهرت، لن تفلح هذه الشركة إلا إذا خليت منهم!... ألا تعرف أن الشاي يجلب القمل إلى المخيخ؟

–ماذا عندك من العطور اليوم!؟

–الله أكبر، الملائكة في الأرض... الجمال واللطف والمحبة من فضل الله! عندي اليوم ما تشتهي الأنفس الزكية: عطور فرنسية بنصف ثمن السوق!

–كيف حال العملة؟

–لم تدفع بعد ما عليك من دراهم !

-هل حصلت على القماش الذي طلبت منك؟

-آتي به من الهند بنفسي، تأمرين: اللون والكم، عبدك جاهز!

يشتغل "شي"، أي شيبوب، في كل شيء، يبيع كل السلع، كل سلعة مطلوبة، يخلق الحاجة إليها بواسطة السلف الذي يزكيه بالحلاوة، أي الربا. يدين كل الموظفين، كثير الصبر، لا يكف عن رفع الفائدة، لكن لا أحد يمكنه أن يمتنع في يوم من الأيام عن الدفع لأنه سيؤدي الثمن أغلى، ستسود علاقته مع السيدة والسيد وقد ينتهي به الأمر إلى الطرد من العمل... شفقته واسعة وغضبه "أوسع من البحر"، يغضب عليك السيد أو السيدة فيجد لك "شي" طريقة لاستيرداد العطف الضائع، يغضب عليك "شي" فلا تجد رادا لغضبه!

رجل لا يعرف طعم الخمر ولا السجائر ولا النساء، مدمن على شرب الشاي وجمع المال بكل الطرق:

-رجل بلا فضائل ولا رذائل!...

لا يعرف من الأحلام (الأحلام أو الوساوس؟) سوى أن يصبح مليارديرا!

-لماذا تريد أن تصير ملياديرا؟ يسأله العجوز المكلف بالبريد.

-لأتقدم إلى السيدة وأطلب منها يدها!

-سيدة!؟ يسأله العجوز بخبث.

-نعم، سيدة... أنتم تتزوجون بالرجال !؟

يتظاهر العجوز بالبراءة:

-ومن تكون هذه آل... !؟

يطعنه "شي":

-أمك! شغلك؟

يضحك العجوز لأنه نجح في استفزازه. إنه يعرف، كلهم يعرفون هوس الرجل: مدام "بونجور"، نوز! لكنه يتظاهر، كالآخرين، بعدم معرفة السر:

-أنا أقول لك: أميرة موناكو أحسن لك!

يبتسم له "شي":

-ستعجب إذ ترى الملوك والأمراء وكبار الأثرياء في حفل زفافي!

يضحك العجوز ليهيئ الرد، يباغته:

-ومدام بونجور أيضا في الحفل!

يداري المفاجأة-الطعنة:

-والسيدة، السيد المدير العام، لم نسيته!؟

يبحث العجوز عن وسيلة أخرى لاستنطاقه:

-على كل حال، هما ليسا متزوجين، هو يعيش مع زوجته وأولاده، هي تعيش وحيدة، أنا من رأيي أن تعرف إن كانت ستقبل بك زوجا!

يشعر "شي" بالغضب، بالإهانة:

-ولم لا تقبل بي؟ ... أنا في الخمسين وهي في الأربعين... أنا ملياردير وهي تحب المال... هي "صاحبة" الرئيس لأنه مليونير... مليونير فقط!

-فقط، ينبهه العجوز إلى زلة لسانه!

يكتشف أنه سقط:

-أنا أريد أن أقول: إذا صرت مليارديرا وظل السيد مليونيرا فقط وإذا طلبت يدها منه فإنه لن يرفض، هي لا يمكن أن ترفض أمره وأنا عبده ولو ملكت مال الدنيا كله؛ السادة يرمون دائما بشيء من الفضلات!

يعيده العجوز إلى دواخله:

-والله صدقت، هناك أناس كثيرون تستطيع أن تشتريهم بالمال أو تلتقطهم بطول الصبر، كفضلات!

يتحمس "شي" ولا يدرك أن العجوز يقصده:

-لا... كل الناس، الناس جميعا وبدون استثناء تستطيع أن تشتريهم بالمال، خاصة النساء... النساء أسهل!

يزيد العجوز من حماسه:

-أنت تبالغ، لا تعرف الناس، خاصة النساء!

يستمر "شي" في الاعتراف:

-جميع موظفينا مثلا... إني أعرفهم واحدا واحدا، الرجال والنساء، منهم من يمكنك شراؤه بزجاجة ويسكي أو علبة سجائر، ومن النساء من تستطيع شراءها بقارورة عطر... قد شاهدت فيلما، في التلفزيون يؤكد ذلك!

يستفزه العجوز:

-هذا فيلم... سينما، خيال!

يتشبث "شي" بإقناعه:

-ورأيت في الانتخابات، اشترينا الناس بلا شي تقريبا واشترينا علية القوم بأغلى من ذلك، لكنا اشتريناهم!

يستنكر العجوز ناسيا أنه إنما "يلعب" مع "شي":

-لا تقل إنكم اشتريتم كل الناس!

يدرك "شي" سر خدة نبراته:

-إلا أولئك الذين اشتريتموهم أنتم "بالوهم" وحزبكم الذي لا يساوي شيئا!

يفطن العجوز إلى أنه بدأ ينسى أنه يلعب مع "شي":

-إذن لم تشتروا كل الناس!

يبتسم "شي" مبتهجا بانتصاره الصغير:

-المشكلة ليست فيمن اشترى، وإنما فيمن باع: نحن اشترينا الكثير وأنتم القليل، نحن "بلا شي"، أنتم "بالوهم"!

يحتج العجوز مرة أخرى بجد:

-وتسمى المبادئ أوهاما: الديمقراطية وهم؟

يتشبث "شي" بابتسامته الماكرة:

-حتى الآن آه، ولكن أسي "النقابة" أفهمني، أنا أقول: كل الناس تبيع نفسها من أجل شيء، لكل شخص ثمن، كيفما كان!

يحاول العجوز أن يحاصره مرة أخرى:

-إذن، الأشياء جميعا متساوية في نظرك، بنفس القيمة!

يصب إليه القهوة وهو يرد:

-لا، لا، لكل شيء ثمن، قيمته، السلع مختلفة، كذلك أثمانها!

لا يفهم العجوز كيف يفكر رجل بهذا الشكل، كل شيء يباع، لكل شيء ثمن (وماذا يفعل من أضاع التاريخ والحال؟) فيتذكر مرة أخرى أنه يلعب معه فقط، فيتابع لمجرد التسلية:

-لكنك لم تقل إن كانت الديمقراطية، كمشروع، وهما أم أنك تؤمن بها كقيمة ووسيلة!

يتصنع "شي" التفكير:

-والله فاجأتني: أنا ديمقراطي بالطبع، الديمقراطية في حاجة إلى مال، أنتم في حاجة إلينا ونحن في حاجة إليكم، من سيؤطر الناس إن لم تكونوا معنا ومن سيمول مشاريعكم إن لم نكن معكم، من سيدعم الفكر بالمال!؟

لقد عاد العجوز إلى الضحك في سره مما يسميه تفاهة النفس، لكنه أصر على أن يتابع لمزيد من التسلية:

-وهل تستطيع الزعم بأنك تقدر على شراء السيد؟

يضحك "شي" في سره بدوره ويتابع اللعب:

-أبدا، هذا الوحيد الذي لا يباع ولا يشترى، أما أنت فأستطيع أن أشتريك وجريدتك وحزبك ونقابتك!

يستدرجه العجوز إلى الضحك من جديد:

-وأولادي!؟

يضحك "شي":

-لا أشتريهم ببصلة، ولو بلا ديونك!

يتابع العجوز:

-أبيع لك زوجتي إذا شئت، تشتريها!

يوسع "شي" ضحكته:

-كم تدفع لآخذها منك !؟

ينتبه العجوز إلى أن تيار السخرية قد يجرهما بعيدا:

-والله لا أبيعها بمال الدنيا كله، هذه لا ثمن لها !

ينتبه "شي" بدوره إلى أن هذه اللعبة خطرة:

-أنا كنت أتحدث عن نساء اليوم لا عن جواهر الأمس، من فاز فاز وحاز... هذيك كنز عندك... أما اليوم، إني أدعوك إلى التحدث معهن، إلى الاقتراب منهن أكثر لترى بأم عينك أن مشروعهم في الدنيا لا يتعدى ثلاثة: وظيفة محترمة لا تتطلب عملا وزوج قوي بماله أو مركزه وبعض المحسنات مثل الأولاد والسكن الفخم والسيارة الفارعة، هذه الأمور تنال كلها بالمال فقط!

يقف العجوز الآن بين الجد والهزل:

-إنهن تتكلمن عن الحب والكرامة... المساواة!

يظهر "شي" أقصى الجد:

-هراء، إنهن مع ذلك على استعداد للتضحية بكل هذه الخردة من أجل "المشروع"... جلهن... الحب والكرامة فلوس!

يحاول العجوز أن ينسحب:

-فيهن، مع ذلك، نساء...

يتمسك "شي" برأيه:

-ولا واحد... أنت تعيش خارج الوقت، أنت وجريدتك ونقابتك وحزبك... الوقت هو الفلوس، الفلوس فقط!

كل يوم يلعب "العجوز" لعبة كهذه مع شيبوب وفي كل مرة تنتهي اللعبة باختصار العالم في المال، يستغرب العجوز كيف تستحوذ هذه الفكرة على رجل يملك الكثير ويظل مقيما بين غرفة ضيقة وقبو مظلم، يسأله مرة مرة مستنكرا:

-متى تبدأ الحياة، تعيش؟

فيرد "شي" بنفس الصيغة دائما:

-عندما أصبح مليارديرا، قلت لك، وأجد المرأة المليونيرة!

هذه المرة أيضا أراد أن يسأله نفس السؤال، لكنه لمح سيارة الرئيس تقف أمام المدخل فابتعد وهو يردد:

-ما يتبقى لنا من الطفولة تغتاله الغابة!

أثناء ذلك كانت الباب، باب المدخل، قد انفتحت وكان شيبوب قد هب واقفا في انحناءته شاهرا عبارات التحية والتقدير وملامح الرعب ثم سار خلف الرجل مدليا لسانه بالدعاء والمتمنيات ثم قفز إلى باب المصعد وفتحها بعد أن استعاد انحناءته، أغلق الباب وراء السيد، تصنت إلى المصعد يعبر الطوابق، استمع إلى وقع خطواته، إلى باب مكتبه تفتح ثم تغلق، استقام وعاد إلى قبوه:

-كانت هذه "السلام عليكم" ناقصة بعض الشيء... لكنه لم ينهرني... ووجهه بلا غضون... إذن بخير... والحمد لله!

بحث عن العجوز فلم يجده:

-خرج إلى البريد!

هذه علاقته الوحيدة التي فيها بعْض "الصداقة"، لكنها ليست خالية من المنفعة بدورها: إن "العجوز" أهم مصدر للأخبار السياسية والنقابية بالنسبية لـــ"شي". وهذا الأخير، بالإضافة إلى كونه "حلال المشاكل المالية الآنية"، أهم مصدر للأخبار "الرسمية"الخاصة بالشركة بالنسبة "للعجوز"، إضافة إلى أن العجوز يعرف كيف يشعره بالأهمية، أحيانا كثيرة، وكيف يخفف من أزماته الطارئة، أحيانا، قليلا: ذات صباح مثلا، شرح "شي"، بكيفية مطولة جدا، انتماءه "الموضوعي" للطبقة العاملة وكيف يتساوى، في نهاية الأمر، "العامل" البسيط مثله و"الغني" الكادح مثل يوسف بوسبعة بسبب موقف الحكومة منهما، خاصة الضرائب!؟...

شطحات صغيرة كهذه تجعل "شي" يبدو تافها في عيني العجوز، لكنها تجعل من العجوز رجلا بسيطا في عيني "شي"!...

-كذلك تجتمع المتناقضات، يرعاها "شي"!

وها علي يراقبه خلف الزجاج من خارج العمارة: مازال "شي" كما كان بدوره "بلا عمر"، منذ الطفولة! هل مر فعلا كل هذا الوقت، خمس وعشرون سنة على "ركوبه البحر"؟ ماذا تغير؟ عدنا إلى الكريمات ثم رجعنا إلى الدار البيضاء بعد موت الوالد والوالدة!

-اغتنى أخي بوسبعة، وتابعه شيبوب، بسرعة ومازالت نوز مجرد "خليلة" للاثنين، مازال "شي" ينتظر أن يفرغ منها "بوسبعة"، كما كان في "صغره"!

الوحش والأنثى

دخل الرئيس، السيد يوسف بوسبعة الرندي، إلى مكتبه. تأكد من نظافة الكرسي ثم ضرب الأرض برجليه:

-سأطرد المنظفة الجديدة، كل هذا الغبار!

وضع المحفظة فوق الجانب الأيمن من المكتبة وجلس. أحس بقشعريرة طويلة، انتبه إلى أن المكتب مازال باردا. اقترب بكرسيه ذي العجلات نحو المدفأة الكهربائية. رفع مثبت الحراراة إلى أقصاه. وعادة بكرسيه إلى مكانه. أخرج سيجارة. تحسس صدره وتنفس طويلا قبل أن يشعلها:

-يجب أن أتوقف عن التدخين!

الحفلات والسهرات بمناسبة وبدون مناسبة:

-لا يمكن للمرء أن يستمر في التدخين وهو في غاية الإنهاك، لا يأكل ولا ينام بشكل صحي!

المهام كثيرة، أغلبها سطحي أو صوري:

-لا يتبعنا إلا غياب الجد، ممارسة الجد في الهزل، وضعف الإرادة و... الهمة الفاشلة!.

خلع معطفه ثم لبسه:

-اللهم ارحمنا بالمطر!

والويسكي؟

-خرج لي على الكبدة!

موجة الزمهرير مستمرة منذ أكثر من شهرين:

-أين ينزل مطر وثلج هذا البرد!؟ في أوربا دائما!

أحيانا ينزل بعض الرذاذ وبعض الضباب، كما في هذا الصباح:

-في أوربا يموتون من الفيضانات ونحن نموت من الجفاف!

في الإذاعة تحدثوا عن ظهور بعض أسراب الجراد في أقصى الجنوب:

-اللهم اللطف بعبادك الضعفاء يا لطيف واجعل لنا من أوليائك شفيعا، يا كريم، فإن هذا البلد، كما تعلم يا عليم لا يخلو ممن يخافك ويخشاك، ولا تنس المجتهدين منهم!

لقد اجتهد في غرس الموز والمانغا والكاكي، هذه السنة:

-نريد أجر المجتهد، يا رب!

ثم خلع معطفه. قام وعلقه في مغسله. ثم أخرج سجادة رمادية من خزانة المغسل. بسطها فوق زربية المكتب وبدأ يصلي. الضحىٰ والفجر. ثم عاد إلى كرسيه ذي العجلات وطلب نزهة في الهاتف سجل في مذكرته الخاصة موعدين: اجتماع بالولاية: الساعة الحادية عشرة. موكب وزير الصحة: الساعة الثانية عشرة والنصف.

طرق الباب:

-ادخل!

دخلت نزهة:

-بونجور!

-صباح الخير، وعليكم السلام!

وقفت أمامه، بين كرسي الاستقبال، فبدت له وكأنها، من كثرة ما تحمله من أوراق، تتكئ بركبتيها على الطاولة الواطئة التي تتوسط الكرسيين. تأملها وكأنه يراها لأول مرة. منذ مدة طويلة لم يتأملها بهذا الشكل، تدخل وتخرج من مكتبه وكأنها غريبة لا تثير سوى اللامبالاة:

-لقد شاخت بسرعة، لكنها لا تكف عن التصابي، قريبا أتركها ل "شي"!

صدمه لباسها:

-هذا النوع من اللباس لم يعد يلائمها، لم تعد نوز، لم تعد سوى نزهة!

وتذكر لعابها ومخاطها وهي طفلة ثم أحس بالاشمئزاز من كثرة الماكياج.

-لا ترى وجهها الحقيقي، لم تره قط، هذا وجه الواجهة وها هو يفقد الصباغة، لم يعد يقبلها... لكل شيء أجل ولا حيلة مع الحق!

كانت مضطربة. أحست بالخبث في وجهه، رأت المكر يتراقص في قسماته. تمسكت بالأوراق وبحافة الطاولة الواطئة:

-اللهم اجعله خيرا وأخيرا يا رب!

لقد أصبح غريب الأطوار منذ ثلاثة أشهر. لم تعد تقدر على التنبؤ بأفعاله. قبل ذلك كانت تعرفه أكثر مما تعرف نفسها."وضعته في كرشها!"، كما يقول شيبوب، سواء لما كان "لا شيء" أو وهو يرتقي إلى أن أصبح من أهم رؤساء البلديات والأعيان. والآن، منذ ثلاثة أشهر، كلما دخلت عليه تجده في حال ولا تطمئن إلا إذا نطق. فجأة يخرج من تفحصها وينطق:

-ابتداء من الآن أريد أن أراك في ثياب محتشمة: جلابية وفولار، الحجاب... آه! و... يكفيك بعض الكحل البلدي... هذا... هذا... مكان عمومي، محترم!

وسادت بينهما دقيقة صمت رهيبة قطعتها برد لم يفته طعم التهكم فيه:

-هذه السنة سأحج إن شاء الله!

لكنه وضع حدا للموقف:

-ضعي ما بيدك وانصرفي!

تباطأت أكثر من اللازم وهي تقترب من سطح المكتب قبل أن تبدأ، بنفس التباطؤ، في عزل الأوراق التي بين يديها. وفي ذروة شعوره بالإهانة والتحدي عاد يتفحصها من جديد. لا أثر للشيب في رأسها:

-إنها تصبغ الشعيرات الرمادية. إنها صلعاء: كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل!؟ كل هذا الصلع!

لكنها تخفي مقدمة الرأس القاحلة بشعيرات وسطه:

-كأن الجراد مر من هنا، لعله الآن في الداخل: في القلب يفترسه!

تلك الشعيرات تصلبت من كثرة حرارة المكتب فأصبحت شبيهة بالأسلاك:

-طبق هوائي ممتاز لالتقاط قنوات النميمة والغيبة!

أصبح مشدودا، منذ ثلاثة أشهر، إلى عيوب المرأة التي مازال صدرها متدليا فوق الأوراق بين يديها. في هذا الوضع لا يمكنه ألا يلاحظ الصلعة والشوارب:

-ما أشد كثافة هذه الشوارب كأن شعر مقدمة الرأس الملحوسة سقط مقصوصا بين الأنف والشفة العليا، فلا هو شارب ولا هو خصلة!

لكن الشوارب لا تخلو من بعض الزغب الرمادي الطويل:

-يأبى الأكسجين أن يأكل زغب الشوارب، لكنه التهم مقدمة الأنف، يا لطيف، هذا مسخ، المسخ هذا!

مازالت المرأة تعزل الوراق. كتفاها العريضتان منتشرتان حول ذراعيها الهزيلتين:

-رجل ممسوخ في شكل امرأة مشوهة، هذي خصها تمشي تشطح فالسويرتي!

انتصبت فجأة فتبعتها أجزاؤها البارزة: الكتفان والثديات والشوارب الكثيفة والصلعة. اتجهت نحو الباب. معقوفة الرجلين تمشي كأن مقدمتي الساقين مشدودتان إلى بعضهما بقيد، متلاحقتان، كأنها لا تكف عن صعود جبل خيالي!

-هذا هو الحيوان الذي أحببت؛ كنت مستعدا لارتكاب أية حماقة من أجله... المغفرة، يا رب، تبت!

تابعها لائما نفسه، شامتا فيها وفي ذاته، حتى اختفت خلف الباب. وأحس على الفور أنه كان مرتاحا، سعيدا. لقد نجح في تجريدها من كل قيمة، من كل فتنة. ولم تعد بالنسبة إليه، سوى حيوان، شيء أقل من الحيوان لأنه ملأها بالتشوهات والعيوب. ولقد تطلب منه ذلك ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر فقط من التشويه والتشهير، من طلب المغفرة!

ومع ذلك فإن "المغفرة" لم تكن تخلو من شيء من الشعور بالذنب: إنه يستطيع بسهولة كبيرة أن يتحول من وحش، من سفاح، إلى عاشق، إلى إنسان... لكنه لا يستطيع، في كل مرة، أن يتخلص من بعض الشعور بالذنب. وهذا سر إيمانه وإكثاره من الذكر والصلاة، حسب زعم أعدائه وخصومه! لكن الحقيقة غير ذلك، أكثر من ذلك: عندما يحس بالقليل من الشعور بالذنب، كما في مثل هذه الحالة، يجرم غيره، يأخذ السكين من يد "الخصم" أو "العدو" ثم يصرخ:

-النجدة!

السياسيون الذين هزمهم بوسائل "غير شريفة"؟ أولاد الحرام، لو لم يفطر بهم كانوا سيتعشون به!

رجال الأعمال والزبائن؟

-ذئاب في هيئة آدميين شديدي الحضارة!

النساء؟

-كل امرأة متآمرة فاتنة، لكن مؤامرة كاملة!

ونوز؟

-ق... خضعت للقوي، الذي غامر ودفع أكثر... وماذا كانت ستكون نوز بدوني، أحسن من علي الكلوشار؟ لولاي لكانت تزوجت وفرخت زينة من الأولاد، لكانت غيرت كل أسنانها المتساقطة بفم اصطناعي! نوز... إنها تملك الآن من الدور والذهب ما يكفيها بقية العمر أو يزيد، تستطيع أن تعيش كأميرة... وها "شي" في انتظارها!

كانت نوز قد ذهبت مباشرة من مكتبه إلى مكتب الكاتبة الجديدة المتدربة: عشرون سنة من الجمال الخارق، المعجز. لما رأتها منذ أسبوع، لأول مرة، قالت في داخلها:

-لقد ذهب الله بنور كل نساء الشركة والبلدية!

سلمتها جميع المفاتيح والوثائق:

-أنا ذاهبة، إن شاء الله، إلى العمرة!

ابتسمت البنت الساحرة بخبث ظاهر:

-سبعا إن شاء الله!

ابتسمت نزهة ابتسامة لطيفة راثية:

-احذري الذئب!

كشرت البنت الجميلة حتى فقدت رونقها:

-لا أفهم... هذه شركة، حسب علمي، وليست غابة!

كشرت نزهة بدورها حتى خافت البنت:

-صدقت، إنها شركة بكامل المعنى!

واستدارت لتخرج وهي تردد:

-مازالت مغرورة، سيأتي عليها حين من الدهر!

عادت إلى مكتبها. أغلقته على نفسها، شرعت في البكاء.

وخرج علي من المقهى متأبطا مجلات الكلمات المتقاطعة، خمس مجلات لم تبق منها إلا خانات قليلة فارغة، خانات تبدو له؛ وسط الحروف اللاتينية، كأنها بقع أرضية لفيلات أو قصور لم تشيد بعد: "المتاهات الكبرى"، "المعجزات العقلية"، "الكلمات المتقاطعة ذات البعد السابع"، "الرياضيات العليا"، "كلمات عجائبية". صعد إلى الحافلة، التي تقف أمام المقهى، نزل من الباب الأمامي. مشى بضع خطوات. عاد يجري، يتزاحم ليصعد مرة أخرى إلى الحافلة، دفع من الخلف نحو مقعد شاغر. شتم الشاب الذي كان وراءه:

-حمار!

تفحصه الشاب من أعلى قدميه إلى رأسه وهو يضحك:

-أنت خائف، على ماذا أنت خائف!

أدرك قصده:

-على لحيتي وحدها!

قهقهة الشاب وهو يبتعد وسط الحافلة. بصقت المرأة التي تجلس جنبه بين قدميها:

-الله يستر ويخرج العاقبة بخير!

نظر إلى وجه المرأة: وجه ملئ بالغضون والكدمات، قال وهو يثبت عينيه في عينيها:

-يوم تنقبض وجوه وتنفرج وجوه... آمين!

هربت وجهها في اتجاه النافذة. تبعها بنظره مضيفا:

-ويحكم على القبح بجهنم أو الحبس فلا يبقى في هذه الحافلة إلا الجمال الذي يحبه الله!

هربت إلى الزحام. تبعها بنظراته. اختفت وسط الركاب. انحنت "شابة" طويلة ووسيمة في حوالي الأربعين:

-فارغ؟

أعجبه شعرها المتدلي أمامها فوق الكرسي:

-لا، مشغول!

أصرت المرأة الشابة:

-لا أرى أحدا، من يشغله!؟

قطب حاجبيه:

-لحيتي، ألا ترينها!؟

تظاهرت المرأة بحمل اللحية الوهمية وتقديمها إليه:

-تسمح بوضعها على وجهك أو فوق ركبتك!؟

"تناولها" منها وهو يهمس:

-بلطف، بلطف من فضلك!

جلست وهي تتظاهر بالأسف:

-معذرة، آسفة، إني أموت من التعب وإلا كنت تركت لحيتك تستريح، ستتعب المسكينة من الوقوف، أليس كذلك!؟

ركز النظر على جزء من شعرها كان يسترسل على كتفه:

-لحيتي مؤدبة، لبقة... أما شعرك!

أخذت تسحب شعرها لترسله فوق صدرها:

-إنه بالفعل شعر خليع لا يكف عن الجري وراء اللحى الكثيفة الطويلة، قد تكون أعجبته ليحتك!

داعب لحيته الوهمية فوق ركبتيه:

-لحيتي بنت عائلة، مثقفة، واعية ولا تحب المنحرفين ولا الساقطين!

كتمت الضحكة:

-وأنا شعري أيضا ابن عائلة، مثقف، واع معه دكتوراه في البيطرة، لكنه بمجرد ما يرى لحية جميلة يشغف بها، هل تعرف علاجا لهذا المرض، يا دكتور علي الرندي؟

تظاهر بإطلاق اللحية تسقط بين قدميه:

-علي الرندي، شعرك اسمه علي الرندي، الدكتور علي الرندي؟

تمسكت بالابتسامة:

-ألا تذكرني، يا علي!؟ عائشة الضاية... كنت تقول عني، طيلة سنوات الدراسة، لصديقك ولد النية:

-لاتضيعها لكي لا تضيع وإلا فإني أحبها أكثر منك!

أخذ يفرك ذاكرته بصوت عال:

-عائشة الضاية!؟ عائشة... الجفاف!؟

أحست نحوه بالشفقة بعد أن كانت تشعر بالحنان والمودة. إنها تعرف قصته: كيف ساءت أحواله، وأحوال جميع المتغيرة، وكيف تشرد في الهجرة خمسا وعشرين سنة ضيع فيها صديقه، قبل أن "يحرق"، ثم زوجته، في كؤوس الكآبة. تعرف أو على الأصح تسمع أنه يتظاهر من حين لآخر "بالجنون" أو أنه "يجن" من حين لآخر. لذلك حين رأته يصعد إلى الحافلة ظلت تقترب منه إلى أن فرغ الكرسي فجلست جنبه. كان فضول قوي يدفعها إلى التأكد من فرضيتها الخاصة بشأنه: إنه رجل أتعبته الخيبة فاختار أن يقطع السبب، أي العقل والمحبة، بإظهار الحمق والكراهية للناس، مرة مرة، كي ينفس عن خيبته، وهاهي الآن على يقين من أنه لا أحمق ولا هم يخزنون: إنه ينتقم، بشكل طفلي، من عدوانية الناس وضعفهم الفكري والخلقي، فقط! وبدأت تفكر في نتائج سوء التفاهم وصعوبات التواصل بين الناس، لكنه عاد يحاول استفزازها:

-عشو... عويشة... الجفاف... أو عبوش الجراد!؟ أعرف... آه... أعرف واحدة اسمها عويشة الطوبيس... كانت في سعة هذه الحافلة وعمرها!

تجاهلته. أخرجت قلما وورقة وشرعت تكتب. ثم مدت إليه الورقة وهي تغادر مكانها:

-مضطرة إلى النزول في هذه المحطة... أنت لا أحمق ولا صعلوك ولا أبله... هذا هاتفي... اترك طفلك يستريح... وهذا عنواني... إني أستطيع أن أساعدك إذا كنت ترغب في المساعدة، إلى اللقاء.

لم يأخذ الورقة. تركتها تسقط. دخلت الزحام متجهة نحو الباب. توقفت الحافلة. نزلت. بيد تحمل حقيبتها وبيد تحمل معطفا ومظلة. رآها تبتعد. انتظر أن تلتفت. لم تفعل. سارت بخطى ثابتة. قامة مديدة. نحيفة. قميص صوف وردي. سروال قطيفة رمادي. حذاء رياضي أبيض. الجزء الأكبر من شعرها ينسدل وراء الظهر إلى حدود الساقين. تحركت الحافلة. رآها تبتسم وترفع يدها بالحقيبة نحوه. انحنى على الورقة ووضعها في الجيب الداخلي لمعطفه:

-أحتفظ بها للانتقام ذات يوم، لقد أفسدت علي متعة هذا النهار!

ثم فتح "الكلمات العجائبية" وبدأ يملأ بعض الخانات الفارغة إلى أن انتبه إليه الجابي:

-أستاذ !؟هذه آخر محطة!

طوى المجلة. نظر إلى الخلاء:

-أين نحن من فضلك!؟

قال الجابي متشفيا:

-في دوار اللهم ارحمنا!

لم يشاهد ولا مسكنا واحدا:

-هات تذكرة، سأرجع إلى وسط المدينة!

لعبة العقل والإرادة

لاحظ كثرة الجلابيب والبلاغي:

-اليوم جمعة. الناس تخرج من صلاة الجمعة. بعضهم يتظاهر. لا حيلة مع الله!

قصد بقالة:

-الناس تأكل في البقالات أكثر مما تأكل في المطاعم. مسألة ثمن؟ تأكل أكثر مما تفعل في بيوتها! مسألة إمكانيات أم توافق أم تحايل!؟

طلب كاسكروط بيض بالكورنيشون:

-كثر، كثر لي من الكورنيشون... زد وحدة كبيرة، زد الحار... صافي!

جلس على كارطونة علب مربى في أقصى البقالة. أخذ يراقب الناس يأكلون. شره. لعاب. زفير. انقباض. عدوانية. حيوانات للمحافظة على الحياة، لا على النوع. تفقد غذاءه. تفحصه من جميع النواحي، من الداخل والخارج:

-غشني في حجم البيض، لكن الكورنيشون يملأ البطن، يملأ البطن، يعطي الانطباع بالشبع مدة ساعات... سأتعشى بالسردين: علبة بالزيت وخبزة بلدية أو ...حريرة ومعقودة!؟ البيصرة والكثير من الحار... المخلل والحار أهم ما في الطعام، أهم خداع للجوع!

تململ متحسسا بواسيره وهو يتناول قطعة صغيرة من الكورنيشون. وضع الكاسكروت جانبا وأشعل سيجارة. ينتظر أن يفتح الآكلون شهيته. أكل نص بيضة. أشعل سيجارة أخرى. نظر إلى شاب يلتهم خبزة طويلة محشوة بالسردين:

-الحس يديك وذراعك، والحس!

أخذ الشاب يلحس الزيت من يديه وذراعيه وهو يقول:

-شكرا، شكرا!

التهم الشاب باقي الكاسكروت وانصرف وهو يلحس يديه وذراعيه. آنئذ أقبل على أكله. أخذ يلتهمه كما فعل الشاب من قبل: لحس يديه وذراعيه رغم أن أكله كان خاليا من السوائل:

-أحيانا يجب أن نقتدي بهؤلاء الذين يحافظون على النوع... ما دمنا معهم... هنا... في ما يسمى "الحياة"، والحق أنا قد تعقدنا بما فيه الكفاية بفضل ما نسميه "الثقافة" أو "الحضارة"!

أشعل سيجارة تركها بين شفتيه واتجه نحو البقال:

-بيضة وخبزة شعير والكورنيشون والحار... كم!؟

سأل البقال أحد مساعديه من الصبيان:

-السيد عنده كم؟

رد الصبي من غير أن ينظر إليه إذ كان منهمكا في إعداد ثلاث أكلات دفعة واحدة:

-ثلاث بيضات ومائة غرام كورنيشون وخبزة كبيرة، خبزة شعير، عشرة غرام حار!

احتج علي:

-ابن حرام... هكذا تجمعون الأموال الطائلة وفي يوم الجمعة!؟

لم يهتم لا البقال ولا الصبي إذ استمر الأول في محاسبة زبنائه بينما استمر الصبي إلى جانب صبيين آخرين في إعداد الأكلات بحياد بارد. رمى عقب السيجارة وداسه برجليه مجتمعتين. أشعل أخرى بين شفتيه وأخذ يتأمل

البقال بعدوانية. تجاهله البقال. أحس بالإحباط. كاد يؤدي وينصرف لو لم يخاطبه البقال، فجأة، بصرامة:

-تؤدي أو تترك المكان لغيرك، الله يسامح!

شعر بالإهانة:

-أؤدي ثمن بيضة وخبزة شعير صغيرة وخمسين غرام كورنيشون!

ازداد البقال صرامة ولكن في هدوء:

-تؤدي ثمن ما أكلت أو تتصرف حالا، اليوم الجمعة!

حاول أن يجره إلى الشجار مرة أخرى:

-كم أكلت!؟

لم يفارق البقال حزمه:

-ثلاث بيضات ومائة غرام كورنيشون وخبزة شعير كبيرة والحار: تسعة دراهم!

احتج:

-أنا أكلت بيضة واحـــ...

قاطعه البقال:

-بالصحة والعافية... انصرف، سر في حالك!

تدخل رجل ضخم الجثة كان قد طلب أكلتين دسمتين مختلفتين:

-تنصرف، قال لك الحسين... هيا انصرف!...

تأمله كله في رمشة عين:

-لماذا تتدخل دائما مثل هذه الدينصورات، في الحياة، لتفسد لعبة العقل والإرادة؟.عاد يسأل البقال متجاهلا عين الدينصور:

-قل لي بربك: كم أكلة، في اليوم، يتناول عندك هذا الـــ...؟

أمسك الدينصور بعنقه واضطره إلى الانحناء:

-الـ... أمك!

أمر الحسين في الوقت المناسب:

-اتركه... إني أعرف أخاه... اتركه!

عندئذ أحس علي بدوار غريب، بالأرض تدور من حوله. رأى الدينصور يصير في حجم فأر والبقال في حجم نملة والصبيان مجرد ذرات هواء، رأى كل شيء يدور بسرعة، بسرعة... وهو في الشارع يجمع أنفاسه. لقد كان يريد أن يلعب قليلا مع البقال لعبة التحمل والذكاء: إلى أي حد سيظل الحسين متمسكا بصبره وعقله وإلى أي حد يقدر هو، علي، على الدفع به إلى أقصى درجات التحمل والفطنة، وها دينصور، حيوان من زمان غير زمانه ومن حجم غير حجم بني آدم، يتدخل ليفسد اللعبة، ليخرج الحسين جوكيره:

-بوسبعة!

إنه، منذ طفولته، يشعر بتقدير خاص لهؤلاء القوم الذين يأتون من "سوس"، ومن نواحي أخرى، فقراء، إلا من الإرادة والطموح، ثم ينشئون بقالة صغيرة تكبر بالتدريج ثم يتوسعون في البقالة أو في أنواع أخرى من التجارة ثم... يظلون كما جاءوا: بسطاء، مسالمين، فضلاء، جادين، متضامنين، خدومين، مرتبطين بأرضهم، مشتتين في كل أنحاء الدنيا، مندمجين أينما حلوا... إلا فيما ندر! هؤلاء الناس يثيرون فضوله، يستفزونه... يغبطهم على قدرتهم على كل هذا التحمل، على ذكائهم، على أخلاقهم، على تفانيهم في العمل... في إدارة المال القليل، على علاقاتهم الخاصة مع النساء... هؤلاء "السواس" يريد، وقد تحرر الآن من "قيد المجتمع"، أن يمتحنهم من جديد، أن يمارس عليهم قليلا من العدوانية ليتأكد مما كان يسمع عنهم ويرى، وإلا لماذا ترك الجامعة وترك أوربا!؟ لماذا جن

كل هذا الجنون!؟ إنما جن ليعرف بعد أن عرف أنه لا يعرف سوى الكتب والخطب فرمى جانبا كلما كان يربطه بهذا العالم... في الوقت الذي عثر فيه على نموذج رائع للسوسي البقال يتدخل حيوان، وحش، شبه بني آدم... غير معقول! والآن، أين يجري، أين يتجه الآن!؟ بوسبعة له بالمرصاد ليحميه، لا، ليذله، منذ الطفولة، ليفرغه من نفسه، يتدخل دائما وفي أسوإ الأوقات ليفسد عليه نعمة أن يحمي نفسه بنفسه، أن يجرب على الأقل!

-الأستاذ عنده بيضة وحدة والكورنيشون وخبزة شعير والحار! قال الصبي بعد أن رفع بصره...

وجد نفسه أمام مقر البلدية التي يرأس مجلسها "أخوه": الورقة الرابحة دائما، المخيفة دائما، المفسدة دائما:

-الجوكير!

عاد أدراجه. اتجه نحو مقهاه المفضلة. لقد بدأ يشعر بالخجل: أخوه، لماذا أخوه دائما!؟ لماذا لم يشعروا به، لا يشعرون به هو، هو الدكتور علي الرندي، أستاذ البيطرة المتميز، والحاصل على ثلاثة دبلومات دراسات عليا: في الرياضيات التطبيقية، والبيولوجيا، والمناعة، علي الرندي الأربعة أو علي الدكاترة الأربعة، كما كان يقول عنه بعض طلبته الأندلسين؟ لماذا يقيمون كل هذا الوزن لرجل مرتش، فاسق، وصولي ومنافق، سفاح، أناني ومتكبر!؟ يسمونه "ألكابون" أو "العراب" أو "هولاكو"، "هتلر"، "زورو"، "فرانكشتاين"، "باربي"، "الباربو"... لا يحترمونه، لا يقدرونه... ومع ذلك يخافون منه، يقيمون له ألف حساب:

-أتبلغ المصلحة... والخوف... والمسكنة... بالناس إلى هذا الحد الرهيب!؟

بدا له أن الناس إما خائف مرعوب أو مخيف مسعور:

-الدنيا لم تتغير. الإنسان لم يتقدم ذرة واحدة عن الحيوان. مازلنا في الغاب. مازالت الوحوش تفعل ما تشاء. من حين لآخر يعلو صوت ديك أو معزة أو خروف أو غزال. الباقي الله. الدينصورات تخرب لعبة الإرادة والعقل. الخوف. الأكل. العلف. المحافظة على النوع. والحياة؟ لكل إرادة كبرى أو عقل عظيم صرخة انتصار. لكن الوحوش بالمرصاد.

-"الدائم الله. وإرادة الحياة أليست إلهية!؟ طيب. والشيطان!؟"، يقول ولد النية.

-أنا خائف... أنا أيضا خائف، الآن؟ لا... من زمان... منذ طفولتي و وأنا خائف! ومم، ممن تخاف!؟ من أخي... طبعا، من بوسبعة الذي ليس في عينيه دمعة... كيف؟ كما تخاف نزهة... كما يخاف شيبوب وكل الناس!... والآن فقط تدرك ذلك!؟ منذ الصغر، ...منذ... نخاف منه جميعا... أنا منذ أصبحت عدوانيا وتظاهرت بالحمق... وهي منذ بدأت لا ترى سوى جسدها... شيبوب منذ بدأ يحلم بالمليار...لا، قبل ذلك بكثير... السعدية منذ رأته لأول مرة... وحميده والدي قتله الخوف منه، من بوسبعة... مات المقاوم الوطني مرعوبا! غير واضح...لا... واضح ونصف... نحن نبحث عن قوة نتوهم أنها قد توقف الإرهاب، قد تقهره... وبوسبعة يزداد جبروتا، قهرنا ونحن أطفال!

الممثل وتابعه في مرتجلة

الساعة الثالثة زوالا. يستطيع أن يراها بأكملها من هذه الطاولة.

وهاهي تمر:

-غريب... تلبس لباسا تقليديا: جلبابا زيتيا فاتنا وفولارا كستنائيا وحذاء أخضر فاتحا في لون الجوارب!

ولما تأكد من أنها هي:

-هذه لن تتوب... الله يهدي من يشاء ... لكن نزهة غاوية... هاهي تلبس له كما تفعل بعض البغايا المتنكرات في زي محجبات حقيقيات... أيمكرون!؟... نسيت أنه بدأ يصلي!... لا إله إلا الله... كيف يصلي الشيطان!؟... الانتخابات على الأبواب ... أصوات الإسلاميين!؟... ربنا لا تزغ قلوبنا... وصار خلفها من بعيد. في صغرها كان رعامها لا يكف عن التدلي، يخرج كلسان كلب، تتركه متدليا إلى أن تنتبه أو ينبهها أحد فتسحبه داخل الأنف بجرة هواء قوية وسريعة...

-وكثيرا ما كان يتدلى فجأة ونحن حول الطعام فتنهرها الوالدة قبل أن يلاحظ الوالد الأمر فيرفع يده من الأكل... هذا هو الأنف المتعجرف، الآن!

وهذا الشعر الجميل المنفوش قد كان أشعث يعشش فيه القمل ونادرا ما تفارقه رائحة زيت الزيتون العميقة! والفم، هذا الفم الدقيق الرسم الشبق، كم التهم من تراب قذر، من حلفة وإسفنج، من صوف، من ذباب! كثيرات هن أولئك اللائي يعتبرن أنفسهن اليوم من أرقى السيدات، غنيات ونظيفات وجميلات، متكبرات... لا يختلفن في شيء عن نزهة: معجزة التعليم أو الاستقلال أو ازدهار فنون النهب للثراء السريع!... كذلك الرجال من هذا الجيل، بل أفظع من ذلك كانوا، من وراء البقرة أو من تحت البردعة أو

التليس إلى الفيلا والمرسديس... باستثناء بعض أبناء "العيان والأرستقراطية"، فإن الأجيال التي اكتسبت مهارة ما قبيل الاستقلال أو بعيده، إما بالعلم أو بالوساطة أو"بالجبهة"، ينبغي أن تقيم تمثالا تعبد فيه سيدتي المعجزات: المدرسة الحديثة والمقاولة! لم يكن فضل المدرسة علينا، والمقاولة المسخرة، يكمن فقط في أنها نقلتنا من حال اجتماعية إلى أخرى، أنها جعلت منا وطنيين وتقنوقراطا وأعيانا جددا، ولكنها كذلك علمتنا النظافة والأناقة والنظام، نفخت فينا حتى صرنا مثل الطواويس قبل أن تصبح الطاووسية ظاهرة جماعية، واجهة، أن تبدأ المدرسة في تخريج سلالات أخرى مغايرة والمقاولة في تفريخ الأزمة، ولنتناس الإدارة، البقرة الإدارة، أعظم بقرة حلوب في العالم، ولا البقرة الهولندية!

لم تبدأ نزهة الحالية في الظهور إلا حوالي العاشرة من عمرها، لما دخلنا معا، نحن الثلاثة، هي يوسف وأنا، إلى المدرسة، وظلت تتطور وهي تنتقل من مستوى إلى آخر، إلى أن حصلت على بكالوريا في المحاسبة ودخلت مكتب إحدى الشركات الكبرى. لم يمض عليها في هذه الوظيفة سوى عامين حتى انتقلت إلى نوز الراهنة: امرأة مكتملة، فاتنة، أنيقة، "شخصية"، منذ سن الرابعة والعشرين! وها هي اليوم في الثالثة والأربعين أو يزيد، لم تتغير هذه "الشخصية"... حتى في هذا اللباس التقليدي فإنها كما أصبحت تبدو، ابتداء من الرابعة والعشرين، في الحفلات والأعراس! نزهة التي أعرف، نزهة التي كانت جزءا مني، ضعفي أو ظلي هي تلك التي كانت متدلية الرعام، تأكل التراب والحلفة والصوف والإسفنج والذباب، لا يفارق الرمد عينيها ولا اللعاب شفتيها... تلك التي كانت مثلي قبل دخول المدرسة ثم المقاولة! أما هذه التي تمشي أمامي مستعرضة مفاتنها متحدية فإنها نوز بوسبعة، تلك التي سلبها مني ومن أبناء الحي ورفاق المدرسة ومن رجال

آخرين، سلبها من نفسها لتكون مجرد موضوع للاشتهاء، مجرد شهوة تغري ولا تشبع، تشتعل ولا تذفئ، تحرق وتدمي، ترعب!

-مرحبا بالدكتور علي، صرخ "شي" وكأنه يشهر بي، يريد أن يثير الناس ضدي... مرحبا بالأستاذ الكبير!

ولمحتها، وهي تقترب من باب المصعد، تتوقف، تدير وجهها في اتجاه آلــ "شي" قبل أن تنقل بصرها إلي. لقد أسمعها اسمي متعمدا للتشفي أو التحذير!

ظل نظره مشتتا بيني وبينها. أناس كثيرون، ربما موظفون، توقفوا وأخذوا يبحثون عن "الدكتور"، عن "الأستاذ" الكبير:

-يستحيل في أعينهم، أن أكون أنا بمعطفي المتدلي القذر ولحيتي الكثيفة المسترسلة وشعر رأسي الذي لم يسرح منذ بدء الخليقة وحذائي المتآكل!

لكنه ظل ممسكا بيدي اليمنى في يديه القويتين ولا يكف عن إثارة الناس:

-مرحبا يا دكتور... تفضل يا أستاذ... شرف عظيم يا دكتور... نورت ...شرفت...نهار كبير...كم أنا سعيد...محظوظ...!

والناس تتوقف أو تدخل أو تخرج وهي تستغرب أو تستفسر، ونزهة ثابتة، مديرة وجهها نحوي كأنها تمثال!

-أعرف، ويعرف كل موظفي البلدية والشركة، ولا شك، أن "الملياردير" ممثل كبير، موهبة نادرة في المسرح الارتجالي، يستطيع، بفضل هذه الموهبة، أن يضع حدا لكوارث عظمى كما يستطيع أن يخلق فضائح لا تتصور. لهذا السبب جعله بوسبعة ذراعه اليمنى في كل الحملات الانتخابية. ولهذه الغاية يضعه في مدخل البلدية، حين يكون لديه الوقت "لرعاية المصالح"، وفي باب الشركة ليكون عينه وأذنه، عسكره المتقدم، فرقة التدخل السريع! لم أره، كما لم أر نزهة ولا يوسف، منذ خمس وعشرين سنة،

"حرقي لسفني" صحبة ولد النية رحمة الله عليه. لكني "أحفظه عن ظهر قلب"، أو ليس هو الذي تكفل بتدبير "فضيحة أخلاقية" لتوقيفي عن أول عمل حصلت عليه آنذاك؟ أو ليس هو الذي هيأ الشهود والوثائق لإثبات أن والدي لم يكن له سوى ولد واحد من دمه هو بوسبعة وأنني أنا، بالتالي، ابن متبنى، أمي "شيخة" من "الكريمات" كما أن نزهة متبناة بدورها، أمها رقية السوسية؟ أو ليس هو الذي هيأ لي كل ما يلزم، يوم حصلت على البكالوريا، لألتحق بالرباط، من أجل الدراسة وظل يبعث إلي باسمه كل تلك الفترات، حوالات صغيرة منتظمة لأعود إلى البيت المتواضع الذي كان والدي قد كتبه باسمي فأجده في اسم بوسبعة؟ أو ليس... شيبوب، ابن الجيران الشقي والعقل المفكر في عصابة بوسبعة منذ كانا صبيين! شيبوب القزم الأصلع "بوكريشة" الذي كان ملازما ليوسف "بوخنونة" العملاق "السفاح"، يمشي دائما خلفه وكأنه ظل رأسه يتبعه في الخرائب والكهوف!... شيبوب، الذي خطط لاغتصابي وقهري، كم تكفل بإهانتي على مرأى ومسمع من شقيقي بطرق لا تثير سوى ضحك بوسبعة، تسلية!... هؤلاء الناس قد يكونون، جميعا على علم بكل ذلك. ونزهة الثابتة هناك على مدخل المصعد، هل يخفى عليها شيء من هذا!؟ كم تمنيت أن تكون لي بعض من قدرتها على تحمل الإهانة!... يجب أن أسرح هؤلاء، أن أضع حدا لهذه المرتجلة! ضممته إلي، بلطف في البداية، وأخذت أقبله بحنان مفرط وأنا أحاول أن أخنقه تدريجيا داخل المعطف من غير أن أكف عن تقبيله!... لماذا لم أستعمل مثل هذا العنف من قبل ضده أو ضد بوسبعة، ألست بمثل حجم وقوة شقيقي!؟ هم أكلهم الدهاء والكراهية وأنا أكلني الذكاء والمحبة فأكلوني! هم صرفوا دهاءهم وكراهيتهم جرائم وأنا محبتي في "نظريات"! يلعن العلم الذي يقود إلى الاغتراب والجهل، الذي يؤدي إلى تبلد الإحساس...! كلما جمعت شيئا من شجاعتي تدخلت ذاكرة جرائمهما لتشلني! تركته يتركل قليلا إلى أن فقد نفسه، ثم

جلست على كرسييه وأطلقته ليسقط أمام قدمي: شياطين بهذا الحجم وهذه الصورة تلتهم بلدا بأكمله!؟ قلت له بصوت خفيض صارم:

-اجلس مكانك وانظر إلي جيدا!

كان يرتعد، يبكي، وكان الناس قد تفرقوا والداخل أو الخارج منهم غير مبال:

-لا أحد يريد أن يشهد على أحد، على شيء في هذا الوقت، يتحمل مسؤولية الشهادة إلا من باب النميمة والغيبة وتكوين الملفات! حتى تمثال نزهة استعاد حريته وطار!

-يبدو الناس، من كثرة ما يرون، أنهم لا يرون شيئا، سوى أمنهم الخاص!

فجأة، يطير الشيطان الصغير من بين قدمي ويتصلب واقفا بالمدخل وهو يعدد عبارة التحية والدعاء ثم يتبع بوسبعة إلى مدخل المصعد ثم يستدير نحو كرسيه فيرى عليا لا يزال جالسا فيجري خلف بوسبعة فيعودا معا في اتجاه الكرسي:

-هل من حاجة نقضيها لك، يا أستاذ!؟ يسأل بوسبعة في شبه احترام.

يتأمله الأستاذ فيلاحظ اللحية المستديرة و"الدينار" على الجبهة، فيعرف لما جاء خلف نزهة:

-سمعت أنك أخذت تكثر من الصلاة وقراءة القرآن الكريم، صحيح أم مجرد إشاعة أخرى لتشويه سمعتك!؟

يدرك يوسف، بحدس المتمرس على العراك، وجهة الحديث فيرد بحياد ملغوم:

-إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء!

يعرف علي هذا النفاق في يوسف ويعلم كيف يستطيع أخوه أن يسترزق بكل شيء، المقدس والمدنس، فيحاول أن يستغله:

-إذن الآن، وقد تاب الله تعالى عليك، يمكنك أن تعطيني حقي حسب ما تفرضه الشريعة!

كان القرد، شيبوب، قد استعاد اطمئنانه:

-أي حق يا مفتر، يا نصاب، يا معتد، يا...؟

يقاطعه بوسبعة ليظل سيد الموقف:

-أي حق، يا أستاذ، إذا كان علي شيء أؤديه حالا!؟

فجأة لم يعد لعلي أمل فيما جاء من أجله، لكنه يطرد التشاؤم:

-نصيبي من الإرث ونصيب نزهة، لا شأن لي بنزهة... نصيبي أنا، هل تعطيني نصيبي!؟

يزداد بوسبعة ثقة في النفس وهدوءا إذ تأكد من أن لا جديد في قضية محسومة:

-الإرث صفيناه بطريقة شرعية سليمة تحت إشراف القاضي!

يعترض علي يائسا:

-لكنك حرمتنا، نزهة وأنا، من الأبوة!

يستغفر يوسف الله بصوت مسموع:

-أبوك، يا أستاذ، موجود في قلعة السراغنة وكذلك أمك لا تزال في الكريمات وأم نزهة لا تزال حية في أسفي، هل نكذب أميكما ونصدق من تسميه أباك؟ عيب!

-اختلقت لنا آباء وهميين، أيها المجرم!؟

ينتفض القرد:

-المجرم أبوك الذي تخلى عنك ولم يربك!

يسكته بوسبعة:

–على كل حال، يا أستاذ، أنا ضميري مرتاح من هذه الناحية، وأنا لن أنسى أنك بمثابة أخي إذا كنت في حاجة إلى أية مساعدة... وإلا فالمحاكم أمامك ونحن، والحمد لله، نعيش في ظل دولة القانون وحقوق الإنسان!

وهاهو الغضب يلتهم عقله من جديد إذ يسمع بوسبعة، بالذات، يتحدث انطلاقا من الدين وبدولة القانون وحقوق الإنسان، بينما بوسبعة يظل في ذروة دهائه وهدوئه:

–بيتي، وكذلك مكتبي، مفتوح لك في كل وقت إذا احتجت إلى، ولا شك أنك لا تعرف أن لدي شغلا كثيرا وأناسا مهمين في انتظاري، عن إذنك!

ويتجه بوسبعة نحو مدخل المصعد يتبعه القرد فيصيح علي غاضبا:

–أيها الوحش، تستغل الآن الدين وحقوق الإنسان!؟

يغيب يوسف ويظل "الملياردير" واقفا قرب المصعد حائرا لا يدري ما يفعل إذ يشاهد عليا يدور حول نفسه وهو يردد تلك العبارة قبل أن يتجه نحو مخرج البناية:

–ومع ذلك فإني سأجد طريقة لإثبات هذا النسب، لاسترداده!

علق "شي" في سره:

–مثل حميدة أبيك أو رقية أمك، قوم بلا نسب، لا... عقدتهم النسب!

وجلس علي على عتبة الباب الكبير للعمارة الرسمية الضخمة، اختار درجة الركن الأيمن للعتبة وأدار ظهره للخارجين والداخلين فأشعل سيجارة وأخذ يفكر:

–لا عليك، اهدأ يا رجل، إنك أسعد الناس: لا مأوى ولا أهل ولا عمل، أقصى درجات التحرر، ولا قيد، لا رابط، لا نسب...تستطيع أن تنتحر متى تشاء أو...أحسن: أن ترتكب الجريمة التي تريد!

–"الجريمة!"

-"كفاك استهزاء بنفسك!"

-"لم لا أرتكب جريمة، أية جريمة؟"

-"أنت، أنت... أنت ترتكب جريمة!؟"

-"ولم لا!؟ ماذا ينقصني لأكون مجرما نموذجيا: لا رابط، وأنا في ذروة اليأس والخسران!؟"

-"الخسران، تماما، الخسران الكبير، أنت خاسر نموذجي... أما الجريمة فقد حاولت أن تقترفها مرارا وكنت، في كل مرة، تهزم، تجرد من سلاحك قبل أن تصوبه!"

-"لكني لم أكن أهيئها بدقة، كنت أرتجل الجريمة، أما وقد..!"

-"أما وقد تأكد لديك اقتناعك بالخسران فلا داعي لأن تستمر في الأوهام، في الكذب على نفسك!"

-"الجريمة فن، صنعه، مهنة تكتمل عن طريق الخطأ والصواب، المحاولة والمران... موهبة ودربة!"

-"يا أستاذي، يا حبيبي...لو كانت هذه هي الجريمة لكان بوسبعة في السجن منذ زمان، الجريمة المهنة، تحتاج إلى مؤسسة، إلى شبكة واسعة، نافذة ومدربة، أما أنت فوحيد وخال من الموهبة!"

-"أنا أريد أن أرتكب جريمة واحدة، جريمة وحيدة، لكن كبرى، أثير بها اهتمام الناس إلى ما يحاك ضدهم، إلى الكيفية التي يمتص بها دمهم!"

-"تريد إذن أن تنتهي حياتك شهيدا، أتعرف لم تحتاج إلى هذا الأمر!؟"

-"لأقدم شيئا للناس، لأساهم في انتشار الفضيلة!"

-" يا سلام، عيسى بن مريم! لا عيسى ولا موسى يا علي...لو فكرنا مثلك لما كان منا بطل ولا شهيد!"

-"اسمع يا دكتور، هؤلاء حملوا عبء البشرية، عملوا على خلاصها مضحين بأنفسهم أما أنت، يا سيدي..."

-"وأنا أيضا أريد ذلك!"

-"لا، أنت تريد خلاص نفسك، نفسك وحدها، بارتكاب جريمة، تريد غسل عارك الشخصي، أن تموت وأنت تشعر بأنك لم تعش الخسران المطلق، أي أن تتخلص من فقدانك، ولكن تأكد هذه الجريمة التي تريد ارتكابها ستضاف هي أيضا إلى سجل خسرانك، ستأتي بالفشل، لن تبلغ مرادها، تأكد!"

-"لكني سأخطط لها بعناية ودقة!"

-"قل لي إذن أية جريمة تريد أن ترتكب، هل تعرفها بالتحديد؟"

-"لا، غير أني أعرف أني أريد أن أرتكب جريمة كبرى، جريمة مدوية تهز العالم!"

-"مثلا؟"

-مثلا؟ أغتال بوسبعة ونزهة وشيبوب، لأن كل واحد منهم اغتال شيئا مني، اقتسموا جثتي!"

-"إنك لن تغتال أحدا، وبوسبعة، هذا ال "مثلا"، لن تستطيع قتله... إنك فقط تامل أن يسمع الناس صوتك، أن يعرفوا أنك لست الخاسر الذي يعتقدون... والناس، يا دكتور، الناس في هذا الزمان، وفي كل زمان، لا يهمهم أن يعرفوا من الخاسر، وإذا عرفوه فإنهم ينسوه بسرعة لأنه ليس المهم ولا الأهم، إنهم يسعون، في كل وقت وحين، إلى معرفة الرابح، هذا هو الذي يبقى حاضرا في وعيهم ووجدانهم ليعرفوا كيف يتصرفون... أما الخاسر فينضاف إلى قائمة الخاسرين، يتسلل بسرعة إلى سلة المهملات، وأفضلهم سيعلق: مسكين!"

-"الرابح الغشاش يجب أن يخسر، أن يقتل!"

-"لا، هذا هو برج الرابح اليوم، وإذا أخطأ خطأ كبيرا لا يمكن ستره أو تداركه، أي ضعف وهان، فإنه ينضاف إلى سلة الخاسرين ليفسح المكان لرابح آخر... أما أنت، فتريد أن تؤكد لنفسك، هذا هو الواقع، أنك مازلت لم تخسر أو، والأمران سيان، أنك تستطيع أن تلعب لعبة الخسران إلى نهايتها، ونهايتها خرابك، خرابك التام... بينما أنت لست في حاجة إلى كل هذا، بإمكانك أن تفعله بطريقة أخرى، فأنت، في الحقيقة، لم تخسر كل شيء، خسرت شيئا لم تحرص عليه، الإرث والبنت والولد والأبوين -من له اليوم أبوان حقا؟ -بينما مازلت "الدكاترة الأربعة"، ما حرصت عليه بالفعل، فلا تعمم الخسران، لا تحوله إلى خراب!"

بحث عن الشخص الذي كان يحاوره، حين دغدغ فيه بقية أمل، فلم يجده، استغرب: كان يحاور نفسه بصوت مسموع! وتذكر جوانب من حوارات بينه وبين زوجته خاصة الأخير منها:

-"نحن، منذ الصغر، نجد أنفسنا أمام نماذج كبرى للسلوك: الطيب والخبيث، الخاسر والرابح، المنتحر والمتمسك بالحياة، الغني والفقير، القوي والضعيف، فنختار، لا شعوريا، تدريجيا، نختار نموذجا، أو نركبه، من تلك النماذج: أنت اخترت الخاسر الضعيف، ذلك الذي يعدي، وأنا لا أريد للبنت والولد أن يصيرا مثلك، ولا أريد أن تستمر عدواك في التسرب إلى ذاتي...لذلك أمنعك من رؤية غزلان وهادي وأرفض أن تبقى معنا في البيت!"

-"أنا لن أستسلم، سأقاوم، سأرتكب جريمة!"

-"سأضطر، في هذه الحالة، إلى الاستعانة بأهلي لطردك من إسبانيا وستمنع من العودة إليها إلى الأبد!"

وكذلك كاد يكون. وها هو منذ ثلاثة أيام أو أربعة أو خمسة –أو أسبوع!– في الدار البيضاء، في فندق حقير وليس معه سوى فرنكات قليلة: ماذا يفعل، يستجدي بوسبعة، يستعطف نزهة، شيبوب؟ يمد يده وينادي: صدقة يا محسنون!!؟ أين المحسنون، المحسنون إلى كل هذه العدد من الخاسرين؟

جازاك الله عني خيرا يا بوسبعة: تأكل إرثي وتمنعني من كسب قوتي وأنت تعلم أن قطع العناق أهون من قطع الأرزاق!؟ لم لم تترك لو شعرة بيننا؟ لم تصر على قتلي منذ الطفولة الأولى، لم سعيت دائما إلى إفساد الدم والحليب والله شاهد أني أخوك من أمك وأبيك–ألسنا جميعا أبناء رقية السوسية؟– ولنفرض أنني مجرد أخيك بالتبني أليس لي حق عليك!؟ أما تشبع من أكل حقوق الناس!؟ قال لك حميدة لم يترك وراءه سوى بطاقة مقاوم، هو كذلك تصر على اغتيال ذاكرته؟ لم لا تدفع الأمر إلى أقصاه وتعلن أنه كان خائنا، عونا للاستعمار؟ قل إنكم أنتم الذين حررتم هذا البلد، ألا تقولون إنكم أنتم من يحميه ويغذيه؟ نهاجر جميعا؟ إلام نظل متغيرة متصرفة؟... نفرغ لكم البلد!

كان واقفا يبكي، ينتحب، ثم أخذ يصرخ:

–أيها الناس، يا بسطاء، يا أبرياء، يا خاسرون، يا ضعفاء، يا خائفون، يا غافلون، يا متظاهرون بالغباء، يا أشقياء، يا مستسلمون، يا من نهبتهم حقكم ورزقكم، تعالوا أقل لكم كيف يخدعكم بوسبعة في كل دورة انتخابية وكيف يقهركم بين كل دورتين، بوسبعة السفاح، الماكر، المرتشي، بوسبعة المنحرف الكبير، المجرم، الفاسق، الفاسد المتظاهر اليوم بالإيمان وخدمة الصالح العام وحقوق الإنسان، بوسبعة الأمي الجاهل الذي لم يستطع الحصول على الشهادة الابتدائية، حتى تعلم فك الحروف لم يتقنه، يصير

أحسنكم وأتقاكم ورئيس مجلسكم البلدي!؟ يا للمهزلة العظمى! تعالوا أحدثكم عن عصاباته منذ الطفولة، عن الانحراف كيف يتحول إلى سلطة وجاه!...

وأخذ يعدد جرائم أخيه بينما عدد الفضوليين يرتفع بالتدريج من حوله: بعضهم يضحك وبعضهم يصفق وبعضهم يصفر وبعضهم يستنكر والكثير يتوقف لحظة ثم ينصرف! اختلط كل ذلك بضجيج السيارات وشاع الهرج والمرج إلى أن برز رجل من الزحام وتوقف غير بعيد منه. كان طويل القامة، يلبس البلودجين ويضع على رأسه كاغولين سوداء. صرخ فيه علي:

-جئت يا لعين، عرفت أننا نتحدث عنك، هيا اقترب؟

وطار صاحب الكاغولين في الفضاء ثم نزل على علي بركلة أدمت أنفه وأخرى جعلته يمسك بعضوه التناسلي ويسقط قبل أن يهوي الكاغولي بكلتي يديه على ضحيته. غير أن الفضوليين استغربوا كيف استطاع علي أن يمد يده إلى رجل الكاغولي ويسقطه. بعضهم ظن أن الأمر سيجري كما في الأفلام: تنتهي المعركة بانتصار الضحية التي تمثل الخير أو السلطة! لكن الكاغولي، برغم الدم الذي يسيل من ذقنه، يتمكن بواسطة ضربات سريعة وقوية من ترك ضحيته بلا حراك ويفر بسرعة البرق نحو سيارة كانت تنتظره! يأخذ الناس في التفرق ولا يبقى منهم إلا شابان يحاولان إسعاف الرجل... بحثا في جيوبه فلم يجدا سوى بضعة فرنكات وورقة فيها عنوان ورقم هاتف امرأة. حملاه إلى المقهى وغسلا دمه قبل أن يطلبوا المرأة في الهاتف. أفاق قبل أن تحضر عائشة وأخذ يردد:

-لقد أسقطته أرضا وجرحته لأول مرة، لأول مرة في حياتي!

كان واضحا أنه كان يعتبر نفسه منتصرا بينما الشابان في غاية الاستغراب وبعض الذين شاهدوا المعركة يضحكون أو يستنكرون:

-أسقطته أرضا لأول مرة، كان يظن أنه لا يقهر، انتهت الجولة الأولى لصالحي!

طبيبة البقر

كيف الحال الآن؟ سألته عائشة وهي تضع إبريق القهوة أمامه.

لم يفته ما في السؤال من توبيخ، لكنه لم يلمح في عينيها أية علامة تشفي:

-بعد هذا الحمام الدافئ لا أشعر إلا برائحة الصابون والماء، لا أحس بأي ألم، آثار الضرب مازالت ظاهرة ؟

سعت إلى طمأنته من ناحية أخرى:

-لم أرد أن أحملك مستشفى أو عيادة، أولا، لأني، لم ألاحظ أي تزيف داخلي، ثانيا، خوفا من أن تتطور القضية إلى سين وجيم!

-حسنا فعلت، لقد حكمت العقل في الوقت المناسب، قال بنبرة شاكرة!

-كل واحد منا يحمل أحمق أو منحرفا ومندمجا أو عاقلا يتصارعون بداخله، لابد أن يفلت أحدهم من الآخرين، مرة مرة، علقت وهي تحاول أن تخلصه مما ظننت أنه تأنيب الضمير!

-من السهل أن نطلق العنان للشخص المجنون فينا أو للمندمج أو المنحرف... أما العاقل!

رد مجاريا. مازال يحاول إذن أن يشكرها:

-لا تول الأمر أكثر مما يستحق، أنا... مكانك... كان من الممكن أن أقتل، ليس سهلا أن تتحمل ما وقع لك، قالت وهي لا تزال تحاول التخفيف من شعوره بالإثم!

وبدون سابق إنذار فكر في أن يضع حدا لهذه اللعبة الإنسانية التي تجعل الناس يتجاوزون أنفسهم، يظهرون فقط أطيب ما فيهم:

-أريد أن أشكرك بعبارة صريحة على ما فعلت معي: شكرا لك وتأكدي من أني لن أنسى لك هذا الفضل، أما ما حدث فكان ينبغي أن يحدث من زمان، لكن الطفولة قد تتأخر!

وبدل أن تتقبل الشكر بعبارة صريحة أيضا بدا لها أن الفرصة سانحة لتريحه بشكل تام:

-أنا لا أفعل معك أكثر من رد دين لك علي!

اعتقد أنها مازالت تلعب نفس اللعبة:

-دين، أي دين لي عليك!؟

وقفت متجهة نحو المطبخ:

-الماء!

-"لكم تبدو جميلة هذه الضاية المديدة داخل البلودجين والقميص الصوف، الخبازي!"

لم تعجبه"الخبازي"، فسألها وهي تحمل زجاجة ماء وكوبين:

-ما رأيك في ترجمة الموف بالخبازي؟ القوقي أو الحجري أفضل!

لم تسمع سؤاله، على ما يظهر، كانت تفكر في صيغة للحديث عن الدين الذي له عليها، فقالت وهي تضع الزجاجة والكوبين فوق المائدة:

-سألتني عن الدين الذي لك علي؟

لم يفهم كيف يكون له دين على امرأة لا يكاد يذكر بعض ملامحها، لا يذكر اسمها:

-"كلام فارغ، لا أساس له!"، تمزحين، ولا شك، أنا لا أقرض ولا أستدين، هذا شعاري في الدنيا: لا أستدين ولا أدين!

صدمتها هذه الأنانية وهي تستجمع ذاكرتها وصدقها فوق الأريكة الصغيرة الزرقاء:

-هل تتركني أتكلم؟ إنك تقمعني!

أحس بقوة الاحتجاج في صوتها، قوة مخيفة:

-معذرة، قولي!

مازالت تعمل على الإمساك بشيء يقاوم:

-أنا ولدت في قرية صغيرة بضواحي الدار البيضاء...النخيلات...

وسكتت من غير أن يكف الصراع بداخلها فظن أنها تتهيأ لتحكي له قصة حياتها:

-"امرأة ...أحب هذا الاستعداد لدلا النساء، يحكين عن حياتهن بتلقائية أكبر مما يستطيع الرجال، لم لا تطلق العنان لنفسها!؟"

غير أن لسانه سبقه:

-أنا أيضا ولدت في ناحية من نواحي...الدار البيضاء...الكريمات...

وعلى الفور حاول أن يتدارك:

-لكن الكريمات غير النخيلات ولو أن الهوامش واحدة!

لم لا يتركها تبحث عن كلامها!؟:

-"ربما يكون من الأحسن أن أصمت لأرى ما ستفعله!"

-الواقع، أني ولدت غير بعيد من هذه القرية، لكنا، في الحالة المدنية، اعتبرنا هذه القرية مسقط الرأس!

كان يريد أن يعلق:

-"هذه حال أغلب الناس، ينتمون إلى مكان ليس مسقط رأسهم الحقيقي لتجنب "عار وهمي أو فعلي"، ما العيب!؟"

-مات والدي وأنا في السادسة من عمري!

ساورته بعض الخيبة:

-"حكايتها، إذا استمرت بهذا الشكل، تافهة: "الأب مجرد رمز، حيا أو ميتا، آباء كثيرون لا قيمة رمزية لهم، في حياتهم، وقد يعوضون بأي شخص آخر واقعي أو أسطوري وأحسن لبعض الآباء، من وجهة نظر البنوة، أن يموتوا ليصيروا رموزا فاعلة بشكل إيجابي، الأم هي الأساس... وهذا غير شعور الكثيرين منا بأنهم بلا آباء، يتامى، رمزيا، طبعا!".

-كانت أمي في حوالي الثلاثين، أقل من الثلاثين...

فكر:

"امرأة رائعة الجمال، ما في ذلك شك، ستتزوج ليصير يتم عائشة مزدوجا أو تصبح بائعة لذة ليصبح لعائشة ألف أب؛ لقد زادني الانتصار على بوسبعة خبثا ولا شك أني، في جهة ما من ذاتي، أحس بازدياد أهميتي، بشيء من الاستعلاء!"

-لم نكن نملك سوى بقرة ودجاجة وفدان بور...

لم يدرك أهمية هذه المقدمات:

-"لن تجد واحدا من الناس لا يقدم لك طفولته كطفولة بائسة:والفقر والقهر وجفاف العواطف، كأنهم جميعا ولدوا في جهنم مثل بوسبعة، ومع ازدهار التحليل النفسي سيصبح كل الآباء مجرمين في حق أولادهم، مسؤولين عن تعاستهم، لا أحد منا مسؤول عن بؤسه في هذا الزمن!"

-في نفس المنطقة كان يوجد رجل غني يملك مزرعة كبرى...

بدأ يحس بأنه سيشرع في السخرية منها:

-"وبكل تأكيد، تقدم الرجل الغني العجوز الدميم ليخطب الطفلة اليتيمة الجميلة من أمها ويتزوجها على سنة أهل البلد آنذاك بينما ابن عمها الذي يحبها وتحبه يخطط للهروب بها من الناحية بعد قتل العجوز المجرم...

الكثيرات من المتعلمات، ومن المتعلمين طبعا، مضحكون حين يستعملون نظريات ومفاهيم عصرية، متحذلقون، المتحذلقون والمتحذلقات!"

-كنا، أمي وأنا، نذهب كل سبت وأحد للعمل في المزرعة...

تابع بخبثه:

-"وهناك لاحظ الغني الطفلة الجميلة وقرر أن تكون زوجته في الحلال فأمر بأن تلحق المرأة وابنتها بالحريم في انتظار أن يتدبر أمره مع نسائه... لا هذه قصة رائعة للسوق الأجنبية، بالفرنسية مثلا!"

-وكان كل يوم أحد يأتي إلى المزرعة فرنسي يسمونه، هناك، "طبيب البهائم"...

قال لنفسه:

-"آه، ينبغي إدخال تعديل في هذه الحكاية: الفرنسي، طبيب البهائم الطبيب، سيرى الأم والبنت وسيقرر الزواج بالأم من أجل ضمان مستقبل الطفلة اليتيمة، تضحية!".

-كان يأتي معه مساعدوه: رجلان وامرأة، امرأة في سن أمي يطلقون عليها هي أيضا، من باب السخرية، لقب "طبيبة البقر" لأنها لا تعالج سوى البرق.

صب لها وله الماء:

ـ اشربي !

وتابع لنفسه:

ـ" في انتظار أن نعرف ما نفعل بطبيبة البقر مع العجل البلدي ذي اللون الأسود والقرون الطويلة والأنف الذي ينفخ النار و... الخ."

ـ شكرا، في مساء أحد الآحاد كنا عائدين إلى الكوخ فلاحظت أن أمي لم تنطق بكلمة واحدة طوال الطريق الطويلة، على غير عادتها ...

صار يحس بالضجر:

ـ " لعل الفرنسي الطيب خاطبها في شأنها أو لعل الغني الغيري خاطبها في شأنك، عقدة الحكاية في الطريق إلى الحل !".

وصلنا إلى الكوخ فأعددنا الفراش ونمت إلى جنبها...

كأنها تتعمد أن تحكي بأسلوب غير مشوق:

ـ "حدث خطير: إعداد الفراش ونوم بنت جنب أمها، خطير جدا؛ بعض الناس لا يعرفون كيف يحكون قصة ويريدون أن تستمع إليها، تماما كأولئك الذين لا يعرفون فن رواية النكتة ويصرون على إضحاكك، وبعضهم، و العياذ بالله، يصر على أن يحكي الفارغ السطحي باسم الحكاية !"

ـ أيقظتني حليمة باكرا ...

لم يعد يتحمل، حقا ، ولا يقدر على أن يوقفها:

ـ "وطبعا لأمر ما أيقظت حليمة ابنتها عائشة باكرا جدا، ذلك الصباح، وإلا من سيسمع صياح الديكة وخوار الثيران ثم زقزقة العصافير وخرير مياه الساقية: صف شعورك وأنت تستيقظ في الصباح الباكر، الباكر جدا !".

ـ قالت لي وهي تصب الشاي: سنذهب إلى القرية وسأسجلك في المدرسة !

أيستحق هذا الحدث كل هذه التفاصيل !؟

ـ" نحن أخذنا إلى المدرسة بالبراح وكم بكت أمهاتنا وأرعد وأزبد آباؤنا، بلا شاي ولا بيض مقلي في زيت الزيتون ولا خبز فرن حام، أخذنا وكأننا ذاهبون إلى المقصلة، نغصب كل صباح: المسيد ثم المدرسة و ها نحن مثل الحلوف! ".

ما علينا، طيب، وماذا بعد ذلك !؟استمرت تحكي وكأنه لا يستعجلها:

ـ أخذت أقطع ثلاث كيلومترات ذهابا وإيابا، كل يوم، إلى المدرسة، وأذهب كل أحد إلى المزرعة لأشاهد طبيبة البقر تعالج العجول ....

قرر أن يساعدها على الأقل ليدفع بعض الملل:

ـ لذلك اخترت أن تصبحي بيطرية، أليس كذلك !؟

لم تجد بدا من الجواب:

ـ طبعا، الفضل يرجع إلى أمي والى النموذج: طبيبة البقر!

وذلك من أجل أن يوصلها إلى الإجابة عن سؤاله:

ـ وما علاقة كل هذا بالدين الذي لي عليك !؟

هذا هو الجواب الذي كانت تتمنى أن تنجح في تأجيله، لكنه عاد يؤكد:

ـ إني لا أستطيع أن أتصور دينا لي عليك !

تساءلت:

ـ "لم أشعر بالخجل إلى هذا الحد !؟"

قالت:

ـ كان علي أن أقول لأمي تلك العبارة التي كانت تشبه السحر في البادية: "غادية نقرى ونقري" !

ـ" إيه، أسيدي، ولد فلان لا باس عليه مع المخزن، ولى يقرا ويقري!"

ـ قلتها لها يوم حصلت على البكالوريا وكان علي أن أشعر كل الناس، وأنا أول فتاة تحصل على البكالوريا آنذاك، في تلك الناحية، بأن وضعنا قد تغير، تعرف كيف !؟

واضح، لكنه تظاهر بعدم الفهم:

ـ لا، كيف !؟

لاحظ أنها أصبحت مزهوة بنفسها:

ـ أن أبعث إلى أمي بأكبر قدر ممكن من المال، أي أن أشتغل فأرسل إليها كل الراتب أو أن أتابع دراستي فأرسل إليها كل المنحة.... يأتي المقدم إلى الدوار حاملا مانضا صفراء، الأصفر كان لون المخزن...يأتي المخزن إلى بيتنا بالمال !

هذه المرة لم يفهم حقا:

ـ غير ممكن: كيف تبعثين إليها بالراتب كاملا أو بالمنحة كاملة، وماذا تأكلين !؟

ابتسمت لتطرد الحرج:

ـ هنا تبدأ حكايتي مع دينك !

وأصر على أنه لا يفهم:

ـ كيف، أتظنين أن ذلك بدهي !؟

تذكرت أنها قد قررت التمسك بشجاعتها إلى الأخير:

ـ صرت "أصطاد" الأغنياء المتصابين، أختار من بينهم "صديقين" أو ثلاثة أوزع بينهم وقت فراغي حسب "سخائهم" وأشرع في "حلبهم" بكل قواي كأني أحلب بقرا، أغير السكن و"الأصدقاء" كلما دعت الضرورة إلى ذلك إلى أن أصبحت شهيرة في الكلية، بين الطلبة والأساتذة والشواش، معروفة بأني "صاحبة الأغنياء"، الكل يحتقرني ويهزأ مني ولا أحد يجرؤ على إيذائي، كانت معي زميلات معروفات بممارستهن" للعهارة"، لكنهن كن ضيقات الأفق: من أجل سهرة أو قميص أو خاتم أو علبة سجائر... من أجل الانتقام من شيء "غامض" أو قتل صوت "كاتم للصوت"! لعب بنات "فقيرات"، حلمهن الأقصى أن يصرن مدرسات أو سكرتيرات، بنات متوسطات الجمال والذكاء والطموح ! أما أنا فقد كان طموحي كبيرا وكنت أعرف أني ذكية وجميلة، مثيرة للشهوة... عندما تعرف هذا يبقى عليك أن تجد من يعلمك

أسرار المهنة "الكبرى" ! وقد وجدت "معلمتي" في شخص طالبة من الحي المحمدي تعيش الآن في كندا ربة بيت سعيدة، في ظرف ثلاثة أشهر تعلمت الأساسي: اللباس "واللغوس" والمكر ! قبل أن أغادر المغرب إلى ألمانيا، للتخصص في البيطرة، اشتريت هذا البيت وأرضا سقوية بنيت عليها بيتا لأمي وملأت حسابا بنكيا لها ولي ثم ذهبنا إلى ضريح مولاي عبد الله أمغار حيث مكثنا شهرا كاملا وحكيت لها عن كل شيء بالتفصيل مخبرة إياها بأني قد لا أعود من الهجرة وأني إذا ما تم لي الاستقرار هناك بعد إتمام الدراسة سأعود لآخذها معي، غير أن ذلك لم يكن ممكنا أن يتم قبل عشر سنوات وكان عليها أن تصبر إذا ما أرادت أن نعيش معا مرة أخرى... تلقت كل شيء بشجاعة وطلبت مني فقط أن أسمح لها ببيع الثور لكي تتمكن من الحج إلى بيت الله الحرام بالحلال وأن تغسل ذنوبها وذنوبي فوافقت بدون أدنى تردد... وجد نفسه يستمع إليها بترقب كبير، بما يشبه الرهبة وهي تحكي قصة شائعة، معروفة بأشكال مختلفة وتكاد تكون مقبولة من طرف العرف العام في كثير من الجهات، ومع ذلك أحس تجاهها بنوع من "الخوف" الممزوج ب "الاحتقار"، بشعور مزدوج يقرب ويبعد، في نفس الوقت، ولو لم يتذكر "الدين" لطلب أن ينصرف:

ـ والدين، أين الدين، تساءل محرجا ؟

كانت هادئة وواثقة من نفسها، لا أثر للندم أو الخجل في عينيها أو لسانها:

ـ في الوقت الذي كان الجميع يعتبرني فيه "زانية محترفة"،"صاحبة الأغنياء المتصابين"، "عبدة المال والمظاهر" و"حليفة البورجوازية الكامبرادور المتفسخة "، ولا يقيم معي علاقة إلا من باب "الشهوة" أو

"الاحتقار"، كنت أنت، علي الرندي ، تشجع ولد النية على أن يحبني ويتمسك بي...

أحس كأن عليه أن يعتذر عن شيء "مبهم":

ــ كنت أقوم بواجبي تجاه صديقي رحمه الله، و أنت كنت، وما...، بالفعل جميلة و جذابة و ذكية، لا أستطيع أن أخفيك أن سلوكك كان مستفزا ومثيرا للشفقة، بل للغضب، طالبة مجدة، ذكية وجميلة... لكن وقحة، جريئة إلى حد الوقاحة!...لما تعرف عليك ولد النية كنت لا تزالين ... أعني... معذرة ...؟

ــ لا، كنت قد توقفت و اعتبرت أن أمي قد حجت مكاني، لي و لها، وقد عادت مريضة... وقد التقيت و لد النية...وهذا هو الدين الذي لك علي: في لحظات كثيرة، كما حدث للكثيرات والكثيرين، كان يتهددني الانحراف التام، الانحراف "الحرفة"، لكني عندما أجيء إلى غرفتكما أو فقط أخرج معكما، إلى المقهى أو الشارع، أو تبدأ فترة الإعداد للامتحان أجدني قوية، محمية، محتضنة، واثقة بأن العالم الذي كله ضدي كله، في الحقيقة، معي في شخص أكبر وأطيب صديقين !

ــ "هل كانت تحبه حقا !؟"، تساءل وجلا في باطنه !

فجأة اكتشف عبث التساؤل، هوله، فعاد يعتذر:

ــ أنت تبالغين، لماذا تخفين إرادتك، قوة الطموح...!؟

ردت حاسمة، واثقة:

ــ أنا التي عشت هذا الكابوس وليس أنت، أنا التي أعرف مخاوفي وأوهامي وأخطائي ...

وكاد يعود إلى الاعتذار اللامباشر مرة أخرى لو لم تتابع بشكل قاطع:

ــ والله يا أستاذ، والله السميع العليم... لولاك و ولد النية ولولا أمي و"طبيبة البقر" لكنت انتحرت أو انحرفت بشكل نهائي !

وجد بعض العزاء في أنه لم يعد الوحيد الذي"تدين" له:

ـ"من الصعب علينا دائما أن نتحمل نجاح أو فشل شخص معين، قريب أو بعيد، إذا كنا نعرف حدودنا !"، همس لنفسه قبل أن يتوجه إليها بالكلام من جديد:

ـ أنت بنت فقيرة مكافحة... أما أنا فابن مقاوم معروف وحالتنا المادية لم تكن متردية، كانت متوسطة، مع ذلك كنت متعهدا، لفترة طويلة في إسبانيا، من طرف امرأة لي معها بنت وولد، كلنا، في وقت معين من حياتنا، رجالا ونساء، نسقط في أحضان "متعهد" ما !

فهمت، منذ البداية، أنه "يعتذر"، أنه "يواسي"، أنه مازال طيبا، كما عرفته، أنه لا يستطيع أن "يتحمل" مثل هذا "الاعتراف" بسهولة، فقررت أن تضع حدا لـ "إحراجه":

ـ على كل حال، أنا لست نادمة، لقد تبت وانتهى الأمر رغم كل ما تبقى من آثار سلبية، وفي جميع الأحوال إنهم كانوا سيستغلون جسدي، أنا كل ما فعلته أني تجنبت الفقر، أن أكون دائما جسدا يستغل زائد القهر !

ـ بكل تأكيد !

آه، بكل تأكيد! صرت مع العهارة، مع تجارة الجسد والروح، يا علي؟

تنبه إلى بقية من غضب بداخله أو حيرة:

ـ "هذه هي القاعدة العامة: تؤدي بنا غلطة أو مجازفة إلى نجاح ما، إلى كسب ما، فنتوب عنها، لكن نفخر بثمرتها، وننسى؛ ماذا نفعل مع طبعنا البشري: من كان منكم بلا خطيئة ومن لم يتعهده أحد فليرجمها، فليرجمني ... !؟".

غير أنه فطن إلى أنه بدأ يقبل سلوكا يرفضه بالرغم من أنه يفهمه وأن هذا سر تمسكه بموقف "المعتذر" و"المواسي" في نفس الآن، فسكت. سكتت

بدورها. كأن زوجين انتهيا من حلقة اعتراف وعليهما أن يفترقا أو يطويا الصفحة، قالت بإرادة طي الصفحة:

ــ أقترح عليك أن تتحمل مسؤولية العيادة، إني كنت أبحث عن شخص بمثل علمك وتجربتك، فأنا مشغولة في إعداد مزرعة بالأرض التي كنت اشتريت لأمي، مزرعة ببقر كثير حلوب وسمين!

لم يكن ينتظر عرضا كهذا ولا كان يفكر في العمل:

ــ لكن !

قاطعته، آمرة بجرأة وثقة كبيرتين:

ــ في هذا البيت ثلاثة غرف وصالون، أنا أعيش في الغرفة الكبيرة، بينها وبين المطبخ في الواقع، وهناك غرفتان صغيرتان، واحدة تشغلها أمي، التي نادرا ما تزورني، والأخرى للزوار، ستسكن بهذه الأخيرة وسنتقاسم جميع المرافق الأخرى، بطبيعة الحال !

عبرات خفية تنزل من عينيه:

ــ" الضحية الحقيقي الوحيد في هذه القصة: ولد النية!"

يبكي لأنه تذكر ولد النية ؟ ويخفي أنه تذكر أمه، رقية ؟ ويخفي أنه تذكر زينب ؟ والإسبانية ؟ و النصرانية ؟ إنه يبكي كمن يبكي في مأتم ! لا، كرجل: يخفي رأسه !

ــ لكني... لا أستحق... منك... كـــ...

ــ أنت تستحق أن أعطيك حياتي بأكملها، قالت وهي تضغط على يده اليمنى بكلتا يديها فوق المائدة، ثم تابعت، آمرة بنفس الجرأة والثقة:

ــ سأعطيك سلفة، تسبيق تشتري به ملابس وما يلزمك للنظافة...

ووقفت فجأة ثم أخذت تدور حول نفسها ثم:

ـ شيء آخر: عندي صديق... يأتي مرتين أو ثلاثا في الأسبوع، غير مزعج ومتفهم... طالب في كلية الطب... يكمل تخصصه... يصغرني بتسع سنوات... ما رأيك !؟ ... لا تهتم... إني أنتقم من "الشيوخ المتصابين"... أما أنت فينبغي أن تنتقم بدورك، لابد أن تنتقم!

رفع نحوها عينين بائستين متضرعتين:

ـ ممن !؟

تفادت الجواب:

ـ آه... الساعة... نخرج لنتعشى في مطعم ... قم !

وقام... منفذا الأمر الصارم. استمهلته لحظة لتذهب إلى الحمام، أخذ يتساءل:

ـ"ألا نحتاج، من حين لآخر على الأقل، إلى امرأة حاضنة تجمع بين الأم والأخت والصديقة؟ ... استيهام عتيق! ".

ثم بدأ يفكر في هذه "الهشاشة الصلبة" للموقف الذي يعيشه منذ رجوعه من إسبانيا لأول مرة و لما خرجت إليه جميلة مليحة ساحرة قال لها:

ـ ولد النية لم يكن على علم بكل هذا الحب بالرغم مما كان يحمله لك من حب !

أمسكت بذراعه وقالت له:

ـ هذه ظاهرة مغربية، " شرقية "، الحب مبني على سوء تفاهم مزمن، على التمثيل و الحيلة، أو التأجيل، فلا داعي للحداد والأسف دائما!

عادا من المطعم. كم أكل! فواكه البحر والسمك و"النبيذ، السمك الحر!"... بينهما دهر ! أما هي فكم تكلمت أثناء الأكل ! لم يتكلم إلا قليلا جدا. كان يأكل أو يستمع باحثا عن طريق جديد، ليتأكد من أن ما قالته قبل الخروج للعشاء لن يطاله التناقض، التراجع، كلام عفوي، صادق، متماسك ... طول الشهر !

أغلقت الباب ورمت بمعطفها على الأريكة الصغيرة الزرقاء وهي تتجه نحو باب الحمام، سمعها تدندن، تفتح الماء، تغسل أسنانها، تخرج منشرحة فأحس بالراحة. تناولت المعطف من فوق الأريكة وهي تقول:

ـ تصرف في محيطك كما تشاء، افتح خزانة الغرفة فقد تجد شيئا تنام فيه، فيها أيضا أغطية إذا احتجت إلى غطاء إضافي، وهناك ساعة منبه، يستحسن أن تستيقظ باكرا لترتيب بعض الأسبقيات "الحضارية" وأن نغادر البيت في السابعة والنصف،ينتظرنا يوم حافل، تصبح على خير !

ـ تصبحين على خير وشك .... !

استدارت بلطف:

- شكرا !

هزت رأسها بحنان وهي تغلق باب غرفتها:

- ليلة سعيدة !

ـ ليلة سعيدة ! رد وهو يغالب شعورا أبويا أو أخويا، رجوليا على كل حال ، تجاهها !

واتجه بدوره إلى الحمام. غسل رجليه ثم يديه وتسلل إلى غرفته. غرفة صغيرة بيضاء. زربية خضراء تغطي الأرض. طاولة صغيرة وكرسي. طاولة بيضاء. كرسي أخضر. بعض الكتب. ثقافة عامة. طب، بيطرة، سرير ملون الخشب. أغطية بمربعات ومثلثات خضراء، سوداء، بنية، بيضاء. هيأ الفراش، خلع المعطف، القميص، السروال، دخل تحت الغطاء، قام يطفئ النور. دخل في السرير، قام يغلق النافذة ويسدل الستار. دخل في الدفء، استلقى على ظهره، فكر في الشخير، نام على جنبه الأيسر،قرر أن يتنفس عشر مرات تنفسا طويلا منتظما، أخذه النوم قبل أن يكمل الثامنة ...

رأى نفسه يسير في شارع طويل عصري ظنه في البداية شارع الحسن الثاني ثم ظنه شارع عبد المومن. إنه شارع مخالف للشارعين معا، قد يكون شارع الجيش، شارع أنفا، غاندي؟ لا. إنه شارع غريب، على يمينه عمارات عصرية بكل الأشكال والأحجام والأبعاد وعلى يساره معامل ومؤسسات بنكية ومطاعم وملاه، شارع طويل، طويل جدا، لكنه ضيق، ضيق جدا، وهو يسير فيه عاريا تماما، حافي القدمين، بينما ازدادت لحيته وشعر رأسه طولا وكثافة. كان يسير مستطلعا في البداية، ثم أصبح خائفا، يتصبب عرقا. الوقت ليل، ليل بارد، ليل مضيء وهو عار والشارع يطول، يطول جدا وعما قريب، قريب جدا، يطلع النهار وهو عليه أن يقطع هذا الشارع المتصل، أن يصل إلى نهايته لأنه بلا أزقة فرعية ولا منعطفات، شارع طويل، ضيق، متصل، منتظم كأنه خطان مستقيمان لا يلتقيان ولا ينتهيان، عليه أن يجري إذن، أن يجري بأقصى سرعة إذا أراد أن يقطعه قبل طلوع الصباح. لكنه تعب من الجري وها هو يشعر بالحاجة إلى التوقف، إلى أن يترك نفسه تسقط ثقيلة على القارعة. وبينما هو يحاول التوقف إذا ببوسبعة يطل من عمارة على يمينه يدعوه إلى الدخول، باشا مرحبا، فيهرب بنظره إلى اليسار فيرى "الملياردير" يدعوه بدوره، بباب مطعم فخم، فيستعيد قوته، فيعاود الجري بأقصى سرعة، فإذا ما فكر في التوقف رأى بوسبعة أو صاحبه يدعوه للدخول، يرحب به، يتوسل إليه، فيرفع مرة أخرى من وتيرة سرعته، فيظل على تلك الحال ويتمنى لو أن النهار يطلع دفعة واحدة، لكن النهار يظل يتأخر كلما تقدم هو في قطع الشارع الطويل، هل يصرخ ليوقظ السكان!؟ يصرخ ويصرخ، ولا أحد، لا ضوء يشعل ولا نافذة تنفتح، يقلل من السرعة،يظهر بوسبعة أو صاحبه، كم سيطول هذا الماراطون!؟ الدهر كله، وفجأة ينتهي الشارع، يجد نفسه في صحراء قاحلة لم ير مثلها إلا في بعض

أفلام رعاة البقر، رمل كثيف يهرب من تحت قدميه، يلعلع فيه الصهد، تخرج منه ثعابين وديناصورات، مخلوقات كالحيوانات ولا هي بالحيوانات، كالبشر ولا هي بالبشر، مخلوقات رملية غريبة، محروقة، مشوهة، أسطورية، من خارج التاريخ، قد لا تعرف الزمن، مخلوقات تأكل الشوك، الحجر، تأكل الصبار، الزفت، تأكل البشر، سيأكلونه! لم لا يعود أدراجه !؟ بوسبعة "والملياردير" والشارع الطويل.

ـ "ضي القناديل والشارع الطويل فكرني..."

ـ "فكرني في ماذا !؟... بم تذكرني هذه الأشياء الرهيبة! بجهنم. أية جهنم !؟ جهنم لن تفتح لي وحدي ! لم تفتح لي وحدي !؟ كلام الحق منزه عن العبث. لن تفتح لي وحدي ! أملي ..."

تفتح الأرض، يهوي، عميقا يظل يهوي. يجد نفسه في قبر. لم يوار التراب بعد. يخرج رأسه من القبر. مقبرة هائلة. أيكون يوم الحشر !؟ القبور هادئة. لا أثر لخروج أي ميت من قبره.

ـ "هل خرجوا وبقيت وحدي ... أين ذهبوا !؟"

القبور تبدو جديدة. محكمة.

ـ"من أين خرج هذا الرجل !؟"

يتوجه الرجل الغريب إلى قبر غير بعيد منه. يتوقف الرجل على شاهدة قبر.

ـ"إنه قبر هابيل !"

يخرج الرجل معولا. يشرع في إزاحة الشاهدة.

ـ "إنه يعري الجثة !"

يكشف الرجل عن عظام الميت. إنه يخرج العظام من القبر. يضعها في كيس من البلاستيك الأصفر.

ـ" قابيل ! ... قابيل ينبش قبر أخيه هابيل !"

يحكم "قابيل" إغلاق الكيس ويتوجه نحو علي شاهرا معوله جارا الكيس خلفه. يرفع المعول لينبش قبر علي. تخرج يد من الكيس. تجر " قابيل" إلى قبر علي. تهب عاصفة رملية. تقلب المقبرة رأسا على عقب. تشتد العاصفة. تتحول إلى زوبعة. تدور الأرض والرمل والقبور. يزداد الإعصار قوة. يدور علي في الزوبعة. تدور الزوبعة بسرعة خاطفة، صاعقة. تدور، تدور، تدور، تدور! يفيق علي. الضوء البنفسجي خافت جدا. نسي سراج الليل:

ـ "لم أطفئ الفيوز !"

تحسس أعضاءه:

-" لم أطفئ الفيوز ... أم تراها فواكه البحر !؟"

وحين استيقظ، في الصباح ، من جديد على نفس الكابوس، قال لعائشة، و هما في الطريق إلى العيادة ، بغير قليل من الخجل:

ـ لا بد أن أرى نزهة قبل أن تسافر إلى العمرة !

ردت و هي تسب سائقا طائشا:

ـ هي بدورها تريد أن تراك !

فلم يجد غير أن يقول لنفسه:

ـ لا ينبغي أن أنسى إطفاء الفيوز!

ـ و يجب أن أقدمك إلى أصدقائي الآخرين، سنبدأ بزينب وإبراهيم!

لم يسمعها لأنه كان يردد:

ـ لا ينبغي أن أنسى الفيوز، يجب أن أتخلص من هذه اللحية كذلك!

الفهرست

* شجرة الخلاطة 5
* خميل المضاجع 85
* نساء آل الرندي........................ 271

صـدر عن

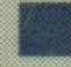


وزارة الثقـافـة

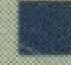
الأعمال الكاملة
الميلودي شغموم

الروايات

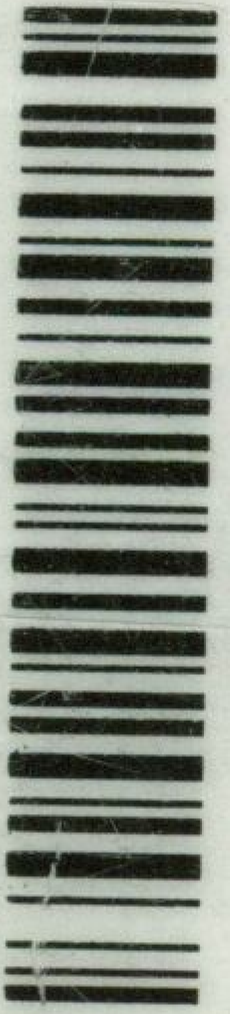
الجزء الأول



الجزء الثاني



الجزء الثالث



الثمن :
45 درهما